مكتبة الجاحظ
أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
١٥٠ - ٢٥٥

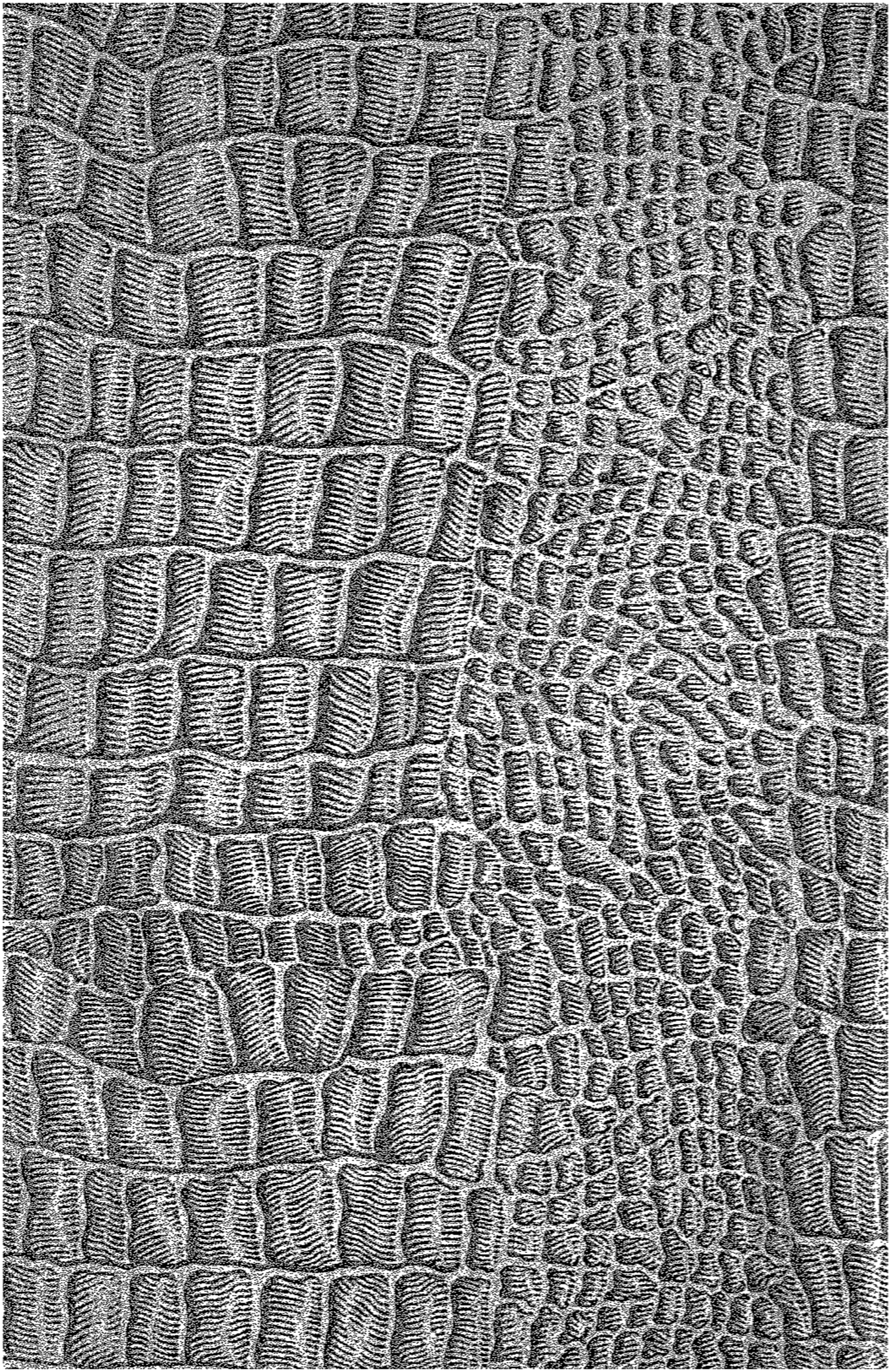
بتحقيق وشرح
عبد السلام محمد هارون

الكتاب الأول

الحيوان

الجزء الأول

مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر



تقديم مكتبة الجاحظ

عَمَرَ اللهُ باليقين قلبَك ، وأفاض عليك مِنَ الخير ، وعقَد بيننا وبينك سبباً من الرِّضا ، وحبَّب إلينا كما حبَّب إليك الحقَّ ، وأمتعَ عينَك وقلبَك ، بما سيطالعك من عَجَبِ الجاحظ ، وما افتنَّ فيه وأبدع ؛ وأضفى عليك البشاشةَ ، وأسبغ ظلَّ العافية(١) .

١ — بيان الجاحظ

وبعد فالجاحظُ إمامٌ فذٌّ من أئمة البيان في العربيَّة ، وليس من الإسراف والمغالاة أن نعدَّهُ زعيمَ البيانِ العربيّ ، نطلق القولَ في ذلك إطلاقا .

هو زعيمٌ للبيان العربيِّ في قوَّته وأسره ، وفي دقَّته وصحَّته ، وحلاوته وجمالِه وفنِّه .

كان الجاحظ زعيماً للبيان العربيّ ، وهو كذلك أحد زعماء المكتبة العربيَّة ، التي كانت في الصدر المقدَّم من مكتبات الدنيا ، فيما أسدتْ للإنسانية والفكر العربيِّ واللِّسان العربيِّ من خَير ، وما بسطتْه على ظلام المدنيات المتهافتة من نور .

٢ — عصر الجاحظ

كان الجاحظ في العصر الذهبيّ للأمة العربية : عصر هارون والمأمون ؛ والعلومُ والآدابُ والفنون يومئذٍ تزخر بها معاهد البَصرة وبغدادَ والكوفةِ

(١) للجاحظ مذهب في البيان ، من سار في أوله دفعه الإعجاب إلى أن يحاول السلوك إلى غايته . وقد أبى عليّ فضله ، إلا أن أجعل صدر تقديمي له في مثل صورة بيانه .

وقُرطبةَ ، وسائرِ عواصمِ الإسلام ، وكان المعين فيّاضاً مُترَعاً ، والعقولُ فى نشاط وفَورة ، والتّأليفُ والتَّرجمةُ لهما دَوِىّ النّحل فى كلّ صُقع . الدّينُ يدعو إلى العلم والنُّور ، والمالُ تلمع وجوهُه فى عيونِ أهلِ الفضل ، فيُذكى العزائمَ ، ويُبرِم المَعْقد . والعلمُ وَلودٌ ، وصاحبُه كلّما ارتوى منه عادَ به فى سبيلِ الظّمأ ، وحينًا شبِــع منه رجع به فى سبيل الجوع .

٣ ـ التأليف فى عصر الجاحظ

عاصر الجاحظُ ثلاثةً ممّن ضربوا بسهمٍ كبيرٍ فى وفارةِ الإنتاج الفكرى والتأليف ، واستوَوْا على غايةٍ قصّر عنها من عداهم :

أحدهم : أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنّى (١١٠ ـ ٢٠٩) ، وكان من أهل البصرة ، وُلد وتوفّى بها[١] . قال صاحب الوفيات : « وتصانيفه ، تقارب مائتى مصنف[٢] » . وقد سرد منها ابن النديم فى فهرسه مائة وخمسة[٣] ، وقال فيه الجاحظ : « لم يكن فى الأرض خارجىٌّ ولا جَماعىٌّ أعلمُ بجميعِ العلم منه[٤] » .

والثانى : أبو الحسن علىُّ بن محمّد المدائنىُّ (١٣٥ ـ ٢٢٥) له نحو مائتين وأربعين مصنفاً ، على ما أحصيت فى فهرس ابن النديم ، وقد روى الجاحظُ عنه فى البيان وفى الحيوانِ رواياتٍ كثيرة .

وثالث هذه الجماعة : هشام بن محمد الكلبى الكوفى (٠٠٠ ـ ٢٠٦) عددت كتبَه فى الفهرس فألفيتُها نحو مائة وتسعةٍ وثلاثين مؤلفاً[٥] .

---

(١) جلس إليه الجاحظ كما فى البيان (٣ : ٢٠٦) .
(٢) الوفيات (٢ : ١٠٦) .
(٣) الفهرس ٧٩ مصر ، ٥٣ ليبسك .
(٤) البيان للجاحظ (١ : ٢٢٤) .
(٥) ١٤٧ مصر ، ١٠١ ليبسك . ولم يمكنى تحديد العدد فى هذا الموضع والذى قبله لمرونة عبارة ابن النديم .

كان للجاحظ فى هؤلاء الرّهط أسوةٌ ، وحافزٌ فى المسابقة والمنافسة ، إلى ماوهبه الله من لَسَنٍ واقتدار ، ومن ذكاء خارق ونَفاذ ، وذاكرة — فى العلم — قوية[1] ، واستهتار بالمعرفة والتبيُّن .

حدّث أبو هفّان[2] قال : « لم أر قطُّ ولا سمعتُ مَن أحبَّ الكتبَ والعلومَ أكثرَ من الجاحظ ، فإنّه لم يقع بيده كتابٌ قطُّ ، إلاّاستوفى قراءتَه ، كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكترى دكاكين الورّاقين ، ويثبت[3] فيها للنّظر » .

وللجاحظ فى صدر الجزء الأول من الحيوان ، نعتٌ للكتب ، يقع منه الدّليلُ على ما ملأ الله به صدرَ هذا الرَّجلِ من إيمانٍ بما للعلم والكتاب من شرفٍ وجاه ، وما للتفهُّمِ والقراءة من مكانٍ عالٍ ، ومنزل كريم .

والعجَبُ أنَّ تلك الأسفارَ الّتى عُنى بها صاحبُنا ، لم تبرَّ به ولم تبادلْه الوفاء ، فغَدرتْ به . « وكان موته بسقوط مجلَّدات العلم عليه[4] ! ! » .

٤ — مؤلفات الجاحظ

خرج الجاحظُ عن زُهاء ثلاثمائة وستّين مؤلَّفاً فى ألوانٍ شتّى من المعرفة، رأى أكثرها فى مشهد أبى حنيفة النعمان ببغداد ، سبطُ ابن الجوزى[5] المتوفَّى سنة ٦٥٤ .

---

(١) ذكر الجاحظ كما فى تاريخ بغداد (١٢ : ٢١٤) ومعجم الأدباء (٦ : ٥٦) مرجليوث أنه نسى كنيته ثلاثة أيام ثم ذهب إلى أهله فقال بمَ أكنى ؟ فقالوا : بأبى عثمان !! وهكذا طغت ذاكرته فى العلم على ذاكرته فى غيره .

(٢) كان أخباريا راوية مصنفا . الفهرس ٢٠٧ مصر ، ١٤٤ ليبسك .

(٣) فى الأصل : « يبيت » .

(٤) شذرات الذهب (٢ : ١٢٢) .

(٥) مرآة الزمان الورقة ٥٨ من المجلد الثالث من الجزء العاشر (مصورة دار الكتب=

ذاك أقصى تقدير وصلت إليه كتب الجاحظ ، الذى يقول فيه المسعودى[1] : « ولا يعلم أحدٌ من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً منه » . على أنّ أدنى ماتنزلُ إليه فى التقدير ، أن تكونَ مائةً ونيّفاً وسبعين كتاباً . قال ابن حجر فى لسان الميزان[2] : « وسرد ابنُ النّديم كتبه ، وهىَ مائة ونيّف وسبعون كتابا » .

وياقوت فى معجم الأدباء[3] قد ذكر فهرست كتبه ورسائله ، فأثبت منها مائةً وثمانية وعشرين مصنفاً .

وليس بنا أن نحقق مبلغَ عددِ هذه الكتب ، ولكنّ ما نريد أن نقول : إنّ الجاحظ فى الرّعيلِ الأول من مؤلفى عصرِه وكتّابه .

والآن نسْأل : أين ذهبت هذه الكتبُ جميعاً ، وفى أىّ مطْرح طوّح بها الزّمان ! ! لقد ضرب الدّهرُ على كثيرها ، فعادت فى مثل صنعة الساحر ، لمعتْ حيناً ثم انكفأت .

أفنقول : إنّ أعاصيرَ الخلافِ المذهبىّ عصَفَتْ بها ، فلم ضاعتْ آثارُ غيرِه من أهل السنّة والجماعة ؟ !

الحقُّ أنّ الجمودَ الذهنىّ وهبوطَ الهمم ، كان لهما معظم الأثر فى ضياع هذه النفائس وفقدِها ، والحقُّ أنّ الفوضى السياسيّةَ التى مُنيت بها الأممُ الإسلاميةُ فى مَسائها الأول ، والتى كانت قائمةً — فى أكثر ما تقوم — على التدمير والتخريب والانتقام — جعلت تهدم فى هذا الصّرح الفكرى ، حتى أتت على كثيرٍ من قواعده ، ولم تُبقِ إلا وشلاً من محيط ! !

= المصرية). والنص فيها: «أما مصنفاته فثلثمائة وستون مصنفا ، ووقفت على أكثرها فى مشهد الإمام أبى حنيفة» .

(١) فى مروج الذهب (٤ : ١٣٥) .

(٢) لسان الميزان (٤ : ٣٥٧) .

(٣) معجم الأدباء (٦ : ٧٥ — ٧٨) مرجليوث .

ومهما أحزننا فقدُ كثيرٍ من آثار الجاحظ ، فإنَّ ممّا يجلب إلينا العزاء ، أن تبقىَ الأيّامُ منها قدراً لايستهان به ولابنفاسته ، قد سار بعضُه بين الأدباء فكان له فضلٌ كبير فى تقويم ألسنتهم وتأدُّبهم ، وحمتْ بعضَه الآخرَ خزائنُ متناثرةٌ فى أرجاءِ المعمورة ، سأعمل جهدى على إخراج ما يمكن منها ، بعون الله ، ما مُدَّ لى فى الحياة .

٥ — ابن النديم والجاحظ

والعجَب أن الناظر فى فهرس ابن النديم يكاد لا يرى فيه شيئاً عن الجاحظ ، إلا عرَضاً واستطراداً ، مع أن ابنَ النّديم كان من أساطين الوراقة ، وأبرعَ مختصٍ بفن الكتب والمكتبات .

لقد عجبت ، ووجدت شيخ العروبة وفقيدها « أحمد زكى باشا » قد سبقنى بهذا فى أثناء تحقيقه لكتاب التاج ، وكشف السرَّ عن ذلك ، بما أقام من دليل قاطع ، أن النسخة المطبوعة من الفهرس مبتورة ناقصة(١) . وقد أسلفتُ قريباً(٢) نصًّا من لسان الميزان ، يؤيد ماذهب إليه شيخ العروبة .

٦ — منحى الجاحظ فى التأليف

صنع الجاحظ هذه الكتبَ جميعاً . ولم يكن همُّه همَّ غيره من المؤلِّفين ، فى الجمع والرِّواية والحفظ ، وإنَّما كان وُكدُه أن يبتكرَ وأن يُطرف ، وأن يخلُق للنَّاس بديعاً ، يمسح على جميعها بالدُّعابة والهزْل ، ويُشيع الفكاهة

---

(١) مقدمة التاج ٤٣ — ٤٤ .

(٢) انظر ص ٦ من هذا التقديم .

فى أثناء الكلام . فجمع بذلك قلوبَ القارئين إليه ، واستولى منهم بذلك على شتَّى ميولهم إلى ما يكتب ، فصَبَوْا إليه وأغرموا به غَراما !

وطرق الجاحظُ فى كتابته أبواباً عجيبة ، وتقرَّب إلى العامّة[1] وحَرَص أشدّ الحرْص على استرضائهم . ولم ينسَ فى ذلك أن يستميل إعجاب الخاصة فى المعارف العالية ، والسياسات الرفيعة .

٧ — قيمة كتب الجاحظ

قال أبو حيّان[2] : « ومن عجيب الحديث فى كتبه ، ما حدّثنا به علىٌّ ابن عيسى النحوىُّ الشيخ الصالح . قال : سمعتُ ابن الأخشاد شيخَنا أبا بكر يقول : ذكر أبو عثمان فى أول كتاب الحيوان أسماء كتبه ، ليكون ذلك كالفهرست . ومرّ بى فى جملتها : **الفرق بين النبى والمتنبى** ، وكتاب **دلائل النبوة** وقد ذكرهما هكذا على التفرقة ، وأعاد ذكر **الفرق** فى الجزء الرابع[3] لشىء دعاه إليه . فأحببتُ أن أرى الكتابين ، ولم أقدرْ على واحدٍ منهما . وهو كتاب **دلائل النبوة** ، وربما لُقِّب بالفرْق خطأ . فهمَّنى ذلك وساءنى ، فى سوء ظفرى به . فلمّا شخَصت من مصرَ ودخلتُ مكّة —

---

(١) قال الجاحظ فى البيان (١ : ١٠٥) : « وإذا سمعتمونى أذكر العوام فإنى لست أعنى الفلاحين والحشوة ، والصناع والباعة ،ولست أعنى الأكراد فى الجبال، وسكان الجزائر فى البحار ، ولست أعنى من الأمم مثل البير والطيلسان، ومثل موقان وجيلان، ومثل الزنج وأمثال الزنج . وإنما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع : العرب وفارس ، والهند ، والروم ، والباقون همج وأشباه الهمج .
وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا فالطبقة التى عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم ، ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا » . فهذا ما يعنى الجاحظ بهذه الكلمة .

(٢) انظر معجم الأدباء (٦ : ٧٢ — ٧٣) مرجليوث .

(٣) الحيوان (٤ : ١٢٢) س ١٤ .

ـ حرمها الله تعالى ـ حاجًّا ، أقمت منادياً بعرفاتٍ ينادى ـ والناسُ حضورٌ من الآفاقِ على اختلاف بُلدانهم وتنازُح أوطانهم ، وتباينُ قبائلهم وأجناسهم ، من المشرق إلى المغرب ، ومن مهبِّ الشَّمال إلى مهبِّ الجنوب ، وهو المنظر الذى لايشابهُهُ منظر ـ: رحم الله من دلَّنا على كتاب **الفرق بين النبي والمتنبي** لأبى عثمان الجاحظ ، على أى وجه كان !

قال : فطاف المنادى فى ترابيع عرفات وعاد بالخيبة وقال : حجّت الناس مِنّى ولم يعرفوا هذا الكتاب ، ولا اعترفوا به !

قال ابن الأخشاد : وإنما أردت بهذا أن أُبْلِغ نفسى عذرَها » .

قال ياقوت : « وحسبك بها فضيلةً لأبى عثمانَ ، أن يكون مثلُ ابنِ الأخشاد ـ وهو من هُو ، فى معرفة عُلوم الحكمة ، وهو رأسٌ عظيم من رءوس المعتزِلة ـ يُستهام بكتب الجاحظ حتى ينادى عليها بعرفات والبيت الحرام . وهذا الكتاب موجودٌ فى أيدى النَّاس اليوم لا تكاد تخلو خزانةٌ منه . ولقد رأيت أنا منه نحو مائةِ نسخةٍ أو أكثر » .

والمسعودى ، وهو ممن يُعدُّ فى خصوم الجاحظ ، يقول فى مروج الذهب[1] فى نعت كتب الجاحظ : « وكتب الجاحظ مع انحرافه المشهور[2] ، تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ؛ لأنّه نظَمَها أحسنَ نظْم ، ورصَفها أحسنَ رصْف ، وكساها من كلامه أجزَلَ لفظ . وكان إذا تخوَّفَ ملَلَ القارئ ، وسآمةَ السَّامع ، خرج من جِدٍّ إلى هزْل ، ومن حكمةٍ بليغةٍ إلى نادرة طريفة . وله كتُب حِسان ، منها كتاب البيان والتبيين ، وهو أشرفها ؛ لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم ، وغُرر الأشعار ، ومستحسن الأخبار ، وبليغ الخطب ؛

---

(١) مروج الذهب (٤ : ٤٧) .

(٢) يريد ما كان عليه من الاعتزال وعداوة الشيعة ، وكان المسعودى شيعيا .

مالو اقتصر عليه مقتصرٌ لاكتفى به ، وكتاب الحيوان ، وكتاب الطفيليين والبخلاء . وسائر كتبه فى نهاية الكمال ، مالم يقصد منها إلى نصب ، ولا (صوابها أو) إلى دفع حقّ » .

وهذا حديث آخر ، تعرف به مكانة كتب الجاحظ ، وما أدركت من شأو وغاية :

قال أبو القاسم السيرافى[1] : « حضرْنا مجلسَ الأستاذ أبى الفضل ابن العميد ، فجرى ذكرُ الجاحظ ، فغضَّ منه بعضُ الحاضرين ، وأزرى به ، وسكت الوزيرُ عنه . فلمَّا خرج الرَّجلُ قلت له: سكتَّ أيُّها الأستاذُ عن هذا الرَّجلِ فى قوله ، مع عادتِك فى الردِّ على أمثاله ! فقال : لم أجدْ فى مقابلته أبلغَ من تركه على جهله . ولو واقفتُه وبيَّنْتُ له ، لنظر فى كتبه وصار بذلك (إنساناً) يا أبا القاسم . فكتُب الجاحظِ تعلِّم العقلَ أوَّلاً ، والأدبَ ثانياً ! ! ولم أستصلحه لذلك » .

والخليفة المأمون العباسى ، كان من قُرَّاء الجاحظ ، ومن المقدِّرين لعلمه وفضْله فى كتبه .

قال الجاحظ — وهو يسرد طائفة من بلاغات المأمون[2] : « ولما قرأ المأمون كتبِى فى الإمامة ، فوجدها على ما أمر به ، وصرتُ إليه — وكان قد أمر اليزيدى بالنَّظر فيها ليخبره عنها . قال لى : قد كان بعضُ مَن نرتضى عقله ، ونصدِّق خبره ، خبَّرنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة وكثرة الفائدة فقلت : قد تُربى الصِّفةُ على العِيان فلما رأيتها رأيت العِيان قد أربَى على الصِّفة ، فلما فَلَيتُها أربَى الفلى على العِيان ، كما أربى العِيان على الصِّفة ! ! » .

---

(١) الحديث فى وفيات الأعيان (١ : ٣٨٩) .

(٢) البيان (٢ : ١١ ٢) .

٨ - ذيع كتب الجاحظ

وكانت كتب الجاحظ تذيع وتنتشر، وتطير إلى الآفاق ، فى حياته ، للرّغبة الملحة فيها ، ولحرص الناس على ما فيها من خير كثير .

وإليك صورةً تُنبيك عن مبلغِ هذا الذّيع ، وتَقِفُك على مقداره :

روى الخطيب البغدادىُّ فى كتابه [1] عن يحيى بن علىّ ، أنه قال : حدثنى أبى قال : قلت للجاحظ : إنى قرأت فى فصل من كتابك المسمّى كتاب البيان والتبيين [2] : إن ممّا يستحسن من النّساء اللحنَ فى الكلام ، واستشهدتَ ببيتى مالك بن أسماء - يعنى قوله [3] :

وحـــديث ألذُّه هو ممّا ‏ ‏ ‏ يَنْعَتُ النّاعِتُونَ يُوزَنُ وَزْنا

منطق صائب وتلحَن أحيا ‏ ‏ ‏ نًا وخَير الحديث ما كانَ لحنا

قال : هو كذاك . قلت : أفما سمعتَ بخبر هندٍ بنت أسماء بنِ خارجة مع الحجاج ، حين لحنت فى كلامها ، فعاب ذلك عليها فاحتجّت ببيت أخيها ، فقال لها : إن أخاك أراد أن المرأة فَطِنة ، فهى تلحن بالكلام إلى غير المعنى فى الظّاهر ، لتستر معناه وتورّىَ عنه ، وتُفهِمه من أرادت بالتّعريض ، كما قال الله تعالى : ﴿ولتعرِفنّهُمْ فى لَحْنِ القَوْلِ﴾ ولم يُرد الخطأ من الكلام . والخطأ لا يُستحسَن من أحد ؟ ! فوجم الجاحظ ساعة ثم قال : لوسقط إلىّ هذا الخبرُ لما قلت ما تقدم ! فقلت له : فأصلحه . فقال : آلآن وقد سار الكتاب فى الآفاق ! ! هذا لا يصلح ! » .

---

(١) تاريخ بغداد (١٢ : ٢١٤) وانظره كذلك فى معجم الأدباء (٦ : ٦٥) مرجليوث .

(٢) انظر البيان (١ : ١١١) .

(٣) فى استملاح اللحن من بعض نسائه .

وصورةٌ أخرى(١) : قيل لأبي هفّان وقد طال ذكر الجاحظ لأبي هفان ـ : لِمَ لا تهجو الجاحظ ، وقد ندَّد بك ، وأخذ بمخنَقِك ؟ ! فقال : أمثلي يُخدَع عن عقله ؟ ! والله لو وَضَع رسالةً في أرنبة أنْفي ، لما أمْسَت إلا بالصِّين شهرة !

على مثل ذلك كانت كتبُه تغزو الآفاق ، وتطيرُ في الدُّنيا ، إلى أن كُتب لها ما كُتب .

٩ ـ ورّاق الجاحظ

لم يكن بدٌّ للجاحظ ، وقد منحه الله في القراءة والتأليف ، اقتداراً نادراً وصبراً عجيباً ، من أن يستعين بمن يأنس فيه العون ، ليتمكَّن من تحقيق مطمحه ، فكان له ورّاق(٢) خاصٌّ ، يكتب له ويكتب عنه .

عثرت على اسم هذا الورّاق في موضعين : أحدهما أمالي القالي(٣) حيث نجد هذا النص : وقرأت على أبي بكر بن دُريد ، لليلى الأخيلية ـ وقال لي : كان الأصمعيُّ يرويها لحميد بن ثور الهلالي ـ قال أبو علي : فكذا وجدته بخط ابن زكريا « ورّاق الجاحظ » في شعر حميد :

يأيها السَّدِم الملوِّي رأسـه ليقود من أهل الحجاز بريما »

والموضع الثاني : معجم الأدباء(٤) ، حيث ذكر ياقوتُ كتابي « النساء »

---

(١) معجم الأدباء (٦ : ٧١) مرجليوث .

(٢) ما كان أجدر بهذه الكلمة أن تستعمل في معنى « السكرتير » التي حيرت اللغويين .

(٣) أمالي القالي (١ : ٢٤٨) .

(٤) معجم الأدباء (٦ : ٧٥) مرجليوث .

و « النمل » وقال : « قال ابن النَّديم : ورأيت أنا هذين الكتابين بخطّ زكريَّاء بن يحيى ، ويكنى أبا يحيى ، ورّاق الجاحظ » .

وقد عرّف ابن النَّديم باسم ذلك الوراق فذكر والده وكنيته ، على حين ذكره القاليُّ غُفلاً ، ممّا يرجّح لدينا أنْ يكون الصواب في اسم هذا الورّاق ، ما نقل ياقوتٌ عن ابن النَّديم .

تقديم كتاب الحيوان

١ – كتب الحيوان

سبق اليونانيُّون أسلافَنا العرب ، إلى التَّأليف فى علم الحيوان . قال صاحب كشف الظنون فى حديثه عن علم الحيوان[١] : « وفيه كتبٌ قديمة وإسلامية : منها كتاب الحيوان لديمقراطيس ، ذكر فيه طبائعه ومنافعه . وكتاب الحيوان لأرسطاليس ، تسع عشرة مقالة ، نقله ابن البطريق من اليونانى إلى العربى . وقد يوجد سريانيًّا نقلاً قديماً ، أجود من العربى . ولأرسطو أيضاً كتاب فى نعت الحيوان الغير الناطق ، وما فيه من المنافع والمضارّ » . وذكر بعد ذلك كتاب الحيوان للجاحظ ، ومختصره لأبى القاسم هبة الله بن القاضى الرشيد جعفر المتوفى سنة ٨٠٦ ، وللموفق البغدادى أيضاً.

ونستطيع أن نقول : إنَّ الجاحظَ أوّلُ واضعٍ لكتابٍ عربىٍّ جامعٍ فى علم الحيوان . وقد كان قبلَه وفى عصره محاولاتٌ شتَّى لطائفةٍ من العلماء ، يتحدَّثون فيها عن الحيوان ، نذكر منها :

كتب الإبل

لأبى حاتم السِّجِستانى (٠٠٠ – ٢٤٨) ، وللأَصمعىّ (١٢٢ – ٢١٦) ، ولأبى عُبيدة (١١٠ – ٢٠٩) ، وللنَّضر بن شُميل (١٢٢ – ٢٠٣) ،

---

(١) كشف الظنون (١ : ٤٥٦) .

ولأبى زيادٍ الكلابى[1] ، ولأحمد بن حاتم الباهلىّ (٠٠٠ ــ ٢٣١) .

كتب الخيل

لابن قُتيبـــة (٢١٣ ــ ٢٧٦) ، وابن الأعرابى (١٥٠ ــ ٢٣١) ، وأبى عُبيدة ، وأبى جعفر محمَّد بن حبيب البغدادىّ (٠٠٠ ــ ٢٤٥) ، وأبى محلِّم محمّد بن هشام الشيبانىّ (٠٠٠ ــ ٢٤٥) ولأحمد بن حاتم .

كتب الغنم والشاء

لأبى الحسن الأخفش (٠٠٠ ــ ٢١٥) ، والنَّضر بن شميل ، وللأَصمعىّ .

كتب الوحوش

للأَصمعى ، ولأبى زيد أستاذ الجاحظ (١١٩ ــ ٢١٥) ولأبى حاتم السِّجستانىّ .

كتب الطير

لأبى حاتم السجستانىّ ، والنَّضر بن شميل ، وأحمد بن حاتم الباهلىّ .

كتب البازى والحمام والحيات والعقارب

لأبى عبيدة .

---

(١) اسمه يزيد بن عبد الله بن الحر ، أعرابى بدوى . قال دعبل : قدم بغداد أيام المهدى حين أصابت الناس المجاعة ، ونزل قطيعة العباس بن محمد فأقام بها أربعين سنة ، وبها مات . وكان شاعرا من بنى كلاب . ابن النديم ٦٧ مصر ، ٤٤ ليبسك .

كتاب الفرس

للأصمعى .

كتابا النحل والحشرات

لأبى حاتم السجستانى . وللأصمعىّ كتاب فى النّحل والعسل[1]

☆

وهذه الكتب لم تؤلَّفْ للقصد العلمىّ الخالص ، وإنما أريد بها أن تكون باحثةً فى اللُّغة أوّلاً ، فهى بمثابة مُعجماتٍ لغويّة خاصّة بما أُلِّفت له ، فهى لا تبحث فى طبع الحيوان وخصائصه بحثاً ، ولا تعنى بدقائقه وغرائزه وأحواله وعاداته ، وإنّما تجعل همَّها الأوّلَ والثانىَ هو اللغة ، وقد يكون منها أن تبحث البحثَ العلمى ، ولكن على سبيل الاستطراد ومشايعة القول .

وأسوق إليك نموذجاً من نصوص تلك الكتب ، لتنكشف أمامك صورةُ ما أسلفت .

فهذا أوّلُ كتاب الإبل للأصمعى[2] :

« قال أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيبٍ الأصمعىّ : أجودُ وقتٍ يُحمل فيه على النَّاقةِ أن تُجَمَّ سنةً ويحملَ عليها . فيقال : قد أُضربت الفحلَ ، وأُضْربَها الفحلُ . فإذا حمل عليها فى كلّ عام فذلك الكِشاف . يقال ناقة كَشُوفٌ ، وقد أَكشَفَ بنو فلان العامَ فهم مُكشِفون : إذا لقحتْ إبلُهم على هذا الوجه . قال رؤبة :

---

(١) اعتمدت فى استخراج هذه الكتب على وفيات الأعيان ، وبغية الوعاة ، ونزهة الألباء ، وفهرس ابن النديم ، وكشف الظنون ، ومعجم الأدباء .

(٢) ص ٦٦ ـ ٦٧ من مجموعة الكنز اللغوى المطبوع فى بيروت ١٣٢٢ .

* حربٌ كشافٌ لقحت إعثاراً *

وإليك نصًا آخر من خلاله[1] :

« ومما يذكر من ألوان الإبل ، يقال بعير أحمر وناقة حمراء وإذا بُولغ في نعت حُمرته قيل : كأنه عِرْق أرطاة . ويقال أجلَدُ الإبلِ وأصبَرُها الحُمْر . فإذا خَلَط الحمرةَ قُنوء فهو كُميت . فإذا خلطَ الحمرةَ صفرةٌ قيل : أحمر مدَمّى . قال حُميد بن ثَور :

وصار مدمَّاها كُميتاً وشُبّهت قروحُ الكُلى منها الوِجارَ المهدَّما»

وهذا آخر كتاب الإبل للأصمعي[2] :

« أسماء عدد الإبل : الذَّود : ما بين الثلاثة إلى العشرة . والصِّرمة القطعة التي ليست بالكثيرة . والصُّبَّة : فوق ذلك إلى العشرين إلى الثلاثين ، إلى الأربعين .

والعَكَرة : إلى الخمسين ، إلى السّتّين إلى السّبعين .

والهجْمة : المائة وما داناها . والهُنيدة : مائة . والعرْج : الإبل إذا كثرت فبلغت مائتين قيل عرج والبَرْك : إبل القوم جميعاً ، التي تروح عليهم . قال متمِّم :

ولا شارف جشاء ريعتْ فرجّعتْ حنيناً ، فأبكى شجوُها البركَ أجمعا

٢ — كتاب الحيوان للجاحظ

هذه صورة من صور كتب القوم في الحيوان . أمّا الجاحظ فأمامك

---

(١) ص ١٢٧ من الكتاب السابق .

(٢) ص ١٥٧ . وكتاب الوحوش للأصمعي طبع في فينا سنة ١٨٨٨ ، والخيل له في فينا ١٨٩٥ ، والشاء له في بيروت ١٨٩٦ .

كتابهُ ، ينطقُ بين يديك بالقصد العلمي التفصيلي للحيوان جميعاً ، ولكلِّ مملكةٍ من ممالكه ، ولكلِّ جنسٍ من أجناسه . وهو فضلٌ للجاحظ على جميع من سبقه أو عاصره ممَّن كتب في الحيوان . وإن أعوزه بعضُ الترتيب والتهذيب فهو شأنُ كلِّ كتابةٍ جديدة ، في أمرٍ متشعِّبِ الأطرافِ ممدودِ النواحي .

٣ — مرجع الجاحظ في تأليف الحيوان

والآن نسأل : ماذا كان مرجع الجاحظ في هذه الموسوعة العظيمة ، وأين أصاب هذا الفيض المتدافع ؟

لقد استفتيت كتاب الحيوان نفسَه ، بإدمان قراءته ، وتقليب صفحاته ، فوضح لي أنَّ صاحبَه اعتمد في تأليفه على أمور خمسة رئيسة :

أولها : الينبوع الذي لا ينضب من القرآن وحديث الرسول .

والثاني : وعليه كان أكثر اعتماده — : (الشعر العربي) فالشعر العربيُّ وبخاصةٍ البدويُّ منه ، قد تحدَّث عن الحيوان حديثاً طويلا ، تحدَّث عن الأنيس منه ولم يهمل الوحشيَّ ، بل أشرك بين هذا وذاك .

فالعرب تحدَّثوا عن الإبل في شعرهم وأطالوا الكلام ، تحدَّثوا في نعتها فلم يذَرُوا دقيقةً من دقائقها ، وتكلَّموا في حملها ونتاجها ، ورأْمها وحنينها ، وحلْبها وألبانها ، وألوانها ونِجارها ونسبها ، وأصواتها ودُعائها ، ورعيها وشربها وسَيرها وسُراها[1] .

وكان لهم في الخيل نعتٌ مفصَّل ، وعنايةٌ بمثل ما اعتنَوْا به في الإبل .

---

(١) مما أقوم به الآن إعداد كتاب يبحث في أثر الإبل في حياة العرب وأدبهم ولغتهم ، أرجو الله العون في إتمامه .

ووفَوا كذلك لكلابهم وشائهم . ونكاد لا نجد قصيدة معدودةً للعرب إلاّ وللحيوان الأنيس فيها شأن .

أما الوحشيّات ـ وفلواتُهم مواطنُ غنيّةٌ بها ـ فلم يُغفلوها ونطق شعرهم بالأسد[1] ، والنَّمِر ، والذئب[2] ، والثعلب ، والضبّ ، وغيرها .

وذكروا من الطيور النُّسورَ والعِقبان والرَّخَم ، والحِدأ والقطا والحَجَل .

ولو أردتُ أن أستقصيَ سائرَ ما نعتوا من الحيوان ، فى شعرهم وحَديثهم وأسمارهم ـ ما استطعتُ . ولو استطَعْتُ لامتدَّ القول وفاض .

والجاحظ يرى أنَّ العرب ـ والأعراب منهم خاصة ـ قد ثَقِفوا معرفة الحيوان ، وبرعوا فى ذلك البراعةَ ، واستوعبُوا حالَه وعادَه . وهو يقول فى ذلك[3] :

« وقلَّ معنًى سمعنَاه فى باب معرفة الحيوان من الفلاسفة وقرأناه فى كتب الأطباء (والمتكلّمين) إلا ونحن قد وجدناهُ أو قريباً منه فى أشعار العرب والأعراب » .

وقال فى الكلام على السِّباع المشتركة الخَلْق[4] : « وقد ذكرنا منها ما كان مثل الضَّبع والسِّمع والعسبار ؛ إذ كانت معروفةً عند الأعراب ، مشهورة فى الأخبار ، منوَّها بها فى الأشعار » .

---

(١) أشهر عربى وصف الأسد هو أبو زبيد الطائى . انظر خبره فى الأغانى وطبقات ابن سلام ومعجم الأدباء .

(٢) كانوا يفخرون أحيانا باشرا كهم الذئب فيا يطعمونه . وممن عرف بذلك الفرزدق . وله خبر مع الذئب فى إطعامه لحم شاة له . خمسة دواوين العرب ١٦٠ .

(٣) الحيوان (٣ : ٨٣) ساسى .

(٤) الحيوان (٦ : ٩) ساسى .

وهو يُظهر السَّببَ فى جَودةِ معرفةِ الأعرابِ للحيوان ، بقوله[1] :

« وربّما ، بل كثيراً ما يُبْتلَوْن بالنّاب والمخلب ، واللّدْغ واللّسع ، والعضّ والأكل . فخرجت بهم الحالُ إلى تعرُّف حالِ الجانى والجارح والقاتل ، وحالِ المجنىّ عليه والمجروح والمقتول ، وكيف الطّلَبُ والهرب ، وكيف الدّاء والدّواء ؛ لطول الحاجة ، ولطول وقوعِ البصر . مع ما يتوارثون من المعرفة بالدّاء والدّواء » .

والكتابُ مفصَّل بكثير من الشعر العربى ، موشَّع بعيون ما نظم العرب والأعراب فى الحيوان من شعر .

وللجاحظ ثقة تامة فى الشِّعر العربى ، فهو يصدِّره فى الردّ على أرسطو ، ويحتجُّ به عليه . قال بعد أن سرد قول أرسطو فى عقوق العُقاب[2] : « هذا قول صاحب المنطق فى عقوق العقاب وجفائها لأولادها .

فأمّا أشعار العرب فهى تدلّ على خلاف ذلك . قال دريد بن الصّمّة :

وكلّ لجـــوج فى العناق كأنها إذا اغتمست فى الماء فتخاء كاسرُ
لهـا ناهض فى الوكر قد مَهَدَتْ له كما مَهَدَتْ للبعْلِ حسناء عاقرُ »

☆

والمادة الثالثة من مواد الكتاب ، هى (كتاب الحيوان لأرسطو[3]) . وقد نقل عنه الجاحظ نصوصاً ليست من الكثرة بمكان ، ولكنها من القيمة والنّفاسة بمكان عظيم .

وصاحبنا رجلٌ جرىء العقل ، عنيفُ الفكر ، فهو لايقبل هذه النّصوصَ

---

(١) الحيوان (٦ : ٩) ساسى .
(٢) الحيوان (٧ : ١٤) ساسى .
(٣) سبق التعريف بهذا الكتاب ص ١٤ .

بعلّتها ، بل يطرحها على الممتحَن ، ولا يطأطئ بفكره لها ، وإنما يصعد به عالياً ليرى وجه الحق فيها ، وقلَّما ترك واحداً منها إلاّ تكلم فيه ، وعرضَه على الحجّة .

فمن ذلك ما قال[1] : « وقد ذكر صاحبُ المنطق أنّه قد أبصر ثوراً وثب بعد أن خصى ، فنزا على بقرة فأحبلها » وعقب ذلك بقوله : « ولم نجد هذا عن معاينة ، والصدور تضيق بالردِّ على أصحاب النظر ، وتضيق بتصديق هذا الشكل » .

ذلك . وقد رأيت فى الكلام الذى أسلفتُ ، ردّه عليه بالشعر العربى .

وقال أرسطو فى الفيل[2] : « هو أجرد الجلد ؛ فلذلك يشتد جزعه من البرد » فقال الجاحظ : « فإن كان أجرد الجلد ، فما قولهم فى أحاديثهم ، طلبوا من الملك الفيل الأبيض ، والفيلَ الأبقع ، وجاء فلانٌ على الفيل الأسود ؟ ! » .

وقال الجاحظ فى ردّه على أرسطو[3] : « وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل . وما يليق بمثله أن يخلد على نفسه فى الكتب شهاداتٍ لا يحققها الامتحان ، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء » .

وأحياناً يعتذر صاحبنا عن أرسطو ، بأن المترجمين لكتابه لم يحسنوا النّقل . ، ولم يتوخوا الدقة والمطابقة . فهو يقول[4] : « ولعل المترجم قد أساء فى الإخبار عنه » ويقول[5] : « فكيف أسكن بعد هذا إلى أخبار البحريِّين

(١) الحيوان (٥ : ١٤٧) ساسى .
(٢) الحيوان (٧ : ٧٠) ساسى .
(٣) الحيوان (١ : ٨٥) ساسى .
(٤) الحيوان (٢ : ١٨) ساسى .
(٥) الحيوان (٦ : ٧) ساسى .

وأحاديث السماكين ، وإلى ما فى كتاب رجل – يعنى أرسطو – لعلّه إن وجد هذا المترجم أن يقيمه على المِصْطبة ، ويبرأ إلى الناس من كذبه عليه ، ومن إفساد معانيه ؛ بسوء ترجمته » .

وله نحوٌ من هذا الكلام فى الردّ على صاحب المنطق فى مواضع أخر من كتابه(١) نكتفى بالإشارة إليها .

❊

والمادة الرابعة من مواد الكتاب ، هى تلك المحاولة ، وذلك (الكلام الذى ولّده المعتزلة) . وقد دفع بهم ذاك التيّار العارم ، إلى مواطنَ شتّى من نواحى الحجاج والجدَل . وكأنّما خلق اللهُ كلّ رجل من أهل الاعتزال لساناً دائب التصرُّف والعمل . فهم إن فرَغوا من الكلام فى الصفات والخالق ، وفى التعديل والتجوير ، وفى الوعد والوعيد ، فزِعوا إلى الكلام فى السّانحة والخاطرة ، وفيما يَظهر للعَين أنّه دَقيقٌ مَهين .

والكتاب معرِض طريفٌ لهذه المنازعات الكلاميّة ولاسيّما الجزأين الأوّلَ والثانى منه . فكثيراً ما يمرُّ على بصرك : « قال صاحب الكلب » و « قال صاحب الديك » و : « قال صاحب الحمام » و . . .

ويبدو أيضاً ، أنّه كان فى عصر الجاحظ نزاعٌ كلامى خاصّ ، فى المقايسة بين الكلب والديك ، يتقدّم الفريقَ الأوّلَ أبو إسحاق إبراهيم النّظام ، ويتزعّم الرّهط الآخر مَعبد(٢) .

كما أنّ بعضَ الناس كانوا ينظرون إلى هذا النّمَط وإلى هذا الضّرْب من الجدل يتداوله اثنان من رؤساء المتكلّمين، بعين الاستغراب والاستنكار .

---

(١) انظر منها الحيوان (٣ : ١٦٢) ، (٤ : ٥٢) ، (٥ :١٥٦) ، (٦ : ٦) ، (٧ : ٤٠) ساسى .

(٢) انظر الحيوان (١ : ١٧٥) ساسى . وانظر كذلك (٢ : ٥٥) .

وقد ردّ عليهم الجاحظ ردًّا مسهباً ، صدَّره بقوله[1] : « فإن قلت : وأى شىء بلغ من قدر الكلب وفضيلة الديك ، حتى يتفرّغ لذكر محاسنهما ومساويهما ، والموازنة بينهما ، والتَّنْويه بذكرهما ، شيخان من علِيَة المتكلّمين ومن الجِلَّة المتقدمين . . . » ثم هو ينشئ بعد ذلك دِفاعاً صادقاً ، يستغرق نحو عشر صفحات . وفيه يحاول أن يقول : إنَّ البحث فى شأن الحيوان ، ضربٌ من ضروب التعبُّد ، ولونٌ من ألوان البحوث الدينية ، التى تنتهى بصاحبها إلى معرفة عظمة الله ، وعظم ما أبدع وبَرَا .

وقد بلغ الأمر بأحد كبار المعتزلة ، فى عنايته بالحيوان والحديث فيه ، أن صنع قصيدتين ، ذكر فيهما الحيوان وعجائبه ، « وجمع فيهما كثيراً من هذه الغرائب والفوائد ، ونبّه بهذا على وجوه كثيرة من الحكمة العجيبة ، والموعظة البليغة[2] » .

ذلك الرجل هو بشر بن المعتمر ، وكان رأساً لفرقةٍ من المعتزلة ، سمِّيت بالبشرية[3] وتوفى سنة ٢١ هـ .

وقد تصدّى أبو عثمان لشرح القصيدتين فى الجزء السادس من الحيوان ، وتكلَّم فيهما كلاما طويلا ، استغرق نحو نصف الجزء .

٭

والمادة الخامسة من موادِّ الكتاب هى تلك الخبرة الشخصية ، وذلك الوَلوعُ الذى كان يدفَع بصاحبنا إلى السؤال ممَّنْ يتوسَّم فيه العلم . وكان الجاحظ

---

(١) الحيوان (١ : ٩٣ – ١٠٤) ساسى .

(٢) العبارة للجاحظ نفسه فى الحيوان (٦ : ٩١) .

(٣) مفاتيح العلوم ١٩ ومعجم الزركلى ١٤٧ .

بطبعه شَعبياً ، مع أنه كان مقرّباً نافذَ الكلمة عند الوزراء والخلفاء[1] . فهو قد جالس الملاّحين مراراً ، وسمع من أحاديثهم . فمن ذلك ما يقول[2] : وسمعت حديثاً من شيوخ ملاّحي الموصل ، وأنا هائب له ، ورأيت الحديث يدور بينهم . . . »

وهو يتحدّث مع صائد العصافير ويقول[3] : « وخبَّرنى من يصيد العصافير . . . » .

وأحياناً يخالط الحوّائين ، ويقف منهم موقفَ المستمِع إلى الشّكوى . وفى ذلك يقول[4] : « وشكا إلىّ حوّاء مرةً فقال : أفقرنى هذا الأسودُ ومنعَنى الكسبَ ؛ وذلك أنَّ امرأتى جهِلت فرمَتْ به فى جَونةٍ فيها أفاعى ثلاثٌ أو أربع ، فابتلعهنَّ كلَّهن ـ وأرانى حيّةً منكرة ! »

وله نِقاش فى شأن الفيل مع عبدٍ يدعى « غانماً[5] » . وما حدا به إلى الحديث معه إلا أنه من ذوى الخصام والجدل كما عرفت .

٤ ـ متى ألف كتاب الحيوان ؟

قيل لأبى العيناء : ليت شعرى ، أىَّ شىء كان الجاحظ يحسن ؟ فقال : ليت شعرى ، أىَّ شىء كان الجاحظ لا يحسن[6] ؟ ! .

---

(١) انظر لذلك تاريخ بغداد (١٢ : ٢١٩) حيث يقول الجاحظ : « حالى أن الوزير يتكلم برأيى ، وينفذ أمرى ، ويؤاثر (صوابها : يواتر) الخليفة الصلات إلىّ) .

(٢) الحيوان (٢ : ٤٥) ساسى .

(٣) الحيوان (٢ : ١٢١) ساسى .

(٤) الحيوان (٦ : ١٣٤) وانظر (٤ : ١٣٤) ساسى .

(٥) الحيوان (٥ : ٣٥) ساسى .

(٦) جمع الجواهر للحصرى ١٦٥ .

نعم، كان الجاحظ أعجوبةَ الدنيا، تعرف ذلك إذا قرأتَ كتاب الحيوان ولمستَ مايحتاج إليه من جُهد، وما يتطلبه من وَعيٍ واسع، وانتباه دقيق ثم عرفتَ بعد ذلك كلّه أن تلك المعلمةَ الخالدةَ، صنعها صاحبُها وأتمَّ حوكَها، وهو فى سنٍّ عاليةٍ، مفلوجٌ يقول فى شِكاية مرضه: «أنا من جانبى الأيسر مفلوج، فلو قُرِض بالمقاريض ما علمت به، ومن جانبى الأيمن مُنقرِس، فلو مرَّ به الذُّبابُ لأَلِمت!![1]».

قال الحُصْرىّ[2]: «ومن إحدى عجائبه، أنه ألّف كتاب الحيوان وهو على تلك الحال» يعنى السنَّ العالية، والفالج الشديد.

وما بالنا نذهب بعيداً والجاحظ نفسه يقول[3]: «وقد صادف هذا الكتاب منى حالاتٍ تمنعُ من بلوغ الإرادة فيه: أوَّل ذلك العلّة الشديدة...».

وهنا مشكلةٌ تطلعُ علينا من ثنايا نصوصٍ عدّة، فقد قالوا إنّ الجاحظ فُلج فى آخر أيامه[4] وقالوا كذلك إنَّه ألَّف كتابَه الحيوان باسم محمد ابن عبد الملك الزّيات[5] المتوفى سنة ٢٣٣، وأنّه أهداه إليه فأعطاه خمسة آلاف دينار[6]، فهل نقول إنَّ الجاحظَ ظلَّ مفلوجاً ثنتين وعشرين سنة[7] فى الأقل؟! ذلك ماتنفيه العادة، ويحيله الكثيرمن الواقع فيما يرى الناس.

---

(١) ابن خلكان.
(٢) فى جمع الجواهر ١٦٥.
(٣) الحيوان (٤ : ٦٩) ساسى.
(٤) الوفيات وتاريخ بغداد وشذرات الذهب (٢ : ١٢٢).
(٥) معجم الأدباء (٦ : ٧٥) مرجليوث.
(٦) معجم الأدباء (٦ : ٧٦) مرجليوث.
(٧) هى فرق مابين وفاة ابن الزيات سنة ٢٣٣ ووفاة الجاحظ سنة ٢٥٥ فى أصح الروايات.

ولكننا نرجع إلى تاريخ علّته من المراجع التى بين أيدينا فنجد أن صاحب « سرح العيون[1] » قد عنى بذكر ذلك ، حيث قال :

« وكانت سبب علّة الجاحظ أنّه حضر مائدةَ ابن أبى دواد ، وفى الطّعام سمكٌ ولبن . وكان ابن بُخْتَيَشُوعَ الطَّبيبُ حاضراً ، فنهاه عن الجمْع بينهما ، فقال الجاحظ : إنَّ السمكَ إن كان مضادًّا للّبن فإنِّى إذا أكلتُهما دفعَ كلٌّ منهما ضررَ الآخر . وإن كانا متساويين فكأنِّى أكلتُ شيئاً واحداً ! فقال ابن بختيشوع : أنا لا أحسن الكلام ولكن إن شئت أن تُجَرِّب فكُلْ . فأكل فأصابه فالجٌ عظيم » .

فإذا عرفنا أنَّ أحمد بن أبى دوادٍ قد توفّى سنة ٢٤٠[2] وابتُـلى بالفالج بعد موت عدوِّه ابن الزيات بسبعة وأربعين يوماً فى سنة ثلاث وثلاثين[3] . إذا عرفنا ذلك أمكننا أن نقول إنَّ مرض الجاحظ كان قبل سنة ٢٣٣ ، سنة وفاة ابن الزيات ، وأنه استمر مريضاً بالفالج أكثر من اثنتين وعشرين سنة . وأن المعنىّ بقولهم : « آخر أيامه » هو الشطر الأخير من حياته

وأحبُّ أن أشيرهنا إلى أنَّ الجاحظ ابتدأ فى تأليف كتاب الحيوان ، قبل أن يبدأ فى صِنوه الآخر فى الذّيع والشهرة : البيان والتبيين . وقد عثرت بنصٍّ قاطعٍ فى البيان[4] يدلّ على ذلك . قال : « كانت العادة فى كتب الحيوان أن أجعل فى كلِّ مصحف من مصاحفها عشر ورقات من

---

(١) سرح العيون ص ١٣٦ ، وانظر مثل هذا النص مضطرباً فى عيون الأنباء (١ : ١٨١) .

(٢) مروج الذهب (٤ : ٤٧) وشذرات الذهب (٢ : ٩٣) .

(٣) مروج الذهب (٤ : ٤٧) .

(٤) البيان (٣ : ٤٦) .

مقطعات الأعراب ونوادر الأشعار ؛ لِمَا ذكرت من عَجَبك بذلك . فأحببت أن يكون حظُّ هذا الكتاب فى ذلك أوفر ، إن شاء الله تعالى » .

كما أودُّ أن أشير أيضاً إلى أنَّ الجاحظ كان يسمِّى كلَّ جزء من أجزاء الحيوان مصحفاً . وفى النسخة الشنقيطية من الحيوان نجد مكتوباً فى نهاية كل جزء : « تم المصحف ... من كتاب الحيوان ويليه المصحف ... » .

٥ — جهد الجاحظ فى تأليف الحيوان

هو يحدثنا بذلك فيقول[١] : « وقد صادف هذا الكتاب منى حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه : أوَّل ذلك : العلّة الشَّديدة . والثانية : قلّة الأعوان . والثالثة : طول الكتاب . والرابعة : أنِّى لو تكلَّفت كتاباً فى طوله وعدد ألفاظه ومعانيه ، ثمَّ كان من كتب العرض والجوهر ، والصفرة والتوليد والمداخلة ، والغرائز والنّحاس[٢] لكان أسهلَ وأقصر أيّاما ، وأسرعَ فراغا ؛ لأنِّى كنت لا أفزع فيه إلى تلقُّط الأشعار وتتبُّع الأمثال واستخراج الآى من القرآن ، والحجج من الرواية ، مع تفرُّق هذه الأمور فى الكتب » .

بهذا شرح صاحبنا جهده فى تأليف الكتاب ، وبيَّن ما بذل فى تأليفه وجمعه ، من عنَتٍ ومشقّة .

---

(١) الحيوان (٤ : ٦٩) وانظر ص ٧٠ منه أيضاً .

(٢) النحاس هنا بمعنى الطبيعة .

٦ — عدد أجزاء الكتاب

جرى بعضُ الناسخين والطابعين ، على ألاّ يتقيّدوا فى النّسخ أو الطّبع بتقسيم المؤلّف لكتابه ، وكنت خشيتُ أن يكون وقعَ هذا التّصرُّف فى كتابنا هذا ، وأدركنى الرّيبُ فى ذلك . ولكنّى وجدتُ من نصوص الكتابِ ما يشهد بأنّ تقسيم المطبوعةِ الأولى من الحيوان هو نفسُه تقسيم الجاحظ . ففى الجزء السابع بالصحيفة الثالثة ، نجد هذا النصّ . « قد كتبنا من كتاب الحيوان ستّة أجزاء . وهذا الكتاب السابع هو الذى ذكرنا فيه الفيل بما حضرنا . . . » ونجد فى ثنايا الكتاب نصوصاً أُخر تشهد بصحة هذا التقسيم (١) .

وإنّ فى مطابقة نهايات أجزاء المطبوعة الأولى ، لنهايات أجزاء المخطوطة الشنقيطية المرموز إليها برمز « س » التى يصرّح فيها بختام كلّ جزء بهذه العبارة : « تمّ المصحف . . . من كتاب الحيوان ويليه المصحف . . . » — إن فى ذلك لدليلا آخر على صحة التقسيم التى سنتبعه .

٧ — قيمة كتاب الحيوان

لايعرف فضلَ هذا الكتاب ، إلاّ من نظر فيه طويلا ، وتناول نواحِيَه بالدّرس والتبيُّن .

وقد يُوهم اسمُه أنّه قد خصّص بالحيوان وما يمتُّ إليه بسبب . ولكنّ

(١) الحيوان ٤ : ٢ ، ٥ : ٢ ، ٦ : ٢ — ٣ ومما يضم إلى ذلك قول ياقوت فى معجم الأدباء : « كتاب الحيوان وهو سبعة أجزاء » .

الحقّ أنّ الكتاب معلمةٌ واسعة ، وصورةٌ ظاهرة لثقافة العصر العبّاسيّ ، المتشعّبة الأطراف .

فقد حوى الكتابُ طائفةً صالحةً من المعارف الطبيعيّة (١) ، والمسائل الفلسفيّة ، كما تحدّث فى سياسة الأقوام والأفراد ، وكما تكلّمَ فى نزاع أهل الكلام وسائر الطوائف الدينية .

تحدّث الكتاب فى كثيرٍ من المسائل الجغرافية ، وفى خصائص كثيرٍ من البلدان ، وفى تأثير البيئة فى الحيوان والإنسان والشجر ، كما تناول الحديثَ فى الأجناس البشرية وتبايُنها ، وكما عرَض لبعض قضايا التاريخ .

وفيه كذلك حديثٌ عن الطب والأمراض : أمراضِ الحيوان والإنسان وبيان لكثيرٍ من المفردات الطبّيّة ، نباتيّها وحيوانيّها ومعدنيّها .

تحدّث فيه الجاحظ عن العرب والأعراب ، وأحوالهم وعاداتهم ، ومزاعمهم وعلومهم . كما أفاضَ القولَ فى آى الكتاب العربىّ ، وحديث الرسول العربىّ ، وكما فصّل بعضَ مسائل الفقه والدين .

والكتاب كذلك ديوانٌ جمَعَ الصَّفوةَ المختارةَ من حُرّ الشعر العربى ونادره . وناهيك باختيار أبى عثمان ! وإن أردت الأمثالَ فهو قد جمع لك منها القدرَ الكبير ، أو أحببت الحديث فى البيان ونقد الكلام والشِّعر ، وجدتَ ماترتاح إليه نفسُك وتطمئن .

أمّا فُكاهة الجاحظ فهذه قد نُثرت فى الكتابِ نثرا ، وإنّها لتطالعك بين الفَينة والأخرى ، متمثّلةً فيما يَروى من نادرةٍ ، أو يحكى من قصّة ،

---

(١) ولعل هـذا ما حدا بالمغفور له أحمد تيمور باشا ، أن يضع نسخته الخطية فى قسم الطبيعيات من مكتبته .

وأما المجون فلا عليك أن تمر به لتظهر لك ناحية من النواحى التى غلبت على كثير من متأدبى عصر الجاحظ ، التى لم يكن فيها حَرج حينئذٍ ولا خشية .

هذه صفةٌ للكتاب مجملة ، أوجَزْتها إيجازًا ولم أُردْ تفصيلَها ، فذلك إنَّما يكون فى كتاب .

على أنَّ الفهرس الذى ابتدعته وأسميته « فهرس المعارف » سوف يجلِّى للقارئ أشياء وأشياء غيرَ ما ذكرت ، وبه يظهر كثيرٌ مما كمن فى جَنَبات ذلك الكنْز القيِّم .

تصحيح الكتاب

١ — قراءة الكتاب

كان أوّل عهدى بدراسة هذا الكتاب منذُ أربع سنوات مضين ، وكنت أجدُنى أمضى فى الكتاب وأتابع قراءته ، رغمَ ما كان يحفل به من خطأ وتحريف وتصحيف ، وأنه لم يكن بحالٍ تشجّع قارئه على المتابعة ممّا كان عليه من سوء نظام واستعجام .

وكنت أثناء قراءتى أكتب تصحيحاتٍ على جوانبه بقدر ما استطاعه جهدى ، كما عنيت بوضع عنوانات وأرقام تربط أجزاءه بعضَها ببعض .

والذى يقرأ للجاحظ يرى فيه طبيعة التكرار ، وهو يحرص بذلك على تثبيت مايريد القارئ على وعيه وفهمه ؛ فالجاحظ معلِّم حريص على إفادة تلميذه ؛ ولكنّ تلميذه لايجلسُ بين يديه ، أو يسايرُه ليتلقّى عنه المعرفة ، بل يؤلّف له أستاذُه الكتابَ جامعاً ، ويدعُه يُفيد ممّا يقرأ ويتفهّم . وللجاحظ كلام فى هذا المعنى بالجزء الأول من الحيوان [١] . ولقد نفعنى هذا التّكرار فى مقارنة النُّصوص وتصحيحها .

(١) ص ٤٢ أولى ، ٨٥ ثانية .

٢ ـ البدء فى تحقيقه

وعُدْت لقراءة الحيوان فى الصّيف الماضى . فطلب إلىّ حضرات ناشرى هذا الكتاب أن أقومَ بإعداده للطَّبع .

فبسطنى لهذا الأمر ما كنت قد أثبت من تصحيحات ، ووجدت أنَّ من الضرورى أن أنتفع بالنسخ الخطيّة والمصورة المودعة دارَ الكتب المصرية ، حتى يخرج الكتابُ للنّاس أقربَ ما يكون إلى السّلامة .

شرعتُ فى مقارنة النُّصوص بالنُّسخ . فهالنى الأمرُ واستعظمت التّبِعة التى أُلقيت على عاتِقى ؛ للتَّخالُف الشَّديدِ ما بين النسخة والأخرى فى صور الألفاظ ، وفى الزيادة والنقص ، والإعجام والإهمال . وحاولت أن أنكِصَ وأرتدَّ عن الميدان الذى هابه قبلى رجلٌ ورجل .

لولا أن شدَّ من عزمي تشجيع حضرة الأخ الجليل ، فخر أهل الحديث فى مصر غيرَ مدافَع ، «الأستاذ الكبير الشيخ أحمد محمد شاكر» ، فقد قرّبَ ـ حفظه الله ـ إلىّ الأمرَ ، واستنهضنى ، و بسط لى من عَونه الأدبىّ ، ماهوّن على ، ما كنت أعدُّه فى المحال .

و إنى لأسجّل له هنا شكرًا صادقا ، واعترافاً بما أسدى وأرشد ، وما أعان وعضد . فجزاه الله خير ما يُجزَى به عالمٌ فاضل !

٣ ـــ مراجع التحقيق

ولجأت بعد مقابلة النسخ إلى الانتفاع بالكتب الأخرى ، فكنت أجد بها تصحيحاتٍ عجيبةً لتحريفات عجيبة وقعت فى الكتاب . ووجدت فى البيان والتبيين تصحيحات كثيرة للشعر والنصوص ، وفى كتب ابن

قتيبة : «عيون الأخبار» و « المعارف » و «تأويل مختلف الحديث» تحقيقات جمّة للأخبار والأعلام ، وما قيل فى الحيوان [1] . ولعل السرّ فى ذلك أن الجاحظ كان قد أجاز ابن قتيبة برواية بعض كتبه [2] ، وأنه كان معاصرا له [3] .

ولست أغمِط سائر الكتب ، التى أفردْتُ لها ثَبَتا ، حقّها من الاشتراك فى إقالة عثرة هذا الكتاب الجليل .

٤ — تنظيم الكتاب

كان لا بدّ لى وأنا أخرج هذا الكتاب أن أعرضه على النّاس فى ثوب عصرهم ، وأن أُخرُج به من ظلام الماضى إلى نور هذا الزّمن . فاستقصيتُ جهدى فى أن أرتّبه ترتيباً حديثاً لا يُخلّ بوضعه الأوّل ، ولا يعتدى على حقّ مؤلفه . فلم أبتدعْ فيه إلا الضّبطَ والتّرقيم ، بعد عرْض كلماته على المعجمات .

وثانيةً أنّى فصلت أثناءه بعنوانات تميّز مسائله ، وتظهرها أعلامًا لطريقه المهيع الممتدّ ، ولم أشأ أن أجعلَها معوجّة اللهجة ، مسايرةً لما طرأ على لغة هذا الزّمن من أساليب الأعاجم ، بل قرّبتُها تقريبًا من لغة الجاحظ نفسه ؛ واقتبستها اقتباسا من تضاعيف كلامه ؛ ليكون بذلك التّساوُقُ والتّناسب . وقد ميّزْت هذه العنوانات الإضافيّة بأقواس خاصة ، وتركت الأصيلة منها مجرّدة من الأقواس . فهذا فصْلُ مابين هذه وتلك .

(١) فى عيون الأخبار (٢ : ٦٢ — ١٠٤) كلام فى الحيوان نجد مثله فى أجزاء متفرقة من كتاب الحيوان ، وسيمر عليك ذلك فى حواشى الكتاب .

(٢) انظر عيون الأخبار (٣ : ١٩٩ ، ٢١٦ ، ٢٤٩) حيث صرح ابن قتيبة بإجازة الجاحظ له .

(٣) ولد ابن قتيبة سنة ٢١٣ ، وتوفى سنة ٢٨٦ .

ولما كان من أسلوب تصحيح هذا الكتاب، أن يُعارَض بعضُه ببعض، وأن يقارَنَ بين نصوصه المتشابهة ـ وذلك يقتضي الإشارةَ إلى صفحاتٍ من أجزاء قد تتلو الجزء الذي يطبع، فقد رأيتُ أن أثبت على جوانب طبعتنا هذه، أرقامَ صفحات الطبعة الأولى. كما أن لذلك مزيّةً ثانية، هي تمكين القارئ من الانتفاع بكل الإشارات، التي يشار بها في الكتب المختلفة إلى مواضع خاصّة من هذا الكتاب.

٥ ـ أسقاط الكتاب

وقد وضعتُ أسقاطَ الكتاب بين إشارات الزيادة: [ ]، ونبّهت في كل منها على مصدر التكميل، أما ماورد من هذه الإشارات مهملاً من التنبيه فهو ما كان من أجود نسخة من نسخ الكتاب: وهي مصورة « كوبريلي » المرموز إليها برمز « ل » وقد انفردت هذه النسخة بإثبات سقط كبير وقع في جميع النسخ [1].

٦ ـ النسخ المعتمدة في هذه المطبوعة

هذه المطبوعة الحديثة من كتاب الحيوان نتاجُ ما بين المطبوعة الأولى وعدة نسخ مختلفة، بعضها مخطوط، وبعضها مصور.

١ ـ فأوّل تلك النسخ، هي المصورة المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٤٢٨٥، وأصلها في مكتبة كوبريلي. وهذه النسخة جيّدة مقروءة، وعلى صدرها تاريخ يرجع إلى سنة تسع وخمسين وثمانمائة. والموجود منها أربع

(١) انظر لذلك الجزء الأول من الحيوان ٩٧ ـ ١٠٢.

مجلدات هي الأول والثالث والخامس والسابع . وقد رمزت إليها فى التحقيق بالرمز « ل » .

٢ — وثانيها النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٩ س وهى نسخة كاملة فى مجلدين ، مكتوبة بخطوط مختلفة ، وهي فى جودتها تتلو سابقتها . وقد رمزت إليها بالرمز « س » .

٣ — وثالثها النسخة الخطية التي تحمل رقم ٥٥٦ فى دار الكتب المصرية ، وتبتدئ بأول الكتاب وتنتهى بالصفحة الثمانين من الجزء الثانى من النسخة المطبوعة ، وكتب فى صدرها « مشترى من قومسيون حصر الأملاك بالضبطية فى ٢٣ يونيه سنة ٨٨٣ » وقد رمزت إليها بالرمز س

٤ — ورابعها النسخة المخطوطة المحفوظة برقم ١٠ س بدار الكتب المصرية . خطّها محمد جاد القماش الأشمونى سنة ألف وثلثمائة وخمسة . وهى فى بدئها وانتهائها مثل سابقتها وقد رمزت إليها برمز « ١٠ س » .

٥ — وخامسها النسخة التيمورية ، برقم ٤٥ طبيعيات ، كتب على صدرها :

« مشترى من تركة المرحوم عبد الحميد بك دقيق مصر كان سنة ١٢٨٠ وصار فى ملك سعادتلو أفندى حسن باشا سرى يكن زاده دامت معاليه واستقامت مساعيه ، طالعه كاتبه الفقير على الليثى خادم الإمام ، وفيه مافيه فليتأمل قاريه » وفى نهايتها : « برسم كتيبة العبد الحقير موسى بن جرجس بن أبى نوفل الطرابلسى الكاتب اشتراه من الشاكر الشاعر فى سنة ١١٥٧ هجرية ثم انتقل بالشراء الشرعى إلى ملك حضرة الأستاذ الشيخ على الليثى» وهذه النسخة مثل سابقها فى البدء والانتهاء . وهذه لم أرمز إليها ، بل صرحت باسمها .

٦ — والسادسة النسخة المطبوعةُ فى المطبعة الحميدية ، ثم مطبعة التقدم من سنة ١٣٢٣ إلى سنة ١٣٢٥ . وقد قام بطبعها الوراق المعروف المرحوم « محمد ساسى » . وهى فى سبعة أجزاء . ولم يمكنى الاهتداء إلي معرفة الأصول التى طبعت عنها . ولكن يظهر مما أثبت فى أسفل صفحاتها من تعليقات أنها طبعت من عدة نسخ خطية : فقد ورد فى أسفل (٢ : ٥) عبارة : « كما فى النسخ التى بأيدينا » وقد رمزت إلى هذه النسخة بالرمز « ط » .

٧ - تيسير الانتفاع بالكتاب

لقد عنيت جمهرة المستشرقين عناية خاصة بوضع الفهارس لما ينشرون من كتب العرب ، وابتدعوا ذلك ابتداعا ، فلهم فضل السبق .

ولا ريب أن الفهارس للكتب العربية ، ولا سيّما القديم منها ، هي بمكان الحيا للأرض الطيبة ، به تؤتى نفعها وثمرتها ، وبخاصّةٍ فى هذا العصر ، الذى أصبح الوقت فيه نهبا مقسما بين مطالب المدنية وتعقيدات الحضارة ، فلايبقى لراغب العلم فيه والثقافة ، إلا اليسير من زمنه ، ليفرغ فيه لما نصب نفسه له . فأصبح بذلك فى حاجةٍ ملحّة إلى ما يمكّنه من تحصيل الكثير فى اليسير من الزمن ، وإلى ما يذلل له الاضطلاع بالبحث الطويل الدقيق فى الوجيز من الوقت .

لذلك ولما تضمنه هذا الكتاب من غزارة خير ، ووفارة فضل ، أنشأت طائفة من الفهارس لجملة الكتاب هى كما ترى :

١ — فهرس تفصيلى لأجناس الحيوان .

٢ — فهرس لأعلام الحيوان .

٣ — فهرس لأعلام الناس .

٤ — فهرس للقبائل والطوائف ونحوها .

٥ — فهرس للبلدان والأماكن ونحوها .

٦ — فهرس للأمثال .

٧ — فهرس للشعر .

٨ — فهرس للأرجاز .

٩ — فهرس للغة .

١٠ — فهرس للكتب .

١١ — فهرس لأيام العرب .

١٢ — فهرس للمعارف العامة .

وقد أفردت لها مجلدا كبيرا ، يلحق بالكتاب فى نهايته إن شاء الله . وآثرت ذلك ابتعادا عن التكرار والإعادة .

والفهرس الاخير منها ، وهو فهرس المعارف ، قد قسمته على أجزاء الكتاب ، فجعلت لكل جزء نصيباً منه ، كى يتمكن القارئ من متابعة الانتفاع بالكتاب إلى أن يتم نشره ، ثم أضم أطرافه فأجعل منها فهرساً واحداً .

وسيجد القارئ فى نهاية كل جزء ، فهارس خاصة به ، جعلتها على نمط طريف ، مقتبسا ثانيها وثالثها ورابعها ، من عنوانات الكتاب : أصيلها والإضافى منها .

❊

وبعد، فأقولها صريحةً بيِّنة : أنْ ليس يوجد فى عصرنا هـــذا من يستطيع أن يخرجَ هذا الـكتابَ الذى أخرجتُه ، مبرّأً من العيب ، سليمًا من التحريف . فهذا عصر قد انقطعت دونه الرواية ، وأوصد أمامه بعض أبواب العلم ، واختفى عن النّاس فيه كثيرٌ منِ أعلام الثقافة العربية فى عصرها الأوّل .

أقول : ليس يُوجَد الفرد ، وأقول : ليست توجد الجماعة . ولست هنا بسبيل التمثيل بفرد أو جماعة ، فذلك يعرفه من نظر فيما يُحيي الناشرون من أثر الأسلاف .

وأمّا أنا فلستُ بمكان من يدّعى العصمة ، أو يخال السلامة ، فليس يكون ذلك إلاّ لمن ذهب عن نفسه ، وتعلق بالباطل .

ولـكنّنى يعجبنى أنّى بذلتُ فيه غاية الجهد ، وأنى التزمتُ جانبَ الأمانة ، فلم أُسقط حرفًا ولم أزِدْ حرفًا ، إلا استأذنت القارئ ، ولا أبدلت حرفًا بآخر إلا نبّهت القارئ إلى ما صنعت .

وجعلت من دأبى فى الشرح والتحقيق أن أشير إلى المصادر دالاًّ على مواضع النصوص منها ، بذكر أرقامها ؛ ليطمئنّ القارئ ، وليكون شريكًا فى النّظر والتأمّل .

وعسى أن أكون قد أصبت فى عملى هذا بعض التوفيق ، وظهرتُ على

كثير من الحقّ ، ومن الله أستمدّ العون فى هذا العمل ، الذى أستَهِمُ به فى بعث الآثار الفكرية ، الخالدة على الدهر ، وفى خدمة هذه اللغة الكريمة القوية .

وأدعو اللهَ جاهداً ، أن أكون أبداً فى طريق الإخلاص ، وعلى نهج الحقّ والإنصاف .

منشية البكرى
فى يوم الاثنين : ١٠ رجب سنة ١٣٥٧

عبد السلام محمد هارون

كتاب الحيوان

تأليف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

الجزء الأول

بتحقيق وشرح

عبد السلام محمد هارون

الطبعة الأولى

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر
١٣٥٦ هـ / ١٩٣٨ م / ٨٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتى

جَنَّبَكَ اللهُ الشُّبْهَةَ ، وعَصَمك من الحَيرة ، وجَعَل بينك وبين المعرفة ٢
نسباً ، وبين الصدق سَبَباً ، وحبَّب إليك التثبُّتَ ، وزيَّن فى عينك الإنصاف ، وأذاقك حلاوةَ التقوى ، وأشعر قلبَك عِزَّ الحقّ ، وأودَعَ صدرَك بَرْدَ اليقين (١) ، وطرد عنك ذلَّ اليأس ، وعرَّفك ما فى الباطل من الذلّة ، وما فى الجهل من القِلّة .

ولعمرى لقد كان غيرُ هذا الدعاء أصوبَ فى أمرك ، وأدلَّ على مقدارِ وزنك ، وعلى الحال التى وضعْتَ نفسَك فيها ، ووسَمْت عرضَك بها ، ورضيتها لدينك حظّاً (٢) ، ولمروءتك شَكْلا [فقد انتهى إلىّ مَيلُكَ على أبى إسحاق ، وحَمْلُك عليه ، وطعنُكَ على مَعْبَدٍ ، وتنقّصك له فى الذى كان جَرَى بينهما فى مساوِئ الديكِ ومحاسنِه ، وفى ذكرِ منافع الكلب ومضارّه ، والذى خرجا إليه من استقصاء ذلك وجمْعِه ، ومن تتبُّعِه ونظمِه ، ومن الموازَنَةِ بينَهما ، والحُكمِ فيهما ، ثم عبتَنى بكتابِ حيل اللصوص ، وكتاب غِشّ الصناعات ، وعبتَنى بكتابِ المُلَح والطُّرَف ، وما حَرّ من النوادر وبَرُد ، وما عاد بارده (٣) حارّاً لفَرْط برده حتى

---

(١) فى ط «البر واليقين» . وما أثبته فى ل ، ١٠ س وهو الصواب .

(٢) كذا فى ل ، ١٠ س وهو تصحيح ما فى ط «ورضيتها لعرضك حظا»

(٣) فى ل « وعاد باردها » وما هنا عن النسخة م .

أمتعَ بأ كثَرَ من إمتاع الحارّ ، وعبتَنى بكتاب احتجاجات البخلاء ، ومناقضتِهم للسُّمَحاء ، والقولِ فى الفرق بين الصدق[1]] إذا كان ضارًّا فى العاجل ، والكذب إذا كان نافعاً فى الآجل ، ولِمَ جُعل الصدقُ أبداً محموداً ، والكذبُ أبداً مذموما ، والفرق بين الغَـيرة وإضاعة الحُرْمة ، وبين الإفراط فى الحميّة والأنَفَة ، وبين التقصير فى حفظ حقِّ الحرمة ، وقلّة الاكتراثِ لِسوء[2] القالَة ؛ وهل الغيرة اكتساب وعادة ، أم بعض مايعرض من جهة الديانة ، ولبعض التزيُّد فيه والتحسن به ، أو يكون ذلك فى طباع الحريّة ، وحقيقة الجوهريّة ، ما كانت العقولُ سليمة ، والآفات منفيَّة[3] والأخلاطُ معتدلة .

وعبتَنى بكتاب الصُّرَحاء والهُجَناء ، ومفاخرة السُّودان والحمران ، وموازنةِ ما بين حقِّ الخئولة والعمومة ؛ وعبتَنى بكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب ، وأقسام فضـول الصناعات ، ومراتب التجارات ؛ وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء ، وفرقِ ما بين الذكور والإناث ، وفى أىِّ موضع يَغلبن ويفضُلْن ، وفى أى موضع يكنَّ المغلوباتِ والمفضولات، ونصيب أيِّهما فى الولد أوفَر ، وفى أىِّ موضع يكون حقُّهنّ أوجب ، وأىّ عملٍ هو بهنّ أليق ، وأىّ صناعةٍ هنَّ فيها أبلغ .

وعبتَنى بكتاب القحطانيّة و [كتاب] العدنانيّـة فى الردّ على

---

(١) سقطت هذه العبارة من جميع النسخ الخطية أيضا ماعدا ل و م .

(٢) فى ط « بسوء » وتصحيحه من ل . قال فى القاموس « ما أكترث له : ما أبالى به » وقال الزبيدى : الأصل فيه ألا يستعمل إلا فى النفى وشذ إستعماله فى الإثبات .

(٣) هذا مافى ل . وفى ط « منيفة » وبذلك يفسد المعنى .

القحطانية ، وزعمتَ أنِّى تجاوزتُ فيه حــدَّ الحَمِيّة إلى حدِّ العصبيّة ، وأنِّى لم أصل[١] إلى تفضيل العدنانيّة إلا بِتنقُّص[٢] القحطانيّة . وعبتَنى ٣
بكتاب العرب والموالى ، وزعمتَ أنِّى بخَسْت الموالِيَ حقوقهم ، كما أنِّى أعطيتُ العربَ ما ليس لهم . وعبتَنى بكتاب العرب والعجم ، وزعمت أنَّ القولَ فى فرقِ ما بين العرب والعجم ، هو القولُ فى فرقِ ما بين الموالى والعرب . ونسبتَنى إلى التكرار والترداد ، وإلى التكثير ، والجهلِ بما فى المُعَاد من الخَطَل ، وحَمْلِ الناسِ المؤن .

وعبتَنى بكتاب الأصنام ، وبذكر اعتلالات الهند لها ، وسبب عبادة العرب إيّاها ، وكيف اختلفا فى جهة العِلّة[٣] مع اتّفاقهما على جملة الديانة ، وكيف صار عُبّاد البِدَدَة[٤] والمتمسكون بعبادة الأوثان المنحوتة ، والأصنام المنجورة ، أشدَّ الديّانين إلْفاً لما دانوا به[٥] ، وشغفاً بِمَا تعبَّدوا له[٦] ، وأظهَرَهم جِدًّا وأشــدَّهم على من خالفهم ضِغنا ، وبما دانوا ضَنًّا[٧] ، وما الفرق بين البُدِّ والوثَن ، وما الفَرق بين الوثَن والصنم ، وما الفرق بين

---

(١) فى ل « أصر » ومؤداهما واحد .

(٢) فى ط « بتنقيص » والمثبت هنا فى ل . وفى القاموس « وهو يتنقصه : يقع فيه ويذمه » .

(٣) فى ط « العلسة » وتصحيحه من ل .

(٤) فى ط « عبادة البدرة » وهو تصحيف صوابه ما فى ل . والبددة جمع بد — بضم الباء — وهو الصنم ، معرب « بت » وجمعه بددة وأبداد .

(٥) فى ل « أشد الناس إلفا لما دانوا به » .

(٦) فى ط « وشغفا لما » وصوابه ما أثبته عن ل . يقال شغف بالشىء إذا علق قلبه به .

(٧) فى ل « صبابة وعجبا » .

الدُّمية والجُثَّـــة ، ولِمَ صوَّروا فى محاريبهم وبيوت عباداتهم ، صوَرَ عظمائهم ورجالِ دعوتهم ، ولم تأنَّقوا فى التصوير ، وتجوَّدوا[1] فى إقامة التركيب ، وبالغوا فى التحسين والتفخيم ، وكيف كانت أوَّليَّة تلك العبادات ، وكيف افترقت تلك النِّحَل ، ومن أىّ شكل كانت خُدَع تلك السدنة ، وكيف لم يزالوا أكثرَ الأصنافِ عدداً ، وكيف شمل ذلك المذهب الأجناسَ المختلفة .

وعبتَنى بكتاب المعادن ، والقولِ فى جواهر الأرض ، وفى اختلاف أجناس الفِلِزّ والإخبار عن ذائبها وجامدها ، ومخلوقها ومصنوعها ، وكيف يسرع الانقلاب إلى بعضها ، ويُبطئ عن بعضها ؛ وكيف صار بعضُ الألوان يَصبغُ ولا ينصبغ ، وبعضها يَنْصَبِـغْ ولا يصْبُغ ، وبعضها يصـبُغ وينصبغ ، وما القولُ فى الإكسير والتلطيف .

وعبتَنى بكتاب فرق ما بين هاشمٍ وعبد شمس ، وكتاب فرق ما بين الجنّ والإنس ، وفرق ما بين الملائكة والجنّ ، وكيف القولُ فى معرفة الهدهد واستطاعة العفريت[2] ، وفى الذى كان عنده علمٌ من الكتاب ، وما ذلك العـــلم[3] ، وما تأويل قولِهم كان [عنده اسم الله الأعظم]

---

(١) فى ط « تجردوا » بالراء . وصوابه مافى ل . وتجود : فعل الجيد .

(٢) فى ط « وكيف القول فى اســتيلاء العفريت على سليمان وفى الهدهد » وهو كلام مشوه محرف وضعت بدله مافى ل . ومعرفة الهدهد هى التى يشير إليها القرآن الكريم بآية « وجئتك من سبأ بنبأ يقين » وأما استطاعة العفريت فهو مافى قوله تعالى « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » يعنى عرش بلقيس .

(٣) فى ط « وما الذى هو ذلك العلم » وهو تحريف صوابه فى ل .

وعبتَني بكتاب الأوفاق والرياضات ، وما القولُ في الأرزاق والإنفاقات [وكيف أسباب التثمير والترقيح[١]] وكيف يَجتلب[٢] التجار الحُرَفاء ، وكيف الاحتيالُ للودائع [وكيف التسبُّب إلى الوصايا ، وما الذى يوجب لهم حسن التعديل ، ويصرف إليهم باب حسن الظن ؛ وكيف ذكرنا غشَّ الصناعات والتجارات ، وكيف التسبُّب إلى تعرف ما قد ستروا وكشف ما موَّهوا ؛ وكيف الاحتراس منه والسلامة من أهله . وعبتني برسائلى] وبكلّ ما كتبت [به] إلى إخوانى وخُلَطائى ، من مَزْح وجدٍّ ، ومن إفصاح وتعريض ، ومن تغافُل وتوقيف ، ومن هجاء لايزال ميسَمه باقياً ومديحٍ لا يزال أثرُه نامياً ؛ ومن مُلَح تُضحِك ، ومواعظَ تُبكى . ٤

وعبتَني برسائلى الهاشميّات ، واحتجاجى فيها ، واستقصائى معانيها ، وتصويرى لها فى أحسَن صورة ، وإظهارى لها فى أتمِّ حلية . وزعمتَ أنّى قد خرجتُ بذلك من حدِّ المعتزلة إلى حدِّ الزيديّة ، ومن حدّ الاعتدال فى التشيُّع والاقتصاد فيه ، إلى حدِّ السرف والإفراط فيه . وزعمتَ أنّ مقالة الزيدية خطبة مقالةِ الرافضَة[٣] ، وأنّ مقالة الرافضة خطبة مقالة الغاليَة[٤] . وزعمتَ أنّ فى أصل القضيّة والذى جَرَتْ عليه العادة ، أن كلَّ كبير فأوّلُه صغير ، وأنَّ كلَّ كثير فإنما هو قليل جمع [مِنْ] قليل ، وأنشدت قولَ الراجز[٥] :

---

(١) ترقيح المال : إصلاحه والقيام عليه .

(٢) فى ط « تجرد » وصوابه فى ل .

(٣) فى ط « خطيئة مقالة الرافضية » وتصحيحه من ل .

(٤) فى ط « خطيئة مقالة الغالية » وصوابه مافى ل .

(٥) أنشد الجاحظ هذا الرجز فى المحاسن والأضداد ٤٤ .

قد يَلحقَ الصغيرُ بالجليلِ   وإنّما القَرْمُ من الأفِيل

وسُحُوقُ النخْلِ من الفَسيلِ

وأنشدتَ قول الشاعر[١] :

ربَّ كبيرٍ هاجَه صغيرُ   وفى البُحور تَغرَقُ البحورُ

وقلتَ ، وقال يزيدُ بن الحكم[٢] :

فاعـلم بُنىَّ فإنّه   بالعـلم يَنتفـع العليم

إنّ الأمورَ دقيقُهـا   مما يَهيـج له العظيم

وقلتَ ، وقال الآخر :

صار جِدًّا ما مزحتَ به   ربَّ جِـدٍّ ساقه اللعبُ

وأنشدت قول الآخر[٣] :

ما تَنظُرون بحقِّ وَردةَ فيكمُ   تُقضَى الأمورُ ورَهطُ وَردةَ غُيَّبُ[٤]

قد يبعثُ الأمْرَ الكبيرَ صغيرُه   حتَّى تظلَّ له الدماءُ تَصَبَّبُ

وقالت كَبْشة بنت مَعْدِيكَرِب :

---

(١) البيت فى المحاسن والأضداد ص ٤٤ .

(٢) يزيد هذا ، شاعر إسلامى عاصر جريرا والفرزدق . مر الفرزدق به يوما فقال : من هذا الذى ينشد شعرا كأنه من أشعارنا ؟ فقالوا : يزيد بن الحكم ، فقال : نعم أشهد أن عمتى ولدته ! والبيتان من أبيات له اختارها أبو تمام فى الحماسة ٢ : ٤٥ وهو يخاطب بهذه الأبيات ولده بدرا .

(٣) فى ط « قول الآخر وهو قول عنترة » وعبارة « وهو قول عنترة » دخيلة على الكتاب بدليل أنها فى ل مثبتة بخط مخالف . كما أن البيتين لطرفة بن العبد مثبتان فى ديوانه طبع ١٩٠٩ ص ٣٧ ، والشعر والشعراء ٢٧ ، وخزانة الأدب ٢ : ٣٢١ سلفية ، ومعاهد التنصيص ١ : ١٢٣ .

(٤) وردة : هى أمه ، وكان أبو طرفة قد مات وهو غلام ، فلما اقتسم أعمامه المال ظلموا أمه .. ماتنظرون : أى تنتظرون .

جَدَعتمْ بعبد الله آنُفَ[١] قومه بنى مازن أنْ سُبَّ راعى المخَزَّم[٢]

وقال الآخر[٣] :

أيَّةَ نارٍ قدَحَ القادحُ وأىَّ جِدٍّ بلَغَ المازحُ

وتقول [العرب] « العصَا من العُصَيَّة ، ولا تلد الحيَّةَ إلا حَيَّةً[٤] » .

وعبتَ كتابى فى خلْق القرآن ، كما عبتَ كتابى فى الردّ على المشبِّهة وعِبْتَ [كتابى] فى القول فى أصول الفتيا والأحكام ، كما عبتَ كتابى فى الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديعِ تركيبه . وعبتَ معارضَتى للزيديّة وتفضيلى[٥] الاعتزالَ على كلِّ نِحْلة ، كما عبتَ كتابى فى الوعد والوعيد ، وكتابى على النصارى واليهود[٦] ثمَّ عبتَ جملةَ كتبى فى المعرفة والتمست تهجينَها بكلِّ حيلة ، وصغَّرت من شأنها ، وحطَطت من قدرها ، واعترضت على ناسخِيها والمنتفعين بها ، فعبتَ كتاب الجوابات ، وكتاب المسائل ، وكتابَ أصحابِ الإلهام ، وكتابَ الحجَّة فى تَثْبيت النبوّة ، وكتابَ الأخبار ، ثمّ عبتَ إنكارى بصيرةَ غنام المرتدّ ، وبصيرةَ كلِّ جاحد ، وملحد وتفريقى بين اعتراض الغُمْر[٧] ، وبين استبصار المحقّ ، وعبتَ

(١) فى ط (آناف) وأثبت ما فى ل ، س ، ١٠ س . وأنف يجمع على أنوف وآنف وآناف .

(٢) فى ط ، ل ، س ، ١٠ س : « المخزم » بالخاء وتصحيحه من الخزانة بضبط البغدادى ٣ : ٧٧ والبيت من أبيات ستة رواها البغدادى وذكر لها قصة طويلة طريفة .

(٣) هو أبو نواس الحسن بن هانئ كما فى البيان والتبيين ٣ : ١١٩ .

(٤) فى ط « حية » ويغلب أن يكون تصحيف طبع .

(٥) فى ط « تفضيل » والوجه مافى ل .

(٦) فى ط « النصرانى واليهودى » وأثبت ماقى ل .

(٧) هذا ماقى ل ، س ، ١٠ س . وفى ط « القمر » وهو تحريف . والغمر : الجاهل الذى لم يجرب الأمور .

كتابَ الردّ على الجَهْمِيّة فى الإدراك ، وفى قولهم فى الجهات[١] ، وكتابَ فرقِ ما بين النبىّ والمتنبّى ، والفرقِ ما بينَ الْحِيَلِ والمخاريق[٢] ، و بينَ الحقائقِ الظاهرة والأعلام الباهِرة[٣] . ثمّ قصدتَ إلى كتابى هذا بالتصغير لقدره والتهجين لنظمه ، والاعتراض[٤] على لفظه ، والتحقيرِ لمعانيه ، فزَرَيت على نحْتِهِ وسَبكه ، كما زَرَيت على معناهُ ولفظِه ، ثمّ طعنتَ فى الغرض الذى إليه نزعْنا ، والغاية التى إليها قَصَدنا[٥] على أنّه كتابٌ معناهُ أنبَهُ من اسمِهِ ، وحقيقتُه آنَقُ من لفظه ، وهو كتابٌ يحتاجُ إليه المتوسّط العامى، كما يحتاجُ إليه العالِمُ الخاصى[٦] ، ويحتاج إليه الرّيِّض كما يحتاج إليه الحاذق : أما الرّيض فللتعلُّم والدرْبة ، وللترتيب والرياضة ، وللتمرينِ وتمْــكين العادة ؛ إذْ كان جليلُه يتقدم دقيقه ، و إذ كانت مقدّماته مرتبةً وطبقاتُ معانيه منزَّلة . وأما الحاذقُ فلـكفايةِ المُؤنة ؛ لأن كلّ من التقط كتابا جامعاً ، و بابًا من أُمّهات العلم مجموعا ، كان له غُنْمه ، وعلى مؤلّفه غُرْمُه ، وكانَ له نفعُه ، وعلى صاحبِهِ كَدُّه ، مَعَ تعرُّضِهِ لمطاعنِ البُغاَة ، ولاعتراض المنافِسِين ، ومع عرْضِهِ عقلَه المـكدود على العقولِ الفارغة ، ومعانيه على الجهابِذة ، وتحكيمِه فيه المتأوِّلين والحسَدَة . ومتى ظَفِر بمثله صاحبُ علم ، أو هجَمَ عليه طالبُ فقه ، وهو وادعٌ رافِه ، ونَشيط جَامٌّ ،

(١) فى ل « الجهالات » .
(٢) فى ط « المخارق » .
(٣) فى ل «القاهرة» وفى ط «الباصرة» وصوابهما ما فى س ، ١٠ .س .
(٤) فى ط « والاغتماض » .
(٥) فى ل « أجرينا » .
(٦) هذا ما فى ل . وفى ط « كما يحتاج إليه الخاص » .

ومؤلفه مُتعَبٌ مكدود ، فقد كُفِى مَؤُونةَ جمعه وخزنِه ، وطلبِهِ وتتبُّعِه ، وأغناه ذلك عن طول التفكير ، واستنفادِ العمر ، وفَلِّ الحدّ ، وأدرك أقصى حاجتِهِ وهو مجتمعُ القُوّة . وعلى أنّ له عند ذلك أن يجعَلَ هُجومَه عليه من التوفيق ، وظفَرَه به باباً من التسديد .

وهذا كتابٌ تستوى فيه رغبةُ الأُمم ، وتتشابه فيه العُرْبُ والعَجَم ، لأنه وإن كانَ عرَبيًّا أعرابيًّا ، وإسلاميًّا جَماعيًّا ، فقد أَخَذَ من طُرَفِ ٦
الفلسفة ، وجمع بين معرفةِ السماعِ وعلْمِ التجرِبة ، وأشرَكَ بين علمِ الكتاب والسنة ، وبينَ وِجْدان الحاسَّة ، وإحساس الغريزة . ويشتهيه الفِتيانُ كما تشتهيه الشيُوخ ، ويشتهيه الفاتِكُ كما يشتهيه الناسِك ، ويشتهيه اللاعبُ ذو اللَّهوِ كما يشتهيه المجدّ[1] ذو الحَزْم ، ويشتهيه الغُفْلُ كما يشتهيه الأريب ويشتهيه الغبيُّ كما يشتهيه الفَطِن .

وعبتَنى بحكاية قولِ العثْمانيّة[2] والضِّرارية وأنت تسمعنى[3] أقول فى أوّل كتابى : وقالت العثمانية والضراريّة ، كما سمعتَنى أقول : قالت الرافضة والزيدية ، فحكمتَ علىّ بالنصب لحكايتى [قول العثمانية] فهلاَّ حكمتَ علىّ بالتشيُّع لحكايتي [قول الرافضة] !! وهلا كنتُ عندكَ من الغاليةِ لحكايتى حجج الغالية ، كما كنتُ عندكَ من الناصِبَة لحكايتى قولَ الناصِبة !! وقد حكينا فى كتابنا قولَ الإباضيّة والصُّفْرية ، كما حكينا قولَ الأزارِقة والزيدية . وعلى

---

(١) فى ل « الجدى » نسبة إلى الجد ضد الهزل .

(٢) فى ط « بحكاية سر قول العثمانية » وكلمة « سر » هذه لا وجود لها فى جميع النسخ المخطوطة .

(٣) كذا فى ل . وفى ط « كما سمعتنى » .

هذه الأركان الأربعة بُنِيَت الخارجية ، وكلُّ اسمٍ سواها فإنما هو فرعٌ وتيجةٌ ، واشتقاقٌ منها ومحمولٌ عليها ، وإلا كنّا عندكَ من الخارجية ، كما صرنا عندكَ من الضِّرَارِيَّة والناصِبَة . فكيف رضيتَ بأن تكون أسرَعَ من الشيعة ، أسرع إلى أعراض الناس من الخارجية(١) ، اللهم إلاّ أن تكون وجدتَ حكايتى عن العثمانيَّة والضِّراريَّة أشبعَ وأجمعَ ، وأتمَّ [وأحكم] وأجود [صنعة ، وأبعد غاية . ورأيتنى قد وهَّنت حقَّ أوليائك ، بقدر ماقويتُ باطل أعدائك !! ولو كان ذلك كذلك ، لكان شاهدك من الكتاب حاضراً ، وبرهانك على ماادعيت واضحا] .

وعبتَنى بكتاب العباسية ، فهلاَّ عبتَنى بحكايةِ مقالةِ مَن أبى وجوبَ الإمامة ، ومَنْ يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعموا أنّ تَرْكَ النَّاس سُدًى بلاقيِّمٍ أردُّ عليهم ، وهملاً بلا راعٍ أربحُ لهم ، وأجدَرُ أنْ يجمعهم ذلك بين سلامَةِ العاجل ، وغنيمة الآجل ، وأنَّ تركَهم نَشَراً لا نظامَ لهم ، أبعدُ من المَفاسِد ، وأجمعُ لهم عَلَى المراشد !! بل ليس ذلك بك ، ولكنَّه بهرَكَ ماسمعتَ ، وملأ صدرَكَ الذى قرأت ، وأبعَلَك وأبْطرَك ، فلم تتّجه للحجّة وهى لك معرضة ، ولم تعرف المقاتل وهى لك بادية(٢) ، ولم تَعرِف بابَ المخرج إذ جهلتَ بابَ المدخَل ، ولم تعرفْ المصادر إذ جهلتَ الموارد .

رأيتَ أنَّ سبَّ الأولياء أشفى لدائك ، وأبلغَ فى شفاء سَقَمك ؛ ورأيتَ أن إرسالَ اللسان أحضَرُ لَذّةً ، وأبعدُ من النَّصَب ، ومِن إطالة الفكرة ، ومن الاختلافِ إلى أرباب هذه الصناعة .

---

(١) فى ل « فكيف رضيت بأن تكون الشيعة إلى أعراض الناس أسرع من المارقة »

(٢) فى ط « وهى لك معوضة ، ولم تعرف المقابل وهى لا بادية »

ولو كنتَ فَطِنت لعجْزك ، [و[1]] وصَلْتَ نقصَك بتمامِ غيرِك ، واستكفيتَ من هو موقوفٌ على كفايةِ مثلك ، وحَبيسٌ على تقويم أشباهك ٧
كان ذلك أزينَ فى العاجِل ، وأحقَّ بالمثُوبة فى الآجل ، وكنتَ إنْ أخطأتكَ الغنيمةُ لم تُخْطِك السلامة ، وقد سَلِم عليك المخالفُ بقدر ما ابتُلِى [به] منكَ الموافِق ، وعلى أنّه لم يُبْتَل منك إلاّ بقدْرِ ما ألزمتَه من مُؤْنَةِ تثقيفك ، والتّشاغُلِ بتقويمك . وهل كنتُ فى ذلك إلاّ كما قال العربىُّ :

« هَلْ يَضُرُّ السَّحابَ نَبْحُ الكلابِ »

وإلاّ كما قال الشاعر :

هل يَضُرُّ البحرَ أمسى زَاخِراً ... أَنْ رَمَى فيهِ غُلامٌ بحَجَرْ[2]

وهل حالُنا فى ذلك إلاّ كما قال الشاعر[3] :

ما ضرَّ تغلِبَ وائلٍ أهجَوْتَها ... أم بُلْتَ حَيْثُ تَنَاطَحَ البَحْرَانِ

وكما قال حسّانُ بنُ ثابت :

ما أُبَالِي أَنَبَّ بالحَزْنِ تَيسٌ ... أم لَحَانِي بظَهْرِ غَيْبٍ لَئيمُ

وما أشكُّ أنّكَ قد جعلت طول إعراضنا عنكَ مَطِيَّةً لك ، ووجّهتَ حِلمَنا عنك إلى الخوف منك ، وقد قال زُفَرُ بنُ الحارث لبعضِ مَنْ لم يرحقَّ الصفح ، فجعل العفوَ سبباً إلى سوء القول :

---

(١) زيادة ضرورية لاستقامة الكلام .

(٢) البيت رواه الجاحظ فى البيان ٣ : ١٤٦ . والرواية هناك « مايضير » .

(٣) هو الفرزدق كما فى البيان للجاحظ ٣ : ١٤٦ والخزانة ٢ : ٥٠١ ، بولاق .

فإنْ عدتَ وَاللهِ الذى فوقَ عَرْشِهِ   مَنَحْتُكَ مسنون[١] الغِرارَيْنِ أزْرَقا
فإنّ دواءَ الجهلِ أن تُضْرَبَ الطُّلَى   وأن يُغْمس العِرِّيض حتي يغرّقا[٢]

وقال الأوّل :

وَضَغائِنٍ داوَيتُها بضــغائنٍ   حتّي شَــفَيتُ وبالحُقُودِ حُقُودا

وقال الآخر :

وَما نَفَى عنكَ قوماً أنت خائفُهم   كَمِثْلِ وَقْمِكَ جُهّالاً بجُهّالِ[٣]
فاقْعُس إذا حَدَبوا واحْدُب إذا قعَسوا   وَوَازِنِ الشَّرَّ مثقــالاً بمِثقالِ

فإنّا وإن لم يكن عندنا سِنَان زُفَرَ بنِ الحارث ، ولا معارضةُ هؤلاء الشرَّ بالشرّ ، والجهلَ بالجهل ، والحِقد بالحقد ، فإن عندى ماقال المسعودىُّ[٤] :

فمسَّا ترابَ الأرضِ منه خُلِقتُما   وفيه المعادُ والمصــيرُ إلى الحشر
ولا تأنفا أن ترْجِعا فتسلّما   فما كسى الأفواه شَرًّا من الكِبْرِ[٥]

---

(١) فى ط (مصقول) وغرار السيف أى حده لا يوصف بالصقل ، وإنما يوصف بالحدة . فالوجه (مسنون) كما فى ل وكما فى البيان ٢ : ٢٤٢ .

(٢) فان من الجهل أن تضرب الطلى   وأن تلبس العريض حتى يغرقا

هكذا ورد البيت فى ط وهو تحريف أصلحته من ل ومن البيان للجاحظ ٣ : ٢٤٢ . والطلى : الأعناق أو أصولها جمع طلية أو طلاة بضم الطاء فى كل منهما والعريض ، كسكيت : الذى يتعرض للناس بالشر .

(٣) جاء البيت فى ط على هذه الصورة :

وما نفى عنك قوما أنت خائفهم   كمثل رقك جهالا بجهال

وصححناه من البيان ٣ : ١٨٩ ومن ل ، س . والوقم : القهر والإذلال والكبح .

(٤) هو عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود . وهذه الأبيات من عشرة أبيات رواها المرتضى فى أماليه ٢ : ٦٠ ، ٦١ وذكر قصة لها .

(٥) فى الأمالى « فما حشى الأقوام » وفى ل ، س « ولا تعجبا أن ترجعا »

فلو شئتُ أدْلى[١] فيكما غير واحد   علانيَةً أو قالَ عندىَ فى السِّرِّ
فإنْ أنا لم آمُرْ ولم أنْهَ عنكُما   ضَحِكْتُ له كيما يَلجَّ ويَسْتَشْرِى[٢] ٨

وقال النَّمِرُ بن تَوْلَب :

جزَى اللهُ عنِّى حمزَةَ ابنةَ نوفلٍ   جَزَاءَ مُغِلٍّ بالأمانةِ كاذِبِ[٣]
بمـا خَبَّرَتْ عنِّى الوُشاةَ ليكذِبوا   علىَّ وقد أوليتُها فى النوائِبِ

يقول : أخرجتْ خَبرَها ، فخرج [إلى] من أحبُّ أن يعابَ عندها .

ولو شئتَ أن نعارضَك لعارضناك فى القول بمـا هو أقبحُ أثراً وأبقى وَسْماً ، وأصدقُ قيلاً ، وأعدلُ شاهداً . وليس كلُّ مَن ترَكَ المعارَضَة فقد صفح ، كما أنَّه ليس من عارَضَ فقد انتصرَ ، وقد قال الشاعر[٤] قولاً ، إن فهمتَه فقد كفَيْتَنا مَئُونَةَ المُعارَضَة ، وكفيتَ نفسَك لزومَ العارِ ، وهوقوله :

إنْ كنتَ لا ترهَبُ ذمِّى لِمَا   تَعْرِفُ مِنْ صَفْحِى عن الجاهلِ
فاخشَ سُكُوتِى إذ أنا منصت   فيكَ لمسموعِ خَنَا القائلِ[٥]
فالســـامعُ الذمِّ شريكٌ لهُ   ومُطعِمُ المأكولِ كالآكِلِ

---

(١) فى ط وكذا فى البيان « أولى » وصـــوابه مافى ل ، س ، ١٠ س والأمالى . وفسرها المرتضى بقوله : معناه لوشئت اغتابكما عندى غير واحد

(٢) فى ط « يلح » بالحاء وأثبت ماهو فى أمالى المرتضى و ل ، ١٠ س والبيان

(٣) كذا فى ل ، ١٠ س .. وغل وأغل بمعنى خان .. وفى ط « مقل » وتحريفه ظاهر .. وفى س « مخل » . زيادة يقتضيها السياق .
والمعنى أنها أظهرت سر الحب ، فذاع حتى وصل إلى الوشاة الذين يتمنى هو أن يعابوا عندها .

(٤) هو كعب بن زهير الصحابى الذى « أجازه الرسول الكريم ببردته التى بيعت بالثمن الجزيل ، حتى بيعت فى أيام المنصور الخليفة بمبلغ أربعين ألف درهم وبقيت فى خزائن بنى العباس إلى أن وصل المغول وجرى ماجرى » الخزانة ٤ : ١٢ بولاق .

(٥) كذا فى الخزانة . وفى ل ، س « فاخش سكوتى آذنا منصتا » وآذنا : مصغياً .

مقالةُ السُّـــوءِ إلى أهلها   أسرَعُ من مُنْحَدرٍ سائلِ
ومن دعا الناسَ إلى ذمِّه   ذمُّـــوه بالحقِّ وبالباطلِ
فلا تَهِجْ إنْ كنتَ ذا إربَةٍ   حرْبَ أخى التجربةِ العاقلِ
فإنَّ ذا العقلِ إذا هِجْتَه   هِجتَ به ذا خَبَـــلٍ خابلِ
تُبْصِرُ فى عاجلِ شَدَّاته   عليـــكَ غِبَّ الضرَرِ الآجلِ

وقد يقال : إنَّ العفوَ يُفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم ، وقد قال الشاعر :

والعفوُ عندَ لبيبِ القومِ موعظةٌ   وبعضهُ لسَفيهِ القومِ تدريبُ

فإنْ كنَّا[1] أسأنا فى هذا التقريعِ والتوقيفِ ، فالذى لم يأخُذْ فينا بحُكْمِ القرآنِ ولا بأدَبِ الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يَفزَعْ إلى ما فى الفِطَنِ الصحيحة ، وإلى ما توجبهُ المقاييسُ المطَّرِدةُ ، والأمثالُ المضرُوبة ، والأشعار السائرة ، أولَى بالإساءة وأحقُّ باللائمة ، قال الله عزَّ وجل ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ وقد قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام « لاَ تَجْنِ يمِينُك عَلَى شِمَالِك » .

وهذا حكمُ الله تعالى وآدابُ رسوله والذى أُنْزِلَ به الكتابُ ودلَّ عليه من حُجَجِ العقول . ٩

فأمَّا ماقالوا فى المثل المضروب [« رَمَتْنِي بِدَائِهَا وانسَلَّتْ » وأمَّا] قولُ الشعراء ، وذمُّ الخطباء لِمَنْ أخَذَ إنساناً بذنب غيره ، وماضرَبُوا فى ذلك من الأمثال ، كقول النابغة حيث يقول فى شعره :

وكَلَّفْتَنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وتركْتَه   كذِي العُرِّ يُكوَى غيرُه وهو رَاتِعُ

---

(١) فى ط « فانا كنا » وتصحيحه من ل ، س ، ١٠ س .

وكانوا إذا أصابَ إبلَهُم العرّ كَوَوْا السليمَ ليدفعه عن السّقيم ، فأسقمُوا الصحيحَ من غير أن يُبْرِئُوا السقيم .

وكانوا إذا كثُرتْ إبلُ أحـــدِهم فبلَغَتِ الألف ، فقئُوا عَيْنَ الفحْل ، فإنْ زادَت الإبلُ على الألِف فقئوا العينَ الأخرى، وذلك المفقّأُ والمعمّى اللذان سمعتَ فى أشعارِهم .

قال الفرزدق :

غلبتك بالمفقيءُ والمعمّى ويبتِ المُحْتَبِى والخافقاتِ[(١)]

[وكانوا يزعمون أن المفقأ يطرد عنها العين والســـواف[(٢)] والغارة ، فقال الأوّل :

فقأتُ لهـا عَيْنَ الفَحِيلِ عِيَافَةً وفيهنّ رَعْلاءُ المسامِـع والحامى[(٣)]

(١) هذا البيت دخيل على الـكتاب ، ويبعد من مثل الجاحظ أن يفكر فى الاستشهاد به فى هذا الموضع إذ لاعلاقة له به ، وإنما يشير الفرزدق بكلمة «المفقىء» إلى قصيدته التى يقول فيها مهاجيا لجرير :

ولست وإن فقأت عينك واجدا أبا لك إن عد المساعى كدارم

وبكلمة « المعمى » إلى قوله :

وإنك إذ تسعى لتدرك دارما لأنت المعمى يا جرير المـكلف

و « بيت المحتبي » إشارة إلى قوله :

بيتاً زرارة محتب بفنائه ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

و « الخافقات » يريد قوله :

وأين تقضى المـالـكان أمورها بحق وأين الخافقات اللوامع

انظر ابن سلام ١٣٦ مصر ، ٩١ ليدن، والنقائض ٧٦٨ ليدن . وقد ورد البيت مصحفاً على الوجه الآتى :

غلبتك (بالمفقأ والمعمى) وبيت (المحتبى) والخافقات

(٢) السواف : الموتان يقع فى الابل ، يقال بالفتح وبالضم .

(٣) البيت فى البيان ٣ : ٥٤ والفحيل : المنجب فى ضرابه ، وعنى بالعيافة التفاؤل .

الرعلاء : التي تُشقّ أذنها ، وتترك مدلاة ، لكرمها] .

وكانوا يقولون في موضع الكفّارة والأُمنيّة ، كقول الرجل : إذا بلغَتْ إبلي كذا وكذا وكذلك غنمي ، ذبَحْتُ عند الأوثان كذا وكذا عتيرة . والعتيرة من نُسُك الرَّجبيّة والجمع عتائر — والعتائر من الظباء — فإذا بلغتْ إبلُ أحدِهم أو غنمُه ذلك العددَ ، استعمَلَ التأويلَ وقال : إنّما قلتُ إنّي أذبحُ كذا وكذا شاة ، والظباء شاء كما أنّ الغنم شاء ، فيجعل ذلك القربانَ شاءً كلَّه ممّا يَصيد من الظباء ، فلذلك يقول الحارثُ بن حِلِّزةَ اليشكُرِيّ :

عَنَتاً باطلاً وظُلماً كما تُعْـتَرُ عَنْ حُجْرَةِ الرَّبيضِ الظِّباء

بعد أن قال :

أمْ علَينا جُناحُ كِنْدَةَ أن يَغْنَـمَ غازِيهُمُ ومِنَّا الجزاء

وكانوا إذا أوردُوا البقرَ فلم تشرَبْ ، إمّا لكدَرِ الماء ، أو لقلّةِ العطَش ، ضربوا الثورَ ليقتحِم الماء ، لأنّ البقرَ تَتْبعه كما تتْبع الشَّوْلُ الفحل ، وكما تتبع أُتُنُ الوحشِ الحِمار ، فقال في ذلك عَوْفُ بن الخَرِع[1] :

تَمَنَّتْ طيِّئٌ جَهْلاً وجُبْناً   وقد خالَيْتُهم فأَبَوْا خِلائي[2]
هَجَوْني أنْ هَجَوْتُ جِبالَ سلمى   كضَرْبِ الثَّورِ للبقَرِ الظِّماء

وقال في ذلك أنَس بن مُدْرِك في قتله سُلَيك بنَ السُّلَكَة :

إنّي وقَتْلي سُلَيْكاً ثمّ أعْقِلَهُ   كالثَّور يُضرَب لمّا عافتِ البَقرُ[3]
أنِفْتُ لِلْمَرْءِ إذْ نِيكتْ حَليلتُه   وأن يُشَدَّ على وجعائها الثُّفُرُ[4]

(١) في ط « عوض بن الجزع » وهو على الصواب الذي أثبته ، في ل ، س ١٠ س .
(٢) خاليتهم : تركتهم .
(٣) عافت : امتنعت عن شرب الماء .
(٤) الوجعاء : الاست . والثفر بالتحريك : السير في مؤخر السرج .

وقال الهَيَّبان الفقمى(١) :

كما ضُرِبَ اليَعْسُوب أنْ عافَ بَاقِرٌ ... وما ذَنْبُهُ إن عافَتِ الماءَ بَاقِرُ

ولما كان الثورُ أميرَ البقر ، وهى تطيعُه كطاعة إناث النحل لليعسوب ، سَمَّاه باسم أميرِ النحْلِ .

وكانوا يزعمون أنَّ الجنَّ هى التى تصُدُّ الثِّيرانَ عن الماءِ حتى تُمْسِكَ البقرُ عن الشرب حتى تهلِك ، وقال فى ذلك الأعشى :

فإنِّى وما كلَّفتمونى ــ وربِّكم ــ ... لأعلَمُ مَنْ أمْسَى أعقَّ وأحوَبا(٢)

لكالثَّورِ والجنىّ يَضرِبُ ظَهرَه ... وما ذنْبُه أنْ عافَتِ الماءَ مَشرَبا

وما ذنْبُه إنْ عافَتِ الماءَ باقِرٌ ... وما إن تَعَافُ الماءَ إلاَّ ليُضْرَبا(٣)

كأنهقال : إذا كان يُضْرَبُ أبداً لأنها عافت الماء ، فكأنَّها إنما عافَتِ الماء ليُضْرَب .

وقال يحيى بن منصور الذُّهْلىّ فى ذلك :

لكالثَّورِ والجنىّ يَضْرِبُ وَجْهَه ... وما ذَنْبُه إن كانَتِ الجنُّ ظالِمه

وقال نَهْشَلُ بنُ حَرِّىٍّ(٤) :

أتُتْرَكُ عارِضٌ وبنو عَدِىٍّ ... وتَغْرَمَ دارِمٌ وهمُ بَرَاء

كدأبِ الثَّوْرِ يُضْرَبُ بالبرارى ... إذا ما عَافَتِ البَقَرُ الظِّماء(٥)

وكيف تكلَّفُ الشِّعرَى سُهيلاً ... وبينَهما الكواكبُ والسَّماء

---

(١) فى الأصل « الهيتان » وانظر الإصابة ج ٢ س ٩ والقاموس « هيب » .

(٢) فى ط ، س ، ١٠ س « أحربا » بالراء . . وما أثبته عن ل . . يقال حاب بكذا : أثم ، والمصدر الحوب بفتح الحاء وتضم . وفى القرآن الكريم « إنه كان حوبا كبيرا » .

(٣) باقر : اسم جمع للبقر . ومثله بقير وبيقور وباقور وباقورة .

(٤) له ترجمة فى خزانة البغدادى ١ : ٢٨٤ بولاق .

(٥) لعلها « بالمراوى » .

وقال أبو نُوَيرة بن الحصين ، حين أخذه الحكم بن أيُّوب بذَنْب العَطرَّق[١] :

أبا يُوسُفٍ لو كنتَ تَعلَمُ طاعَتى ونُصْحِى إذَنْ هادَيتَنى بالمحلَّق[٢]
ولا ساقَ سَرّاق العِرافة صالحٌ[٣] بَنِىَّ ولا كُلِّفْتُ ذَنْبَ العطرق[١]

وقال خِداش[٤] بن زُهير حين أُخِذ بِدماء بنى محارِب[٥] :

أُكلَّفُ قَتْلَى مَعْشرٍ لستُ مِنهمُ ولا دارُهُمْ دارِى ولا نصرُهُمْ نَصْرِى
أُكَلَّفُ قَتْلَ العِيصِ عِيصٍ شُواحِطٍ وذلك أمرٌ لم تُثَفَّ لَهُ قِدْرِى[٦]

وقال الآخر :

١١ إذا عَرَكت عِجْلٌ بنا ذَنْبَ طَيِّئٍ عَرَكْنا بتَيمِ اللاتِ ذنبَ بَنِى عِجْلِ

ولما وَجَدَ اليهودِىُّ أبا حنبض[٧] الضبابىَّ فى منزله فَخَصَاه فمات ، وأَخَذَ حنبض بنى عَبْس بجناية اليهودىّ ، قال قيسُ بنُ زُهَيْر : أتأخــذُنا بذَنْبِ غيرِنا ، وتسألنا العَقْلَ والقاتلُ يهودىٌّ من أهل تيمــاء ؟ فقال : والله أَنْ لو قتلَتْه هيفُ الريح ، لودَيْتُمُوه ! فقال قيس لبنى عَبْس : الموتُ فى بنى ذُبيانَ خَيْرٌ من الحَياةِ فى بَنى عامر ! ثم أنشأ يقول :

أُكلَّفُ ذا الخُصْيَيْنِ إن كانَ ظالمًا
وإن كنتُ مظلومًا وإن كنتُ شاطنا[٨]

---

(١) فى ط « العطرف » بالفاء ، وصوابه فى ل ، س ، ١٠ س .
(٢) فى ل و ١٠ س « إذن مابعتنى » .
(٣) فى ط « سراف العرافة » وتصحيحه من ل ، س ، ١٠ س
(٤) فى ط « خراش » وما هنا عن ل . وخداش شاعر جاهلى ، من أشراف بنى عامر .
(٥) فى ط « بذنب ابن محارب » وتصحيحه من ل وكما يتضح من الشعر .
(٦) فى ط « عيص شواهد » وهو تحريف ما فى ل ، س ، ١٠ س وفيها كذلك « لم يكلف له » وصوابه ما فى ل ، س ، ١٠ س .. وثنى القدر : وضع لها الأثافى . ووجه الكلام « أكلف قتلى العيص .. » .
(٧) فى ل « أخا حنبض » .
(٨) شاطنا : بعيدا نائيا .

خصاه أمروٌ من آلِ تيماءَ طائر
ولا يَعْدَمُ الإنسىُّ والجنُّ كائنا[١]
فَهلاً بنى ذُبيانَ ـ أمُّكَ هابلٌ ـ
رَهَنْتَ بِهَيْفِ الرِّيحِ إن كُنْتَ راهِنا
إذا قلتُ قد أفلتُّ من شَرِّ حنبض
أتانى بأخْرَى شرّه مُتَباطِنــا
فقــد جَعَلَتْ أكبادُنا تجتويكُمُ
كما تجتوِى سُوقُ العِضاهِ الكرازِنا[٢]

(قتل لقمان بن عاد لنسائه وابنته)

ولما قَتَلَ لُقمانُ بنُ عادٍ ابنتَه ـ وهى صُحْر أختُ لُقَيم ـ قال حين قتَلَها : ألَسْتِ امرأة ! وذلك أنّه قد كان تزوج عِدَّةَ نساء ، كلُّهنَّ خُنَّهُ فى أنفسهنّ ، فلمَّا قَتَلَ أُخراهنَّ ونزل من الجبل ، كان أوَّلَ من تلقّاه صُحْر ابنته ، فوثَبَ عليها فقتلها وقال : وأنت أيضاً امرأة ! وكان قد ابتُلِى بأنَّ أختَه كانت مُحْمِقة[٣] وكذلك كان زوجُها ، فقالتْ لإحدَى نساءِ لُقْمان : هذه ليلةُ طُهْرِى وهى ليلتُك ، فدَعِينى أنامُ فى مَضجَعِك ، فإنَّ لقمانَ رجلٌ مُنْجِب ،

---

(١) فى ل « من آل يماء طابن » وفيها « طابنا » موضع « كائنا » .

(٢) الكرزن وقد يكسر والكرزين بفتح الكاف وسكون الراء وكسر الزاى : الفأس الكبير .

(٣) المحمقة والمحمق أيضا : المرأة تلد الحمق . قال السيوطى فى شرح شواهد المغنى ٦٧ : وكانت تحت رجل أحمق .

فعسَى أن يقَع علىَّ فأَنْجِبَ . فوَقَعَ على أُختهِ فحَمَلَتْ بِلُقَيْم . فهو قولُ النَّمِرِ بن تَولَب(١) :

لُقَيمُ بنُ لُقمانَ من أُختهِ فكانَ ابنَ أُختٍ لهُ وابنَما

ليالِيَ حُمِّقَ فاستحصنَتْ عليه فغُرَّ بها مُظْلِما(٢)

فأحبلَهَا رَجُلٌ مُحكَمٌ فجاءت به رجلاً مُحْكَما(٣)

فضربت العربُ فى ذلك المثلَ بقتل لقمانَ ابنتَه صُحْرًا ، فقال خُفافُ بن نَدْبة فى ذلك :

وعَيَّاش يَدِبُّ لى المنايَا وما أذنَبْتُ إلاَّ ذَنْبَ صُحْر(٤)

وقال فى ذلك ابن أُذَيْنَة(٥) :

١٢ أتجمَع تَهْيامًا بليلَى إذا نأَتْ وهِجْرانَها ظُلمًا كما ظُلِمَتْ صُحْرُ

وقال الحارثُ بن عَبَّاد :

قَرِّبَا مربطَ النعامةِ مِنِّى لَقِحَتْ حربُ وائلٍ عَنْ حِيالِ(٦)

لم أكُنْ من جُناتِها عَلِمَ اللهُ وإنِّى بحَرِّها اليومَ صالِى

وقال الشاعر ، وأظنُّه ابنَ المقفَّع :

---

(١) شاعر مخضرم أدرك الاسلام فأسلم وحسن إسلامه ووفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكتب له كتابا ، وروى عنه حديثا ، وكان أحد أجواد العرب المذكورين وفرسانهم

(٢) فى ط « فغر به » . وغربها : خدع بها . ومظلما : فى الظلام .

(٣) المحكم : المنجب الذى يلد حكيما ، ويقابله المحمق : الذى يلد الحمقى .

(٤) فى ثمار القلوب ٢٤٥ « وعباس يمهد لى المنايا » وفى ل « وعياش يدب إلى » وأدبها : جعلها تدب .

(٥) هو عروة بن أذينة ، وأذينة لقب لأبيه ، واسم أبيه يحيى . شاعر مقدم من أهل المدينة ويعد فى الفقهاء والمحدثين أيضا ، ولكن غلب عليه الشعر ، وله ترجمة مستفيضة فى الأغانى ٢١ : ١٠٥ — ١١١ .

(٦) النعامة : فرس الحارث . وعن حيال : أى بعد انقطاع عن الحمل . والمعنى أنه قد جد الجد .

فلا تَلُمِ المرءَ فى شـــأنهِ فربَّ مـــلومٍ ولَمْ يُذْنِبِ

وقال آخر :

لعلَّ لَهُ عُذْرًا وأنتَ تَلُومُ وكم لائمٍ قد لَامَ وهُوَ مُليمُ[١]

(حديث ســـنِمّار)

وقال بعض العرب ، فى قتل بعضِ الملوكِ[٢] لِسِنِمّار الرومىّ ؛ فإنه لما علا الخَوَرْنَقَ ورأى بُنْيانًا لم يرَ مثله ، ورأى فى ذلك المستشرف ، وخافَ إن هو استبقاه أن يموت فيبنى مثلَ ذلك البنيانَ لرجُلٍ آخرَ من المـــلوك ، رمَى به من فوق القصر ، فقال فى ذلك الكلبىّ[٣] فى شىءٍ كان بينه و بين بعضِ الملوك :

جَزَانِى جَزَاهُ اللّٰهُ شَرَّ جزائهِ جَزَاءَ سِنِمّارٍ وما كانَ ذَا ذنبِ
سِوَى رَصِّه البنيانَ سَبعين حِجَّةً يُعَلِّى عليه بالقَرَامِيدِ والسَّكْبِ[٤]
فلما رأى البُنْيانَ تمّ سُـــحُوقُه
وآضَ كمِثْلِ الطَّوْدِ ذى الباذِخِ الصَّعْبِ[٥]
وظنَّ سِنِمّارٌ به كُلَّ حبوة وفازَ لَدَيْهِ بالمودَّةِ والقُربِ[٦]

---

(١) كذا ورد الشطران كأنهما بيت واحد ، وحفظى أن الشعر الأول عجز ، صدره : تأن ولا تعجل بلوم لصاحب

(٢) قال الهيثم بن عدى : إنه النعمان بن امرئ القيس بن عمرو بن عدى . وقال ابن الكلبى : هو بهرام جور بن يزدجرد .

(٣) فى ثمار القلوب ص ١٠٩ أنه شراحيل الكلبى .

(٤) القراميد : مفرده قرمد كجعفر وهو الآجر . والسكب : النحاس أو الرصاص ، ويحرك . وفى ثمار القلوب « عشرين حجة » وفى معجم البلدان « ستين حجة » .

(٥) فى معجم البلدان « كمثل الطود والشامخ الصعب » .

(٦) فى ل « حبرة » بمعنى السرور .

فقال أقذِفُوا بالعِلْجِ من رأسِ شاهقٍ   فذاكَ لعَمْرُ اللهِ مِنْ أعظَمِ الخَطْبِ

وجاء المسلمونَ ، يروى خَلَفٌ عن سَلَفٍ ، وتابعٌ عن سابقٍ ، وآخَرُ عَنْ أوّلٍ ، أنَّهمْ لم يختلِفُوا فى عيبِ قولِ زِيادٍ(١) « لآخُذَنَّ الوَلِيَّ بالوَلِيِّ ، والسَّمِيَّ بالسَّمِيِّ ، والجارَ بالجارِ » ولم يختلفُوا فى لَعْنِ شاعِرِهم حيث يقول :

إذا أُخِذَ البَرِىءُ بِغَيْرِ ذَنْبٍ   تَجَنَّبَ ما يُحاذِرُه السَّقيمُ

قال : وقيل لِعَمْرو بن عُبَيد : إنّ فلاناً لما قدَّم رجلاً لِيُضْرَبَ عُنُقُه ، فقيل له : إنّه مجنون ! فقال : لولا أنَّ المجنونَ يَلِدُ عاقلا لخلَّيت سبيلَه . قال :
١٣ فقال عَمْرو : ما خَلَقَ اللهُ النَّارَ إلاَّ بالحقّ !

ولمّا قالت التغلبِيَّةُ للجحَّاف فى وَقْعَةِ البِشْرِ(٢) : فضَّ اللهُ فاكَ وأعماكَ ، وأطالَ سُهادَكَ ، وأَقلَّ رُقادَكَ ، فوَاللهِ إِنْ قتَلْتَ إلاَّ نساءً أعالِيهِنَّ ثُدِيٌّ ، وأسافِلُهُنَّ دُمًى ! ! فقال لِمَنْ حَولَه : لولا أن تَلِدَ هَذِه مثلَها لخلَّيتُ سَبيلَها ! فبلغ ذلك الحسنَ فقال : أمَّا الجحَّاف فجَذْوةٌ من نارِ جهنَّم .

قال ، وذمَّ رجلٌ عند الأحنَفِ بنِ قيس الكَمْأَةَ بالسَّمْنِ ، فقال عند ذلك الأحنَف « رُبَّ مَذْمُومٍ لا ذَنْبَ لَه(٣) » .

فبِهذِه السيرةِ سرتَ فينا.

وما أحسنَ ما قال سعيدُ بنُ عبدِ الرحمن(٤) :

وإنّ امرأً أمسَى وأصْبَحَ سالماً   مِنَ النَّاسِ إلاَّ ما جَنَى لَسَعِيدُ

---

(١) هو ابن أبيه ، والكلام فى خطبته البتراء المعروفة .

(٢) فى ط « البسر » وهو تصحيف ، والبشر : جبل يمتد من الشام إلى الفرات وانظر المعجم .

(٣) الخبر فى البيان والتبيين ٢ : ٢٣٨ .

(٤) هو سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت .

(عناية العلماء بالملح والفكاهات)

وقلتَ : وما بالُ أهلِ العلمِ والنظرِ ، وأصحابِ الفكرِ والعِبَر ، وأربابِ النِّحَلِ ، والعلماءِ وأهلِ البصر بمخارجِ المِلَل ، وورثَةِ الأنبياء ، وأعوانِ الخلفاء ، يكتبُونَ كتبَ الظُّرفاء والمُلَحَاء ، وكُتُبَ الفرّاغِ والخُلَعاء ، وكتبَ الملاهي والفُكاهات ، وكتبَ أصحابِ الخُصوماتِ ، وكتبَ أصحابِ المِراءِ ، وكتبَ أصحابِ العصبيَّةِ وحَمِيَّةِ الجاهليّة ! ! ألِأنَّهُمْ لا يحاسِبون أنفسهم ، ولا يُوازِنون بينَ ما عليهم ولهم ، ولا يخَافُون تصفُّحَ العلماءِ ، ولا لأئمة الأرَبَاءِ[(١)] ، وشنف الأكْفَاء ، وَمَشْنأةَ[(٢)] الجُلَساء ! ؟

فهلاّ أمسكتَ ـ يَرْحَمُكَ الله ـ عَنْ عَيْبِها والطَّعْنِ عليها ، وعن المَشُورَةِ والموعظة ، وعن تخويفِ ما في[(٣)] سوء العاقبةِ ، إلى أنْ تبلغَ حالَ العلماءِ ، ومراتبَ الأَكْفاء ؟ !

فأمّا كتابُنا هذا ، فسنذكرُ جُمْلَةَ المذاهب[(٤)] فيه ، وسَنَأْتِي [بعد ذلك] على التفسير ، ولعلّ رأيَك عند ذلك أنْ يتحوّل ، وقولَك أن يتبدل ، فتُثْبِتَ أو تكونَ قد أخذتَ من التوقُّفِ بنصيب [إن شاء الله] .

---

(١) كذا في ل وفي ط « ولائمة الأدباء » .

(٢) في ط « شنأة » وصوابه شناءة وأثبت ما في ١٠ س وأما في ل فهي « مساءة » والشنف بالتحريك وكذا المشنأة بمعنى هو البغض .

(٣) في ل « مافيه » .

(٤) في ط « المذاهب » والوجه ما أثبته من ل ، س .

(أقسام الكائنات)

وأقول : إنّ العالمَ بمـا فيه من الأجسام على ثلاثة أنحاء : متّفق ، ومختلف ، ومتضادّ ؛ وكلُّها فى جملةِ القول جمادٌ ونامٍ . وكان حقيقةُ القولِ فى الأجسامِ من هذه القِسْمة ، أن يقال : نامٍ وغيرُ نام . ولو أنَّ الحكماء وضعُوا لكلِّ ما ليس بنامٍ اسماً ، كما وضعُوا للنامى اسماً ، لاتبّعنا أثرَهُمْ ؛ وإنّمـا ننتهى إلى حيثُ انتهوا . وما أكثَرَ ما تكونُ دلالةُ قولِهِمْ جماد ، كدلالةِ قولهم مَوَات . وقد يَفترِقان فى مواضـعَ بعضَ الافتراق . وإذا أخرجت[1] من العالَمِ الأفلاكَ والبروجَ والنجومَ والشمسَ والقمر ، وجدتَها غيرَ نامية ، ولم تجدْهم يسمُّون شيئاً منها بجَماد ولامَوات ، وليس لأنَّها تتحرّكُ من تِلقاءِ أنفُسِها لم تُسَمَّ مواتاً ولا جمادًا .

وناسٌ يجعلونها مدبِّرة ، وناسٌ غير مدبِّرة ، ويجعلونها مسخَّرَة وغيرَ
١٣ مسَخَّرَة[2] ، ويجعلونها أحياء من الحيوان ؛ إذْ كان الحيوانُ إنّمـا يَحْيا بإحيائها لَه ، وبِمـا تُعطيه وتُعيره . وإنمـا هذا منهم رأى ، والأعمُّ فى هذا كلِّه على خلافِهم ، ونحنُ فى هـــذا الموضعِ إنَّمـا نعبِّر عن لُغَتنا ، وليس فى لُغتنا إلاّ ما ذكرنا .

والناسُ يسمُّون الأرضَ جمادًا ، وربَّمـا يَجعلونها مَوَاتاً إذا كانتْ لم

---

(١) فى ط « خرجت » .

(٢) فى ل و س « مدبرة غير مدبرة ويجعلونها مسخرة غير مسخرة » وما هنا صوابه .

تُنْبِتْ قديمًا ، وهى مَوَات الأرض ، وذلك كقولهم : مَنْ أحيا أرضاً مواتاً فهى له .

وهم لا يجعلون الماء والنارَ والهواء ، جمادًا ولا مَوَاتاً ، ولا يسمُّونها حيواناً مادامت كذلك ، وإن كانت لاتضاف إلى النمَّاء والحسّ .

والأرضُ هى أحدُ الأركانِ الأربعة ، التى هى الماء والأرضُ والهواء والنار ، والاسمانِ لا يتعاوَرَانِ عندَهم إلاّ الأرض .

(تقســـــيم النامى)

ثمَّ النامِى على قسمين : حيوان ونبات ، والحيوانُ على أربعة أقسام : شىء يمشى ، وشىء يطير ، وشىء يسْبَحُ ، وشىء يَنْسَاح[١] . إلاّ أنّ كلّ طائرٍ يمشى ، وليس الذى يَمْشى ولا يَطِير يسمى طائراً . والنوعُ الذى يَمشى على أربعةِ أقسام : ناس ، وبهائم ، وسباع ، وحشرات . على أنّ الحشَراتِ راجعةٌ فى المعنى إلى مشاكلةِ طباع البهائمِ والسباع . إلاّ أنّنا فى هذا كلِّه نتبع الأسماء القائمة[٢] المعروفة ، البائنات بأنفُسِها ، المتميِّزات عند سامعيها ، مِنْ أهلِ هذه اللغةِ وأصحابِ هذا اللسان ، وإنَّما نُفْرِد ما أفْرَدوا ، ونَجْمَع ما جَمَعوا[٣] .

---

(١) ينساح : يمشى على بطنه .

(٢) فى ط « الفارقة » .

(٣) فى ط « وإنما يفرد ماأفردوا ، ويجمع ماجمعوا » .

(تقســــيم الطير)

والطيرُ كلٌّ سَبُعٍ وبَهيمة وهَمَج . والسباعُ من الطيرِ على ضَرْبَيْن : فمنها العِتاقُ والأحرارُ والجوارحُ ، ومنها البغاث(١) وهو كلٌّ ما عظُمَ من الطير : سبعاً كان أو بهيمة ، إذا لم يكنْ من ذواتِ السلاحِ والمخالبِ المعقَّفة ، كالنُّسورِ والرَّخَم والغِربان ، وما أشبهها مِنْ لئامِ السباع .

ثم الخَشَاش ، وهو مالطُف جِرمُه وصَغُر شخصه ، وكان عديمَ السلاح [لا(٢)] كالزُّرَّقِ(٣) واليُؤيُؤ(٤) والبادنجار(٥) .

فأما الهَمَج فليس من الطير ، ولكنَّه ممَّا يطير . والهمَجَ فيما يطيرُ ، كالحشراتِ فيما يمشى .

والحيّاتُ من الحشرات ، وأيُّ سبعٍ أَدخَلُ فى معنى السبُعيّة مِنَ الأفاعى والثعابين ؟ ولكن ليس ذلك من أسمائها ، وإن كانتْ من ذوات الأنيابِ وأكَّالة اللُّحوم وأعداءِ الإنسِ وجَميعِ البهائم ، ولذلك تأكلُها الأوعَال(٦) والخنازيرُ والقَنافذُ والعقبان(٧) والشاهَمْرك(٨) والسنانير ، وغير ذلك من البهائم والسباع . فمَنْ جَعَل الحيَّاتِ سِباعًا ، وسمَّاها بذلك عندَ بعضِ القولِ والسببِ فقدْ أصابَ ، ومن جعلَ ذلك لها كالاسمِ الذى هو العلامةُ

---

(١) فى القاموس ، البغاث مثلثة : طائر أغبر جمعه كغزلان ، وشرار الطير .

(٢) كلمة يفتقر إليها الكلام .

(٣) الزرق : طائر يصاد به ، بين البازى والباشق ، وفيه ختل وخبث .

(٤) اليؤيؤ : من جوارح الطير يشبه الباشق .

(٥) كذا فى ط و س و ١٠ س . وفى ل « الباذنجان » . وأراها محرفة عن « الباشق » أنظر الحيوان ٢ : ٦٨ .

(٦) فى ط « الأوغال » وتصحيحه من ل ومن الحيوان للجاحظ ٦ : ١٢٤ .

(٧) فى ط « الغربان » .

(٨) الشاهمرك : الفتى من الدجاج قبل أن يبيض بأيام قلائل ، وهو معرب شاه مرغ ، ومعناه ملك الطير . . الدميرى .

كالـكَلْبِ والذئب والأَسَد فقد أخطأ .

ومن سِباعِ الطيرِ شكلٌ يكون سِلاحُه المَخالبَ كالعُقابِ وما أشبهها ، وشيءٌ يكونُ سِلاحُه المناقيرَ كالنُّسُورِ والرَّخَمِ والغِرْبان ، وإنّما جعلْناها سباعًا لأنّها أكّالةُ لحوم .

ومِنْ بهائم الطير ما يكون سـلاحُه المناقيرَ كالـكَرَاكِيِّ وما أشبهها ، ومنه ما يكونُ سـلاحُه الأسنانَ كالبُومِ والوَطْوَاطِ وما أشبهها ، ومنه ما يكونُ سلاحُه الصياصِى كالدِّيَكَة ، ومنه ما يكون سلاحه السَّلْح(١) كالحُبارى(٢) والثعلب .

والسَّبُع من الطير ما أكل اللحمَ خالصًا ، والبهيمةُ ما أكلت الحبَّ خالصاً . وفى الفنِّ الذى يجمعها من الخلْق المركَّبِ والطبع المشـتَرَك ، كلامٌ سنأتى عليه فى موضعه إن شاء الله تعالى .

والمشتَرَك عندهم كالعصفور ؛ فإنَّه ليس بذى مِخْلَبٍ معقَّف ولامِنْسَر(٣) وهو يلقط الحبَّ ، وهو مع هذا يصيد النَّمْل(٤) إذا طار ، ويَصِيد الجرادَ ، ويأكُلُ اللحم ، ولا يَزُقُّ فِرَاخَه كما تزقُّ الحمامُ ، بل يُلْقِمها كما تُلْقِمُ السباعُ من الطير فراخَها . وأشباهُ العصافيرِ من المشتَرَك كثيرٌ ، وسنذكُر ذلكَ فى موضعِه إن شاء الله تعالى .

---

(١) السلح والسلاح كغراب : النجو .

(٢) فى ط « كالجارى » والصواب كالحبارى كما فى ل . وهى من الطيور التى سلاحها سلاحها .

(٣) المنسر كمجلس ومنبر : منقار الطير .

(٤) فى ط « النحل » والصواب « النمل » كما فى ل فان النحل طائر بطبعه ، وأما النمل فيعرض له الطيران حين الـكبر ، قال أبو العتاهية :

وإذا استوت للنمل أجنحة حتى يطير فقد دنا عطبه

وليس كلُّ ما طار بجَناحينِ فهو من الطير ؛ قد يطير الجُعْلانُ والجَحَلُ واليَعاسِيبُ والذّبابُ والزّنابِيرُ والجَرادُ والنمْل ، والفَراشُ والبَعوضُ والأَرضَة والنحلُ وغيرُ ذلك ، ولا يسمَّى بالطير . وقد يقال ذلك لها عند [بعض] الذكرِ والسبب . وقد يســمُّون الدجاجَ طيرًا ولا يسمُّون بذلك الجراد ، والجرادُ أطْيَرُ[1] ، والمثلُ المضروبُ به أشهر . والملائكةُ تَطيرُ ، ولها أجنحةٌ وليستْ من الطير . وجَعفر بن أبي طالب ذو جناحين يَطير بهما في الجنّــة حيثُ شاء ، وليس جعفرٌ من الطير .

واسم طائرٍ يقَع على ثلاثة أشياء : صورة ، وطبيعة ، وجَناح . وليس بالريشِ والقوادِمِ[2] والأباهِرِ[3] والخوافي[4] ، يسمَّى طائراً ، ولا بعدمه يسْقط ذلك عنه . ألا ترى أنَّ الخفَّاشَ والوَطواطَ من الطير ، وإن كانا أمْرَطَينِ ليس لهما رِيشٌ ولا زَغَبٌ ولا شَكيرٌ ولا قَصَبٌ[5] وهما مشهورانِ بالحمل والولادة ، وبالرّضاع ، وبظهور حَجْم الآذان ، وبكثرة الأسنان .

والنعامة ذاتُ ريشٍ ومِنقارٍ وبَيضٍ وجَناحين ، وليست من الطير .

وليس أيضاً كلُّ عائمٍ سمكةً ، وإن كان مناسباً للسمك في كثير من معانيه . ألا تَرَى أنّ في المـاء كَلْبَ المـاء ، وعنْزَ المـاء ، وخنزيرَ المـاء ؛ وفيه الرِّقُّ[6] والسُّلَحْفاة ، وفيه الضِّفْدَع وفيه السرطان ، والبَيْنيبُ[7] ،

(١) في ط « طير » والصواب ما في ل . وأطير : أشد طيرانا .

(٢) القوادم والقدامى ــ كحبارى ــ أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح. الواحدة قادمة

(٣) الأبهر : الجانب الأقصر من الريش جمعه أباهر .

(٤) الخوافي : ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت .

(٥) الزغب : الريش القصير . والشكير: صغار الريش بين كبارها . والقصب: ضرب من صغار الريش .

(٦) قال الدميري : بكسر الراء وبالقاف ضرب من دوابّ المـاء يشبه التمساح . والرق أيضاً : العظيم من السلاحف وجمعه رقوق .

(٧) ورد هذا الاسم محرفا في جميع النسخ فهو في ط « التبتل » وفي ل « البنبل » وفي س «الثبتل» وصوابه في الدميري قال « على وزن فيعيل سمك بحري معروف عند أهل البحر » وانظر معجم المعلوف ٢٥١ .

والتِّمساحُ والدُّخس والدُّلفين واللُّخْم والبنبك[١] ، وغيرُ ذلك من الأصناف . والكَوسَج والد اللُّخم ، وليس للكوسج أبٌ يُعرَف . وعامَّةُ ذا يَعيش فى الماء ، ويبيت خارجًا من الماء ، ويَبيضُ فى الشطِّ ، ويَبيض بيضاً لهُ صُفْرَةٌ ، وَقَيْضٌ وغِرْقِئٌ ، وهو مع ذلك ممَّا يكون فى الماء مع السمك .

(تقسيم الحيوان إلى فصيح وأعجم)

ثمَّ لا يخرج الحيوان بعد ذلك فى لغة العرب من فصيح وأعجم ، كذلك يقال فى الجملة ، كما يقال الصامت لما لا يَصْنَع صمتاً قطُّ ولا يجوز عليه خلافه ، والناطق لِمَا لَمْ يتكلَّمْ قطّ ، فيحملون ما يرغو ، ويثغو ، ويَنهَق ، ويَصْهِل ، ويَشْحَج ، ويَخُور ، ويَبْغَم ، ويَعْوِى ، ويَنبَح ، ويَزْقُو ، ويَضْغُو ، ويَهْدِر ، ويَصْفِر ، ويُصَوْصِى ، ويُقَوْقِى ، ويَنْعَبُ ، ويَزْأَر ، ويَنْزِب[٢] ، ويكِشُّ ، ويَعِجُّ[٣] ، على نطقِ الإنسان إذا جمع بعضه على بعض. ولذلك أشباهٌ ، كالذكور والإناث إذا اجتمعا ، وكالعِيرِ التى تسمَّى لَطِيمة ،

---

(١) فى الأصل « البلبل » والصواب ما كتبته عن القاموس وعن معجم المعلوف ٢٢٥ قال الفيروزبادى « والبنبك ، كقنفذ وجندل : دابة كالدلفين أو سمك يقطع الرجل نصفين فيبلعه » .

(٢) فى ط « يتوب » وفى ل « ينبر » وهو تحريف ما أثبت .

(٣) الرغاء للابل ، والثغاء للشاء ، والنهيق للحمير ، والصهيل للخيل ، والشحيج للبغال ، والخوار للثيران ، والبغام للظباء ، والعواء للذئاب ، والنباح للكلاب ، والزقاء للديكة ، والضغاء للسنانير ، والهدير للفحول ، والصفير للنسور ، والصوصأة للجراء ، والقوقأة للدجاج ، والنعيب للغربان والبوم ، والزئير للأسد ، والنزيب للظباء أو ذكورها خاصة ، والكشيش للأفاعى تحدثه بجلودها . والعجيج : الصياح ، وأحسب هذه الكلمة « يفح » والفحيح صوت الأفاعى تحدثه بأفواهها .

وكالطُّعُن ؛ فإنَّ هذه الأشياء إذا وجد بعضُها إلى بعض ، أو أُخذ بعضُها من بعض ، سمِّيتْ بأنبه النوعَين ذِكْرًا ، و بأقواهما . والفصيحُ هو الإنسان ، والأعجم كلُّ ذى صوتٍ لا يفهَمُ إرادتَه إلاّ ما كان من جنسه . ولعمرى إنا نفهم[1] عَن الفرَس والحمارِ والكلبِ والسِّنَّور والبعير ، كثيراً من إرادته وحوائجه وقصوده[2] ، كما نفهم إرادةَ الصبىِّ فى مَهْده ونعلم[3] ـ وهو من جليل العلم ـ أنّ بكاءه يدلُّ على خلافِ ما يدُلُّ عليه ضَحِكُه . وحَمْحَمَةُ الفرَسِ عند رؤية المخلاة[4] ، على خلاف ما يدلُّ عليه حمحمتُه عند رؤية الحِجْر ، ودُعاء الهِرّةِ الهرَّ خلافُ دعائِها لولدها ، وهذا كثير .

والإنسانُ فصيح ، وإنْ عبَّرَ عن نفسِه بالفارسـيّة أو بالهنديّة أو بالروميّة ، وليس العربىُّ أسوأ فهماً لِطَمْطَمَةِ الرومىِّ [من الرومى] لبيانِ لسانِ العربىّ. فكلُّ إنسانٍ من هذا الوجه يقال له فصيح ، فإذا قالوا : فصيح وأعجَم ، فهذا هو التأويل فى قولهم أعجم ، وإذا قالوا : العرب والعجم ولم يلفظوا بفصيح وأعجم ، فليس هذا المعنى يريدون ، إنَّما يَعنُون أنَّه لا يتكلَّمُ بالعربيَّة ، وأنَّ العربَ لا تفهم عنه . وقال كُثَيِّر :

فبُورِكَ ما أعطَى ابنُ لَيلَى بِنِيَّةٍ وصامتُ ما أعطَى ابنُ ليلى وناطقُه

---

(١) كذا على الصواب فى ل .. وفى ط « إن التميم » .

(٢) فى الأصول «وقصوره» بالراء ولم يظهر معناه فكتبت مكانه «قصوده» جمع قصد

(٣) فى ط « ونفهمه » .

(٤) فى ط « الفحل » وليس بالوجه . والوجه ما فى ل ، وورد فى ط زيادة « من » قبل « حمحمة » وإثباتها يفسد التركيب .

ويقال « جاء بما صَأى[١] وصمت » فالصامت مثل الذهب والفضّة ، وقوله صَأى[١] يعنى الحيوانَ كلّه ، ومعناه نطق وسكَت ؛ فالصامت فى كلّ شىء سِوَى الحيوان .

ووجدْنا كونَ العالَمِ بما فيه حكمةً ، ووجدْنا الحكمةَ على ضربَين : شىء جُعِلَ حكمةً وهو لا يَعقِل الحكمةَ ولا عاقبةَ الحكمة ، وشىء جُعِل حكمةً ، وهو يَعقِل الحكمة وعاقبةَ الحكمة . فاستوى بذاكَ الشىء العاقلُ ١٧
وغير العاقل فى جهةِ الدّلالةِ على أنّهُ حكمة ؛ واختلفا من جهةِ أنّ أحدهما دَليلٌ لايَسْتَدِلّ ، والآخر دليل يستدل ، فكلُّ مُسْتَدِلٍّ دليل وليس كلُّ دليلٍ مستدلا ، فشارَكَ كل حيوانٍ سوى الإنسان ، جميعَ الجمادِ فى الدّلالة ، وفى عدم الاستدلال[٢] ، واجْتَمَع للإنسان أنْ كان دليلاً مستَدِلاً .

ثُمَّ جُعِل للمستدِلِّ سببٌ يدلُّ به على وجوهِ استدلاله ، ووُجوهِ ما نتج له الاستدلال ، وسمَّوا ذلك بياناً .

(وسائل البيان)

وجُعِل البيانُ على أربعة أقسام : لفظ ، وخطّ ، وَعَقْد[٣] ، وإشارة ،

(١) فى ط « ضأى » بالضاد وهو تصحيف صوابه مافى ل ، س .

(٢) فى ط « وفى عدم الاستدلال وسموا ذلك بيانا » . و «وسموا ذلك بيانا» عبارة إضافية لا معنى لها .

(٣) تحدث الجاحظ عن العقد فى البيان ١ : ٧١ ، وقال : إنه الحساب دون اللفظ والخط ، وقد علق الجاحظ عليه أهمية كبرى إذ يقول « وفى عدم اللفظ وفساد الخط ، والجهل بالعقد فساد جلّ النعم ، وفقدان جمهور المنافع » فيظهر أن ذلك الضرب من الحساب كان شائعا فى عصره . ووجدت للبغدادى كلاماً فى (العقد) ٣ : ١٤٧ بولاق ، قال « واعلم أن العقود والعقد نوع من الحساب يكون بأصابع اليدين يقال له : حساب اليد ، وقد ورد منه فى الحديث : وعقد عقد تسعين . وقد ألفوا فيه كتبا وأراجيز » وانظر الخزانة .

وجُعِل بيانُ الدليل الذى لايستدِلُّ تَمْـكِينَهُ المستدِلَّ من نفسه ، واقتيادَه كلَّ من[1] فـكَّر فيه إلى معرفةِ ما استُخْزِنَ من البرهان ، وَحُشِىَ[2] من الدَّلالة ، وأُودِع مِن عجيب الحكمة . فالأجسامُ الخُرْسُ الصامتــة ، ناطقةٌ مِن جهة الدَّلالة ، ومُعْرِبةٌ من جهة صحَّة الشهادة ، على أنَّ الذى فيها من التدبير والحِـكمة ، مخبرٌ لمن استخبرَه ، وناطقٌ لِمَنْ استنطقه ، كما خبَّر الهُزَالُ وكُسُوف اللونِ،عن سوءِ الحال ، وكما ينطق السِّمَنُ وحُسْنُ النَّضْرَة ، عن حسن الحال ، وقد قال الشاعر [وهو نصيب] :

فعاجُوا فأثنَوا بالذى أَنْتَ أَهلُه   ولو سكتوا أثنتْ عليكَ الحقائبُ

وقال آخر :

مَتى تَكُ فى عدوٍّ أو صديقٍ   تُخَـبِّرْكَ العيونُ عن القلوبِ

وقد قال العُـكْلِىُّ[3] فى صِدق شمِّ الذئب وفى شدَّةِ حسِّه واسترواحه :

يَستخبِرُ الريحَ إذا لم يَسْمَعِ   بمثلِ مقراعِ الصفا الموقَّعِ[4]

وقال عنترة ، وهو يصف نَعيبَ غُراب :

حَرِقُ الجَنَاحِ كأنَّ لَحْيِى رأسه   جَلَمَانِ بالأخبارِ هَشٌّ مُولَعُ[5]

---

(١) فى ط « واقتياده فـكل » وأصلحت العبارة من ل .

(٢) فى ط « وحتى » وهو تصحيف ظاهر توجيهه فى ل .

(٣) هو أبو الردينى العكلى ، كما فى البيان ١ : ٧٢ .

(٤) قال الجاحظ فى البيان : المقراع : الفأس التى يكسر بها الصخر . والموقع : المحدد .

(٥) فى ط «خرق» بالخاء وهو تصحيف ، صوابه فى ل وفى البيان . قال الجاحظ فى البيان ١ : ٧٢ : الحرق : الأسود ، شبه لحييه بالجلمين لأن الغراب يخبر بالغربة والفرقة ، ويقطع كما يقطع الجلمان اه . وقد ذكر ابن رشيق هذا البيت فى العمدة ١ : ٢٠٢ وجعله من التشبيهات العقم ،التى لم يسبق أصحابها إليها ولا تعدى أحد بعدهم عليها .

وقال الفضل بن عيسى بن أبان فى قصصه: سَلِ الأَرْضَ ، فقلْ: مَنْ شقَّ أنهارَكِ ، وَغَرَسَ أشجارَكِ ، وَجَنَى ثِمارَكِ ؛ فإِنْ لم تُجبكَ حِواراً ، أجابتْكَ اعتبارا .

فموضوعُ الجسمِ ونَصْبته ، دليلٌ على ما فيه وداعيةٌ إليه ، ومنبهة(١) عليه ، فالجمادُ الأبكمُ الأخرسُ من هذا الوجه ، قد شارَكَ فى البيان الإنسانَ الحيَّ الناطق . فمَنْ جَعَل أقسام البيانِ خمسة ، فقد ذهَبَ أيضاً مذهباً له جوازٌ فى اللغة ، وشاهدٌ فى العقل . فهذا أحدُ قِسمَى الحكمة ، وأحَدُ ١٨
مَعْنَيَيْهِ(٢) ما استخزنها(٣) اللهُ تعالى من الوديعة .

(ما يعجز عنه الإنسان مما قدر عليه الحيوان)

والقسمة الأُخرى ما أودَعَ صدورَ صنوفِ سائر الحيوان ، مِنْ ضُروبِ المعارف ، وفَطَرَها عليه من غريب(٤) الهداياتِ ، وسخَّر حناجرَها لَهُ من ضروبِ(٥) النغَم الموزونة ، والأَصواتِ الملحَّنة ، والمخارجِ الشجيَّة ، والأغانى المطربة ، فقد يقال إنَّ جميعَ أصواتها معدَّلة ، وموزونة موقَّعة ، ثمَّ الذى سَهَّل لها من الرفق العجيبِ فى الصنعة ، مما ذلَّله اللهُ تعالى لمناقيرها وأكُفِّها ، وكيف فتَحَ لها من باب المعرفةِ على قدر ما هَيَّأ لها من الآلة ، وكيفَ أعطَى كثيراً مِنها مِنَ الحسِّ اللطيفِ ، والصنْعةِ البديعة ، من غير تأديبٍ وتثقيف ، ومن غيرِ تقويمٍ وتلقين ، ومن غير تدريج وتمرين ، فَبَلَغَتْ بِعفوها وبمقدارِ قوى فِطرتها ، من البديهةِ

(١) فى ط « ومهينة » والوجه مافى ل .
(٢) فى الأصل « معنى » والصواب التثنية .
(٣) فى ط « ضرب » وصوابه فى ل .
(٤) فى الأصل « استخزنهما » والضمير راجع إلى « الحكمة » .
(٥) فى ط « غيريب » وهو تصحيف ظاهر .

والارتجال ، ومن الابتداء والاقتضاب ، مالايَقْدِرُ عليه حُذّاقُ رجالِ الرأى ، وفلاسفةُ علماءِ البشر ، بِيَدٍ ولا آلة . بل لا يبلغ ذلك من الناسِ أكملُهُمْ خصالا وأَتمُّهُمْ خلالاً ، لامِن جهة الاقتضاب والارتجال ، ولا من جِهة التعسُّف والاقتدار ، ولا من جهة التقدُّم فيه ، والتأنِّى فيه ، والتأتِّى له، والترتيبِ لمقدِّماته ، وتمكين الأَسباب المُعِينةِ عليه . فصار جهد[١] الإنسانَ الثاقبِ الحسِّ ، الجامعِ القُوى ، المتصرِّفِ فى الوجوه ، المقدَّمِ فى الأُمور ، يَعجِز عن عَفْوِ كَثيرٍ منها ؛ وهو ينظرُ إلى ضروب ما يجىء منها ، كما أُعطِيت العنكبوتُ ، وكما أُعطِيَت السُّرْفَة ، وكما عُلِّم النحْل ، بل[٢] وعُرِّفَ التُّنَوِّطُ مِن بديعِ المعرفة ، ومِن غَرِيبِ الصنعة ، فى غيرِ ذلك مِن أصناف الخلق . ثم لم يوجب لهم[٣] العجزَ فى أَنْفُسِهِمْ فى أكثرِ ذلك ، إلاّ بما قوى عليه الهَمَجُ والْخَشَاشُ وصِغارُ الحشرات ، ثم جعل الإنسان ذا العقلِ والتمكينِ[٤]، والاستطاعة والتصريف ، وذا التكلُّفِ والتجربة ، وذا التأنِّى والمنافَسَة ، وصاحبَ الفهْمِ والمسابَقَة[٥]، والمتبصِّرَ شأنَ العاقبة ، متى أَحسَنَ شيئا كان كلُّ شىءٍ دونَه فى الغُمُوض عليه أَسهلَ ، وَجَعَل سائِرَ الحيوانِ ، وإن كان يحسنُ أحدُها مالايحسنُ أحذَقُ الناس متى أحسنَ شيئاً عجيبا ، لم يمكنْهُ أن يُحسِنَ ما هو أقربُ منه فى الظنّ ، وأسهلُ منه فى الرأى ، بل لايحسِنُ ماهو أقرب منه فى الحقيقة . فلا الإِنسانُ جَعَلَ

---

(١) فى ط « جلة » وصوابه فى ل .

(٢) هذا الحرف ليس فى ل .

(٣) فى ط ، ل « يوجدهم » موضع « يوجب لهم » وما أثبته هو الوجه .

(٤) فى ط « ليعلم الانسان أن ذا العقل والتمكين » ووجهه ما فى ل لتتم المقارنة بقوله بعد « وجعل سائر الحيوان .. الخ » .

(٥) فى الأصل « السابقة » وكتبت ماأهو أشبه بالكلام .

نفسه كذلك ، ولا شيء من الحيوان اختارَ ذلك ، فأحسَنَتْ هذه الأجناسُ
١٩ بلا تعلُّم ، ما يمتنِع على الإنسان وإن تعلَّم ، فصار لايحاوله ؛ إذْ كان
لايطمع فيه ، ولا يحسُدُها ؛ إذ لايؤمِّل اللَّحاقَ بها ، ثمّ جعل تعالى وعزّ ،
هاتين الحكمتين بإزاء عُيونِ الناظرِين ، وتُجاهَ أسماعِ المعتبِرين ، ثمّ حثّ
على التفكير والاعتبار ، وعلى الاتّعاظ والازدجار ، وعلى التعرّفِ والتبيُّن ،
وعلى التوقُّفِ والتذكُّر ، فجَعَلَها مذكِّرةً منبِّهة ، وجَعَلَ الفِطر تُنْشِئ[(١)]
الخَواطرَ ، وتجُولُ بأهلها في المذاهب ذَلِكَ ٱللَّهُ رَبُّ العالَمِينَ ، ﴿ فَتَبَارَكَ
ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ ﴾ .

(مزج الهزل بالجدّ في الكتاب)

وهذا كتابُ موعظةٍ وتعريفٍ وتفقُّهٍ وتنبيه . وأراكَ قد عِبتَه قبل أن تقفَ على حُدودِه ، وتتفكَّرَ في فصوله ، وتَعتبِرَ[(٢)] آخرَه بأوله ، ومَصادرَه بمواردِه ، وقد غلّطَك فيه بعضُ ما رأيت [في أثنائه] من مزحٍ لم تعرفْ معناه ، ومن بَطالةٍ لم تطّلعْ على غَورها ؛ ولم تدرِ لم اجتُلِبت ، ولا لأيّ علّةٍ تُكُلِّفت ، وأيّ شيءٍ أُرِيغَ بها ، ولأيّ جِدٍّ احتُمِل ذلك الهزل ، ولأيّ رياضةٍ تُجُشِّمتْ تلك البَطالة ؛ ولم تَدْرِ أنّ المِزاحَ جِدٌّ إذا اجتُلِب ليكون علّةً للجدّ ، وأنّ البَطالةَ وَقارٌ ورَزانة ، إذا تُكُلِّفت لتلك العاقبة . ولما قال الخليلُ بن أحمد : لا يصل أحدٌ من علم النحو إلى ما يحتاجُ إليه .

---

(١) هذا ما في ل .. وفي ط « وجعل الفكر ينشئ » .

(٢) في الأصل « تتفكر » والوجه : « تعتبر » .

حتَّى يتعلَّمَ مالا يحتاج إليه ، قال أبو شمر : إذا كان لايُتوصَّل إلى مايحتاج إليه إلاَّ بما لايحتاج إليه ، فقد صار مالايُحتاج إليه يُحتاج إليه . وذلك مثل كتابنا هذا ؛ لأنَّه إن حَمَلْنا جميعَ من يتكلَّف قراءةَ هذا الكتابِ على مُرِّ الحق ، وصُعوبة الجِدِّ ، وثِقل المئونة ، وحِلية الوقار ، لم يصبْر عليه مع طوله إلاَّ من تجرَّدَ للعلم ، وفهم معناه ، وذاق من ثمرته ، واستشعر قلبه من عِزِّه ، ونال سروره على حسب مايُورث الطول من الكدِّ ، والكثرةُ من السآمة ، وما أكثر مَن يُقَاد إلى حظِّه بالسواجير[1] ، وبالسوق العنيف ، وبالإخافة الشديدة .

(نعت الكتاب)

ثم لم أرَكَ رضِيتَ بالطعن على كلِّ كتابٍ لى بعينه ، حتَّى تجاوزتَ ذلك إلى أنْ عبت وضْعَ الكتبِ كيفما دارت بها الحالُ ، وكيفَ تصرفَتْ[2] بها الوجوه ، وقد كنتُ أعجَب من عيبك البعضَ بلا علم ، حتَّى عِبتَ الكلَّ بلا علْم ، ثم تجاوزْت ذلك إلى التشنيع ، ثم تجاوزتَ ذلك إلى نصب الحربِ فعبتَ الكِتَابَ ؛ ونعم الذخر والعقدة[3] هو ، ونعم الجليس والعُدَّة ، ونعم النشرة والنزهة ، ونعم المشتغل والحرفة ، ونعم الأنيس لساعة الوَحدة ، ونعم المعرفةُ ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل ، ونعم الوزير والنزيل . والكتاب وعاء مُلِئَ علماً ، وَظَرْفٌ حُشِى ظَرْفًا ، وإناء

---

(١) الساجور : خشبة تعلق فى عنق الكلب . وسجره : شده به كسوجره .

(٢) فى الأصل (تصرف) .

(٣) العقدة ، بضم العين : مافيه بلاغ الرجل وكفايته .

شُحِن مُزاحًا وجِدًّا ؛ إنْ شئتَ كان أبيَنَ من سَحْبانِ وائل ، وإن شئتَ كان أعيا من باقِل ، وإن شئتَ ضَحِكْتَ مِنْ نوادِرِه ، وإن شئتَ عَجِبتَ من غرائبِ فرائدِه ، وإن شئتَ ألهتْكَ طرائفُه ، وإن شئتَ أشجَتْك مواعظُه ، وَمَنْ لَكَ بِواعظٍ مُلْهٍ ، وبزاجرٍ مُغْرٍ ، وبناسكٍ فاتك ، وبناطقٍ أخرسَ ، وبباردٍ حارّ . وفى البارد الحارّ يقولُ الحسنُ بنُ هانىء[1] :

قُلْ لزُهيرٍ إذا انتحَى وشدا　　　أَقْلِلْ أوأكْثِر فأنتَ مِهْذَار[2]

سَخُنْتَ مِنْ شِدَّةِ البُرُودةِ حتّى　　　صِرْتَ عِنْدِى كأنَّكَ النارُ

لا يَعْجَبِ السامعُون مِنَ صِفَتِى　　　كذلكَ الثلجُ باردٌ حارُ[3]

ومَنْ لكَ بطبيب[4] أعرابىّ ، وَمَنْ لَكَ برُومىٍّ هِنْدِى ، وبفارسىٍّ[5] يُونَانىّ ، وبقَدِيمٍ مولَّد ، وبميّتٍ ممتَّع[6] ، وَمَنْ لَكَ بشىءٍ يَجْمَعُ لكَ الأوّلَ والآخَرَ ، والناقصَ والوافر ، والخفىَّ والظاهر ، والشاهدَ والغائب ، والرفيعَ والوضيع ، والغَثَّ والسمين ، والشَّكلَ وخِلافَه ، والجنسَ وضدَّه .

وبعد : فمتى رأيتَ بستاناً يُحَمل فى رُدْن[7] ، وروضةً تُقَلّ[8] فى حِجْرٍ ، وناطقاً ينطِق عن الموتَى ، ويُترجمُ عن الأحياء !! وَمَنْ لك

---

(١) الأبيات فى الديوان ١٨١ وعيون الأخبار كذلك ٢ : ٧ .

(٢) فى ط « إذا انتحى لشدا » وتصحيحه من ل والديوان، وعيون الأخبار . وفى ط « مهدار » بالدال .

(٣) خفف راء (حار) لضرورة الوزن .

(٤) فى ط « بطيب » وأصلحته من ل ومن المحاسن ٤ .

(٥) فى ط « بفارس » وصوابه فى ل والمحاسن ٤ .

(٦) فى ط « ممتنع » وفى المحاسن : « ونجيب ممتع » .

(٧) الردن : أصل الكم .. ويظهر أنهم يستعملونه كذلك فى الكم نفسه .

(٨) فى ط « تقلب » والوجه « تقل » لتلاءم مع « يحمل » إذهما بمعنى .. وفى المحاسن « تنقل » .

بمؤنس لاينام إلاّ بنومك ، ولا ينطق إلاّ بمـا تهوَى ؛ آمَنُ مِنَ الأرض ، وأ كتمُ للسرِّ من صاحب السرِّ ، وأحفَظُ للوديعةِ من أرباب الوديعة ، وأحفَظ لمـا استُحْفِظَ من الآدميِّين ، ومن الأعْرابِ المعربين[1] ، بل مِنَ الصِّبيانِ قبلَ اعتراضِ الاشتغال ، ومن العُميانِ قبلَ التمتّعِ بتمييز الأشخاص ، حينَ العنايةُ تامّةٌ لم تَنْقُص ، والأذهانُ فارغةٌ لم تنقَسِم ، والإرادةُ وافرةٌ لم تتشعَّب ، والطِّينَةُ ليِّنة ، فهى أقبلُ ما تكون للطبائع ، والقضيبُ رطبٌ ، فهو أقربُ ما يكون من العُلوق ، حينَ هـذه الخصالُ لم يَخْلَق جديدُها ، ولم يُوهَنْ غرْبُهَا ، ولم تتفرّق قُواها ، وكانت كما قال الشاعر[2] :

أتاني هواها قبل أنْ أعرِفَ الهوَى فصادفَ قلباً خالياً فتمكّنا

وقال عَبَدة بن الطَّبيب[3] :

لاتأمَنوا قومًا يَشِبُّ صبيُّهم بَيْنَ القوابلِ بالعَدَاوةِ يُنْشَعُ[4]

ومن كلامهم : التعلُّمُ فى الصِّغَر كالنقشِ فى الحجر . وقد قال جِرانُ العَودِ[5] :

[تُركْنَ برجلة الروحاء حتَّى تنكّرتِ الديارُ على البَصيرِ]

٢١ كَوَحْيٍ فِي الحِجارةِ أو وُشُومٍ بأَيْدِى الرُّومِ بَاقِيَةَ النُّئُورِ

وقال آخر ، وهو صالحُ بن عبد القُدُّوس :

وإنَّ مَن أدَّبتَه فى الصِّبَى كالعُود يُسْقَى الماءَ فى غَرْسِهِ

(١) فى ط « المتعربين » وإنمـا يتعرب الأعاجم . وهو تحريف صوابه فى ل .

(٢) هو مجنون بنى عامر كما فى بيان الجاحظ ٢ : ٤٥ .

(٣) البيت ساقط من ل .. وفى ط « نميرة بن الطبيب » والتصحيح من س .

(٤) نشع الصبي وأنشعه : أوجره .. والنشوع : الوجور .

(٥) شاعر نمرى اسمه عامر بن الحارث ، لقب بذلك لقوله يخاطب امرأتيه :

خـذا حذرا ياجارتىّ فإننى رأيت جران العود قد كاد يصلح

وله ديوان طبعته دار الـكتب .

حَتَّى تَرَاهُ مُورِقًا نَاضِرًا … بعدَ الذى قد كان فى يُبْسِهِ[١]

وقال آخر :

يُقَوِّمُ مِنْ مَيلِ الغُلامِ المؤدِّبُ … ولا يَنْفَعُ التأديبُ والرأسُ أشيَبُ

وقال آخر :

وَتَلُومُ عِرْسَكَ بَعْدَ ماهَرِمَتْ … وَمِنَ العَنَاءِ رِيَاضَةُ الهَرِمِ

وقد قالَ ذو الرُّمَّةِ[٢] لعيسى بن عمر[٣] : أُكتبْ شِعرى ؛ فالكتابُ أحبُّ إلىَّ من الحفظ . لأنّ الأعرابىَّ ينسى الكلمةَ وقد سهِر فى طلبها ليلتَه ، فيضَعُ فى موضعها كلمةً فى وزنها ، ثم يُنشِدها الناسَ ، والكتاب لايَنْسَى ولا يُبدِّلُ كلامًا بكلام .

وعبتَ الكتابَ ، ولا أعلَمُ جاراً أبرَّ ، ولا خَليطًا أنصف ، ولا رفيقاً أطوعَ ، ولا معلِّماً أخضعَ ، ولا صاحباً أظهرَ كفايةً ، ولا أقلَّ جِنايَةَ ، ولا أقلَّ إمْلالاً وإبراما ، ولا أحفَلَ أخلاقاً ، ولا أقلَّ خِلافاً وإجرامًا ، ولا أقلَّ غيبةً ، ولاأبعدَ من عَضِيهة[٤] ، ولا أكثرَ أعجوبةً وتصرُّفاً ، ولا أقلَّ

---

(١) المحفوظ « من يبسه » .

(٢) فى ط « ذو الرومة » وواضح تحريفه .

(٣) عيسى بن عمر الثقفى، أبو عمر، مولى خالد بن الوليد ، نزل فى ثقيف فنسب إليهم، إمام فى النحو والعربية أخذ عن أبى عمرو وعبد الله بن أبى اسحق ، وروى عن الحسن البصرى والعجاج بن رؤبة ، وعنه الأصمعى ، ويقال إنه له نيفا وسبعين مصنفا ذهبت كلها ، وكان يتقعر فى كلامه . حكى عنه الجوهرى فى الصحاح وغيره ، أنه سقط عن حمار فاجتمع إليه الناس فقال : « مالى أراكم تكأكأتم علىّ كتكأكئكم على ذى جنة ؟! افرنقعوا عنى » واتهمه عمر بن هبيرة بوديعة ، فضربه نحو ألف سوط ، فجعل يقول « والله إن كانت إلا أثيابا فى أسيفاط قبضها عشاروك ! » .

(٤) العضيهة : الكذب والإفك والبهتان .

تصلُّفًا وتكلُّفًا ، ولا أبعدَ مِن مِراء ، ولا أترَكَ لشغَب ، ولا أزهَدَ فى جدال ، ولا أكفَّ عن قتالٍ ، من كتاب . ولا أعلمُ قرينًا أحسنَ مُوافاةً ، ولا أعجَل مكافأة ، ولا أحضَرَ معُونةً ، ولا أخفَّ مَئُونَة ، ولا شجرةً أطولَ عمراً ، ولا أجمَعَ أمراً ، ولا أطيَبَ ثمرةً ، ولا أقرَبَ مُجتنى ، ولا أسرَعَ إدراكاً ، ولا أوجَدَ فى كل إبّانٍ ، من كتاب . ولا أعلمُ نِتاجًا فى حَداثةِ سنِّه وقُرْب ميلادِه ، ورِخَص ثمنه ، وإمكانِ وُجوده ، يجمعُ من التدابيرِ العجيبَة والعلومِ الغريبة ، ومن آثارِ العقولِ الصحيحة ، ومحمودِ الأذهانِ اللطيفة ، ومِنَ الحِكَم الرفيعة ، والمذاهب القويمة[1] ، والتجارِبِ الحكيمة ، ومِنَ الإخبارِ عن القرون الماضية ، والبلادِ المتنازِحة ، والأمثالِ السائرة ، والامم البائدة ، ما يجمعُ لك الكتابُ . قال الله عزّ وجلّ لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ فوَصَفَ نَفْسَهُ ،
تبارك وتعالى ، بأنْ علَّمَ بالقلم ، كما وصف نفسه بالكرَم ، واعتدَّ بذلك ٢٢
فى نِعَمه العِظام ، وفى أياديه الجِسام . وقد قالوا : القلَمُ أحدُ اللسانَين ، وقالوا : كلُّ مَنْ عرَف النِّعمةَ فى بَيان اللسانِ ، كان بفضل النِّعمة فى بيانِ القلم أعرَف . ثمّ جَعَلَ هذا الأمرَ قرآناً ، ثمّ جعلَه فى أوّلِ التنزيل ومستفتَح الكتاب .

(كون الاجتماع ضروريا)

ثمّ اعلمْ ، رحِمَك الله تعالى ، أنّ حاجةَ بعض الناس إلى بعضٍ ، صفةٌ لازمةٌ فى طبائعهم ، وخِلقةٌ قائمةٌ فى جواهرِهم ، وثابتةٌ لا تُزايلهُم ، ومُحيطةٌ بجماعتِهم ، ومشتملةٌ على أدناهم وأقصاهم ، وحاجتُهُمْ إلى ما غاب عنهم —

(١) فى الأصل « القديمة » بالدال .

مِمّـا يُعِيشُهم ويُحْيِيهم ، ويُمسِـك بأرْماقِهِم ، ويُصلِـحُ بالهم ، ويَجْمَع شملَهم ، وإلى التعاونِ فى دَرْكِ ذلك ، والتوازُرِ عليه ـ كحَاجَتِهم إلى التعاون على معـرفة ما يضرُّهم ، والتوازرِ على ما يحتاجون من الارتفاق بأمورهم التى لم تَغِبْ عنهم ، فحاجَةُ الغائبِ موَصُولةٌ بحاجةِ الشاهد ، لاحتياج الأدنَى إلى معرِفة الأقصى ، واحتياجِ الأقصى إلى معرفَةِ الأَدنى ، معانٍ متضمّنةٌ ، وأسبابٌ متَّصلة ، وحبالٌ منعقدة ، وجعل حاجتَنا إلى معرفة أخبارِ مَنْ كان قبلَنا ، كحاجةِ [من كان قبلنا إلى أخبار مَنْ كان قبلهم وحاجةِ] من يَـكُونُ بعدَنا إلى أخبارِنا ، ولذلك تقدَّمت فى كتب اُللهِ البِشارات بالرُّسل ، ولم يسـخِّرْ لهم جميعَ خلقِه ، إلاّ وهم يحتاجُون إلى الارتفاق بجميع خلقِه . وجعلَ الحاجَةَ حاجَتَين : إحداهما قِوامٌ وقُوت ، والأُخرى لذّةٌ وإمْتاعٌ وازدياذٌ فى الآلَة ، وفى كلِّ ما أجذَلَ النفوس. وجمع لهم العَتاد[١] . وذلكَ المقدارُ مِنْ جميع الصِّنْفَين وفقٌ لـكَثْرةِ حاجاتِهم وشهَوَاتهم ، وعلى قدْر اتّساعِ معرفتهم وبُعْدِ غَوْرهم ، وعلى قَدْرِ احتمال[٢] طبع البشريَّة وفِطرةِ الإنسانيَّة ، ثمَّ لم يقطعْ الزيادةَ إلا لعجْزِ خلقِهم عن احتمالهـا ، ولم يجز أن يفرق بينهم وبين العجْز ، إلاّ بعدَم الأعيان ، إذ كان[٣] العجزُ صفةً من صفاتِ الخلق ، ونعتاً من نُعوتِ العبيد .

لم يخلق اُللهُ تعالى أحداً يستطيعُ بلوغَ حاجتِه بنفسه[٤] دونَ الاستعانة

---

(١) فى ط « المعتاد » وصوابه فى ل .

(٢) فى ط « اعتبار » وتصحيحه من ل .

(٣) فى ط « إذا » وهو تحريف يقع كثيرا فى مواضع تشبه هذا .

(٤) فى ط « بنسفه » والوجه ما أثبت عن ل .

ببعضٍ من سخَّرَ له ، فأدناهم مسخَّرٌ لأقصاهُم ، وأجلُّهم ميسَّر لأدقِّهم ، وعلى ذلك أحوجَ الملوكَ إلى السُّوقة فى بابٍ ، وأحوجَ السُّوقَةَ إلى الملوك فى باب ، وكذلك الغنىَّ والفقير ، والعبدُ وسيِّدُه . ثُمَّ جعلَ اللهُ تعالى كلَّ شىء للإنسان خَوَلاً ، وفى يَدِه مُذَلَّلاً مُيَسَّراً[1] إمّا بالاحتيالِ له والتلطُّفِ فى إراغتَه واستمالتِه ، وإمّا بالصَّوْلةِ عليه ، والفتكِ به ، وإمّا أنْ يأْتِيَهُ سهواً ورهواً . على أنّ الإنسانَ لولا حاجَتُهُ إليها ، لما احتالَ لها ، ولا صَالَ
٢٣ عليها . إلاَّ أنَّ الحاجةَ تفترِق فى الجنسِ والجهةِ والجِبِلَّة ، وفى الحظِّ والتقدير .

ثمَّ تعبَّدَ الإنسانَ بالتفكُّرِ فيها ، والنظرِ فى أُمورِها ، والاعتبارِ بمـا يَرَى ، ووَصَل بينَ عُقولهم وبَيْنَ معرفةِ تلك الحِكَم الشريفة ، وتلك الحاجاتِ اللازمة ، بالنظرِ والتفكير ، وبالتنقيب[2] والتنْقِير ، والتثبت[3] والتوقُّف ؛ ووَصَل معارفَهم بموَاقعِ حاجاتِهم إليها ، وتشاعُرِهم بمواضع الحِكَم فيها البيانِ عنها .

(البيان ضرورى للاجتماع)

وهو البيانُ الذى جعلَه الله تعالى سبباً فيما بينَهم ، ومعبِّراً عن حقائق حاجاتِهم ، ومعرِّفاً لمواضع سدِّ الخَلَّة ورفْع الشبهة ، ومداواةِ الحَيرة ، ولأنَّ أكثرَ الناس عن الناس أفهمُ منهم عن الأَشباحِ الماثلة ، والأَجسامِ الجامدة ، والأَجرامِ الساكنة ، التى لا يُتعَرَّفُ ما فيها من دَقائق الحِكمةِ

---

(١) فى ط « مذ ، إلا ميسرا » والوجه ماقى ل .

(٢) كذا فى ل وهو الصواب . وفى ط « والتنقب » .

(٣) كذا فى ل وهو الوجه . والذى فى ط « والتشبث » .

وكُنوزِ الآداب ، وينابيعِ العلم ، إلاّ بالعقلِ الثاقب اللطيف ، وبالنظرِ التامِّ النافذ ، وبالأداةِ الكاملة ، وبالأسبابِ الوافرة ، والصبرِ على مكروه الفكر ، والاحتراسِ من وُجوه الخُدَع والتحفُّظِ مِن دواعى الهوى ؛ ولأنّ الشَّكْلَ أفهَمُ عن شِكله ، وأسكَنُ إليه وأصَبُّ به . وذلك موجودٌ فى أجناسِ البهائم ، وضُروبِ السباع . والصبيُّ عن الصبيِّ أفهمُ له ، وله آلفُ وإليه أنزَع ، وكذلك العالِمُ والعالِم ، والجاهل والجاهل ، وقال الله عزّ وجلّ لنبيِّه عليه الصلاة والسلام ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ﴾ لأنّ الإنسانَ عن الإنسان أفهم وطباعَه بطِباعه آنَس ؛ وعلى قدْر ذلك يكونُ موقعُ ما يسمع منه .

ثمّ لم يرضَ لهم من البيان بصِنفٍ واحد ، بل جَمَع ذلك ولم يفرِّق ، وكثَّر ولم يقلِّل ، وأظهَرَ ولم يُخْفِ ، وجعَل آلةَ البيانِ التى بها يتعارَفُون معانِيَهُم ، والتَّرْجُمانَ الذى إليه يرجعون عند اختلافهم ، فى أربعة أشياء ، وفى خَصْلةٍ خامسة ، وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعة فى جهاتها ، فقد تُبدِّل بجنسها الذى وُضِعت له وصُرِفتْ إليه ، وهذه الخصال هى : اللفظ ، والخطّ ، والإشارة ، والعَقْد ؛ والخَصلة الخامسة ما أوجَدَ من صحّة الدَّلالةِ ، وصدقِ الشهادة ووُضوحِ البرهان ، فى الأَجْرَامِ الجامدة والصامتة ، والساكنة التي لا تَتَبيَّن[1] ولا تحسّ ، ولا تفهَم ولا تتحرّك إلاّ بداخلٍ يدخل عليها ، أو عندَ مُمْسِكٍ خلِّى عنها ، بعد [أَنْ] كان تقييده لها .

ثمّ قسّم الأقسامَ ورتّب المحسوساتِ ، وحصّل الموجوداتِ ، فجعل اللفظَ للسامع ، وجعل الإشارةَ للناظر ، وأشرَكَ الناظرَ واللامس فى معرفة

---

(١) فى ل : « لاتنبس » أى تنطق .. والتبين هنا معناه التفهم .

٢٤ العَقْد ، إلاّ بما فضّل ٱللّه به نصيبَ الناظرِ فى ذلك على قدْرِ نصيبِ اللامس . وجَعَلَ الخطَّ دليلاً على ماغابَ من حوائجه عنه ، وسبباً موصُولاً بينه وبين أعوانه ؛ وجعله خازناً لما لا يأمَن نسيانَه ، مّما قد أحصاه وحفِظه ، وأتقنه وجَمه ، وتكلف الإحاطة به ؛ ولم يجعل للشامِّ والذائِق نصيبا .

(خطوط الهند)

ولولا خطوطُ الهِندِ لضاعَ من الحساب الكثيرُ والبسيط ، ولبطلت(١) مَعرِفةُ التضاعيف ، ولعَدِموا الإحاطةَ بالباورات وباورات الباورات(٢) ، ولو أدرَكوا ذلك لَما أدرَكُوه(٣) إلاّ بعد [أَنْ] تغلُظَ المَئُونة ، وتنتَقِضَ المُنّةَ ، ولصارُوا فى حالِ مَعْجَزَةٍ وحسور ، وإلى حالِ مَضيَعةٍ وكَلالِ حدّ ، مع التشاغُلِ بأمورٍ لولا فقدُ هذه ٱلدّلالةِ لكان أربحَ لهم ، وأرَدَّ عليهم ، أن يُصرَف ذلك الشغلُ فى أبوابِ منافع ٱلدين وٱلدنيا .

(نفع الحساب)

ونفع الحساب معلوم ، والخَلَّةُ فى موضعِ فقدِه معروفة . قال الله تعالي : ﴿الرَّحْمٰنُ عَلَّمَ القُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ البيَانَ﴾ . ثم قال : ﴿ الشَّمْسُ

---

(١) فى ط « ولبطلت » .

(٢) رسمت هذه الكلمات باثبات ألفات بعد واواتها فى ط ورسمت فى ل بحذفها

(٣) فى ط « ولو أدكروا ذلك لما أدكروه » وهو تحريف أصلحته من ل .

وَالقَمَرُ بِحُسْبانَ ﴾ وبالبيَانِ عرَفَ الناسُ القرآنَ . وقال الله تباركَ وتعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً ، وَالقَمَرَ نُوراً ، وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ ﴾ فأجْرَى الحسابَ مُجرَى البيان بالقرآن . وبحُسْبان منازلِ القمر ، عرَفنا حالاتِ المدِّ والجزْر ، وكيف تـكونُ الزيادةُ فى الأهلَّة وأنصافِ الشهور ، وكيف يكونُ النقصانُ فى خلالِ ذلك ، وكيف تلك المراتبُ وتلك الأقدار .

(فضل الـكتابة)

ولولا الـكتبُ المدوَّنَة والأخبار المخلَّدة ، والحِـكمُ المخطوطة التى تحصِّنُ الحسابَ وغيرَ الحساب ، لبطَلَ أكثر العلم ، ولغلَب سُلطانُ النِّسيانِ سلطانَ الذكْر ، ولَمَا كان للناس مفزعٌ إلى موضعِ استذكار . ولو تمَّ ذلك لحُرِمْنا أكثرَ النفع؛ إذ كنَّا قد علمْنا أنّ مقدارَ حفْظ الناسِ لعواجل حاجاتِهم وأوائلِها ، لا يَبلغ من ذلك مبلغًا مذكوراً ولا يُغْـنِي فيه غناءً[1] محمودا . ولو كُلِّفَ عامّةُ مَن يطلب العلمَ ويصطَنِـع الـكتب ، ألاّ يزال حافظًا لفهرست كتبه ، لأَعجزه ذلك ، ولـكلِّفَ شططًا ، ولشَغله ذلك عن كثيرٍ ممّـا هو أولى به . وفهمُك لمعانى كلامِ الناس ، ينقطع قبل انقطاعِ فهْمِ عينِ الصـوتِ مجرَّدا ، وأَبعَدُ فهمِك لصوتِ صاحبك ومُعاملك والمعاونِ لك ، ما كان صياحًا صرفا ، وصوتًا مصمتًا ونداء خالصا ، ولا يكون ذلك إلاّ وهو بعيدٌ من المفاهمة ، وعُطْلٌ من الدّلالة . فجعل اللفظُ

---

(١) فى ط « غناء » وصوابه الذكا فى ل .

لأقرَب الحاجاتِ ، والصوتُ لأنفَسَ من ذلك قليلا ، والكتابُ للنازح من الحاجاتِ . فأمّا الإشارة فأقربُ المفهومِ منها : رَفْعُ الحواجبِ ، وكسرُ الأجفان ، وليُّ الشِّفاهِ وتحريك الأعناق ، وقبْض جلدةِ الوجْه ؛ وأبعدُها أن تلوى بثوبٍ على مقطع جبل ، تُجاهَ عينِ الناظر ، ثمّ ينقطع عملُها ويدرُس أثرها ، ويموت ذكرها ، ويصير بعدَ كلِّ شيءٍ فضَل عن انتهاء مدَى الصوت ومنتهى الطرف ، إلى الحاجة وإلى التفاهم بالخطوطِ والكتب. فأيُّ نفعٍ أعظمُ ، وأيُّ مِرْفَقٍ أعونُ من الخطِّ ، والحالُ فيه كما ذكرنا !! وليس للعَقْد حظُّ الإشارة فى بُعد الغاية .

(فضل القلم)

فلذلك وضع الله عزّ وجلّ القلمَ فى المكان الرفيع ، ونوّه بذِكره فى المنْصِب الشريف حين قال ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ فأقسمَ بالقلَم كما أقسمَ بما يُخَطُّ بالقلم ؛ إذ كان اللسانُ لايتعاطى شأوَه ، ولا يشقُّ غبارَه ، ولا يجرى فى حلبته ، ولا يتكلف [بُعْدَ] غايته . لكنْ لما أنْ كانت حاجات الناسِ بالحَضْرة[1] أكثرَ مِنْ حاجاتهم فى سائر الأماكن ، وكانت الحاجةُ إلى بيانِ اللسانِ حاجةً دائمة واكدة ، وراهِنةً ثابتة ، وكانت الحاجةُ إلى بيانِ القلم أمراً يكونُ فى الغَيبة وعند النائبة ، إلاّ ما خُصَّت به الدواوين ؛ فإنّ لسانَ القلم هناك أبسطُ ، وأثرَهُ أعمّ ، فلذلك

(١) الحضر بالتحريك والحضرة والحاضرة والحضارة بالكسر ويفتح : خلاف البادية.

قدَّموا اللسانَ على القلم . فاللسانُ الآنَ إنَّمـا هو فى منافع اليدِ[1] والمرافق التى فيها ، والحاجاتِ التى تبلغُها .

(فضل اليد)

فمن ذلك حظُّها وقِسْطُها من منافع الإشارة ، ثم نَصِيبُها فى تقويم القلم ، ثم حَظُّها[2] فى التصوير ، ثم حَظُّها فى الصناعات ، ثم حَظُّها فى العَقْد ، ثم حَظُّها فى الدَّفْع عن النفس ، ثمّ حَظُّها فى إيصال الطعام والشراب إلى الفم ، ثم التوضُّؤ والامتساح[3] ، ثم انتقادِ الدنانيرِ والدراهمِ ولُبسِ الثِّياب ، وفى الدفع عن النفس ، وَأَصْنَافِ الرَّمْى ، وأصنافِ الضرْب ، وأصناف الطعْن ، ثم النَّقْرِ بالعُود وتحريكِ الوتر ؛ ولولا ذلك لبطَل الضرْبُ كلُّه أو عامَّته . وكيف لا يكون ذلك كذلك ولهـا ضَرْبُ الطبْل والدُّفّ ، وتحريكُ الصفَّاقَتَين[4] ، وتحريك مخارِق خروق المزامير ، وما فى ذلك من الإطلاق والحبس . ولو لم يكنْ فى اليدِ إلاّ إمساكُ العِنان والزِّمام والخِطام ، لـكانَ من أعظمِ الحظوظ .

وقد اضطرَبوا فى الحـكْم بين العَقْد والإشارة ، ولولا أنّ مغزانا فى هذا الـكتابِ سوى هذا الباب ، لقد كانَ هذا ممَّا أُحِبُّ أن يعرفَه إخوانُنَا

---

(١) فى ل « إنمـا يوفى منافع اليد » .

(٢) هذه الـكلمة ومكرراتها هى فى ط « خطها » وهو تصحيف أصلح من ل .

(٣) فى ط « والتمسح » .

(٤) الظاهر أنها آلة موسيقية تشبه تلك التى يستعملها أصحاب الموسيقى النحاسية : قرصين نحاسيين يضرب أحدهما بالآخر .

وخلطاؤنا . فلا ينبغى لنا أيضاً أن نأخذَ فى هذا الباب من الكلام ، إلاّ بعدَ
٢٦ الفَراغ ممّـا هو أولى بنا منه ، إذ كنتَ لم تنازِعْنى ، ولم تَعِبْ كتبى ، من
طريقِ فضل[1] ما بين العَقْد والإشارة ، ولا فى تمييز ما بين اللفظ و بينهما ،
و إنّمـا قَصَدْنا بكلامنا إلى الإخبار عن فضيلة الـكتاب .

(فضل الكتاب)

والـكتابُ هو الذى يؤدّى إلى الناس كتبَ الدين[2]، وحسابَ الدواوين؛ مع خفَّةَ نقلِه ، وصِغَرَ حجمه ؛ صامتٌ ما أسكتَّه ، و بليغٌ ما استنطقته . ومَن لك بمسامرٍ لا يبتديك فى حالِ شُـغْلك ، و يدعُوك فى أوقاتِ نشاطِك ، ولا يُحوِجك إلى التجمُّل له والتذمُّم منه . ومَن لكَ بزائرٍ إن شئتَ جعل زيارتَه غِبًّا ، ووُروده خِمْسا ، و إن شئت لَزِمَك لزومَ ظلِّك ، وكان منك مكانَ بعضِك .

والقلمُ مكتفٍ بنفْسه ، لايحتاج إلى ما عندَ غيرِه ؛ ولابدّ لبيان اللسانِ من أمور : منها إشارة اليد ، ولولا الإشارةُ لَمَـا فهموا عنك[3] خاصَّ الخاصِّ إذا كان أخصُّ الخاصِّ قد يدخل فى باب العامّ ، إلاّ أنّه أدنى طبقاته ؛ وليس يكتفى خاصُّ [الخاصّ] باللفظ عمَّا أدّاه ، كما اكتفى عامُّ العامّ والطبقاتُ التي بينه و بين أخصِّ الخاصّ .

والـكتابُ هو الجليس الذى لا يُطريك ، والصديق الذى لا يغْريك ،

---

(١) كذا . ولعلها «فصل» .
(٢) فى ل « كتب علم الدين » .
(٣) فى ط « عن » وتصحيحه من ل .

والرفيقُ الذى لا يَمَلُّكَ ، والمستَميح الذى لا يستَريثُك(١) ، والجارُ الذى لا يَسْتَبْطِيك ، والصاحبُ الذى لا يريد استخراجَ ما عندَك بالملَق ، ولا يعامِلُك بالمَكر ، ولا يخدَعك بالنِّفاق ، ولا يحتالُ لك بالكَذِب . والكتابُ هو الذى إنْ نظرتَ فيه أطالَ إمتاعَك ، وشحَذَ طباعَك ، وبسَط لسانَك ، وجوَّد بنانَك ، وفخَّم ألفاظَك ، وبجَّح(٢) نفسَك ، وعَمَّر صدرك ، ومنحكَ تعظيمَ العوامِّ وصَداقةَ الملوك ، وعَرفتَ به فى شهر ، ما لا تعرفُه من أفواهِ الرجال فى دهْر ، مع السلامةِ من الغُرْم ، ومن كدِّ الطلب ، ومن الوقوفِ بباب المكتسِب بالتعليم ، ومِن الجُلوس بين يدَىْ مَن أنت أفضلُ منه خُلُقاً ، وأكرمُ منه عِرْقا ، ومع السلامةِ من مجالَسَة البُغَضاء ومقارَنةِ الأغبياء . والكتابُ هو الذى يُطيعُك بالليل كطاعتِه بالنهار ، ويطيعُك فى السفر كطاعته فى الحضر ، ولا يعتلُّ بنوم ، ولا يعترِيه كَلالُ السهَر . وهو المعلِّمُ الذى إن افتقرتَ إليه لم يُخْفِرْك ، وإن قطعتَ عنه المادَّةَ لم يقطعْ عنك الفائدة ، وإن عُزِلتَ لم يدَعْ طاعتَك ، وإن هبَّتْ ريحُ أعاديك لم ينقلبْ عليك ، ومتى كنتَ منه متعلِّقاً بسبب أو معتصِما بأدْنى حبْل ، كان لك فيه غنًى من غيره ، ولم تَضْطَرَّك [معه] وحشةُ الوَحدةِ إلى جليس السوء . ولو لم يكن مِن فضْله

٢٧ عليك ، وإحسانِه إليك ، إلاَّ منعَه لكَ من الجلوس على بابك ، والنظرِ إلى المارَّةِ بك ، مع ما فى ذلك من التعرُّض للحقوقِ التى تَلزَم ، ومن فُضولِ

---

(١) المستميح : طالب العرف . واستراثه : استبطأه . وفى ط « يشتريك » . وفى ل « يستزيدك » وهما تحريف ما أثبت

(٢) البجح محركة الفرح ، وبجح به كفرح ، وبجحته تبجيحا فتبجح : أى أفرحته ففرح .

النظرَ ، ومن عادةِ الخوض فيما لايعنيك(١) ، ومِن ملابسةِ صغارِ الناس ، وحضورِ ألفاظهم الساقطة ، ومعانيهم الفاسدة ، وأخلاقهم الرديَّة ، وجَهالاتهم المذمومة ، لكان فى ذلك السلامة ، ثم الغنيمةُ ، وإحرازُ الأصل ، مع استفادةِ الفرع . ولو لم يكن فى ذلك إلاّ أنّه يشغَلُك عن سُخْفِ المُنَى وعن اعتياد الراحة ، وعن اللعب ، وكلّ ما أشبهَ اللعب ، لقد كان على صاحبه أسبغَ النعمةَ وأعظَمَ المِنّة .

وقد علمنا أنّ أفضلَ ما يقطع به الفُرّاغ نهارَهم ، وأصحابُ الفُكاهات ساعاتِ ليلِهم ، الكتاب . وهو الشيء الذى لا يرى لهم فيه مع النيل أثرٌ فى ازديادِ تجربةٍ ولا عقلٍ ولا مروءة ، ولا فى صونِ عرضٍ ، ولا فى إصلاحِ دِين ، ولافى تثمير مال ، ولافى رَبِّ صنيعة(٢) ولافى ابتداء إنعام .

(أقوال لبعض العلماء فى فضل الكتاب)

وقال أبو عبيدة ، قال المهلّب لبنيه فى وصيّتِه : يابَنِيّ لاتقوموا فى الأسواقِ إلاّ على زَرّادٍ أو ورّاق(٣) .

وحدّثنى صديقٌ لى قال : قرأتُ على شيخٍ شامىٍّ كتاباً فيه مِن مآثر غطفان فقال : ذهبَ المكارمُ إلاّ من الكتب .

وسمعتُ الحسن اللؤلؤى(٤) يقول : غَبَرت أربعين عاما ما قِلْتُ

---

(١) بدل هذه الجملة فى ط « ومن عادة الحرص » .

(٢) ربّ الصنيعة : تعهدها .

(٣) الزراد : صانع الدروع .. والمهلب يوصى بنيه باستكمال أسباب الفروسية والعلم.

(٤) فى ط « أبا الحسن اللؤلؤى » والصواب ما أثبته . والحسن هذا هو ابن =

ولا بِتُّ [ولا اتكأت] إلاّ والكتابُ موضوعٌ على صدرى[١] .

وقال ابن الجهْم : إذا غشِيَنى النعاس فى غير وقتِ نوم — وبئس الشىء النومُ الفاضِلُ[٢] عن الحاجة — قال : فإذا اعترانى ذلك تناولتُ كتاباً من كتُب الحِكَم ، فأجدُ اهتزازى للفوائد ، والأريحيَّة[٣] التى تعتريني عند الظفَر ببعض الحاجة ، والذى يغشَى قلْبى من سرور الاستبانة وعزِّ التبيين[٤] أشدّ إيقاظاً مِن نَهيق الحمِير وهَدَّةِ الهدْم .

وقال ابن الجهم : إذا استحسنتُ الكتابَ واستجدتُه ، ورجوتُ منه الفائدة ورأيتُ ذلك فيه — فلو ترانى وأنا ساعةً بعدَ ساعةٍ أنظرُ كم بقى من ورقهِ مخافةَ استنفاده ، وانقطاعِ المادَّة من قِبَله ، وإن كان المصحفُ عظيمَ الحجم كثيرَ الورق ، كثير العدد — فقد تمَّ عيشى وكَمُلَ سرورى .

وذكر العتبى[٥] كتابًا لبعض القدماء فقال : لولا طولُه وكثرةُ ورقه

= زياد اللؤلؤى الكوفى، قاض فقيه من أصحاب أبى حنيفة، أخذ عنه وسمع منه، وكان عالما بمذهبه بالرأى. وله عدة كتب فى الفقه . عن معجم الأعلام للزركلى .. وقد روى الجاحظ فى البيان ٢ : ٢٣٠ ، ٣ : ٢١٤ أن الحسن اللؤلؤى كان فى بعض الليالى بالرقة يحدث المأمون ، والمأمون يومئذ أمير ، إذ نعس المأمون . فقال له اللؤلؤى : نمت أيها الأمير ؟ ففتح المأمون عينه وقال : سوقى والله ! خذ ياغلام بيده !!

(١) إشارة إلى التزامه القراءة وعدم هجرها إلا وقت النعاس . . وغبرت : مكثت . وقال يقيل : نام وقت الظهيرة .

(٢) فى ط « الفاصل » والصواب مافى ل .

(٣) فى الأصل « الأريحة » والوجه ما أثبت .

(٤) كذا . ولعلها « التبين » .

(٥) فى ل « القينى » وهو تصحيف ما فى ط وقد اشتهر بهذا اللقب ثلاثة رجال أحدهم محمد بن أحمد بن عبد العزيز الأموى القرطبى الأندلسى وكان قاضيا وتوفى سنة ٢٥٤ هـ .. وثانيهم محمد بن عبد الجبار العتبى أبو نصر مؤرخ من الكتاب الشعراء ، أصله من الرى ونشأ فى خراسان ثم استوطن نيسابور وانتهت إليه رياسة الإنشاء فى خراسان والعراق وتوفى سنة ٤٢٧ . وثالثهم هذا الذى يعنيه الجاحظ =

لنسخته . فقال ابن الجهم : لـكنّي ما رغّبني فيه إلاّ الذي زهّدك فيه ؛ وما قرأتُ قطُّ كتابًا كبيرًا فأخْلاني من فائدة ، وما أُحصِي كم قرأتُ من صغارِ الـكتب فخرجتُ منها كما دخلت .

٢٨ وقال العتبي ذاتَ يومٍ لابن الجهم : ألا تتعجَّبُ من فلانٍ ! ! نَظَرَ في كتابِ الإقليدس مع جارية سَلْمَوَيه[1] في يومٍ واحد ، وساعةٍ واحدة ، فقد فرغتِ الجاريةُ من الـكتابِ وهو بعدُ لم يُحكِم مقالةً واحدة ، على أنّه حُرٌّ مخيَّر ، وتلك أَمَةٌ مقصورة ، وهو أحرصُ على قراءةِ الـكتاب من سَلْمَوَيهِ على تعليمِ جارية . قال ابن الجهم : قد كنت أظنُّ أنّه لم يفهم منه شكلاً واحداً ، وأراك تزعم أنّه قد فرَغ من مقالة ! ! قال العتبي : وكيف ظننتَ به هذا الظنَّ ، وهو رجلٌ ذو لسانٍ وأدب ؟ قال : لأنّي سمعتهُ يقول لابنه : كم أنفقتَ على كتابٍ كذا ؟ قال: أنفقت عليه كذا ، [قال][2] إنّمـا رَغَّبَني[3] في العلم أنّي ظننتُ أنّي أنفق عليه قليلاً وأكتسب كثيرًا ، فأمّا إذ صرتُ أنفقُ الـكثيرُ ، وليس في يدي إلاّ المواعيدُ ، فإنّي لا أريد العلمَ بشيء!!

= وهو محمد بن عبد الله من بني عتبة بن أبي سفيان . أديب كثير الأخبار، له شعر حسن من أهل البصرة ووفاته فيها . وله تصانيف حسان منها « أشعار النساء اللاتي أحببن ثم أبغضن » و «الأخلاق » و « الحيل » قال ابن النـديم « كان العتبي وأبوه سيدين أديبين فصيحين » ... عن قاموس الزركلي .

(١) هو سلمويه بن بنان طبيب فاضل خدم المعتصم واختص به حتى إن المعتصم لما مات سلمويه قال « سألحق به ، لأنه كان يمسك حياتي ويدبر جسمي» وكان سلمويه قد اكتسب من خدمة الخلفاء سياسة اقترنت بعقله، فحدث له منها حسن الرأى والنظر في العواقب لنفسه ولغيره ممن يستنصحه ، وتوفى سنة ٢٢٥ انظر القفطى ١٤١ وابن أبي أصيبعة ١ : ١٦٤ والزركلى ١ : ٣٨٠ .

(٢) حرف يستقيم به الـكلام

(٣) في الأصل « زغبني »

(السماع والكتابة)

فالإنسان لا يعلمُ حتي يكثُرَ سماعُه ، ولابُدَّ مِن أن تكون كتبُه أكثرَ من سَماعِهِ ؛ ولا يعلمُ ، ولا يجمع العلم ، ولا يُختَلَفُ [إليه][1] ، حتى يكون الإنفاقُ عليه من ماله ، ألذَّ عندَه من الإنفاق من مال عدوِّه . ومَن لم تكن نفقتُه التي تخرج في الكتب ، ألذَّ عنده مِن إنفاق عُشَّاق القيان ، والمستهتَرِين بالبنيان[2] ، لم يبلغ في العلم مبلغاً رضِيًّا . وليس يَنتفِع بإنفاقه ، حتَّى يؤثِر اتِّخاذَ الكتبِ ، إيثارَ الأعرابي فرسَه باللبن على عياله ، وحتَّى يؤمِّل في العلم ما يؤمِّل الأعرابي في فرسه .

(حرص الزنادقة على تحسين كتبهم)

وقال إبراهيم بن السنديّ مرة: ودِدتُ أنَّ الزنادقة لم يكونوا حرصاء على المغالاة[3] بالورق النقيِّ الأبيض ، وعلى تخيُّرِ[4] الحبرِ الأسودِ المشرِق البرَّاق ، وعلى استجادةِ الخطِّ والإرغاب لمن يخطّ ، فإنِّي لم أرَ كورَق كتبِهم ورقاً ، ولا كالخطوط التي فيها خطًّا . وإذا غرِمتُ مالاً عظيماً ــ مع حبِّي للمال وبُغْضِ الغُرْم ــ كان سخاءُ النفس بالإنفاق على الكتب ، دليلاً على تعظيمِ العلمِ ،

---

(١) ليست بالأصل ، وزدتها ليظهر المعنى . والمراد أن يختلف إليه تلاميذه

(٢) المستهتر : المولع بالشيء المنهمك فيه . وفي ط « ألذ عنده من عشق القيان وإنفاق المستهزئين بالبيان » وهي عبارة مضطربة أبدلتها بما في ل لتصح .

(٣) في ط « حرصي على المقالات » وصوابه ما في ل . . وحريص إنما يجمع على حراص ــ كرمان ، وحراص ، بكسر الحاء ، وحرصاء .

(٤) في ط « تحلل » والتصحيح من ل .

وتعظيمُ العلم دليلٌ على شرف النفس ، وعلى السلامَة من سُكْر الآفات .

قلت لإبراهيم : إنّ إنفاقَ الزنادقةِ على تحصيل الـكتب ، كإنفاق النصارى على البِيَع ، ولو كانت كتبُ الزنادقةِ كتبَ حِكمٍ وكتبَ فلسفة ، وكتبَ مقاييسَ وسُنَنٍ [و] تبيُّنٍ وتبيين[1] ، أولو كانت كتُبهم كتباً تُعرِّف الناسَ أبوابَ الصِّناعات ، أو سُبُلَ التكسُّب والتجارات ، أو كتبَ ارتفاقاتٍ ورياضاتٍ ، أو بعضَ ما يتعاطاه الناسُ من الفِطَن والآداب — وإنْ كان ذلك لا يقرِّب من غِنًى ولا يُبْعِد من مأثَم — لكانوا ممَّن قد يجوز أن يُظَنَّ بهم تعظيمُ البيان ، والرغبةُ فى التبيُّن[2] ، ولـكنَّهم ذهبوا فيها مذهبَ الدِّيانة ، [و] على ٢٩ طريقِ تعظيم المِلّة ، فإنّمـا إنفاقهم فى ذلك ، كإنفاق المجوس على بيت النار ، وكإنفاقِ النصارَى على صُلْبان الذهب ، أو كإنفاق الهند على سَدَنةِ البِدَدَة ولو كانوا أرادوا العلمَ لكان العلمُ لهم مُعرَّضاً ، وكتبُ الحـكمة لهم مبذولةً ، والطرقَ إليها سهْلةً معروفة . فمـا بالُهُم لا يصنعون ذلك إلاّ بكُتُب دياناتهم ، كما يزخرفُ النصارى بيوتَ عباداتهم ! ولو كان هـــذا المعنى مستحسَناً عند المسلمين ، أو كانوا يرَون أنّ ذلك داعيةٌ إلى العبادة ، وباعثة على الخُشوع ، لبلغُوا فى ذلك بعَفْوهم ، مالا تبلغُهُ النصارى بغاية الجَهْد .

(مسجد دمشق)

وقد رأيتُ مسجدَ دِمَشْق ، حين استجاز هذا السبيلَ مَلِكٌ من ملوكها ، ومَنْ رآه فقد علم أنّ أحداً لا يرومه ، وأنَّ الرومَ لا تسخو أنفُسهم

(١) فى الأصل « نبين وتبين » وصححه بمـا ترى .
(٢) فى ط « التبين » .

به ، فلمّا قام عمرُ بنُ عبدِ العزيز، جَلَّله بالجلال ، وغَطّاه بالكرابيس[١] ، وطبَخَ سلاسلَ القناديلِ حتّى ذهب عنها ذلك التلألُؤ والبريق ؛ وذهب إلى أنّ ذلك الصنيعَ مجانِبٌ لسنّة الإسلام ، وأنّ ذلك الحُسنَ الرائعَ والمحاسنَ الدِّقاق ، مَذْهَلةٌ للقلوب ، وَمشغَلةٌ دونَ الخشوع ، وأنّ البالَ لا يكون مجتمِعاً وهناك شيء يفرِّقه و يعترِض عليه .

(صفة كتب الزنادقة)

والذى يدلّ على ما قلنا ، أنّه ليس فى كتبهم مثلٌ سائر ، ولا خبرٌ طَريف ، ولاصنعةُ أدبٍ ، ولاحكمةٌ غريبة ، ولافلسفةٌ ، ولامسئلةٌ كلاميّة ، ولا تعريفُ صِناعة ، ولا استخراجُ آلة ، ولا تعليمُ فِلاحةٍ ، ولا تدبير[٢] حرب ، ولا منازعة[٣] عن دِين ، ولا مناضَلة عن نِحْلة . وجُلُّ ما فيها ذِكر النور والظلمة ، وتناكُحُ الشياطين ، وتسافُدُ العفاريت ، وذكر الصنديد ، والتهويل بعمود السنخ[٤] ، والإخبار عن شقلون ، وعن الهامة [والهمامة] و [وكلُّه] هَذْرٌ وعِيٌّ وخُرافة ، وسُخْرِيَة وتكذُّب ، لاترى فيه موعظةً حسنة ، ولا حديثاً مُونِقا ، ولا تدبيرَ مَعاشٍ ، ولا سياسةَ عامة ، ولا ترتيبَ خاصّة[٥] . فأىُّ كتابٍ أجهلُ ، وأىُّ تدبيرٍ أفسدُ من كتابِ

---

(١) الكرباس بالكسر: ثوب من القطن الأبيض، معرب فارسيته بالفتح ، غيروه لعزة فعلال . والنسبة كرابيسى كأنه شبه بالأنصارى .

(٢) فى ط «تدبر» والوجه مافى ل .

(٣) فى ل «مقارعة» .

(٤) فى ط «الصبح» .

(٥) فى ط «ولا سياسة عاملة ولا ترتيب خاصية» والعبارة مشوهة أصلحتها من ل .

يوجب على الناس الإطاعة ، والبخوع[١] بالديانة [لا[٢]] على جهة الاستبصار والمحبّة ، وليس فيه صلاحُ معَاشٍ ولا تصحيحُ دين !؟ والناسُ لايحبُّون إلا ديناً أو دنيا : فأمّا الدنيا فإقامةُ سوقها [وإحضار نفعها . وأما الدِّين فأقلُّ مايُطمع فى استجابة العامة] ، واستمالة الخاصّة ، أنْ يصوَّر فى صورةٍ مغلَّطة ، ويموَّهَ تمويهَ الدِّينارِ البَهْرَجِ ، والدرهمِ [الزائف] الذى لا يغلط فيه الكثير ، ويعرفُ حقيقته القليل[٣] . فليس إنفاقُهم عليها من حيثُ ظننت . وكلُّ دينٍ يكون أظهر [اختلافاً وأكثرَ] فساداً ، يحتاج من الترقيع والتمويه[٤] ، ومن الاحتشاد له والتغليط[٥] فيه إلى أكثر . وقد علمْنا أنَّ النصرانيَّةَ أشـدُّ انتشاراً من اليهوديّة تعبداً ، فعلى حسب ذلك يكون تزيُّدُهم فى توكيده واحتفالُهم فى إظهار تعليمه .

(فضل التعلم)

وقال بعضهم : كنتُ عندَ بعض العلماء ، فكنتُ أكتب عنه بعضاً وأدَعُ بعضاً ، فقال لى : اكتُبْ كلَّ ماتسمعُ ، فإنَّ مكانَ ما تسمعُ أسودَ خيرٌ من مكانه أبيض[٦] .

---

(١) فى ط « والتخرج » .

(٢) زيادة يقتضيها الكلام .

(٣) فى ط «ويموه تمويه (الدنيا والبهرج) والدرهم الذى (لا) يغلط فيه الكثير ويعرف (حقيقة) القليل » ووجهت العبارة من ل بعد أن حذفت (لا) .

(٤) فى ط « احتاج من الترقيع والتمويه » وتصحيحه من ل .

(٥) فى ل « والتغليظ » بالظاء .

(٦) كذا فى س .. وفى ط « من مكان أبيض » وفى ل « فإن أحسن ماتسمع خير من مكانه أبيض » .

وقال الخليل بن أحمد : تكثَّرْ من العلم لتعرِف ، وتقلَّلْ منه لتحفَظ .

وقال أبو إسحاق : القليل والكثير للكتب ، والقليلُ وحدَه للصدر ..
وأنشدَ قول ابن يَسير(١) :

أما لو أعِي كلَّ ما أسمَعُ   وأحفَظُ من ذاكَ ما أجمعُ
ولم أستفِدْ غيْرَ ما قد جمعـــتُ لَقِيلَ هو العالِمُ المِصقَعُ(٢)
ولكنَّ نفسي إلى كلِّ نو   عٍ من العلم تسمعُه تنزِعُ
فلا أنا أحفظُ ما قد جَمعـــتُ ولا أنا مِن جَمعه أشبعُ
وأُحصَر بالعِيِّ في مجلسي   وعِلميَ في الكُتْبِ مستودَعُ
فمن يكُ في علمه هكذا   يكنْ دهرَهُ القهقرَى يرجعُ
إذا لم تكنْ حافظًا واعيًا   فجمعُك للكتبِ لا ينفع

(التخصص بضروب من العلم)

وقال ابن إسحاق : كلَّفَ ابنُ يسيرٍ الكتبَ ما ليس عليها .... إنَّ الكتبَ لا تحيي الموتَى ، ولا تحوِّل الأحمقَ عاقلا ، ولا البليدَ ذكيًّا ، ولكنَّ الطبيعةَ إذا كان فيها أدنى قبُول ، فالكتبُ تشحَذُ وتفتِق ، وتُرهِف وتَشفِي . ومن أرادَ أن يعلمَ كلَّ شيء ، فينبغي لأهلِهِ أن يداووه !

---

(١) هو محمد بن يسير الرياشي ، يقال إنه مولى لبني رياش الذين منهم العباس بن الفرج الرياشي الأخباري الأديب . وكان شاعرا ظريفا من شعراء المحدثين ، متقللا ، لم يفارق البصرة ، ولا وفد إلى خليفة ولا شريف منتجعا ، ولا تجاوز بلده . وكان ماجنا هجاء خبيثا ، وكان من بخلاء الناس .. انظر الأغاني ١٢ : ١٢٤ ــ ١٣٦ .. والشعر نسبه الجاحظ في المحاسن ص ٨ إلى الأصمعي ولكنه هنا يؤكد بتعقيبه للشعر ــ أنه لابن يسير

(٢) في الأصول « خير ماقد جمعت » والصواب ما أثبته .

فإنَّ ذلك إنَّما تصوَّرَ له بشيء اعتراه !! فمَنْ كان ذكيًا حافظًا فليقصِد إلى شيئين ، وإلى ثلاثة أشياء ، ولا ينزِع عن الدرس والمطارَحة ، ولا يدعُ أن يمرَّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ، ما قدَر عليه من سائر الأصناف، فيكون عالمًا بخواصّ ، ويكون غيرَ غفلٍ من سائرِ ما يجرى فيه الناسُ ويخوضون فيه . ومَن كان مع الدرس لا يحفظ شيئًا، إلاَّ نسى ما هو أكثرُ منه ، فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعد .

(جمع الكتب)

وحدَّثنى موسى بنُ يحيى قال : ما كان فى خِزانةِ كتبِ يحيى ، وفى بيت مدارسه[1] كتابٌ إلاَّ وله ثلاثُ نسخ .

وقال أبو عمرو بنُ العلاء : ما دخلتُ على رجل قطُّ ولا مررتُ ببابه ،
٣١ فرأيتُه ينظرُ فى دفترٍ وجليسُه فارغُ اليد ، إلاّ اعتقدتُ أنَّه أفضلُ منه وأعقل .

وقال أبو عمرو بن العلاء : قِيل لنا يوماً : إنَّ فى دار فلانٍ ناساً قد اجتمعوا على سَوءة ، وهم جُلوسٌ على خَميرة لهم[2] ، وعندهم طُنبُورٌ . فتسوَّرنا عليهم[3] فى جماعةٍ من رجالِ الحىِّ ، فإذا فتًى جالسٌ فى وسط

---

(١) فى ل « مدراسه » وهو تحريف صوابه فى ط .. والمدارس : جمع مدرس كمنبر، وهو الكتاب . وأما المدراس فهو الموضع الذى يقرأ فيه القرآن ومنه قالوا : مدراس اليهود .. فالوجه ما أثبته عن ط .

(٢) فى ط « على خـبيرة » وما هنا عن ل و س فإن ضـبطت بضم الخاء كان معناها الخمر (بعد تصغيرها) وإن ضبطت بفتح الخاء كان المراد بها الحصيرة الصغيرة من السعف .. ولـكل وجه .

(٣) فى ل « فذمرنا عليهم » ولعلها « فتذامرنا عليهم » أى حض بعضنا بعضا .

الدار ، وأصحابُه حوله ، وإذا همْ بِيضُ اللِّحَى ، وإذا هو يقرأُ عليهم دفتراً فيه شعر . فقال الذى سعى بهم : السَّوءة فى ذلك البيت ، وإنْ دخلتموه عثَرتم عليها ! فقلت : والله لا أَكشفُ فتًى أصحابُه شيوخ ، وفى يده دفترُ علم ، ولو كان فى ثوبه دمُ يحيى بنِ زكريَّاء !!

وأنشد رجلٌ يُونُسَ النحويَّ :

استودَعَ العلمَ قرطاساً فضيَّعَه ... فَبِئْسَ مستودَعُ العلمِ القراطيسُ

قال ، فقال يونس : قاتَلَه الله ، ما أشدَّ ضَنانَتَه بالعلم ، وأحسنَ صِيانته له ، إنَّ علمَك مِن روحِك ، ومالَكَ مِن بدنك، فضعْه منكَ بمكان الرُّوح، وضعْ مالَكَ بمكان البدن !!

وقيل لابن داحة — وأخرجَ كتابَ أبى الشمقمق ، وإذا هو فى جلود كوفيَّة ، ودفَّتَيْن طائفيَّتَين[1] ، بخطٍّ عجيب — فقيل له : لقد أُضيع من تجوَّدَ بشعر[2] أبى الشمقمق ! فقال : لا جرم والله !! إنَّ العلمَ ليُعطيكم على حسابِ ماتُعطونه ، ولو استطعتُ أن أودِعَه سُويداءَ قلبى ، أو أجعلَه محفوظاً على ناظرى ، لفعلت .

ولقد دخلت على إسحاقَ بنِ سليمان فى إمْرته ، فرأيتُ السِّماطَين والرجالَ مُثُولاً كأَنَّ على رءوسهم الطير، ورأيتُ فِرْشَتَه وبِزَّته ؛ ثم دخلتُ عليه وهو معزول ، وإذا هو فى بيتِ كتبه ، وحواليه الأسفاطُ والرُّقوق ، والقماطيرُ والدفاترِ والمَساطر والمحابر ، فما رأيتُه قطُّ أفخمَ ولاأنبلَ ، ولاأهيبَ

---

(١) فى ط « طائفيين » والصواب مافى ل نسبة إلى الطائف .

(٢) فى ل « لشعر » باللام بدل الباء .

ولا أجزلَ منهُ فى ذلك اليوم ؛ لأنَّه جمعَ مع المهابَة المحبَّة ، ومع الفَخامة الحلاوة ، ومع السُّودَد الحِكْمة .

وقال ابن داحة : كان عبدُ الله بنُ عبدِ العزيز بنِ عبد الله بن عمر بن الخطَّاب ، لا يجالِسُ الناسَ ، وينزلُ مَقْبُرةً من المقابر ، وكان لا يكادُ يُرى إلاَّ وفى يده كتابٌ يقرؤه . فسُئِل عن ذلك ، وعن نزولِه المقبُرة فقال : لم أرَ أوْعظَ من قبر ، ولا أمنَع[1] من كتاب ، ولا أسلَمَ من الوَحدة . فقيل له : قد جاء فى الوَحدة ما جاء ! فقال : ما أفسَدَها للجاهِل [وأصلحها للعاقل !]

(ضروب من الخطوط)

وضروبٌ من الخُطوطِ بعد ذلك ، تدلُّ على قدرِ منفَعَة الخطِّ . قال الله تبارَكَ وتعالى ﴿ كِرَامًا كاتبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ وقال الله عزّ وجلّ ﴿ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾
٣٢ وقال ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ وقال ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ وقال ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ .

ولو لم تكتب أعمالُهم لكانت محفوظةً لا يدخلُ ذلك الحفظَ نسيانٌ ، ولكنَّه تعالى وعزّ ، علم أنّ كتابَ المحفوظِ ونسخَه ، أوكدُ وأبلغُ فى الإنذار والتحذير ، وأهيبُ فى الصدور .

---

(١) كذا فى ط وفى المحاسن ص ٤ «ولا آنس» فلعل صحة ماهنا «أمتع» من الإمتاع.

وخطٌّ آخَر ، وهو خطُّ الحازى والعرَّاف[1] والزَّاجِر . وكان فيهم حليس[2] الخطَّاطُ الأسديّ ، ولذلك قال شاعرهم فى هجائهم :

فأنتم عضاريطُ الخَميسِ إذا غزَوْا ‌ ‌ ‌ غَناؤكم تِلْكَ الأخاطيطُ فى التُّرْبِ[3]

وخُطوطٌ أُخَر ، تكون مستراحًا للأسيرِ والمهموم والمفكِّر ، كما يعترى المفكِّرَ من قَرْعِ السنِّ ، والغضبانَ من تصفيقِ اليد وتجحيظِ العين . وقال تأبَّطَ شرًّا :

لتقْرَعَنَّ علَيَّ السنَّ مِنْ نَدَمٍ ‌ ‌ ‌ إذا تذكَّرتَ يومًا بعضَ أخلاقى

وفى خطِّ الحزينِ فى الأرض يقول ذو الرُّمَّة[4] :

عَشِـيَّةَ مالِى حِيلةٌ غيرَ أنَّنِى ‌ ‌ ‌ بِلَقْطِ الحصى والخطِّ فى الدارِ مُولَعُ[5]

أخطُّ وأمحو الخطَّ ثم أُعِيـدُه ‌ ‌ ‌ بكفِّىَ والغِرْبانُ فى الدارِ وُقَّعُ

وذكر النابغةُ صنيعَ النساء ، وفزَعهنَّ إلى ذلك ، إذا سُبِين واغترَبن وفكَّرن ، فقال :

---

(١) فى ط « الحادى والقراف » وتحقيقه من ل . . والحازى : صاحب الكهانة فى العرب .. والعراف : الكاهن أو الطبيب .. قال عروة بن حزام :

جعلت لعراف اليمامة حكمه ‌ ‌ وعراف حجر إن هما شفيانى

(٢) كذا فى س ورسائل الجاحظ طبع الساسى ص ١٣٠ . . وورد فى ل برسم « حلبس » وفى ط برسم « حلبس » .

(٣) العضاريط : جمع عضرط كقنفذ، وعضارط كعلابط، وعضروط كعصفور، قال فى القاموس : هو الخادم على طعام بطنه ، والأجير ، واللئيم .

(٤) قال الثعالبى فى الثمار ٢١٤ « ابناعيان ضرب من الزجر، وهو أن يخط الناظر فى أمر بأصبعه ، ثم بأصبع أخرى ويقول : ابناعيان ! أسرعا البيان !! ثم يخبر بما يرى وهو مشتق من قولك : أريانى ما أريد عيانا . وهذا معنى قول ذى الرمة :

عشية مالى حيلة غـيـر أننى ‌ ‌ بلقط الحصى والخط فى الدار مولع .

(٥) فى الثمار كما كتبت « بلقط » بالقاف بدل الفاء ، وفى الأصل : « بلفظ » وانظر تفسير الجاحظ الآتى .

ويخططْنَ بالعيدانِ فى كلّ منزلٍ ويَخبأنَ رُمَّانَ الثُّدِىِّ النواهد

وقد يفزع إلى ذلك الخَجِلُ والمتعلِّل ، كما يفزع إليه المهمومُ وهو قولُ القاسم ابن أميَّةَ بنِ أبى الصَّلْت :

لا ينقرون الأرضَ عند سُؤالِهم لتلمُّسِ العِـــلاَّتِ بالعِيدانِ(١)
بل يبسُطُون وجوهَهم فتَرَى لهـا عندَ اللقاء كأحسَنِ الألوانِ

وقال الحارث بن الـكِنْدىّ ، وذكرَ رجلاً سأله حاجةً فاعتراه العبثُ بأسنانه ، فقال :

وآضَ بكفِّه يحتـــكُّ ضِرساً يُرِينَا أنَّهُ وَجِـــعٌ بضِرْسِ

وربما اعترى هؤلاء عدُّ الحصى ، إذا كانوا فى موضعِ حصى ، ولم يكونوا فى موضعِ تراب ، وهو قول امرئ القيس :

ظلِلْتُ رِدائِى فوقَ رَأسِىَ قاعداً أعدُّ الحصَى ماتنقَضِى حَسَراتِى

٣٣ وقال أميَّةُ بنُ أبى الصَّلْت :

نَهَــرًا جَارِيًا وبيتاً عَليًّا يعتَرِى المعتَفِينَ فضلُ نداكا
فى تراخ من المكارم جَزْلٍ لم تعلِّلهم بلَقْــطِ حَصاكا(٢)

وقال الآخر ، وهو يصف امرأةً قُتِلَ زوجُها ، فهى محزونةٌ تلقُط الحصى :

وبيضاءَ مِكسالٍ كأنَّ وشاحَها على أمِّ أحوى المُقْلَتَين خَذُولِ(٣)

---

(١) فى ط « ينكتون » وهو تصحيف ، وفى س « ينكتون » ، وفى ل وكذلك عيون الأخبار ٣ : ١٥٢ « لا ينقرون » كما أثبت .

(٢) « تراخ » لعلها « براح » كسحاب ، وأصل معناه الفسيح من الأرض .. و « تعللهم » هى فى ط « تعلقهم » وليس بشىء . وفى ل « تعلل لهــم » وهو خطأ كتابى .

(٣) فى ط « المقتلين » وهو تصحيف عجيب .. وأحوى المقلتين يعنى به الظبى . والخذول من وصف أمه ، وهى التى خذلت أصحابها فانفردت عنهم قائمة على ولدها ، فهى فزعة ولهة على خشفها ، وهى تمد عنقها وترتاع ، وذلك أحسن لهـا .

عَقَلْتُ لهـا مِنْ زَوجِهَا عَدَدَ الحصى

مع الصُّبح ، أو فى جُنحِ كلِّ أصيلِ

يقول : لم أُعْطِهَا عقْلاً عن زوجها ، ولم أُوفِهَا إلاّ الهمَّ الذى دعاها إلى لقط الحصى . يخبر أنّه لمنعَتِه ، لا يُوصَل منه إلى عقلٍ ولا قَوَد .

(أقوال الشعراء فى الخط)

وممّا قالوا فى الخطّ ، ما أنشدنا هشامُ بن محمد بن السائب الكلبيّ قال : قال المقنَّع الكندىّ فى قصيدةٍ له ، مدح فيها الوليدَ بنَ يزيد :

كالخطِّ فى كُتُبِ الغلام أجادَه[1] بِمِداده ، وأسَدَّ من أقلامه[2]

قلمٌ كخُرطوم الحمامةِ مائلٌ مُستَحفِظٌ للعلم من علاّمِه

يَسِمِ الحروفَ إذا يشاء بناءها لبيانِها بالنَّقْط من أرسامِه

مِن صُوفةٍ نَفِث المداد سُخامه حتى تغيَّرَ لونُها بسُخامه

يَحْفَى فيُقْصَمُ من شَعيرة أنفِه[3] كقُلاَمة الأُظفورِ من قلاّمِه

وبأنفه شِقٌّ تلاءم فاستوى سُقِيَ المدادَ ، فزاد فى تَلْآمِه

مُسْتَعجِمٌ وهو الفصيحُ بكلِّ ما[4] نطق اللسانُ به على استعجامِه

---

(١) فى ط « كتف » وفى ل « كف » والوجه ما كتبته من س .

(٢) فى ط « بمراده » وهو تصحيف ظاهر .

(٣) فى ط « يخفى » وإنما هو « يحفى » بالحاء كما فى ل ، أى يرق سنه ، فيتعثر فى الكتابة . وهو مأخوذ من حفا القدم والخف والحافر .

(٤) فى ط « متعجم » وأثبت ما فى ل لأنه الوجه . . واستعجم : سكت ، ومنه قول النابغة :

فاستعجمت دار نعم ماتكلمنا والدار لو كلمتنا ذات أخبار

وله تراجِمةٌ بألســـنةٍ لهمْ   تبيانُ مايَتلُونَ من تَرجَامِه
ما خــطَّ من شىء به كتّابه   ما إن يبوحُ به على استكتامِه
وهجاؤه قاف ولام بعــدها   ميم معلّقةٌ بأســـفلِ لامِه

ثم قال :

قالتْ لجارتها الغزَيِّلُ إذ رأت   وجهَ المقنَّع من وراءِ لِثامِه
قد كان أبيضَ فاعتراه أُدْمَةٌ   فالعينُ تُنكره من أُدْهِمامِه
كم من بُوَيزِلِ عامِها مهريّة   سُرُحِ اليدينِ ومن بُوَيزِلِ عامِه
٣٤ وَهَبَ الوليدُ برَحْلها وزمامها[1]   وكذاكَ ذاكَ برَحْلِهِ ،وزمامِه
وقويرحٍ عتـــد أُعِدَّ لِنيِّهِ   لبنُ اللَّقُوحِ فعادَ ملءَ حزامِه[2]
وهبَ الوليد بسَرْجها ولجامها   وكذاكَ ذاكَ بسَرجِه ، ولِجامِهِ
أهدَى المقنَّع للوَليدِ قصيدةً   كالسيفِ أُرهِفَ حدُّه بحُسامه
وله المآثرُ فى قريشٍ كلِّها   وله الخِلافةُ بعد موتِ هشامِه

وقال الحسن بن جَماعة الجُذَامِيُّ[3] فى الخطِّ :

---

(١) فى ط « وزماعها » والصواب ما كتبت من ل .

(٢) إلنى بالكسر: الشحم . القويرح: مصغر قارح، وهو من ذى الحافر، بمنزلة البازل من الإبل . العتدمحركة وككتف: المعد للجرى أوالشديد، التام الخلق . اللقوح : الناقة قد لقحت .. وكان العرب يسقون كرائم الخيل ألبان الإبل ... قال الأعرج المعنى (الحماسة ١ : ١٣٠) :

أرى أم سهل ما تزال تفجع   تلوم وما أدرى علام توجع
تلوم على أن أمنح الورد لقحة   ومالستوى والورد ساعة تفزع
إذا هى قامت حاسرا مشمعلة   نخيب الفؤاد رأسها مايقنع
وقمت إليه باللجام ميسرا   هنالك يجزينى بما كنت أصنع

وقال قبيصة بن النصرانى الجرمى (الحماسة ١ : ٢٤٦) :

هاجرتى يابنت آل سعد   أأن حلبت لقحة للورد
جهلت من عنانه الممتد   ونظرى فى عطفه الألد

(٣) كذا فى ل، و س .. وقد ورد بالحاء فى ط .

إليكَ بِسِرِّى بَاتَ يُرقِلُ عالمٌ
أصمُّ الصدى مُحرورِفُ السّنِّ طائعُ(١)

بَصيرٌ بمـا يُوحَى إليه ومالَهُ لسانٌ ولا أُذْنٌ بها هُوَ سامعُ

كأنَّ ضميرَ القلبِ باحَ بِسرِّه لديه ، إذا ما حَشْحَشَتْهُ الأصابع

له رِيقةٌ من غير فرثٍ تمدُّه ولا مِنْ ضُلوعٍ صفقّتها الأضالِعِ(٢)

وقال الطائىُّ ، يمدح محمَّدَ بن عبدِ الملك الزَّيات :

وما بَرِحَتْ صُوراً إليكَ نوازعًا أعنّتُها مُذْرا سلَتْكَ الرسائلُ

لكَ القلمُ الأعلى ألذى بشباته يُصَابُ من الأمرِ الكُلَى والمَفاصلُ(٣)

لك الخَلَواتُ اللاءِ لولا نجيُّها لمـا احتفلت للمُلْكِ تلكَ المحافلُ(٤)

لُعابُ الأفاعى القاتلاتِ لُعابهُ وأرْىُ الجَنَى اشتارَتْه أيدٍ عَواسِلُ

له رِيقَةٌ طَلٌّ ولـكنَّ وقعها بآثارِها فى الشرقِ والغرب وابلُ

فصيحٌ إذا استنطقْتَه وهو راكبٌ وأعجمُ إن خاطبتَه وهو راجلُ

إذاماامتطى الخمسَ اللطافَ وأُفرغت عليه شِعابُ الفكرِ وهى حَوافِلُ

أطاعَتْه أطرافُ القَنا وتقوَّضَتْ لنَجواه تقويضَ الخيامِ الجَحافلُ

إذا استغزر الذهن الجلىّ وأقبلتْ أعالِيه فى القِرطاسِ وهى أسافلُ(٥)

---

(١) فى ط « إليـك سرى » وتصحيحه من س . الصـدى : جسد الآدمى بعد موته. فهو بذلك يعنى أن القلم عجيب فى وعيه للسر مع صممه، والصدى كذلك: رجع الصوت ، فكأن القلم ينطق فى القرطاس ، دون أن يبين صدى صوته .

(٢) فى ل و س « ضمنتها » . وفى البيت تحريف كما ترى .

(٣) فى ط « بشباته » موضع بشباته ، وهو تحريف صوابه فى ل والديوان .

(٤) فى ط « لولا نجيها لمـا اختلفت » وتصحيحه من ل والديوان .

(٥) فى ط « إذا استشعر الذهن المجلى » وأثبت ما فى ل .

وقد رفدته الخِنْصَرانِ وسددت ثلاثَ نواحِيه الثلاثُ الأنامِلُ[١]

رأيتَ جليلاً شأنُهُ وهو مُرْهَفٌ ضنى وسميناً خَطْبُهُ وهو ناحلُ[٢]

أرى ابنَ أبي مروانَ أمَّا لقاؤُه فدانٍ وأمَّا الحكمُ فيه فعادلُ

٣٥ وقد ذكر البُحتُريُّ في كلمةٍ له ، بعضَ كهولِ السكر[٣] ، ومن أنبَلِ أبناء كتّابهم[٤] الجِلّة فقال :

وإذا دجَتْ أقلامُه ثم انتحَتْ برقَتْ مصابيحُ الدُّجَى في كتبه

(الكتابات القديمة)

وكانوا يجعلونَ الكتاب حفراً في الصخور ، ونقشاً في الحجارة ، وخِلْقةً مركَّبةً في البُنْيان ؛ فربَّما كان الكتابُ هو الناتئ ، وربَّما كان الكتابُ هو الحفر ، إذا كان تاريخاً لأمرٍ جَسيم ، أو عهداً لأمرٍ عظيم ، أو مَوعظةً يُرْتَجى نفعُها ، أو إحياء شرفٍ يريدون تخليد ذكره ، [أو تطويل مدته] كما كتبوا على قُبَّة غُمْدَان[٥] ، وعلى باب القَيْرُوان[٦] ،

(١) في ط « وقد رمزته الخنصران وشددت » وهو تحريف ما أثبته من ل والديوان .

(٢) في ط « نضى » وصوابه من الديوان و ل .

(٣) هو الحسن بن وهب ، وليت شعري لم يصرح الجاحظ باسمه ، مع أن الجاحظ له رسالة إلى الحسن بن وهب ، في مدح النبيذ وصفة أصحابه ، ذكر صدرا منها عبيدالله بن حسان ، في كتابه «الفصول المختارة» انظر هامش الكامل ١ : ٩٧ . والبيت المذكور من قصيدة في ديوان البحتري ٦٧ مطلعها :

من سائل لمنزل عن خطبه أو صافح لمقصر عن ذنبه

(٤) في ط « أنبل أبنا كتابهم » وتصحيحه من ل .

(٥) غمدان : قصر بين صنعاء وطيوة ، واختلف في اسم بانيه ، وله صفة عجيبة في معجم البلدان .

(٦) هي المدينة المعروفة في أفريقية ، مصرت في الإسلام في أيام معاوية .

وعلى باب سَمَرْقَنْد[١] ، وعلى عمود مأرِب[٢] ، وعلى ركن المشقر[٣] ، وعلى الأبلَق الفَرْد[٤] ، وعلى باب الرها[٥] ؛ يعمِدُون إلى الأماكن المشهورة ، والمواضع المذكورة ، فيضعون الخطَّ فى أبعدِ المواضع من الدُّثور ، وأمنَعِها من الدروس ، وأجدرَ أنْ يراها من مرَّ بها ، ولا تُنسى على وجه الدهر .

(فضل الكتابه وتسجيل المعاهدات والمحالفات)

وأقول : لولا الخطوطُ لبطَلَت العهودُ والشروطُ والسِّجلاَّتُ والصِّكاك ، وكلُّ إقطاعٍ ، وكلُّ إنفاق ، وكلُّ أمان ، وكلُّ عهدٍ وعَقْدٍ ، وكلُّ جوارٍ وحِلف ، ولِتعظيمِ ذلك ، والثقةِ به والاستنادِ إليه ، كانوا يَدْعُونَ فى الجاهليّةِ مَنْ يكتبُ لهم ذكرَ الحِلْف والهُدْنة ؛ تعظيمًا للأمر ، وتبعيداً من النسيان ، ولذلك قال الحارثُ بن حِلِّزة ، فى شأنِ بكرٍ وتغلب[٦] :

واذكُروا حِلْفَ ذِى المَجازِ وما قُدِّمَ فيه ، العهودُ والكفلاءُ

---

(١) بلدة عظيمة فى التركستان ، والأصمعى يروى أنه كتب على بابها بالحميرية ، انظر المعجم .

(٢) مأرب : بين صنعاء وحضرموت من بلاد اليمن .

(٣) المشقر : حصن كان بالبحرين ... وفى ط « الركن المشقر » وأصلحته من ل والمحاسن ٣ .

(٤) قال ياقوت : هو حصن السموءل بن عادياء اليهودى ، مشرف على تيماء بين الحجاز والشام ، على رابية من تراب ، فيه آثار أبنية من لبن ، لا تدل على ما يحكى عنها من العظمة والحصانة ، وهو خراب .

(٥) مدينة بالجزيرة .

(٦) البيتان من معلقة الحارث المشهورة ، التى مطلعها :

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاوٍ يمل منه الثواء

وقد رواها الجاحظ فى البيان ٣ : ٣ وقال فى البيت الثانى : «الحون : الخيانة . ويروى : الجور » .

حَذَرَ الجَورِ والتَّعدِّى ، وهَلْ يَنْقُضُ ما فى المَهارِقِ الأهواء !

والمهارق ، ليس يراد بها الصُّحُفُ والكتب ؛ ولا يقال للكتب مَهارقُ حتَّى تكونَ كتبَ دينٍ ، أو كتبَ عهودٍ ، ومِيثاقٍ ، وأمان .

(الرقوم والخطوط)

وليس بين الرُّقومِ والخطوط فَرق ، ولولا الرقوم لهلكَ أصحابُ البَزِّ والغَزْول ، وأصحابُ الساجِ وعامَّةِ المتاجر ، وليسَ بينَ الوُسومِ[1] التى تكون على الحافرِ كلِّه والخفِّ كلِّه والظِّلفِ كلِّه ، وبين الرقومِ فرق ، ولا بينَ العقودِ والرقوم فرق ، ولا بين الخطوط والرقوم كلِّها فرق ، وكلُّها خطوط ، وكلها كتابٌ ، أو فى معنى الخطِّ والكتاب ، ولا بين الحروف المجموعةِ والمصوَّرَةِ من الصوت المقطَّع فى الهواء ، ومن الحروف المجموعة المصوَّرة من السواد فى القرطاس فرق .

٣٦ واللسان : يصنَع فى جوبة[2] الفمِ وفى خارجه ، وفى لهَاته وباطنِ أسنانه ، مثلَ ما يصنع القلمُ فى المدادِ واللِّيقةِ والهواءِ والقرطاسِ ، وكلُّها صورٌ وعلاماتٌ وخَلْقٌ مواثل ، ودَلالات ، فيعرف منها ما كانَ فى تلك الصُّوَر لكثرةِ تَردادها على الأسماع[3] ، ويعرف منها ما كان مصوَّراً من تلك الألوان لطول تكرارها على الأبصار ، كما استدَلُّوا بالضَّحك على السرور ، وبالبكاءِ على الألم ، وعلى مثلِ ذلكَ عرفوا معانى الصوتِ ، وضروبَ صورِ الإشارات ، وصورِ جميع الهيئآت ، وكما عرف المجنون

---

(١) فى الأصل « الرسوم » بالراء وإنما هى « الوسوم » جمع وسم .

(٢) لعلها « جوبة » كفنية قال فى القاموس : استدارة كل شىء .

(٣) كذا فى ل . ووردت محرفة فى ط برسم « الأسماء » .

لقَبه ، والـكلبُ اسمَه . وعلى مثل ذلك فهِم الصبيُّ الزجرَ والإغراء ، ووعى المجنون الوعيد والتهدُّد[١] ، وبمثل ذلك اشــتدَّ حُضْرُ الدابّة مع رفع الصوت ، حتّى إذا رأى سائسَه حمحم ، وإذا رأى الحمامُ القيِّمَ عليه انحطَّ للقْط الحبّ ، قبل أن يُلقِيَ له مايلقطه ، ولولا الوسومُ[٢] ونُقُوش الخواتم ، لدخل على الأَموالِ الخللُ الـكثير ، وعلى خزائنِ الناس الضررُ الشديد .

(الخط والحضارة)

وليس فى الأرض أمّةٌ بها طِرْق[٣] أَوْ لهـا مُسْكَة ، ولا جيلٌ لهم قبضٌ وبسْط ، إلاّ ولهم خطٌّ . فأمّا أصحاب الملك والمملـكة ، والسلطانِ والجِباية ، والدِّيانة والعبادة ، فهناك الـكتابُ المتقَن ، والحساب المحـكمَ ، ولا يخرج الخطُّ من الجزْم والمسنَد المنمنم كَذا كيف كان ، قال [ذلك] الهيثمُ [بن عدى] وأبنُ الـكلبى .

(تخليد الأمم لمـآثرها)

[قال] فكلُّ أمّةٍ تعتمدُ فى استيفاءِ مآثِرها ، وتحصين مناقبها ، على ضربٍ من الضروب ، وشكل من الأشكال .

---

(١) فى ل « وودع المخنوق الوعيد والتهدد » وفى ط « وردع المجنون الوعيد والتهدد » أما كلمة « المخنوق . فواضحة التحريف وكذلك « ودع » . وكتبت « وعى » موضع « ردع » لتتناسب مع «فهم» فى الفقرة السابقة .
(٢) فى الأصل « الرسوم » وصوابه « الوسوم » .
(٣) الطرق بالـكسر : معناه هنا القوة .

(تخليد العرب لمـآثرها)

وكانت العربُ فى جاهليّتها تحتال فى تخليدها ، بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون ، والكلام المقفّى ، وكان ذلك هو ديوانها ، وعلى أنّ الشعرَ يُفيد فضيلةَ البيانِ ، على الشاعرِ الراغبِ ، والمـادح ، وفضيلةَ المأثُرة ، على السيِّد المرغوبِ إليه ، والممدوحِ به . وذهبت العجَم ، عَلَى أن تقيِّد مآثرَها بالبُنيان ، فبنوا مثلَ كَرد بيداد[1] ، وبنى أزدشير بيضاء إصطَخْر ، وبيضاء المدائن ، والحَضْر ، والمدن والحصون ، والقناطر والجسور ، والنواويس . قال : ثمّ إنّ العربَ أحبّتْ أن تشاركَ العجمَ فى البناء ، وتنفردَ بالشعر ، فبنوا غُمدان ، وكعبةَ نجْرَان[2] ، وقصرَ مارد ، وقصر مأرِب ، وقصر شَعوب[3] والأبلق الفرد و[فيـه وفى][4] مارد ، قالوا « تمرّدَ ماردٌ وعزّ الأبلق » وغيرَ ذلك من البنيان . قال : ولذلك لم تكن الفرسُ تبيح شريفَ البُنيان ، كما لاتبيح شريف الأسماء ، إلاّ لأهل البيوتات ، كصنيعهم فى النواويس والحمّامات والقِباب الخضر ، والشُّرَف
٣٧ على حيطان الدار ، وكالعقْد على الدِّهليز وما أشبهَ ذلك ، فقال بعض من

---

(١) كذا فى ط .. ومكانه فى ل « كرد بنداذ » .

(٢) كعبة نجران: بيعة بناها بنو عبد المدان بن الديان الحارثى ، على بناء الكعبة ، وعظموها مضاهاة للكعبة ، وكان فيها أساقفة معتمون ، وهم الذين جاءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى المباهلة . انظر ياقوت .

(٣) شعوب : قصر باليمن معروف بالارتفاع . كذا قال ياقوت .

(٤) زيادة ضرورية لاستقامة الكلام، وصاحب هذا القول هو الزباء، فيما روى ياقوت فى رسم (مارد) قال فى مارد «حصن بدومة الجندل، وفيه وفى الأبلق قالت الزباء، وقد غزتهما، فامتنعا عليها : تمرد مارد وعز الأبلق .. فصارت مثلا لكل عزيز ممتنع .

حضر « كُتُبُ الحكماءِ وَما دَوَّنت العلماء من صنوف البلاغات والصِّناعات ، والآداب والأرفاق[1] ، من القرون السابقة والأمم الخالية ، ومن له بقيّة ، أبقي ذِكراً وأرفعُ قدراً وأكثر ردًّا ؛ لأنَّ الحكمةَ أنفعُ لمن ورثها ، من جهة الانتفاع بها ، وأحسنُ في الأحدوثة ، لمن أحبَّ الذكر الجميل » .

(طمس الملوك والأمراء آثار من سبقهم)

والكتبُ بذلك أولَى من بُنيان الحجارة وحِيطان المَدَر ، لأنَّ من شأن الملوك أنْ يطمِسوا على آثارِ مَن قبلَهُم ، وأن يُميتوا ذِكرَ أعدائهم ، فقد هدَموا بذلك السببِ [أكثرَ] المدنِ وأكثرَ الحصون ، كذلك كانوا أيّامَ العجَم وأيّامَ الجاهليّة ، وعلى ذلك همْ في أيّام الإسلام ؛ كما هدم عثمانُ صومعةَ غُمدان ، وكما هدمَ الآطامَ[2] التي كانت بالمدينة ، وكما هدم زيادٌ كلَّ قصر ومصنَع كان لابن عامر[3] ، وكما هدم أصحابُنا بناءَ مدن الشامات لبني مروان .

---

(١) الأرفاق : جمع رفق بالكسر وهو مايستعان به .

(٢) الآطام : جمع أُطم بضمة وبضمتين وهو القصر ، أو الحصن المبني بالحجارة ، أو كل بيت مربع مسطح .

(٣) هو عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة ، أمير فاتح ، ولد بمكة وولي البصرة في أيام عثمان ، وافتتح سجستان صلحا ومدنا كثيرة في الشرق ، وكان شجاعا ، سخيا ، وصولا لقومه ، رحيما محبا للعمران . وتوفي سنة ٥٩ هـ . ولما بلغ نبأ وفاته معاوية قال : يرحم الله أبا عبد الرحمن ، بمن نفاخر ونباهي ؟!

(تاريخ الشعر العربى)

وأما الشعرُ فحديث الميلاد ، صغيرُ السنِّ ، أوّلُ من نَهَجَ سبيلَه ، وسهّل الطريقَ إليـــه ، امرؤُ القيس بن حُجْر ، ومُهَلْهِل بنُ ربيعة . وكُتُبُ أرِسطاطاليسَ ، ومعلِّمِه أفلاطون ، ثم بَطْلَيموس ، وديمقراطس(١) ، وفلانٍ وفلان،قبلَ بدء الشعر بالدهور قبلَ الدهور(٢) ، والأحقاب قبلَ الأحقاب. ويدلُّ على حداثةِ الشعر ، قولُ امرىء القيسِ بن حُجْر :

إنَّ بنى عوفٍ ابتَنوا حسناً ضيّعه الدُّخْلُلُون إذ غَدَرُوا(٣)
أدّوا إلى جارِهم خُــفارَته ولم يَضِـعْ بالمَغيب مَنْ نَصَرُوا(٤)
لاحِمْيَرِىٌّ وَفَى ولا عُدَسٌ ولا استُ عَــيرٍ يحكها الثَّفر(٥)
لــكنْ عُوَيرٌ وفَى بذمّتِه لا قِصَرٌ عابَهُ ولا عَوَرُ(٦)

فانظُرْ ، كم كان عمرُ زُرارةَ ! وكم كان بين موت زُرارة ومولدِ النبى عليه الصلاة والسلام ! ؟ فإذا استظهرنا الشعرَ ، وجدنا له ـ إلى أن جاء اللهُ بالإسلام ـ خمسين ومائةَ عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمـائتى عام .

قال : وفضيلة الشعر مقصورةٌ على العرب ، وعلى من تكلَّم بلسان

---

(١) فى ط « ذى بقراط » : وما أثبته فى ل . . وانظر القفطى (حرف الدال المهملة ثم حرف الذال المعجمة) .
(٢) فى الأصل « وقبل الدهور » .
(٣) جاءت (حسنا) بالنون فى الأصل ويظهر أنه تصحيح ماقى الديوان ١٥٩ . والمراد به المعروف والجميل. والدخلل، كما قال أبو بكر: الذى يداخل الرجل فى أمره ويصاحبه عليه
(٤) الخفارة : الذمة والعهد ، والخاء مثلثة .
(٥) حميرى وعدس : رجلان من بنى حنظلة .
(٦) أبو بكر شارح الديوان : كان عوير قد أجارهندا بنت حجر أخت امرىء القيس ، فوفى لهـا حتى أتى بها نجران، فمدحه بوفاء الذمة، ونزهه من كل عيب يشين غيره .

العرب ، والشعر لا يُستطاع أن يترجَم ، ولا يجوز عليه النقل ؛ ومتى حوّل تقطَّع نظمُه وبطلَ وزنُه ، وذهب حسنُه وسقطَ موضعُ التعجب ، [لا] كالـكلامِ المنثور . والـكلامُ المنثور المبتدأُ على ذلك أحسنُ وأوقعُ من المنثورِ [ألذى تحوّل من] موزون الشعر . ٣٨

قال : وجميع الأمم يحتاجون إلى الحكم فى ألدين ، والحكم فى الصناعات ، وإلى كلّ ما أقام لهم المعاشَ وبوّب لهم أبوابَ الفِطَن ، وعرّفهم وجوهَ المرافق ؛ حديثُهم كقديمِهم ، وأسودُهم كأحمرِهم ، وبعيدُهم كقريبهم ؛ والحاجة إلى ذلك شاملةٌ لهم .

(صعوبة ترجمة الشعر العربى)

وقد نُقِلَتْ كتبُ الهند ، وتُرجمت حكمُ اليونانيّة ، وحُوّلت آدابُ الفرس ؛ فبعضُها ازدادَ حُسنا ، وبعضها ما انتقص شيئاً ، ولو حوّلت حكمة العرب ، لبطل ذلك المعجزُ ألذى هو الوزن ؛ مع أنَّهم لو حوّلوها لم يجدوا فى معانيها شيئاً ، لم تذكرْه العجم فى كتبهم ، التى وضعت لمعاشهم وفِطَنهم وحِكَمهم . وقد نُقِلَتْ هذه الـكتبُ من أمّةٍ إلى أمّة ، ومن قَرن إلى قرن ، ومِن لسانٍ إلى لسان ، حتى انتهت إلينا ، وكنّا آخرَ مَنْ ورِثها ونظَر فيها ، فقد صحّ أنّ الـكتبَ أبلغُ فى تقييدِ المآثِر ، من البُنيان والشعر .

(قيمة الترجمة)

ثم قال بعضُ مَنْ ينصر الشـــعر ويحوطُه ويحتجُّ له : إنّ التّرجُمانَ لا يؤدِّى أبداً ما قال الحـكيمُ ، على خصائِص معانيه ، وحقائِق مذاهِبه ،

ودقائقِ اختصاراته ، وخفيّاتِ حدوده ، ولا يقدِر أَنْ يوفّيَها حقوقَها ، ويؤدّيَ الأمانةَ فيها ، ويقومَ بما يلزمُ الوكيلَ ويجبُ على الجَرِيِّ[1] ، وكيفَ يقدِر على أدائها وتسليمِ معانيها ، والإخبارِ عنها على حقِّها وصدقِها ، إلاّ أَنْ يكونَ فى العلم بمعانيها ، واستعمالِ تصاريفِ ألفاظِها ، وتأويلاتِ مخارجِها ، مثلَ مؤلِّف الكتاب وواضعِه . فمتى كان رحمه اللهُ تعالى ابنُ البِطريق ، وابن ناعمة ، وأبو قرَّة ، وابن فهر ، وابن وهيلى ، وابن المقفَّع ، مثلَ أرِسطاطاليس ؟! ومتى كان خالدٌ[2] مثلَ أفلاطون ؟! .

(شرائط الترجمان)

ولا بدَّ للتَّرجُمَان من أن يكونَ بيانهُ فى نفس الترجمة ، فى وزْن علمه فى نفسِ المعرفة ، وينبغى أن يكون أعلمَ الناس باللغة المنقولة والمنقولِ إليها ، حتَّى يكون فيهما سواءً وغاية . ومتى وجدناه أيضاً قد تكلَّم بلسانين ، علمنا أنَّه قد أدخلَ الضيمَ عليهما ؛ لأنَّ كل واحدةٍ من اللغتين تجذب الأخرى ، وتأخذُ منها ، وتعترضُ عليها ، وكيف يكونُ تمكُّنُ اللسان منهما مجتمعين فيه ، كتمكُّنه إذا انفرد بالواحدة ، وإنَّما له قوَّةٌ واحدة ، فإنْ تكلَّمَ بلغةٍ واحدة استفْرغَتْ تلك القوَّةُ عليهما ، وكذلك إنْ تكلَّمَ بأكثرَ مِنْ لغتين ، على حساب ذلك تكون الترجمةُ لجميع اللغات ، وكلَّما كانَ البابُ

---

(١) فى الأصل « المجرى » وإنما هو « الجرى » وهو فى معنى الوكيل ، كما فى القاموس

(٢) هو خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ولى الخلافة ثلاثة أشهر .. وقد قام بأول نقل فى الإسلام ، قال الجاحظ فى البيان ١ : ٢١٣ : « وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيبا شاعرا ، وفصيحا جامعا ، وجيد الرأى كثير الأرب ، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء » توفى خالد سنة ٨٥ هـ .

من العلم أعسرَ وأضيق ، والعلماء به أقلّ ، كان أشدَّ على المترجِم ، وأجدرَ أن يخطئ فيه ، ولن تجد البتّةَ مترجمًا يفِي بواحدٍ من هؤلاء العلماء . ٣٩

(ترجمة كتب الدين)

هذا قولُنا فى كتب الهندسة والتنجيم ، والحسابِ ، واللحون ؛ فكيف لو كانت هذه الكتبُ كتبَ دِينٍ وإخبار عن اللّٰه عزّ وجلّ - بما يجوز عليه ممّا لا يجوز عليه ، حتّى يريد أنْ يتكلَّم على تصحيح المعانى فى الطبائع ، ويكون ذلك معقوداً بالتوحيد ، ويتكلَّمَ فى وجوهِ الإخبار واحتمالاته للوُجوه ، ويكونَ ذلك متضمّنا بما يجوز على اللّٰه تعالى ، ممّا لا يجوز ، وبما يجوزُ على الناس ممالا يجوز ، وحتّى يعلمَ مستقرّ العامّ والخاصّ ، والمقابلاتِ التى تَلقَى الأخبارَ العامّيةَ المخْرَج فيجعلها خاصيَّة ؛ وحتّى يعرفَ من الخبر مايخصّه الخبر الّذى هو أثر ، ممّا يخصّه الخبر الّذى هو قرآن ، وما يخصّه العقل مما تخصّه العادة أوالحال الرادّةُ له عن العموم ؛ وحتّى يعرفَ ما يكونُ من الخبر صدقًا أو كذبا ، وما لا يجوز أن يسمّى بصدقٍ ولا كذب ؛ وحتّى يعرفَ اسمَ الصدق والكذب ، وعلى كم معنًى يشتمل ويجتمع ، وعند فقد أىِّ معنًى ينقلب ذلك الاسم ؛ وكذلك معرفة المُحالِ من الصحيح ، وأىّ شىء تأويلُ المحال ؛ وهل يسمّى المحال كذبا أم لا يجوز ذلك ، وأىّ القولين أفحشُ : المُحال أم الكذب ، وفى أىّ موضع يكون المحالُ أفْظَعَ[1] ، والكذب أشنع ؛ وحتّى يعرف المثلَ والبديع ، والوحىَ والكتابة ، وفصْلَ مابين الخطَلِ والهَذْر ، والمقصورِ والمبسوط والاختصار ؛ وحتّى يعرف أبنيةَ الكلام ، وعاداتِ القوم ، وأسبابَ تفاهمهم ، والذى ذكرنا

(١) فى الأصل « أقطع » .

قليلٌ من كثير . ومتى لم يعرفْ ذلك المترجمُ أخطأَ فى تأويل كلامِ الدين ، والخطأُ فى الدين أضرُّ من الخطأ فى الرياضة والصناعة ، والفلسفةِ والكيمياء ، وفى بعض المعيشة التى يعيش بها بنو آدم .

وإذا كان المترجِم الّذى قد تَرجَم لا يكمل لذلك ، أخطأ على قدْرِ نقصانه من الكمال . وما عِلْمُ المترجِم بالدليل عن شبه الدليل ؟ وما علْمه بالأخبار النجوميّة ؟ وما علمه بالحدود الخفيّة ؟ وما علمه بإصلاح سقطات الكلام ، وأسقاط الناسخين للكتب ؟ وما علمُه ببعض الخطرفة لبعض المقدّمات ؟ وقد علمنا أنّ المقدّمات لابدّ أنْ تكون اضطراريّة ، ولابدّ أن تكون مرتّبةً ، وكالخيط الممدود[١] وابنُ البِطريق وابن قرّة[٢] لا يفهمان هذا موصوفاً منزّلاً ، ومرتّباً مفصّلا ، من معلّمٍ رفيقٍ ، ومن حاذقٍ طَبٍّ ؛ فكيف بكتابٍ قد تداولتْه اللغاتُ واختلافُ الأقلام ، وأجناسُ خطوطِ المِلل والأمم ! ؟

ولو كان الحاذقُ بلسان اليونانيّين يرمِي إلى الحاذق بلسان العربيّة ، ثمّ كان العربيُّ مقصِّراً عن مقدار بلاغة اليونانيّ ، لم يجد المعنى والناقل التقصير ، ولم يجِد اليونانيُّ الّذى لم يرضَ بمقدار بلاغته فى لسان العربيّة بُدًّا من الاغتفار والتجاوز ، ثمّ يصير إلى مايعرض من الآفات لأصناف الناسخين ؛ وذلك أنّ نسختَه لا يَعدِمها الخطأ ، ثمّ ينسخُ له من تلك النسخة

(١) فى ط « كالخط المندور » وقد كتبت بدله ماق ل .

(٢) فى الأصل « وأبو قرة » وهو تحريف ، وإنما هو ابن قرة واسمه ثابت : طبيب حاسب فيلسوف ، قالوا : صنف نحو ١٥٠ كتابا . سرد معظمها القفطى ، فى كتابه ٨١ — ٨٤ .. ولد ثابت سنة ٢٢١ وتوفى سنة ٢٨٨ .

مَن يزيده من الخطأ ألذى يجده فى النسخة ، ثمّ لاينقص منه ، ثم يعارِض بذلك مَن يترك ذلك المقدار من الخطأ على حاله ، إذا كان ليس من طاقته إصلاحُ السَّقَط ألذى لايجدُه فى نسخته .

(مشقة تصحيح الكتب)

ولرّبما أراد مؤلِّف الكتاب أن يصلِح تصحيفاً ، أو كلمةً ساقطة ، فيكون إنشاء عشرِ ورقاتٍ[١] من حرِّ اللفظ وشريفِ المعانى ، أيسَرَ عليه من إتمام ذلك النقص ، حتّى يردَّه إلى موضعه من اتّصال الكلام ؛ فكيف يُطيق ذلك المعارض المستأجَر ، والحكيمُ نفسهُ قد أعجزه هذا الباب ! وأعجب من ذلك أنّه يأخذ بأمرَين ، قد أصلحَ الفاسدَ وزاد الصالحَ صَلاحا ، ثم يصير هذا الكتاب بعد ذلك نسخةً لإنسانٍ آخَر ، فيسير فيه الورّاقُ الثانى سيرةَ الورّاق الأوّل ؛ ولا يزال الكتابُ تتداوله الأيدى الجانية ، والأعْرَاض المفسِدة[٢] ، حتّى يصير غَلَطًا صِرفًا ، وكذِبا مصَمتا ، فما ظنُّكم بكتابٍ تتعاقبه المترجون بالإفساد ، وتتعاوره الخُطّاط بشرٍّ من ذلك أو بمثله ، كتابٍ متقادِمِ الميلاد ، دُهْرِىّ الصنعة !

(بين أنصار الكتب وأنصار الشعر)

قالوا : فكيف تكون هذه الكتبُ أنفعَ لأهلها من الشعر المقفّى ؟

---

(١) فى ط « أنشأ عشر ورقات » وتصحيحه من ل .

(٢) فى ط « الأغراض المفسدة » وتوجيهه من ل .

قال الآخر : إذا كان الأمرُ على ماقلتم ، والشأنُ على مانزّلتم ، أليس معلومًا أنَّ شيئاً هذه بقيَّتُهُ وفضلتهُ وسُؤرُه وصُبَابته ، وهذا مظهرُ حاله على شــدَّة الضيم ، وثبات قوته على ذلك الفسادِ وتداوُلِ النقص ، حريٌّ بالتعظيم ، وحقيقٌ بالتفضيلِ على البنيان[1] ، والتقديمِ على شعرٍ إن هو حُوِّل تهافَتَ ، ونفعُه مقصورٌ على أهله ، وهو يُعَدُّ من الأدب المقصور ، وليسَ بالمبسوط ؛ ومن المنافع الاصطلاحيَّة وليست بحقيقة بيِّنة[2] ، وكلُّ شيءٍ في العالم من الصناعات والأرفاق والآلات، فهي موجودات[3] في هذه الـكتبِ دونَ الأشعار ، وهاهنا كتبٌ هي بيننَا وبينكم ، مثل كتاب اقليدِس ، ومثل كتاب جالينوس ، ومثل المجسْطي[4] ، ممّـا تولّاه الحجّاج ،
٤١ وكتبٌ كثيرةٌ لاتحصَى فيها بلاغٌ للنـاس ، وإن كانت مختلفة ومنقوصة مظلومة ومفسرة ، فالباقي كافٍ شافٍ ، والغائب منها كان تكميلاً لتسلُّط الطبائع الـكاملة .

فأما فضيلة الشعر فعلى ماحكينا ، ومنتهى نفعِه إلى حيث انتهى بنا القول[5] .

---

(١) في ط « على البيان » وإنمـا هو « البنيان » كما يفهم من سياق الـكلام وكما في ل .

(٢) في ط « وليست بحقيقته بينة » وصوابه في ل .

(٣) في ط « فعي جودات » وأصلحت تشويه العبارة من ل .

(٤) في ط « المجشطي » بالشين وإنمـا هو « المجـسطي » كتاب بطليموس وقد قام بترجمته كثيرمن النقلة قالوا : وصحح المأمون كثيرا من حسابه وأقيسته لمحيط الأرض والدرجةالأرضية،فـكانأرصادعلمائهأول أرصاد فيالإسلام، وسموامجموع أرصادهم « الرصد المأموني » .

(٥) في ط « بناء القول » وصححه في ل .

وحسبُكَ ما فى أيدى الناسِ من كتب الحساب ، والطبّ ، والمنطق ، والهندسة ، ومعرفةِ اللحون ، والفِلاحة ، والتِّجارة ، وأبواب الأصباغ ، والعِطر ، والأطعمة ، والآلات . وهم أتوكم بالحكمة ، وبالمنفعة التى فى الحمّامات وفى الأصطرلابات ، والقرسطونات[١] وآلات معرفة الساعات ، وصنعة الزجاج والفُسَيفساء[٢] ، والأُسرنج[٣] والزنجفور[٤] واللازَوَرد[٥] والأشربة ، والأنْبَجَات[٦] ، والأيارَجات[٧] ولَكمُ المينا ، والنشادر

(١) هذا اللفظ وجدته فى رسالة الجاحظ إلى الفتح بن خاقان فى مناقب الترك (هامش الكامل ١ : ٢٦٢) قال : « وصاغوا من المنافع كالقرسطونات والقبانات .. » الخ ووجدته فى كتاب التربيع والتدوير له أيضا ص ٨١ طبع الساسى قال : « وخبرنى عن القرسطون كيف أخرج أحد رأسيه ثلاثمائة رطل زاد ذلك أم نقص ووزن جميعه ثلاثون رطلا زاد ذلك أو نقص » ويفهم من قرنه بكلمة (القبان) وفى الميزان ومن وصفه فى العبارة الثانية أنه ضرب من الموازين ، وهو الذى يسميه العامة عندنا فى مصر (القبانى) .

(٢) الفسيفساء : ألوان من الخرز تركب فى حيطان البيوت من داخل .

(٣) قال الخوارزمى فى مفاتيح العلوم ١٤٩ : الأسرنج : أسرب يحرق، ويشب عليه النار حتى يحمر .

(٤) رسمت هذه الكلمة فى القاموس وفى مفاتيح العلوم برسم « الزنجفر » جاء فى الأول : صبغ معروف .. وجاء فى الثانى : أنه يتخذ من الزئبق والكبريت ، يجمعان فى قوارير ، ويوقد عليها ، فيصير زنجفرا .. قال الخوارزمى : والوزن أن تأخذ واحدا من زئبق، وواحدا من كبريت.

(٥) الخوارزمى ١٤٨ : هو حجر فيه عيون براقة يتخذ منها خرز .

(٦) الأنبجات جمع أنبج قال الخليل : حمل شجرة بالهند، يربب بالعسل على خلقة الخوخ، محرف الرأس ، فى جوفه نواة كنواة الخوخ ، قال الخوارزمى فى مفاتيح العلوم ١٠٤ : فمن هنا تسمى الانبجات، وهى التى رببت بالعسل من الأترج والاهليلج، ونحو ذلك . اهـ وهى فى ط « الأنبجاث » بالثاء وهو تصحيف .

(٧) فى الأصل « الأفثارجات » وإنما هى « الأيارجات » قال فى القاموس : والأيارجة بالكسر وفتح الراء ، معجون مسهل معروف، جمعه أيارج معرب إياره، وتفسيره الدواء الإلهى . وانظر مفاتيح العلوم للخوارزمى ١٠٤ س ٤

والشَّبَه [١] وتعليق الحيطان والأساطين ، وردُّ ما مال منها إلى التقويم ، ولهم صبُّ الزردج ، واستخراج النَّشَا سْتَج [٢] ، وتعليق الخَيش ، واتِّخاذ الجمَّازات [٣] ، وعمل الحرَّاقات [٤] ، واستخراج شراب الداذيّ [٥] وعمل الدبّابات [٦] .

(ما ابتدعه الحجاج من السفن والمحامل)

وكان الحجَّاجُ أوّلَ مَن أجرى فى البحر السفن المقيَّرة المسمَّرة غيرَ الخرَّزة ، والمدهونة والمسطّحة ، وغيرَ ذواتِ الجؤجؤ ؛ وكان أوّلَ مَن عمِل المحامل ، ولذا قال بعضُ رُجَّاز الأكرياء [٧]

أوّل خَلْقٍ عَمِلَ المحامِلا أخزاهُ ربِّى عاجلاً وآجِلا

وقال آخر :

شَيَّبَ أصداغِى فهُنَّ بِيضُ مَحَامِلٌ لِقدِّها نَقِيضُ [٨]

وقال آخر :

---

(١) فى ط « الشب » وتصحيحه من ل . . والشبه والشبهان محركتين : النحاس الأصفر هذا قول الفيروزبادى . وانظر التفسير الآتى .

(٢) فى ط « النستاستج » وهو تحريف ما فى ل قال فى القاموس « والنشا وقد يمد : النشاستج معرب حذف شطره » والنشا معروف .

(٣) سيفسرها الجاحظ قريبا .

(٤) الحراقات : سفن فيها مرامى نيران ، يرمى بها العدو .

(٥) قال الفيروزبادى ، الداذى : شراب للفساق .

(٦) فى ل « الزرياب » وهو الذهب أو ماؤه ، معرب . وأما الدبابات فجمع دبابة ، قالوا إنها آلة تتخذ للحرب ، فتدفع فى أصل الحصن فينقبونه وهم فى جوفها .

(٧) مثل هذا الكلام فى البيان ٢ : ٢١٥ والبيت فيه .

(٨) البيت فى البيان ٢ : ٢١٥ .

شيَّب أصداغِي فهن بيِّضُ   مَحَامِلٌ فيها رجال قبَّض

لو يتكون ســــــنة لم يغرضوا

وقال القوم : لولا ماعرّفوكم من أبواب الحُمْلاَنات[١] لم تعرفوا صنعة الشَّبه ، ولولا غَضَارُ الصين على وجه الأرض لم تعرفوا الغَضار ، على أَنَّ الذى عَمِلْتُمْ[٢] ظاهرٌ فيه التوليد منقوصُ المنفعة عن تمـام الصِّينِيّ ، وعلى أن الشَّبَهَ لم تستخرجوه ، وإنَّمـا ذلك من الأُمور التى وقعت اتّفاقاً ، لسقوط الناطق[٣] من يد الأجير فى الصُّفْر الذائب ، فَخِفتم إفساده ، فَلَمَّا رأيتم ما أعطاه من اللون عَمِلْتم[٤] فى الزيادة والنقصان ، وكذلك جميعُ ماتهيّأ لـكم ، ولستم تخرُجون فى ذلك من أحدِ أمرَين : إمَّا أن تكونوا استعملتم الاشتقاق من علمِ ما أورثوكم ، وإمّا أن يكون ذلك تهيَّأ لـكم من طريق الاتّفاق !!

(الجمَّازات)

وقد علمتم أَنَّ أَوَّلَ شأن الجَمَّازَاتِ ، أَنَّ أُمَّ جعفر أمرت الرَّحالِينَ أن يَزِيدُوا فى سيرِ النجيبة[٥] التى كانت عليها ، وخافت فوتَ الرشيد ، فلمـا حُرِّكت مشَت ضروبًا من المشى ، وصنوفا من السير[٦] ، فجَمَزت فى ٤٢

(١) فى القاموس الحملان : فى اصطلاح الصاغة مايحمل على الدراهم من الغش .

(٢) فى ط « علمتم » وهو تحريف .

(٣) الناطق هنا : الذهب .

(٤) فى ط « علمتم » .

(٥) فى ل « البختية » .

(٦) فى ل « وضروبا من المرفوع » .

خلال ذلك ووافقت امرأةً تحسن الاختيار ، وتفهم الأمور ، فوجدت لذلك الجزء راحةً ، ومع الراحة لذَّة ، فأمرتْهم أن يسيروا بها فى تلك السِّيرة ، فما زالوا يقرِّبون ويبعِّدون ، ويخطئون ويصيبون ، وهى فى كلِّ ذلك تصوِّبهم وتخطِّئهم ، على قدر ماعرفَتْ حتى شَدَوا من معرفة ذلك ماشَدَوا ، ثمَّ إنَّها فرَّغتهم لإتمام ذلك حتى تمَّ واستوى . وكذلك لايخلو جميعُ أمركم ، من أن يكون اتِّفاقاً ، أو اتِّباعَ أثر .

(الترغيب فى اصطناع الكتاب)

ثم رجع بنا القولُ إلى الترغيب فى اصطناع الكتاب ، والاحتجاجِ على مَنْ زَرَى[1] على واضِع الكتب ، فأقول : إنَّ من شكر النعمة فى معرفةِ مغاوى الناس ومَرَاشدِهم ، ومضارِّهم ومنافعِهم ، أن يُحْتَمَلَ ثِقْلُ مئونتهم فى تقويمهم ، وأن يُتَوَخَّى إرشادُهم وإن جهلوا فضلَ مايُسْدَى إليهم ؛ فلن يُصَانَ العلمُ بمثل بذْله ، ولن تُستَبقَى النعمةُ فيه بمثل نشره . على أنَّ قراءةَ الكتبِ أبلغُ فى إرشادهم من تلاقيهم ؛ إذ كان مع التلاقى يشتدُّ التصنُّع ، ويكثُر التظالُم ، وتُفرِط العصبيّة ، وتقوَى الْحَمِيَّة ؛ وعند المواجَهةِ والمقابَلة ، يشتدُّ حبُّ الغلَبة ، وشهوةُ المباهاةِ والرياسة ، مع الاستحياءِ من الرجوع ، والأنَفةِ من الخضوع ؛ وعن جميعِ ذلك تحدُثُ الضغائن ، ويظهرُ التباين ، وإذا كانت القلوبُ على هذه الصِّفةِ وعلى هذه

---

(١) أثبت ما فى ل وهى فى ط «ذرى» مصحفة .. وزرى عليه كأزرى : عابه ؛ والأول أكثر .

الهيئة ، امتنعتْ من التعرُّف ، وعميت عن مواضع الدلالة ، وليست في الكتب عِـلَّةٌ تمنع من دَرْك البُغية ، وإصابة الحجَّة ؛ لأنَّ المتوحِّد بدرسها[1] ، والمنفرد بفهم معانيها ، لايباهى نفسه ولا يغالب عقلَه ، وقد عَدِم مَنْ له يُباهى وَمنْ أجله يغالب .

(الـكتاب قد يفضل صاحبه)

والـكتابُ قد يفضُل صاحبَه ، ويتقدَّم مؤلِّفَه ، ويرجِّح قلَمه على لسانه بأمور : منها أنّ الـكتابَ يُقرأ بكلِّ مكان ، ويظهرُ مافيه على كلِّ لسان ، وَيُوجَد مع كلِّ زمانٍ ، على تفاوُتِ ما بينَ الأعصار ، وتباعُدِ ما بين الأبصار ؛ وذلك أمرٌ يستحيل في واضِع الـكتاب ، والمنازِع[2] في المسألة والجواب ، ومناقلةُ اللسان وهدايته لاتجوزانِ[3] مجلسَ صاحبه ، ومبلغَ صوته . وقد يذهب الحكيمُ وتبقى كتبُه ، ويذهب العقلُ ويبقى أثره ، ولولا ما أودعت لنا الأوائلُ فى كتبها ، وخلَّدت من عجيبِ حكمتها ، ودوَّنت من أنواعِ سيَرِها ، حتَّى شاهدنا بها ما غاب عنَّا ، وفتحنا بها كلَّ مستغلقٍ كان علينا ، فجمَعْنا إلى قليلنا كثيرَهم ، وأدركْـنا ما لم نكن ندركُه إلاّ بهم ، لقد خَسَّ[4] حظُّنا من الحكمة ، ولضعُف سببُنا إلى ٤٣
المعرفة . ولو لجأنا إلى قدرِ قوَّتنا ، ومبلغ خواطرِنا ، ومنتهى تجاربنا

---

(١) فى ط « يدرسها » و « يفهم » والوجه ما كتبت من ل .

(٢) فى ط « والمتنازع » .

(٣) فى ط « لا يجوزان » .

(٤) فى ط « لما حسن » والعبارتان صحيحتان ، ولعل أفضلهما ما أثبته من ل .

لما تدركه حواسُّنا ، وتشاهدُه نفوسنا ، لقلَّت المعرِفةُ ، وسقَطت الهِمّة ، وارتفعت العزيمة ، وعاد الرأيُ عقيمًا ، والخاطرِ فاسدا ؛ ولَكلَّ الحدُّ وتبلَّد العقل .

(أفضل الكتب)

وأكثرُ مِنْ كتبهم نفعاً ، وأشرف منها خطَرًا ، وأحسنُ موقعا ، كتبُ اللهِ تعالى ، فيها الهُدَى والرحمة ، والإخبارُ عن كلّ حكمة ، وتعرِيفُ كلّ سيّئةٍ وحسَنة ، وما زالت كتبُ الله تعالى فى الألواحِ والصُّحُف ، والمهارِق[1] والمصاحِف . وقال اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿ الٓمٓ ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَارَيْبَ فِيهِ ﴾ . وقال ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ . ويقال لأهل التَّوراةِ والإنْجيل : أهلُ الكِتاب .

(مواصلة السير فى خدمة العلم)

وينبغي أن يكونَ سبيلُنا لِمَنْ بعدَنا ، كسبيلِ مَن كان قبلنا فينا . على أنَّا قد وجدْنا من العبرة أكثرَ ممَّا وجدوا ، كما أنَّ مَن بعدَنا يجدُ من العِبرة أكثرَ ممَّا وجدْنا . فما ينتظر العالمُ بإظهار ما عندَه ، وما يمنعَ الناصرَ للحقّ من القيامِ بما يلزمُه ، وقد أمكن القولُ وصلَح الدهرُ وخَوى نجم التَّقيَّة[2] ،

---

(١) فى ط « المحار » وهو تحريف صوابه فى ل .

(٢) فى ل « حوى نجم التقية » وفى ط « حوى نجم التقيد » وقد أصلحت العبارتين بما ترى . وخوى النجم : اختفى وذهب ، وأصله من خوت الدار : تهدمت . والتقية : الحذر والخوف .

وهَبَّتْ رِيحُ العلماء ، وكَسَدَ العِيُّ والجهل ، وقامت سوقُ البيان والعلم ! ؟

وليس يجدُ الإنسانُ فى كل حينٍ إنساناً يدَرِّبه ، ومقوِّما يثقِّفه . والصبرُ على إفهام الريِّض شديد ، وصرفُ النفسِ عن مغالبة العالم أشدُّ منه ، والمتعلِّمُ يجدُ فى كلِّ مكانٍ الكتابَ عتيداً ، وبما يحتاج إليه قائما . وما أكثرَ مَن فرَّط فى التعليم أيَّامَ خُمولِ ذكره ، وأيَّامَ حَداثةِ سنِّه ! ! ولولا جِيادُ الكتبِ وحسَنُها ، ومُبَيَّنُها ومختَصَرها ، لَمَا تحرَّكت هممُ هؤلاء لطلب العلم ، ونزَعت إلى حبِّ الأَدب ، وأنِفَتْ من حالِ الجهل ، وأن تكون فى غِمار الحَشْو ، ولَدخل على هؤلاء من الخَللِ والمضرَّة ، من الجهل وسوء الحال ، ماعسى ألا يمكن الإخبارُ عن مقداره ، إلاَّ بالكلام الكثير ، ولذلك قال عمرُ رضى ٱللّٰه تعالى عنه « تفقَّهوا قبلَ أن تسودوا » .

(كتب أبى حنيفة)

وقد تجدُ الرجلَ يطلبُ الآثارَ وتأويلَ القرآن ، ويجالس الفقهاء خمسين عامًا ، وهو لايُعدُّ فقيهاً ، ولايُجعَل قاضيا ، فما هو إلاَّ أن ينظرَ فى كتبِ أبى حنيفة ، وأشباه أَبى حنيفة ، ويحفَظَ كتبَ الشروط فى مقدارِ سنةٍ أو سنتين ، حتى تمرَّ ببابه فتظنَّ أنَّه من بعضِ العُمَّال[1] ، وبالحَرَا[2] ٤٤
ألاَّ يمرَّ عليه من الأيَّام إلاَّ اليسير ، حتَّى يصيرحاكماً على مصرٍ من الأمصار ، أوبلدٍ من البلدان .

---

(١) فى ل « باب بعض العمال » والعبارتان سليمتان .

(٢) رسمت هذه الكلمة بالياء المشددة فى المطبوعة وهو خطأ . وإنما هى « الحرا » بالألف . قال صاحب القاموس «والحرا : الخليق . ومنه بالحرا أن يكون ذاك ، وإنه لحرى بكذا وحرى كغنى وحرء والأولى لا تثنى ولا تجمع » .

(وجوب العناية بتنقيح المؤلفات)

وينبغي لمن كتبَ كتاباً ألا يكتبه إلا على أنّ الناسَ كلهم له أعداء ، وكلهم عالمٌ بالأمور ، وكلهم متفرّغ له ؛ ثمّ لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غُفْلا ، ولا يرضى بالرأى الفطير ؛ فإنّ لابتداء الكتابِ فتنةً وعُجْباً ، فإذا سكنت الطبيعةُ وهدأتِ الحركة ، وتراجعَتِ الأخلاطُ ، وعادت النفسُ وافرة ، أعاد النظرَ فيه ، فيتوقّفُ عند فصوله توقُّفَ من يكونُ وزنُ طمعه[1] في السلامة أنقصَ من وزنِ خوفه من العيب ؛ ويتفهّم معنى قول الشاعر[2] :

إنّ الحديثَ تغرُّ القومَ خلوتُه   حتّى يَلِجَّ بهم عِيٌّ وإكثارُ

ويقفُ عند قولهم في المثل « كلُّ مُجْرٍ في الخلاء يُسَرُّ[3] » فيخاف أن يعترَيه ما اعترى مَنْ أجرى فرسَه وحدَه ، أو خلا بعلمه عند فقدِ خصومه ، وأهلِ المنزلةِ من أهلِ صناعته .

(تداعي المعاني في التأليف)

وليعلم أنّ صاحبَ القلمِ يعتريه ما يعترى المؤدّبَ عند ضربه وعقابه ،

---

(١) في الأصل « طبعه »

(٢) هو ابن هرمة كما في رسالة الوكلاء للجاحظ ١٧١ ساسي والبيت كذلك في البيان ١ : ١٤٩ وأدب الكتاب للصولي ١٥٧ . وقد رواه الصولي برواية أخرى فانظره .

(٣) جاء في البيان ١ : ١٤٩ « وفي المثل المضروب كل مجر في الخلاء يسر ، ولم يقولوا مسرور . وكل صواب » والوجه في المثل « يسر » كما هو هنا وكما في الميداني ٢ : ٧٣ وانظر أصل المثل فيه .

فما أكثر من يعزم على خمسة أسواط فيضرب مائة ؟ ! لأنه ابتدأ الضربَ وهو ساكنُ الطباع ، فأراه السكونُ أنّ الصواب في الإقلال ، فلما ضرب تحرّك دمُه ، فأشاع فيه الحرارةَ فزادَ في غضبه ، فأراه الغضبُ أنّ الرأى في الإكثار ، وكذلك صاحب القلم ؛ فما أكثرَ من يبتدىء الكتابَ وهو يُريد مقدارَ سطرين ، فيكتب عشرة !؟ والحفظُ مع الإقلالِ أمكن ، وهو مع الإكثار أبعد .

(مقايسة بين الولد والكتاب)

واعلم أنّ العاقلَ إنْ لم يكن بالمتتبّع ، فكثيرًا ما يعتريه مايعتريه من ولده ، أنْ يحسُنَ فى عينه منه المقبّحُ فى عين غيره ، فليعلمْ أنّ لفظَه أقربُ نسبًا منه من ابنه ، وحركَتَه أمسُّ به رِحْمًا من ولَده ؛ لأنّ حركتَه شىء أحدثَه من نفسه وبذاته ، ومن عين جوهره فَصَلَت[1] ، ومن نفسه كانت ؛ وإنّما الولدُ كالمَخْطَةِ يتمخّطها ، والنُّخَامةِ يقذفها ، ولا سواء إخراجُك منْ جزئك شيئًا لم يكن منك ، وإظهارُك حركةً لم تكن حتّى كانت منك ، ولذلك تجدُ فتنةَ الرجُل بشعره ، وفتنتَه بكلامه وكتبه ، فوقَ فتنته بجميع نعمته .

(ماينبغى أن تكون عليه لغة الكتب)

وليس الكتابُ إلى شىء أحوجَ منه إلى إفهام معانيه ، حتّى لايحتاجَ

(١) فى ط « وبداءته من عين جوهره فصلت» وإصلاح العبارة وإتمامها من ل

السامعُ لما فيه من الرويَّة ، ويحتاجُ مِنْ اللفظ إلى مقدارٍ يرتفع به عَنْ
٤٥ ألفاظ السِّفْلَةِ والحَشْو(١) ، ويحطُّه من غريب الإعراب ووَحْشِيِّ الكلام ،
وليس له أَنْ يهذِّبَه جدًّا ، وينقِّحَه ويصفِّيه ويروِّقه ، حتَّى لاينطِقَ
إلاَّ بِلُبِّ اللُّب ، وباللفظ الذى قد حذف فُضُولَه ، وأسقَطَ زوائدَه(٢) ،
حتَّى عاد خالصاً لاشَوْب فيه ؛ فإنَّه إنْ فعل ذلك ، لم يفْهَمْ عنه إلاَّ بأن
يجدِّد لهم إفهامًا مِرَارا وتكراراً ، لأنَّ النَّاسَ كلَّهم قد تعوَّدُوا المبسوطَ من
الكلام ، وصارت أفهامُهم لا تزيد على عاداتهم إلاَّ بأن يعكس عليها
ويؤخذ بها . ألا تَرَى أَنَّ كتاب المنطق الذى قد وُسم بهذا الاسم ،
لو قرأتَه على جميعِ خطباء الأمصار و بلغاءِ الأعراب ، لما فهِموا أكثرَه ،
وفى كتاب اقليدِسَ كلامٌ يدور ، وهو عربىٌّ وقد صفِّى ، ولو سمِعه بعضُ
الخطباء لما فهمه ، ولا يمكن أن يفهِّمه من يريد تعليمه ، لأنَّه يحتاج إلى
أن يكون قد عرَف جهةَ الأمر ، وتعودَّ اللفظ المنطقىَّ(٣) الذى استُخرِج
من جميع الكلام .

(قول صحار العبدى فى الإيجاز ، ونقده)

قال معاويةُ بن أبى سفيان، رضى الله تعالى عنهما ، لصُحَارِ العبدى(٤) :

---

(١) فى ط « الحشوة » وكلاهما صحيح ومعناهما : صغار الناس وأسقاطهم .

(٢) فى ل « وتعرق زوائده » .

(٣) فى ط « وتعود للفظ المنطق » وهو تحريف .

(٤) هو صحار بن عياش — وقيل ابن عباس — بن شراحيل بن منقذ العبدى من بنى عبد القيس . خطيب مفوه كان من شيعة عثمان ، له صحبة وأخبار حسنة ، وكان نسابة، توفى نحو سنة ٤٠ هـ .

ما الإيجاز ؟ قال : أَنْ تُجيبَ فلا تبطىء ، وتقولَ فلا تخطىء . قال معاوية : أو كذلك تقول !! قال صحار : أَقِلْني يا أميرَ المؤمنين ! لاتخطىء ولاتبطىء .

فلو أَنَّ سائلاً سألك عن الإيجاز ، فقلت : لاتخطىء ولا تبطىء ، وبحضرتك خالدُ بنُ صفوان[1] ، لَمَا عرَف بالبديهة وعندَ أَوَّلِ وهلة ، أَنَّ قولَك « لاتخطىء » متضمِّنٌ بالقول ، وقولَك « لاتبطىء » متضمِّن بالجواب ، وهذا حديثٌ كما ترى آثَروه ورَضُوه ، ولوأن قائلاً قال لبعضنا : ما الإيجاز ؟ لظننتُ أنّه يقول : الاختصار .

(حقيقة الإيجاز)

والإيجاز ليس يُعْنَى به قلَّةُ عددِ الحروفِ واللفظِ ، وقد يكونُ البابُ من الكلام مَنْ أتى عليه فيما يسع بطن طُومارٍ[2] فقد أوجز ، وكذلك الإطالة ، وإنَّمَا ينبغى له أن يحذف بقدرِ مالا يكون سبباً لإغلاقه ، ولا يردِّد وهو يَكتَفِى فى الإفهام بشِطره[3] ، فَمَا فضَل عن المقدار فهو الخطل .

(استغلاق كتب أبى الحسن الأخفش)

وقلتُ لأبى الحسن الأخفش : أنت أعلمُ الناسِ بالنَّحو ، فلم لاتجعَلُ

---

(١) هو خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم التيمى المنقرى ، كان يجالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك ، نشأ بالبصرة ، وكان أكثر أهلها مالا ، ولم يتزوج ، توفى نحو سنة ١١٥ هـ .

(٢) الطومار والطامور : الصحيفة ، جمعه طوامير .

(٣) فى ط « ولا لترداده وهو يكتفى من الإفهام بشطره » وعدلت القول من ل .

كتبك مفهومةً كلَّها ، وما بالُنا نفهمُ بعضَها ولا نفهم أكثرها ، وما بالُك تقدِّم بعضَ العويص وتؤخِّر بعض المفهوم ؟! قال : أنا رجلٌ لم أضعْ كتبي هذه لله ، وليست هي من كتبِ الدين ، ولو وضعتُها هذا الوضع[١] الذى تدعُونى إليه ، قلَّتِ حاجاتُهم إلىَّ فيها ، وإنَّما كانت غايتى المَنَالة ، فأنا أضعُ بعضَها هذا الوضع[١] المفهومَ ؛ لتدعوَهم حلاوةُ ما فهِموا إلى التماس فهْم ما لم يفهموا ، وإنَّما قد كسَبتُ فى هذا التدبير ، إذْ كنتُ إلى التكسُّب ذهبت ، ولكنْ ما بالُ إبراهيمَ النظَّام ، وفلانٍ وفلان ،

٤٦ يكتبون الكتبَ لله بزعْمِهم ، ثم يأخذُها مثلى فى موافقته[٢] ، وحُسْنِ نظَره ، وشدَّةِ عنايتِه ، ولايفهمُ أكثرَها ؟!

وأقول : لوأنَّ يوسفَ السَّمْتيَّ ، كتب هذهِ الشروطَ ، أيَّامَ جلسَ سَلمان ابنِ رَبيعةَ[٣] شهرين للقضاء ، فلم يتقدَّم إليه رجُلان ، والقلوبُ سليمةٌ والحقوقُ على أهلِها موفَّرة ، لكان ذلك خطلاً ولغواً ؛ ولوكتبَ فى دهره شروطَ سَلمان ، لكان ذلك غَرارةً ونقصا ، وجهلاً بالسياسةِ ، وبما يصلحُ فى كلِّ دهر .

(مواضع الإسهاب)

ووجدنا الناسَ إذا خطبُوا فى صلحٍ بينَ العشائر ، أطالوا ، وإذا أنشدوا

(١) بيانها فى ط « الموضع » والوجه ما أثبت من ل .

(٢) فى ل « موافقته » والوجه ما فى ل . والموافقة : الخصومة والجدال .

(٣) هو سلمان بن ربيعة بن يزيد الباهلى الصحابى ، من القادة القضاة ، استقضاه عمر على الكوفة ، ثم ولى غزو أرمينية فى زمن عثمان ، وقتل فيها سنة ٣٠ هـ .

الشعر بين السماطين فى مدح الملوك أطالوا ، وللإطالة موضع وليس ذلك بخطل ؛ وللإقلال موضع وليس ذلك من عجز .

ولولا أنى أتكل على أنك لاتمل باب القول فى البعير حتى تخرج إلى الفيل ، وفى الذرّة[١] حتى تخرج إلى البعوضة ، وفى العقرب حتى تخرج إلى الحيّة ؛ وفى الرجل حتى تخرج إلى المرأة ؛ وفى الذبان والنحل[٢] حتى تخرج إلى الغربان والعقبان ، وفى الكلب حتى تخرج إلى الديك ، وفى الذئب حتى تخرج إلى السبع ، وفى الظّلف حتى تخرج إلى الحافر ، وفى الحافر حتى تخرج إلى الخفّ ، وفى الخفّ حتى تخرج إلى البرثن ، وفى البرثن حتى تخرج إلى المخلب ، وكذلك القول فى الطير وعامّة الأصناف ، لرأيت أنّ جملة الكتاب[٣] ، وإن كثر عدده ورقه ، أنّ ذلك ليس مما يُمَلّ ، ويُعتدّ على فيه بالإطالة ، لأنّه وإن كان كتابًا واحداً فإنّه كتب كثيرة ، وكلّ مصحف منها فهو أمّ على حدة ، فإنْ أراد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأوّل حتى يهجم على الثانى ، ولا الثانى حتى يهجم على الثالث ، فهو أبداً مستفيد ومستطرف ، وبعضه يكون جِمامًا لبعض ، ولا يزال نشاطه زائداً ، ومتى خرج من آى القرآن صار إلى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ، ثمّ يخرج من الخبر إلى شعر ، ومن الشعر إلى نوادر ، ومن النوادر إلى حكم عقليّة ، ومقاييس سِداد[٤] ، ثمّ لايترك هذا الباب ، ولعلّه

---

(١) فى ط « الدرة » بالدال وإنما هى « الذرة » بالذال كما فى ل . والذر ضرب من النمل صغار .

(٢) كذا فى ل : وفى ط « وفى الذباب » فقط .

(٣) فى ط « رأيت أن جملة الكتاب » .

(٤) فى الأصل « شداد » والمقياس ينعت بالسداد لا بالشدة .

أن يكون أثقلَ ، والملالُ إليه أسرع ، حتّى يفضِيَ به إلى مزحٍ وفكاهة ، وإلى سُخْفٍ وخُرافة ، ولستُ أراه سُخفا ، إذ كنتُ إنّما استعملتُ سِيرةَ الحكماء ، وآدابَ العلماء .

(مخاطبة العرب وبنى إسرائيل فى القرآن الكريم)

ورأينا اللّٰه تبارك وتعالى ، إذا خاطب العربَ والْأَعْرَابَ ، أخرجَ الكلامَ مُخْرَجَ الإشارة والوحى والحذف ، وإذا خاطَبَ بنى إسرائيل أو حكَى عنهم ، جعلَه مبسوطا ، وزاد فى الكلام . فأصوبُ العمل اتّباعُ آثارِ العلماء ، والاحتذاء على مثالِ القدماء ، والأَخذُ بما عليه الجماعة . ٤٧

(أقوال لبعض الشعراء فى الكتب)

قال ابن يسير[1] فى صفةِ الكتب ، فى كلمةٍ له :

أقبلْتُ أهرُب لا آلو مُباعدةً   فى الأَرضِ منهمْ فلم يُحْصِنِّىَ الهربُ
بقصر أوسٍ فما والت خنادِقُه   ولا النواويسُ فالماخورُ فالحَربُ[2]
فأَيّما موئلٍ منها اعتصمتُ به   فمن ورائى حثيثاً منهمُ الطلبُ
لمّا رأيتُ بأَنّى لستُ معجزَهم   فوتاً ولاهرَبًا ، قرّبت أحتجِبُ

---

(١) تقدمت ترجمته ص ٥٩ .

(٢) يبتدئ البيت فى ط بكلمة « فقصر » وينتهى بكلمة « فالحرب » . وقد أبدلتهما بما فى ل . وقصر أوس ، كان بالبصرة ، منسوب إلى أوس بن ثعلبة ، أحد الولاة الأمويين .

فصرتُ في البيت مسروراً بهم جَذِلا　　جَارَ البراءة لاشــكوَى ولا شغَبُ[1]
فرْدًا يحدِّثني الموتى وتنطِقُ لى　　عن علمِ ماغاب عنِّي منهمُ الـكتبُ
هم مؤْنِسون وأُلاَّف غَنِيت بهمْ　　فليس لى فى أنيسٍ غيرِهم أَرَبُ
للهِ من جُلَسَاء لاجَليسهمُ　　ولا عشــيرهُمُ للسُّوءِ مرتَقِبُ
لابادراتِ الأذَى يخشَى رفيقهُمُ　　ولا يُلاقِيه منهمْ مَنْطِقٌ ذَرِبُ[2]
أبقَوالنَا حِكمًا تبقى منافِعُهَا　　أُخْرَى اللياِلِ على الأَيَّام وانشعبوا[3]
فأيما آدبٍ منهم مددتُ يدى　　إليه فهو قريبٌ من يَدِى كَثَبُ[4]
إن شئتُ من مُحكَم الآثارِ يرفعُها　　إلى النبيِّ ثِقَاتٌ خِــيرةٌ نُجُبُ
أو شئتُ من عَرَبٍ علماً بأَوَّلِهم　　فى الجاهليَّةِ أنبتْنى به العربُ[5]
أوشئتُ مِنْ سِيَرِ الأَملاكِ مِنْ عَجَمٍ　　تُنْبِى وتُخبِرُ كيف الرأىُ والأَدبُ
حتَّى كأَنِّىَ قد شاهدتُ عصرَهُمُ　　وقد مضَتْ دونَهم من دَهرِهم حِقَبُ
يا قائلاً قصُرَت فى العلمِ نُهْيَتُهُ[6]　　أمسى إلى الجهل فيما قال ينتسِبُ
إِنَّ الأَوائِلَ قد بانوا بعلمهم　　خلافَ قولِكَ قد بانوا وَقدْ ذهبوا[7]

---

(١) فى الأصول « به جذلا » والصواب « بهم » وابن يسير هنا قد جعل للـكتب ضمير جماعة العقلاء كما فى الأبيات الأول . وأما « جار البراءة » فهى ماصح لى من مقارنة مافى الأصول فهى فى ط « جار البوأة » وفى س « جار البواءة » وفى ل « حاز البراءة » .

(٢) منطق ذرب : كلام حاد مزعج .

(٣) فى ط « والشعب » وصوابه فى ل .

(٤) فى ط « كتب » وهو تصحيف مافى ل وكثب : قريب .

(٥) فى ط « بها العرب » والضمير عائد إلى العلم .

(٦) النهية والنهى : العقل . وقد تستعمل النهى جمعا للنهية .

(٧) كذا فى ل . وفى ط :

إن الأوائل قد بانوا بعلمهم　　خلاف قولك مابانوا وما ذهبوا

وهذا البيت مقول القول فى البيت السابق ، والبيت الآتى رد على قول هذا القائل.

ما ماتَ منا امرؤٌ أبقى لنا أدبًا ... نكونُ منه إذا ما ماتَ نكتسبُ(١)

وقال أبو وجزة(٢) وهو يصف صحيفة كُتبَ له فيها بستّين وسْقًا :

راحتْ بستّينَ وسْقًا في حقيبتها ... ما حُمِّلتْ حِمْلَها الأدنى ولا السَّدَدا

ما إنْ رأيتُ قلوصًا قبلها حَمَلَتْ ... ستّينَ وسقًا وما جابت به بلدَا(٣)

وقال الراجز :

٤٨ تَعَلَّمَنْ أنَّ الدواةَ والقَلَمْ ... تَبقى ويُفْنِي حادثُ الدّهرِ الغَنَمْ(٤)

يقول : كتابُكَ الذي تكتبُه عليَّ يبقى فتأخذني به ، وتذهبُ غنمي فيما يذهب .

(نشر الأخبار في العراق)

وممّا يدلُّ على نفع الكتاب ، أنَّه لولا الكتابُ لم يجُزْ أن يعلمَ أهلَ الرَّقَّةِ والموصلِ وبغدادَ وواسط ، ما كان بالبصرة ، وما يحدث بالكوفة

---

(١) في ط « ناماتَ مثل امرئ » والوجه ما في ل .

(٢) في ط « أبو وجزة » بالراء وإنما هو بالزاي ، واسمه يزيد بن عبيد ، من بني سعد بن بكر بن هوازن ، أظآر النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان شاعرا مجيدا ، وهو أول من شبب بعجوز . كذا قال ابن قتيبة في ترجمته في الشعراء ١٦٥ توفي أبو وجزة بالمدينة سنة ١٣٠ هـ .

(٣) في ط « جاءت » وصواب الرواية ما أثبته من ل ، س ومن الكامل ٢٠٧ ليبسك، وقد زاد المبرد بيتاً قبل الأول، وآخر بعد الثاني .. قال المرزوقي شرح البيت الأول : « إنما أراد مايوجب ستين وسقا ، لا أن الناقة حملت ستين وسقا » وحديث الشعر في الكامل ، ويفهم منه أن أبا وجزة امتدح آل الزبير، فكتبوا إليه بستين وسقا من تمر وقالوا : هي لك عندنا في كل سنة .

(٤) في ط « تعلمي أن » وصوابه في ل .

فى بياضِ يوم ، حتّى تـكونُ الحادثةُ بالـكوفةِ غُدوةً ، فتعلمُ بها أهلُ البَصْرة قبلَ المساء .

[وذلك مشهورٌ فى الحمام الهدى، إذا جُعلت بُرُدا[1] ، قال الله جلّ وعزّ ـ وذكر سليمانَ وملكَه الذى لم يؤتِ أحداً مثلَه ـ فقال ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ ﴾ إلى قوله ﴿ أَوْ لاَ أَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ فلمْ يلبثْ أن قال الهُدْهُدُ ﴿ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ، إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شيءٍ، وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ قال سليمان ﴿ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ وقد كان عندَه مَن يبلّغ الرسالةَ على تمامها ، مِن عِفريت ، ومِن بعض مَن عنده علمٌ من الكتاب ، فرأى أنَّ الكتابَ أبهى وأنبلُ وأكرمُ وأفخمُ من الرسالة عن ظهر لسان ، وإن أحاطَ بجميعِ ما فى الكتاب . وقالت مَلكةُ سَبأ ﴿ يا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ فهذا مما يدلّ على قدْر اختيار الكتب .

(استخدام الكتابة فى أمور الدين والدنيا)

وقد يريد بعضُ الجِلَّةِ الكبارِ ، و بعضُ الأدباءِ والحكماءِ ، أن يدعوَ بعضَ مَن يجرى مَجْراه فى سلطانٍ أوْ أدبٍ ، إلى مأدُبةٍ أو نِدام[2] ، أو خُروجٍ إلى متنزَّه ، أو بعض ما يشبهُ ذلك ، فلو شاءَ أن يبلّغَهُ الرسولُ

---

(١) جمع بريد . والكلام من مبدأ هذه الفقرة إلى ص ١٠٦ ساقط من جميع النسخ ، وأثبته من ل .

(٢) مصدر نادمه ، بمعنى جالسه على الشراب . والندام أيضا ، جمع النديم . ولكنه ليس مرادا هنا .

إرادتَه ومعناه ، لأصابَ مَن يُحسن الأداء ، ويصدُق فى الإبلاغ ، فيرى أنَّ الكتاب فى ذلك أسرَى وأنبَه وأبلغ .

ولو شاء النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، ألاّ يكتبَ الكتبَ إلى كسرَى، وقَيْصَرَ، والنَّجَاشىِّ، وَالمقوقِس ، وإلى ابنى الجُلَنْدَى[(١)] ، وإلى العباهلة من حمير، وإلى هوذَة بن على ، وإلى الملوك والعظماء ، والسادة النجباء ، لفعل ، ولوجد المبلِّغَ المعصوم من الخطأ والتبديل ، ولكنّهُ عليه الصلاة والسلام ، عَلِم أنَّ الكتابَ أشبهُ بتلك الحال ، وأليق بتلك المراتب ، وأبلغُ فى تعظيم ماحواه الكتاب .

ولو شاء الله أن يجعَل البشارات على الألسنة بالمرسلين ، ولم يودعها الكتب لفعل ، ولكنه تعالى وعزّ ، علم أن ذلك أتمّ ، وأكمل ، وأجمع ، وأنبل .

وقد يكتب بعضُ من له مرتبةٌ فى سلطان أو ديانة ، إلى بعضِ من يشاكله ، أو يجرى مجراه ، فلا يرضى بالكتاب حتَّى يخزمه ويختمه ، وربَّما لم يرض بذلك حتى يُعَنْوِنه ويعظمه . قال اللهُ جلّ وعزّ ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ فذكرَ صحفَ موسى الموجودة ، وصحفَ إبراهيم البائدة المعدومة ، ليعرف الناس مقدارَ النفع ، والمصلحة فى الكتب .

(نظام التوريث عند فلاسفة اليونانية)

قالوا ، وكانت فلاسفة اليونانيّة ، تورث البنات العين ، وتورث البنين الدين ، وكانت تصل العجز بالكفاية ، والمئونة بالكلفة . وكانت تقول :

(١) الجلندى : اسم ملك عمان . وفى الأصل «أبنى الجلندى» والصواب ما أثبته عن الإصابة ١٣٠٥ والسيرة ٩٧١ . وابنا الجلندى هما جيفر — بوزن جعفر — وعياذ (أوعباد) .

لاتورثوا الابنَ من المـال ، إلاّ ما يكونُ عوناً له على طلب المـال ، واغذُوه بحلاوة العلم ، واطبَعوه على تعظيم الحكمة ، ليصير جمْع العلم أغلبَ عليه من جمع المـال ، وليرى أنّه العُدَّة والعَتاد ، وأنّه أكرم مستفاد .

وكانوا يقولون : لاتورثوا الابنَ من المـال إلاّ مايسد الخلة ، ويكون له عونا على درك الفضول ، إن كان لابُدَّ من الفضول ؛ فإنّه إن كان فاسداً زادت تلك الفضول فى فساده ، وإن كان صالحا كان فِيما أورثتموه من العلم وبقّيتم له من الكفاية ، ما يكسبه الحال ، فإنَّ الحال أفضل من المال ، ولأنَّ المالَ لم يَزَلْ تابعاً للحال ، وقد لايتبع الحال المـال . وصاحب الفضولِ بعرَض فساد ، وعلى شفا إضاعة ، مع تمام الحنكَة ، واجتماع القوّة ، فما ظنّكم بها مع غَرارة[1] الحداثة ، وسوء الاعتبار ، وقلة التجربة .

وكانوا يقولون : خير ميراثٍ ما أكسبك الأركان الأربعة ، وأحاط بأصول المنفعة ، وعجَّل لك حلاوة المحبَّة ، وبقى لك الأحدوثة الحسنة ، وأعطاك عاجل الخير وآجله ، وظاهره وباطنه .

وليس يجمع ذلك إلاّ كرامُ الكتب النفيسة ، المشتملة على ينابيع العلم ، والجامعة لكنوز الأدب ، ومعرفةِ الصناعات ، وفوائدِ الإرفاق ، وحجج الدين الذى بصحته ، وعند وضوح برهانه ، تسكن النفوس ، وتثلج الصدور ، ويعود القلب معمورا ، والعزُّ راسخاً ، والأصل فسيحاً[2] .

وهذه الكتب هى التي تزيد فى العقل وتشحذه ، وتداويه وتصلحه ، وتهذبه ، وتنفى الخَبَث عنه ، وتفيدك العلم ، وتصادق بينك وبين الحجّة ، وتعوّدك الأخذ بالثقة ، وتجلب الحالَ ، وتكسب المـال .

---

(١) الغرارة : الغفلة وقلة التجريب . وفى الأصل الفزارة وهو تحريف .

(٢) كذا .

(وراثة الكتب)

ووراثة الكتب الشريفة، والأبواب الرفيعة، منبهة للمورّث، وكنز عند الوارث ، إلاّ أنه كنز لا تجب فيه الزكاة ، ولا حقّ السلطان . وإذا كانت الكنوز جامدة ، ينقصها ما أخذ منها ، كان ذلك الكنز مائعا يزيده ما أخذ منه ، ولا يزال بها المورّث مذكوراً فى الحكماء ، ومنوّها باسمه فى الأسماء ، وإماماً متبوعاً وعلماً منصوبا ، فلا يزال الوارث محفوظاً ، ومن أجله محبوبا ممنوعا ، ولا تزال تلك المحبّة نامية ، ما كانت تلك الفوائد قائمة ، ولن تزال فوائدها موجودة ما كانت الدار دار حاجة ، ولن يزال من تعظيمها فى القلوب أثر ، ما كان من فوائدها على الناس أثر .

وقالوا : من[١] ورّثته كتابا ، وأودعته علما ، فقد ورثته ما يغِل ولا يستغَلّ ، وقد ورثته الضيعة التي لا تحتاج إلى إثارة[٢] ، ولا إلى سقي ، ولا إلى إسجال بإيغار[٣] ، ولا إلى شرط ، ولا تحتاج إلى أكّار[٤] ، ولا إلى أن تُثار[٥] ، وليس عليها عُشر ، ولا للسلطان عليها خَرْج ، وسواء أفدته علما أو ورثته آلة علم ، وسواء دفعْتُك إليه الكفايةَ ، أو ما يجلب الكفاية . وإنما تجزى الأمور وتتصرف الأفعال على قدر الإمكان ، فمن لم يقدر إلاّ على دفع السبب ، لم يجب عليه إحضار المسبَّب . فكُتُب الآباء ، تحبيب للأحياء ، ومحي لذكر الموتى .

---

(١) فى الأصل « متى » والوجه ما أثبت .
(٢) الإثارة هنا بمعنى الحرث .
(٣) أسجل له الأمر : أطلقه . وأوغر الملك الرجل الأرض : جعلها له من غير خراج .
(٤) الأكار هنا بمعنى الخبير من المخابرة (والمخابرة أن يزرع الرجل أرض غيره ، على أن يكون له النصف ونحوه ، مما تغل الأرض) .
(٥) قد سبق قوله « لا تحتاج إلى إثارة » فهو تكرار ، أو فى الكلام تحريف .

وقالوا : ومتى كان الأديب[١] جامعاً بارعاً ، وكانت مواريثه كتبا بارعة وآدابا جامعة ، كان الولد أجدر أن يرى التعلُّم حظا ، وأجدر أن يسرع التعليمُ إليه ، ويرى تركه خطأ ، وأجدرَ أن يجرى من الأدب على طريق قد أُنهج له ، ومنهاج قد وطئ له ، وأجدرَ أن يسرى إليه عِرقٌ من نَجْله ، وسقى من غرسه ، وأجدر أن يجعل بدل الطلب للكسْب[٢] ، النظر فى الكتب ، فلا يأتى عليه من الأيَّام مقدارُ الشغل بجمع الكتب ، والاختلاف فى سماع العلم ، إلا وقد بلغ بالكفاية وغاية الحاجة ، وإنَّما تُفسد الكفاية من [له][٣] تمت آلاته[٤] ، وتوافتْ إليه أسبابه . فأما الحدَث الغرير ، والمنقوص الفقير ، فخير مواريثه الكفاية إلى أن يبلغ التمام ، ويكمل للطلب . فخير ميراثٍ وُرِّث كتبٌ وعلم ، وخير المورِّثين من أورث ما يجمع ولا يفرِّق ، ويبصِّر ولا يُعمى ، ويُعطى ولا يأخذ ، ويجود بالكلِّ دون البعض ، ويدع لك الكنزَ الذى ليس للسلطان فيه حقٌّ ، والرِّكازَ[٥] الذى ليس للفقراء فيه نصيب ، والنِّعمةَ التى ليس للحاسد فيها حيلة ، ولا للُّصُوص فيها رغبة ، وليس للخصم عليك فيه حجَّة ، ولا على الجار فيه مَئونة .

(قول ديمقراط فى تأليف كتب العلم)

وأما ديمقراط فإنه قال : ينبغى أن يعرَف أنه لابدَّ من أن يكون لكلِّ كتاب علمٍ وضعَه أحدٌ من الحكماء ، ثمانيةُ أوجه : منها الهمَّة ، والمنفعة ، والنسبةُ ، والصحَّة ، والصِّنف ، والتأليف ، والإسناد ، والتدبير . فأوَّلُها أن تكون لصاحبه هِمَّة ، وأن يكون فيما وضع منفعة ، وأن يكون له نسبة

(١) فى الأصل « الأدب » .
(٢) فى الأصل « الكتب » .
(٣) زيدت هذه الكلمة فى الأصل بخط مخالف .
(٤) فى الأصل « آدابه » وإنما هى « آلاته » بمعنى أسبابه .
(٥) الركاز بمعنى الكنز .

يُنْسَب إليها ، وأن يكون صحيحاً ، وأن يكون على صِنف من أصناف الكتب معروفا به، وأن يكون مؤتلفاً من أجزاء خمسة ، وأن يكون مسندا إلى وجه من وجوه الحكمة ، وأن يكون له تدبير موصوف .

فذُكِر أن أبقراط قد جمع هذه الثمانية الأوجه فى هذا الكتاب ، وهو كتابه الذى يسمى (افوريسموا) تفسيره كتاب الفصول .

(مقاولة فى شأن الكلب)

وقولك ، وما بلَغ من قدر الكلب مع لؤم أصله، وخُبث طبعه ، وسقوط قدره ، ومهانة نفسه ، ومع قلّةِ خيره وكثرة شره ، وأجتماع الأمم كلّها على استسقاطه ، واستسفاله ، ومع ضربهم المثل فى ذلك كلّه به ، ومع حاله التى يعرف بها ، من العجز عنْ صولة السِّباع واقتدارها ، وعَن(١) تمنّعها وتشرّفها ، وتوحُّشها وقلة إسماحها ، وعن مسالمة البهائم وموادعتها ، والتمكين من إقامة مصلحتها والانتفاع بها ، إذ لم يكن فى طبعها دفع السباع عن أنفسها ، ولا الاحتيال لمعاشها ، ولا المعرفة بالمواضع الحريزة من المواضع المَخُوفة ، ولأنَّ الكلب ليس بسبع تام ، ولابهيمة تامة ، حتّى كأنه من الخلْق المركَّب والطبائع الملفَّقة ، والأخلاط المجتلبة ، كالبغل المتلوّن فى أخلاقه ، الكثير العيوب المتولّدة عن مزاجه .

وشرّ الطبائع ما تجاذبته الأعراق المتضادّة ، والأخلاق المتفاوتة(٢) ، والعناصر المتباعدة ، كالراعبىّ من الحمام ، الذى ذهبت عنه هداية الحمام ،

(١) فى الأصل « ومن » .
(٢) فى الأصل « المتفاوة » .

وشكل هديره وسرعة طيرانه ، وبطل عنه عمر الوَرَشان ، وقوّة جناحه وشدة عصبه ، وحسنُ صوته ، وشحْو[1] حلقه ، وشكل لحونه ، وشدّة إطرابه ، واحتماله لوقع البنادق وجرح المخالب . وفى الراعبى أنّه مُسَرْوَل مثقل ، وحدث له عِظَمُ بدن ، وثقل وزن ، لم يكن لأبيه ولا لأمّه .

وكذلك البغل ، خرج من بين حيوانين يلدان حيوانا مثلهما ، ويعيش نتاجُهما ويبقى بقاءهما ، وهو لا يعيش له ولد وليس بعقيم ، ولا يبقى للبغلة ولد وليست بعاقر ، فلو كان البغل عقيما ، والبغلة عاقراً ، لكان ذلك أزيَدَ فى قوتهما ، وأتمَّ لشدتهما ، فمع البغل من الشَّبَق والنَّعظ ماليس مع أبيه ، ومع البغلة من الشَّبَق[2] ، وطلب السفاد ، ماليس مع أمّها . وذلك كلُّه قدح فى القوّة ، ونقص فى البنية[3] ، وخرج غرموله أعظم من غراميل أعمامه وأخواله ، فترك شبههما ، ونزع إلى شىء ليس له فى الأرض أصل ، وخرج أطول عمراً من أبويه ، وأصبرَ على الأثقال من أبويه .

أو كابن المذكَّرة من النساء ، والمؤنث من الرجال ، فإنه يكون أخبث نتاجا من البغل ، وأفسد أعراقاً من السِّمع ، وأكثر عيوبا من العِسبار ، ومِنْ كلِّ خلقٍ خلق ، إذا تركب من ضِدٍّ ، ومن كل شجرة مُطَعَّمةٍ بخلاف .

وليس يعترِى مثلُ ذلك الخِلاَسىّ من الدجاج ، ولا الوردانى[4] من الحمام .

---

(١) الشحو : الاتساع . وفى الأصل « وشجى » وليس له وجه .

(٢) الشبق : اشتداد الغلمة . وهى فى الأصل « الشوس » والشوس : النظر فى كبر أو تغيظ . وليس له وجه فى الكلام .

(٣) فى الأصل « فى للبنية » .

(٤) الدميرى : طائر متولد بين الورشان والحمام ، وله غرابة لون .

وكلُّ ضعف دخل على الخلقة ، وكل رقَّة عرضت للحيوان ، فعلى قدر جنسه . وعلى وزن مقداره ، وتمكنه ، يظهر العجزُ والعيب .

وزعم الأصمعيُّ ، أنّه لم يسبق الحلبةَ فرسٌ أهضم قط .

وقال محمد بن سلاّم : لم يسبق الحلبة أبلق قط ولا بلقاء .

والهداية فى الحمام ، والقوّة على بعد الغاية [١] ، إنما هى للمصْمَتة من الخضر [٢] .

(الشيات فى الحيوان ضعف ونقص)

وزعموا أنَّ الشِّياتِ كلَّها ضعف ونقص ـ والشِّيَة : كلُّ لون دخل على لون ـ وقال الله جلّ وعزّ ﴿ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَ شِيَةَ فِيهَا ﴾.

(ابن المذكرة من المؤنث)

وزعم عثمان بن الحكم [٣] أنَّ ابن المذكرة من المؤنث، يأخذ أسوأ خصالِ أبيه، وأردأ خصال أمه، فتجتمع فيه عظامُ الدواهي، وأعيان المساوئ ، وأنّه إذا خرج كذلك ، لم ينجع فيه أدب ، ولا يَطمع فى علاجه طبيب ، وأنَّه رأى فى دور ثقيف ، فتًى اجتمعتْ فيه هذه الخصال ، فما كان فى الأرض يومٌ ، إلاَّ وهم يتحدثون عنه بشيء ، يصغُر فى جنْبِه أكبرُ ذنبٍ كان يُنسَب إليه !

---

(١) الغاية : المدى الذى يرسل إليه حمام الزاجل .

(٢) المصمتة : التى لايخالط لونها لون آخر .

(٣) هو عثمان بن الحكم بن صخر الثقفى ، له خبران فى الأغانى (٩ : ٢٣ ، ١٧ : ١٧)

وَزَعَمْتَ أنَّ الكلب فى ذلك كالخنثى ، الذى هو لاذكر ولاأنثى ، أو كالخصى الذى لمَّا قُطِع منه ماصار به الذَّكَر فحلا ، خرجَ من حدِّ كمالِ الذَّكَر بفقدان الذكَر ، ولم يكملْ لأن يصير أنثى ، للغريزة الأصلية ، وهيئةِ الجوهريّة .

وَزَعَمْتَ أنَّه يصير كالنبيذ الذى يفسده إفراطُ الحرّ ، فيخرجه من حدِّ الخل ، ولا يدخلُه فى حدِّ النبيذ .

وقال مرداس بن خذام(١) :

سَقَينا عِقالاً بالثَّوِيّةِ(٢) شَرْبةً ... فمالت بلُبِّ الكاهليِّ عِقالِ
فقُلتُ اصطبِحْها ياعِقالُ فإنّما ... هى الخمرُ خيَّلْنا لها بِخَيالِ
رَمَيْتُ بأمِّ الخلِّ حبَّـةَ قلبِه ... فلم ينتعش منها ثلاث ليالِ

فجعل الخمر أمَّ الخلّ قد يتولد عنها ، وقد يتولّد عن الخل ـ إذ كان خمراً مرة ـ الخمرُ .

وقال سعيد بن وهب(٣) :

هَلاَّ وأنت بماءِ وجهِك تُشْتَهَى ... رَودَ الشَّبابِ قليلَ شَعْرِ العارضِ!
فالآن حين بدَتْ بخدِّك لحية ... ذهبَتْ بملحك مثل كفِّ القابضِ
مثل السلافة عادَ خمرُ عصيرها ... بعدَ اللَّذاذة خَلَّ خمرٍ حامضِ

ويصير أيضاً كالشعر الوسط ، والغناء الوسط ، والنادرة الفاترة ، التى لم

(١) فى الأغانى (٢٠ : ٨٧) جذام ، وفى ثمار القلوب (٢٠٧) جزام .
(٢) الثوية موضع بالكوفة أوقريب منها . وانظر نسبة البيت فى معجم البلدان .
(٣) سعيد بن وهب ، هو أبو عثمان مولى بنى سامة بن لؤى ، شاعر مطبوع ، أكثر شعره فى الغزل والتشبيب بالمذكر ، وكان من كتاب البرامكة ، متقدما عندهم ، قالوا : وكان ذا فجور ومجون ، ثم تاب وأقلع ، وكانت وفاته فى أيام المأمون . انظر الأغانى ٢١ : ٦٩ ـ ٧٢ وفهرس ابن النديم ١٧٨ ، ٢٣٦ مصر .

تخرج من الحرّ إلى البرد فتضحك السِّنّ ، ولم تخرُج من البرد إلى الحر فتضحك السِّن[١]] .

باب
ذكر ما يعترى الإنسان بعد الخصاء وكيف ما كان قبل الخصاء

قالوا ، كلُّ ذى ريح مُنتِنةٍ ، وكُلُّ ذى دَفْرٍ وصُنَانٍ كريهِ المشَمَّةِ[٢] ، كالنَّسر وما أشبهه ، فإنَّه متى خُصِى نقَص نَتنُه وذهبَ صُنانه ، غيرَ الإنسان ، فإنَّ الخصىَّ يكون أنتنَ ، وصنانُه أحدَّ ، ويعمُّ أيضاً خبثُ العرقِ سائرَ جسَده ، حتى لتُوجَد لأجسادهمْ رائحـــةٌ لاتكون لغيرهم ، فهذا هذا .

وكلُّ شىء من الحيوان يُخصَى فإنَّ عظمَه يدِقُّ ، فإذا دقَّ عظمُه استرخَى لحمه ، وتبرَّأ من عظمه ، وعاد رَخْصاً رطْباً ، بعد أن كان عَضِلا[٣] صُلْباً ، والإنسان إذا خُصِىَ طال عظمُهُ وعرُض ، فخالف أيضا جميعَ الحيوان من هذا الوجه .

وتعرِض للخصيان أيضا طول أقدامٍ ، واعْوجاج فى أصابع اليد ، والتواء فى أصابع الرِّجْل ، وذلك مِن أوَّلِ طعْنهم فى السنِّ ، وتعرِض لهم سرعة التغيُّر والتبدُّل ، وانقلاب من حدِّ الرطوبة[٤] والبضاضة ومَلاسة الجلد ، وصفاءِ اللون ورِقَّته ، وكثرةِ الماء وبريقه ، إلى التكرُّش والكمود ،

---

(١) هذه نهاية السقط الذى ابتدأ من ص ٩٧ .

(٢) فى ط « وقيل ذى ذفر وصنان وكريه المشمة » وهو كلام محرف .

(٣) فى ل «عصلا» والوجه ما كتبت من ط .

(٤) فى ل « والانقلاب من حد الرطوبة » .

وإلى التقبُّض والتخَدُّد[١]، وإلى الهُزال، وسوء الحال، فهذا الباب يعرِض للخصيان، ويعرض أيضاً لمعالجى النبات من الأكَرة[٢] مِن أهل الزرع والنخل، لأنَّكَ ترى الخصىَّ وكأنَّ السيوفَ تلمع فى لونه، وكأنَّه مِرْآةٌ صينيَّة، وكأنه وَذيلة مجلوَّة، وكأنه جُمَّارَة رَطْبة، وكأنه قضيبُ فِضَّةٍ قد مسَّهُ ذهب، وكأن فى وجناته الورد، ثم لايلبثُ كذلك إلا نُسَيْئاتٍ[٣] يسيرةً، حتى يذهبَ ذلك ذَهابا لايعود، وإن كان ذا خِصبٍ، وفى عيش رَغَد، وفى فراغ بالٍ، وقلَّةِ نصَب .

(من طرائف عبد الأعلى القاصّ)

وكان من طرائف ما يأتى به عبد الأعلى القاصّ، قولُه فى الخصى، وكان لغلبة السلامة عليه يُتوهَّم عليه الغفلة، وهو الذى ذكر الفقيرَ مرة فى قصصه فقال : الفقير مرقته سُلْفة، ورداؤه عِلْقة، وجَرْدَقته فِلْقة، وسمكته شلِقَة[٤] [وإزاره خرقة].

(قالوا) ثمَّ ذكر الخَصِىَّ فقال : إذا قُطِعت خُصيته، قَوِيت شَهوتُه وسخُنت مَعِدته، ولانَتْ جِلدتُه، وانجردت شَعْرته، واتَّسعت فَقْحته، ٤٩
وكثرت دَمعته ! !

---

(١) فى الأصل « التحدد » وإنما هو « التخدد » بمعنى التقبض .

(٢) فى ط « ويعرض أيضا لبات الأكرة » وتصحيحه من ل .

(٣) النسأة بالضم والنسيئه بمعنى النظرة ــ بكسر الظاء ــ وتصغر النسأة وتجمع، فتكون نسيئات، والمراد بها الوقت القليل .

(٤) (السلفة) : ما يتعلل به قبل الغداء . ويسميها العامة اليوم « تصبيرة » .. وأما (العلقة) فهو قميص بلا كمين، أو ثوب يجاب ولا يخاط جانباه، تلبسه الجارية وهو إلى الحجزة .. وأما (الفلقة) فبمعنى النصف . والجردقة : الرغيف . معرب كرده . وأما (الشلقة) بالكسر أو بفتح الأول وكسر الثانى فهى واحدة الشلق : ضرب من صغار السمك .

وقالوا ، الخصيُّ لايصلَح كما لا تصلَح المرأة ، وإذا قطع العضوُ الذى كان به فحلاً تامًّا ، أخرجه ذلك من أكثرِ معانى الفحول وصفاتهم ، وإذا أخرجه من ذلك الكمال ، صيَّره كالبغل الذى ليس هو حماراً ولا فرساً ، وتصيرُ طباعُه مقسومةً على طباعِ الذكر والأنثى ، وربما لم يَخْلُص له الخلقُ ولم يَصْفُ ، حتى يصير كالخلق من أخلاق الرجال ، أو يلحق بمثله من أخلاق النساء ، ولكنَّه يقع ممزوجا مركبا ، فيخرج إلى أن يكون مذبذبا ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . وربما خرجت النتيجة وما يولِّده التركيب ، عن مقدار معانى الأبوين ، كما يجوزُ عمرُ البغْل عمرَ أبويه ، وكذلك ما عددنا فى صدر هذا الكلام[1] .

(طلب النسل)

وقالوا[2] ، وللإنسان قوًى معروفةُ المِقدارِ ، وشهواتٌ مصروفةٌ فى وجوهِ حاجاتِ النفوس ، مقسومةٌ عليها ، لايجوزُ تعطيلُها وتركُ استعمالِها ، ما كانت النفوسُ قائمةً بطبائعها ومِزاجاتها وحاجاتها . وبابُ المنكَح مِن أكبرِها ، وأقواها ، وأعمِّها .

ويدخل فى باب المنكَح مافى طبائعهم من طلبِ الولد ، وهو بابٌ من أبوابهم عظيم ، فمنهم من يطلبه للكثرة والنُّصرةِ ، وللحاجة إلى العدد والقوّة ، ولذلك استلاطت العربُ الرجالَ ، وأغضت[3] على نسب المولودِ

---

(١) فى ط « الكتاب » وهو تحريف .
(٢) فى ط « قال » والوجه مافى ل .
(٣) أغضى على الشيء : سكت . وفى ط « وأغضبت » والوجه ما كتبته من ل .

على فراشِ [أبيه][١] ، وقد أحاط علمُه بأنّه من الزوج الأوّل . قال الأشهبُ أبن رُمَيلة[٢] :

قال الأقاربُ لاتغرُرْكَ كثرتُنا ... وأَغْنِ نفسَكَ عنّا أيُّها الرجُلُ
علَّ بَنِيَّ يشدُّ اللهُ كثرتَهم ... والنَّبعُ يَنْبُتُ قُضْباناً فيكتهل[٣]

وقال الآخر[٤] :

إنَّ بَنِيَّ صِبْيَةٌ صَيْفِيُّونْ ... أَفْلَحَ مَنْ كانَ لَهُ رِبْعِيُّونْ

يشكو كما ترى صِغَرَ البنين ، وضعف الأسر[٥] .

وما أكثر مايطلب الرجل الوَلَدَ نفاسةً بماله على بنى عمّه ، ولإشفاقه من أن تليه القضاةُ وترتع فيه الأمناء ، فيصيرَ مِلْكاً للأولياء ، ويقضىَ به القاضى الذِّمامَ ويصطنع به الرجال .

وربما همَّ الرجلُ بطلب الولد لبقاء الذِّكْر ، وللرغبة فى العقب ، أو على جهة طلَبِ الثواب[٦] فى مباهاة المشركين ، والزيادةِ فى عدد المسلمين ، أو للكسب والكفاية ، وللمدافعة والنُّصْرة ، وللامتناع ، وبقاء نوع الأنسان ، ولما طبع اللهُ تعالى بنى آدم عليه ، من حبِّ الذُّرِّيّةِ وكثرةِ النسل ، كما طبع ٥٠

(١) فى الأصل « على فراشه » وبذلك لايكون للضمير فى كلمة (علمه) الآتية مرجع . وعلى الأصل أيضا لانجد لضمير (فراشه) مرجعا مناسبا .
(٢) وقيل الشعر لنهشل بن حرى كما فى البيان والبيتان فيه ٣ : ٣٨ .
(٣) فى البيان « أعظمهم » بدل « كثرتهم » .. وفى ط « النبغ » بالغين والصواب ما أثبت من ل والبيان . والنبع : شجر تعمل منه القسى والسهام .
(٤) هو أكثم بن صيفى ، كما فى نوادر أبى زيد ٨٧ قال أبو زيد « يقال أصاف الرجل إذا ترك النساء شابا لم يتزوج، ثم تزوج بعد ما أسنّ، ويقال لولده صيفيون ... والربعيون : الذين ولدوا وآباؤهم شباب فهم رجال » و « إن » هى فى ط «عسى» وتصحيحه من ل والنوادر .
(٥) فى ط « السنّ » .
(٦) فى ط « الصواب » وهو تحريف ظاهر .

الله تعالى الحمام والسنانير على ذلك ، وإن كان إذا جاءه الولد زاد فى همّه ونصبه ، وفى جُبْنِهِ وبخْله ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « الوَلَدُ مَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ مَجْهَلَةٌ » فيحتمل فى الولد المُؤَن المعروفة ، والهموم الموجودة لغير شىء قصَد له ، وليس فى ذلك أكثرُ من طلب الطباع ، ونزوعِ النفس إلى ذلك .

وذكر أبو الأخزَر الحِمَّانى عَير العانَة(١) بخلاف ماعليه أصحابُ الزّواج من الحيوان ، فقال عند ذكر سِفاده :

لامُبتغِى الذرْء ولا العازِلِ(٢)

لأنّ الإنسانَ من بين الحيوان المُزَاوِج ، إذا كرِهَ الولدَ عزَل ، والمزاوِج من أصناف الحيوانات إنّما غايتُها طلبُ الذرْء(٣) والولد . لذلك سُخِّرت ، وله هُيِّئت ، لِمَا أراد اللهُ تعالى من إتمامِ حوائج الإنسانِ ، والحمارُ لايطلبُ الولدَ ، فيكون إفراغــه فى الأتان لذلك ، ولا إذا كان لا يريد الولد عزَل كما يعزِل الإنسان ، غير أنّ غايتَه قضاء الشهوة فقط ، ليس يَخْطُرُ(٤) على باله أنّ ذلك الماء يُخلَق منه شىء .

[وروى ابن عون عن محمد بن سيرين عن عبيدة قال « ليس فى البهائم شىء يعمل عمل قوم لوط إلا الحمار »] .

وعامّة اكتساب الرجال وإنفاقهم ، وهمّهم وتصنُّعهم ، وتحسينهم لما يملكون إنّما هو مصروفٌ إلى النساء والأسباب المتعلقة بالنساء ، ولو لم يكن إلاّ التنمُّص(٥) والتطيُّب والتطوُّس(٦) [والتعرُّس(٧)] والتخضُّب ،

---

(١) فى ط « وذكر أبو الأخزر الحمام غير العافة » وهو مثل من أمثلة التحريف الشنيع .

(٢) فى ط « لا مبتغى الذر ولا بالعازل » والوجه ما أثبت من ل .

(٣) فى ط « الذر » .

(٤) فى الأصل « يذكر » .

(٥) النمص : نتف الشعر . والتنمص : التزين بذلك الأسلوب .

(٦) التطوس : التزين .. وبدل « التطوس » فى ط « التطرز » وليس بشىء .

(٧) التعرس : التحبب .

والذى يُعَدُّ لهـا من الطيب والصِّبغ، والْحَلْي، والـكِساء، والفُرُش، والآنية، لكان فى ذلك ما كفى. ولو لم يكن له إلا الاهتمامُ بحفظها وحراستها ، وخوفُ العارِ من جنايتها والجناية عليها ، لكان فى ذلك المؤنةُ العظيمة ، والمشقة الشديدة .

(قول فى الغرائز وبيان سبب شره الخصى)

فإذا بطل العضوُ الذى من أجله يكون اشتغالُ النفس بالأصناف الـكثيرة ، من اللذّة والألَم ، فباضطرارٍ أنْ تعلَمَ أنَّ تلك القُوَى لم تَبطل من التركيب ، ولم تُعدمْها الخلقة ، وإنَّما سُدَّ دونَها بسدٍّ، وأدخل عليها حجاب ، فلا بدَّ لها إذا كانت موجودةً من عمل ، لأنَّ عملَ كلِّ جوهرٍ لايُعدَم إلاّ بعدَم ذاته ، فاذا صُرِفَتْ من وجهٍ فاضَتْ[1] من وجه ، ولا سيما إذا جمَّت ونازعتْ ، ولا بُدَّ إذا زخَرت وغَزُرت ، وطغت[2] وطَمَتْ ، من أن تفيضَ أو تفتح لنفسها بابًا ، وليس بعد المنكح بابٌ له موقعٌ كموقعِ المطعم ، فاجتمعت تلك القوى التى كانت للمنكَح وما يشتمل عليه باب المنكح ، الى القوّة التى عنده للمطعم ، فاذا اجتمعت القوّتان فى بابٍ واحد كان أبلغ فى حكمِهِ ، وأبعدَ غايةً فى سبيله ، ولذلك صارَ الخَصىُّ آكَلَ من أخيه لأمِّه وأبيه ، وعلى قدر الاستمراء يكون هضمه ، وعلى قدر حاجةِ طبعه [وحركة نفسه و][3] الحرارةِ المتولّدةِ عن الحرَكة يكونُ ٥١

(١) كذا على الصواب فى ط .. وفى ل . غاضت .

(٢) فى ط « طفت » وتصحيحه من ل .

(٣) فى ط « على قدر حاجة طبعه وحاجة الحرارة المتولدة عن الحركة » وأصلحت الـكلام من ل .

الاستمراء ، لأن الشهوة من أمتن[١] أبواب الاستمراء ، والحركةَ من أعظم [أبواب] الحرارة .

(تفوق رغبة الإناث على الذكور فى الطعام)

ودوامُ الأكلِ فى الإناثِ أعمُّ منه فى الذكور ، وكذلك الحِجْرُ دون الفرَس ، وكذلك الرَّمَكة دونَ البِرذَون، وكذلك النعجة[٢] دونَ الكبش ، وكذلك النساء فى البيوت دونَ الرجال . وماأشكُّ أنَّ الرجلَ يأكلُ فى المجلسِ الواحدِ مالا تأكل المرأة ، ولكنَّها تستوفِى ذلك المقدارَ ، وتُربِى عليه مقطَّعاً غيرَ منظوم ، وهى بدوامِ ذلك منها ، يكون حاصلُ طعامِها أكثرَ . وهنَّ يُناسِبْن الصبيانَ فى هذا الوجه ، لأنَّ طبعَ الصبيِّ سريعُ الهضم ، سريعُ الكلَب ، قصيرُ مدَّةِ الأكل ، قليلُ مقدارِ الطُّعْم ، فللمرأةِ كثرةُ معاودتها ، ثمَّ تَبِينُ بكثرةِ مقدارِ المأكول . فيصير للخَصِىِّ نصيبان ، نصيبهُ من شِبْه النساء ، ثم اجتماعُ قوى شهوتيه فى بابٍ واحد ، أعنى شهوةَ المنكَح التى تحولت ، وشهوةَ المطعم .

قال ، وقيل لبعض الأعراب : أىُّ شىء آكَلُ؟ قال : بِرْذَونَةٌ رَغُوث[٣] .

ولشدَّةِ نَهَمِ الإناثِ ، صارت اللبؤة أشدَّ عُرامًا وأنزقَ ، إذا طلبت الإنسانَ لتأكله ، وكذلك[٤] صارت إناثُ الأجناس الصائدة كالإناثِ

(١) فى الأصل « أتن » وهو تحريف ما كتبت .
(٢) فى ط « الرمكة » والوجه ما أثبت من ل .
(٣) رغوث : مرضعة .
(٤) فى الأصل « ولذلك » .

من الكلاب [والبُزاةِ] وما أشبهَ ذلك ، أحرصَ ما تكونُ عندَ ارتضاعِ جِرائها [من أطبائها] حتَّى صار ذلك منها سبباً للحرص والنَّهم فى ذلك .

(صوت الخصى)

ويعرض له عند قطع ذلك العضوِ تغيُّرُ الصوت ، حتى لا يخفى على من سمعه من غير أن يرى صاحبَه أنَّه خَصِيٌّ ، وإن كان الذى يخاطبه ويناقله الكلام أخاه أو ابنَ عمِّه ، أو بعضَ أترابه مِن خُولة جنسه ، وهذا المعنى يعرض لخصيان الصقالبة أكثر ممَّا يعرِض للخراسانية ، وللسودان من السِّنْد والحُبْشان . وما أقلَّ مَن تجده ناقصا عن هذا المقدار ، إلاَّ وله بيضة أو عِرْق ، فليس يُحتاج فى صِحَّةِ تمييزِ ذلك ، ولا إلى دقة[1] الحسِّ فيه، إلى حذقٍ بقيافة ، بل تجد ذلك شائعا فى طباع السِّفلة والغَثْرَاءِ[2] ، وفى أجناس الصِّبيان والنساء .

(شَعر الخصى)

ومتى خُصى قبلَ الإنباتِ لم يُنْبِتْ ، وإذا خُصِى بعد استحكام نباتِ الشعر فى مواضعه، تساقط كله إلاَّ شعرَ العانة ، فإنه وإن نقَص من غلَظه ومقدارِ عَدده فإنَّ الباقِىَ كثير . ولا يعرِضُ ذلك لشعر الرأس ، فإنَّ شعرَ

(١) فى ط « رقة » وما كتبت من ل أشبه بكلام الجاحظ.

(٢) كذا فى ط وهو الصواب . وفى ل « العتر » . فى القاموس « الغثرة محركة ، والغثراء ، والغثر بالضم ، والغيثرة : سفلة الناس » .

الرأس والحاجبين وأشفار العينين يكون مع الولادة ، وإنما يعرض لما يتولد من فضول البدن .

وقد زعم ناسٌ أنَّ حكمَ شَعرِ الرأس خلافُ حكم أشفار العينين ، وقد ذكرنا ذلك فى موضعه من باب القول فى الشعر ، وهذه الخصال من أماكن شَعر النساء ، والخصيان والفحولة فيه سواء ، وإنما يعرض لسوى
٥٢ ذلك من الشعر الحادثِ الأصول ، الزائدِ فى النبات . ألا ترى أن المرأة لا تصلعُ ، فناسبها [الخصىُّ] من هذا الوجه ، فإنْ عرضَ له عارضٌ فإنما هو من القرَع ، لا من جهة النَّزَع والجَلَح [والجَلَه] والصَّلَع[١] ، وكذلك النساء فى جميع ذلك .

والمرأة ربَّما كان فى قُصَاص مقاديم شعرِ رأسها ارتفاع ، وليس ذلك بنزَعٍ ولاجلَح ، إذا لم يكن ذلك حادثاً يُحدثه الطعنُ فى السنّ .

وتكون مقاطعُ شعر رأسه ومنتهى حدود قُصاصه ، كمقاطع شعر المرأة ومنتهى قُصاصها ، وليس شعرُها كلما دنا من موضع الملامسة والانجراد يكون أرقَّ حتى يقلَّ ويضمحلَّ ، ولكنه ينبُت فى مقدارِ ذلك الجلد على نبات واحد ، ثم ينقطع عند منتهاه انقطاعا واحداً . والمرأة ربَّما كانت سبلاءِ ، وتكون لها شَعَراتٌ رقيقة زَغَبيَّةٌ كالعِذار موصولا بأصداغها ، ولا يعرض ذلك للخَصى إلا من علة فى الخصاء ، ولا يرى أبداً بعد مقطَع من صُدْغَيهِ شىء من الشَّعر ، لا من رقيقه ولا من كثيفه .

---

(١) النزع : انحسار الشعر من جانبى الجبهة . الجلح : انحساره عن جانبى الرأس . الجله والصلع : انحسار شعر مقدم الرأس .

(ذوات اللحى والشوارب)

وقد توجد المرأة ذات لحية . وقد رأيت ذلك ، وأكثرُ ما رأيته فى عجائز الدّهاقين ، وكذلك الغَبَب والشارب ، وقد رأيت ذلك أيضاً . وهى ليست فى رأى العين بخُنثى ، بل [نَجِدها] أنثى تامّة ، إلا أن تكون لم تضرِب فى ذلك بالسبب الذى يقوَى ، حتى يظهر فى غير ذلك المكان [ولا تعرض اللحى للنساء ، إلاعند ارتفاع الحيض] وليس يعرض ذلك للخَصى

وقد ذكر أهلُ بغداد ، أنّه كان لابنةٍ من بناتِ محمّدِ بنِ راشدٍ الخنّاق ، لحيةٌ وافرة ، وأنّها دخلت مع نساء متنقّباتٍ إلى بعض الأعراس لتَرَى العُرس وجَلْوةَ العَرُوس ، ففطِنت لهــا امرأة فصاحت : رجلٌ والله ! وأحال[(١)] الخدم والنساء عليها بالضرب ، فلم تكن لهـا حيلةٌ إلا الكشفَ عن فرْجِها ، فنزَعن عنها[(٢)] وقد كادت تموت .

ويفضل أيضاً الخصيُّ المرأةَ فى الانجراد والزّعَر ، بأن تجدَ المرأة زَبّاءَ الذراعين والساقين ، وتجد رَكَب[(٣)] المرأة فى الشعْر كأنّه عانةُ الرجل ، ويعرض لها الشعر فى إبطيها وغير ذلك .

ولا يعرِض للخصىّ مايعرض للديك إذا خُصى ، أن يذبُلَ غُضروفُ عُرْفه ولحيته .

والخصاء ينقُص من شدّة الأسر ، وينقُض[(٤)] مُبْرَم القُوَى ، ويُرْخِى مَعاقِدَ العَصَب ، ويقرّب من الهرَم والبِلى .

---

(١) فى ل «فأقبل» .

(٢) فى ل «فـكففن» .

(٣) الركب بالتحريك : العانة أو منبتها أو الفرج أو ظاهره .

(٤) فى ط «وينقص» بالصاد ، وصوابه ، فى ل .

(مشى الخصى)

ويعرض للخصيِّ أن يشتدَّ وقعُ رجله على أرض السَّطح ، حتى لو تفقَّدتَ وقعَ قدمه وقدَم أخيه الفحل [ألذى هو أعبل[١] منه] لوجدتَ لوقْعِه ووطْئه شيئاً لا تجده لصاحبه . وكأنَّ العضوَ الذى كان يشدُّ

٥٣ توتير النَّسَا[٢] ، ومَعَاقد الوركين[٣] ومعاليق العصب ، لمَّا بطل وذهب الذى كان يمسكُه ويرفعه، فيخفّ لذلك وقْعُ رجلِه، صار كالذى لا يتماسَكُ ، ولا يحمل بعضه بعضا .

(أثر الخصاء فى الذكاء)

ويعرض له أنَّ أخوين صَقْلَبيَّيْنِ مِن أمّ وأبٍ ، لو كان أحدهُما توأمَ أخيه ، أنَّه متى خُصِيَ أحدُهما خرَجَ الخَصيُّ منهما أجوَدَ خِدمةً ، وأفطن لأبواب المعاطاة والمناولة ، وهو لها أتقَنُ وبها أليق ، وتجده أيضاً أذكى عقلا عند المخاطبة ، فيُخَصُّ بذلك كلِّه ، ويبقى أخوه على غثارة[٤] فطرته ، وعلى غباوة غريزته ، وعلى بلاهة[٥] الصَّقْلَبيَّة وعلى سوء فهم العجَميَّة .

ويدُ الإنسان لا تكون [أبداً] إلا خرْقاء ، ولا تصير صَناعا ما لم تكنْ

---

(١) أعبل منه : أضخم منه .

(٢) فى ط « وكان العضو الذى به يشتد يشد توتير النسا » وفى ل « وكأن العضو الذى كان يشد توتير عرق النساء » وقد أصلحت العبارة بما ترى . ولا يقال عرق «النسا» وإنما هو «النسا» بدون إضافة. قال الزجاج : لأن الشيء لا يضاف إلى نفسه .

(٣) فى ط « ومعاليق الوركين » وليس بشيء.

(٤) فى ط « غشاوة » وفى ل « عثارة » بالعين ولعل صوابهما ما أثبت . والأغثر : الأحمق الجاهل .

(٥) فى ط « بلاهته » وأبدلتها بما فى ل ليتم تساوق الكلام .

المعرفةُ ثِقافاً لها، وللسان لا يكون أبراً ، ذاهباً فى طريق البيان ، متصرفاً فى الألفاظ ، إلا بعد أن تكونَ المعرفةُ متخلِّلةً به ، منقّلة له ، واضعةً له فى مواضع حُقوقِه ، وعلى أماكن حظوظِه ، وهو علّةٌ له فى الأماكن العميقة ، ومصرِّفةٌ له فى المواضع المختلفة .

فأوّلُ ماصنع الخِصاء بالصَّقْلَبِيّ تزكيةُ عقلِه ، و إرهافُ حدِّه ، وشحْذُ طبعِه ، وتحريكُ نفسه . فلما عرَف كانت حركته تابعةً لمعرفته ، وقوتُه على قدر ماهيّجه[(١)] .

فأمّا نساء الصقالبة وصبيانهم ، فليس إلى تحويل طبائعهم ، ونقْل خَلْقهم إلى الفطنة الثاقبة ، و إلى الحرَكةَ الموزونة ، و إلى الخدمة الثابتة الواقعة بالموافقة ، سبيلٌ . وعلى حسَب الجهْل يكون الخُرْق ، وعلى حسب المعرفة يكون الُحذق . وهذا جملةُ القول فى نسائهم ، وعلى أنّهنّ لاحظوظَ لهنّ عند الخَلْوة ، ولا نفاذَ لهنّ فى صناعة ؛ إذ كنّ قد مُنِعن فهمَ المعاطاة ومعرفةَ المناولة .

والخِصيانُ معَ جودةِ آلاتهم ، ووَقَارة طبائعهم فى معرفةِ أبوابِ الخِدْمة ، وفى استواءِ حالهم فى باب المعاطاة ، لم ترأحداً منهم قطُّ نفَذَ فى صناعةٍ تُنسَب إلى بعضِ المشقّة ، وتضافُ إلى شىء من الحكمة ، ممّا يُعرَف ببُعْد الرويّةِ ، والغوصِ بإدامة الفكرة ، إلا ماذكرُوا من نَفَاذ نقفٍ[(٢)] فى التحريك للأوتار ، فإنّه كانَ فى ذلك مقدّمًا ، وبه مذكورا .

---

(١) فى ط «ماجه» وأثبت مافى ل .

(٢) كذا فى ل . وفى ط «دامة» وفى س «نقف» .

إلاَّ أنَّ الخصىَّ من صباه ، يُحسِن صنعة الدُّبُوق[١] ، ويُجِيد دُعاء الحمام الطوُّرىّ[٢] ، وماشئتَ من صغار الصناعات .

وقد زعم البصريُّون أن حَدْيجاً[٣] الخصىّ ، خادمَ مُثَنَّى بن زُهَير ، كان يُجارى[٤] مُثَنًّى فى البصَر بالحمام ، وفى صحّة الفِراسة ، وإتقان المعرفة ، وجودة الرياضة ، وسنذكُر حالَه فى باب القول فى الحمام إن شاء الله تعالى .

٥٤ هذا قولهم فيمن خُصِى من الصقالبة . ولو كُنا لعقول خِصيان خُراسانَ أحمد ، وهم قليل ، ولذلك لم نأتِ من أمرهم بشىء مشهور ، وأمر مذكور .

(خصيان السند)

وأما السِّند ، فلم يكن فيهم أيضاً من الخِصيان إلاّ النفرُ الذين كان خصاهم موسى بنُ كعب ، وقد رأيت أنا بعضَهم ، وزعم لى أنَّه خَصَى أربعةً هوأحدهم ، ورأيتُ الخِصاء ، قد جذبَه إلى حبِّ الحمام ، وعمل التكك[٥] ، والهراش بالديوك ، وهذا شىء لم يَجْرِ منه على عِرقٍ ، وإنما قاده إليه قطعُ ذلك العضو .

---

(١) الدبوق : هنا جمع دبق بالكسر وهو والدابوق والدبوقاء : غراء يصاد به الطير . والدبوق كتنور قال فى القاموس : لعبة معروفة .. وليست مرادة فى هذا الكلام.

(٢) فى ط «الضوارى» وفى ل «الصوار» وصوابهما «الطورى» وهوالوحشى

(٣) فى ط «خديجا» بالخاء . وقد كتبت مافى ل و س .

(٤) فى ط «يجرى» .

(٥) التكة : رباط السراويل والجمع تكك، ويبدو لى أنها معربة، كما صرح بذلك الخفاجى فى شفاء الغليل ، ولم يتعرض صاحب القاموس لذلك .

(خصيان الحبشة والنوبة والسودان)

فأمّا الخصيان من الحُبشان والنُّوبة وأصناف السودان ، فانّ الخصاء يأخذُ منهم ولا يعطيهم ، وينقُصهم ولا يزيدهم ، ويحطُّهم عن مقادير إخوانهم ، كما يزيد الصقالبةَ عن مقادير إخوتهم ، لأن الحبشيّ متى خُصِى سقطَتْ نفسه ، وثقُلت حركته ، وذهب نشاطه ، ولا بدّ أن يعرض له فساد ، لأنه متى استُقْصى جِبابُه . لم يتماسك بوله[1]، وسَلِس مخرجه ، واسترخى المسك له ، فإن هم لم يستقصوا جِبابه ، فإنما يُدخل الرجل منزله مَن له نصفُ ذلك العضو[2]. وعلى أنك لا تجد منهم خَصِيا أبداً ، إلّا وبسُرَّته بُجْرَةٌ ، ونفخة[3] شنيعة ، وذلك عيبٌ شديد ، وهو ضرب من الفتق ، مع قُبحه فى العين ، وشُنْعته فى الذِّكْر . وكلُّ ما قَبُح فى العين فهو مؤلم ، وكل ما شنُع فى النفس فهو مؤذٍ . وما أكثَرَ ما تجد فيهم الألطع[4]، وذلك فاشٍ فى باطن شفاههم . ومتى كانت الشفاه هُدْلا ، وكانت المشافرُ منقلبة ، كانت أظهر للَّطَع ، وهوضرب من البرص . والبياض الذى يعرض لغَرَاميل الخيل وخُصَاها[5] ، ضربٌ أيضاً من البرص ، وربما عَرَض مثل ذلك لحشفةِ قضيب المختون ، إمَّا لطَبَع الحديد ، وإمّا لقرب[6] عهده بالإحداد وسقْىِ الماء ، إلاّ أنَّ ذلك لايعدُو مكانه .

---

(١) فى ط « ولم يتماسك بوله » والوجه حذف الواو كما فى ل .

(٢) فى الكلام نقص وتحريف ولعل صواب العبارة : « فأما من لم يستقص جبابه فقلما يدخل الرجل منزله منهم ... الخ

(٣) فى ط « وبخة » وليس بشىء . وقد أبدلتها بما فى ل . والبجرة : العقدة فى البطن والوجه والعنق .

(٤) اللطع : بياض فى باطن الشفة . وأكثر مايعترى ذلك السودان .

(٥) فى ط «وحضاؤها» وليست مرادة . وما هنا جمع خصية .

(٦) فى ط و س « لقدم » وهو خطأ صوابه فى ل ويؤيده ما كتبه الجاحظ فى الحيوان ٧ : ١١ طبع الساسى «ومن أن تكون الموسى حديثة العهد بالإحداد» . وطبع الحديد رداءته .

وكلما عظُمت الحشفةُ انبسَطَ ذلك البياضُ على قدر الزيادة فيها ، وإنّما ذلك كالبياض الذى يعرِض من حَرْق النار وتشييطها(١)، وكالذى يعرض للصقالبَةِ من التَّعالجُ بالكىِّ ، وربّما اشتدَّ بياضُه حتى يفحُشَ ويُردِيه(٢) ، إلا أنّه لايفشو ولاينتشر ، إلاّ بقدر ماينبسط مكانه ، ويتحوّل صاحبه رجلاً ، بعد أن كان صبيًّا(٣) . وليس كالذى يعرِض من البلغم ومن المِرّة . وبعضُ البرص يذهب حتى كأنه لم يكن ، وبعضُـه لايذهب ولايقف ، بل لايزال يتفشّى ويتّسع حتى ربّما سلخه ، ولايذهب إلاّ بأنْ يذهب به نبى(٤) ، فيكون ذلك علامةً له . ومن البهق الأبيض مايكاد يلحق بالبَرَص(٥) ، ولـكن الذى هوّن أمره الذى ترونَ من كثرةِ بُرْء الناس منه .

٥٥ ثمّ الخصاء يكونُ على ضروبٍ ، ويكون فى ضروب ، فمن ذلك مايعرِض بعدَ الـكبَر للأحرار ، كما يعرض للعبيد ، وللعرب كما يعرض للعجم ، كما خَصَى بعضُ عبَاهلةِ اليمن(٦) علقمةَ بنَ سهلٍ الخَصىّ .

(علقمة الفحل وعلقمة الخصى)

وإنما قيل لعلقمةَ بن عَبْدَةَ الفحلُ ، حين وقعَ على هذا اسمُ الخصى.

---

(١) فى ط « وتشيطه » .

(٢) هو تسهيل « يردئه » أى يجعله رديئا ويفسده .

(٣) كذا . ولعل صوابه « رجلا » بكسر الجيم من الرجلة بضم الراء : بياض فى إحدى رجلى الدابة . أما « صبيا » فلعلها « مصمتا » والمصمت : الذى لا يخالط لونه لون آخر .

(٤) فى ط «شىء» وقد أبدلته بما فى ل .. وكان عيسى عليه السلام يبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله .

(٥) فى ط « مايكون ملحقا بالبرص» .

(٦) عباهلة اليمن : أقيالهم .

وكان عبداً صالحا ، وهو كان جَنَبَ الجَدِيل(١) وداعراً ، الفحلين الكريمين ، إلى عمان ، وكان من نازليها . وهو كان أحدَ الشهودِ على قُدامةَ ابنِ مَظْعونٍ فى شرب الخمر ، وهو الذى قال لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : أتقبَلُ شهادةَ الخصىّ ؟ قال : أما شهادتك فأقبَلُ .

وهو عَلقمةُ بن سهْلِ بن عمارة ، فلمّا سمّوه الخصىّ ، قالوا لعلقمةَ بن عبْدة : الفحل . وعلقمةُ الخصىّ الذى يقول :

فلن يَعْدَمَ الباقون قبراً لجثتى(٢) ولن يعدَم الميراثَ منّى المواليا
حِراصٌ على ما كنت أجمعُ قَبْلَهم هَنيئاً لهمْ جَمْعِى وما كنتُ واليا
وَدُلِّيتُ فى زَوْراءَ ثُمَّتَ أعتقوا لشأنِهِمُ قَدْ أَفْرَدُونِى وشأنِيا
فأصبح مالى من طريفٍ وتالدٍ لغيرى ، وكانَ المالُ بالأمسِ ماليا

وكما عرَض للدَّلَال ونَومَةِ الضُّحى ، مِن خصاءِ عُثمانَ بن حيّان [المرّىّ] والى المدينة لهما ، بكتابِ هشام بن عبد الملك .

(أثر تحريف كتاب هشام بن عبد الملك)

فمِنْ بنى مرْوان من يدَّعى أنَّ عاملَ المدينةِ صحَّف ، لأنه رأى فى الكتاب : أَحصِ مَنْ قِبلَكَ مِنَ المخنَّثين فقرأها : إِخْصِ مَنْ قِبلَكَ من

(١) فى ط « الجزيل » وصوابه « الجديل » كما فى ل والقاموس، قال : فحل للنعمان ابن المنذر .. وأما داعر فهو فحل منجب . وجنب البعير : قاده إلى جنبه .

(٢) تختلف الروايات اختلافا كثيرا فى هذا الشطر . انظر الخزانة ٢ : ١٧٦ — ١٨٠ وذيل أمالى القالى ١٣٥ والمفضليات ٣١٥ والعقد ٣ : ٣٥٧ حيث توجد قصيدة هذه الأبيات ، منسوبة إلى مالك بن الريب .

المخنَّثِين . وذكر الهيثمُ عن الكاتب الذى تولّى قراءة ذلك الكتاب ، أنّه قال : وكيف يقولون ذلك !؟ ولقد كانت الخاء معجمةً بنقطةٍ، كأنها سُهيل [أو تمْرةٌ صيحانية[١]] فقال اليقطرى[٢] : ما وجْهُ كتابِ هشامٍ فى إحصاء عدَد المخنَّثين ؟ وهذا لامعنى له ، وما كان الكتابُ إلاّ بالخاء المعجمة دون الحاء المهملة . وذُكِر عن مشايخَ من أهل المدينة أنهم حكَوا عنهما أنهماقالا : الآنَ صِرنا نساءً بالحقّ !! كأنَّ الأمرَ لو كان إليهما لاختارَا أن يكونا امرأتين ! قال : وذُكِر أنهما خرجا بالخَصلتين من الخصاء والتخنيث ، من فُتورِ الكلام ولِين المفاصل والعظام ، ومن التفكُّك والتثنِّى ، إلى مقدارٍ لم يرَوا أحداً بلغه ، لامن مخنَّثات النساء ، ولا من مؤنَّثى الرجال .

(أبو همام السنوط)

وكما عرَض لأبى همام السَّنُوط[٣] مِن امتلاخ اللُّخْم مذاكيرَه وخصيَيه[٤] ، أصابه ذلك فى البحر فى بعضِ المغازى[٥] ، فسقطت لحيتُه ، ولقِّب بالسَّنُوط ، وخَرَج لذلك نَهِماً وشَرِهاً .

---

(١) الصيحانى : ضرب من التمر أسود صلب الممضغة . وسمى صيحانيا لأن صيحان اسم كبش كان ربط إلى نخلة بالمدينة فأثمرت تمرا فنسب إلى صيحان .

(٢) فى ط ، ل ، س « البقطرى » بالباء وإنما هو بالياء كما فى مواضع متعددة من الحيوان والبيان .

(٣) ذكره الجاحظ فى البخلاء ١٧٦ وجاء محرفا بالمسوط ، والسنوط بالفتح والتخفيف : من لا لحية له أصلا ، أو الخفيف العارضين .

(٤) فى ط «من امتلاخ لحم مذاكيره وخصييه» وهو تحريف صوابه فى ل وجاء فى القاموس : اللخم بالضم : سمك بحرى . وقد ضبط فى معجم المعلوف ص ٢٢٥ بالفتح سهوا ، قال : وهو يعرف بالقرش فى سواحل البحر الأحمر .

(٥) فى ل « أصابه ذلك فى البحر سمكة فى بعض المغازى » .

وقال ذات يوم : لو كان النخلُ بعضُه لا يحمل إلاَّ الرُّطَب ، وبعضُه لايحمل إلاَّ التمرَ ، وبعضُه لا يحملُ إلاَّ المجزَّع[١] ، وبعضُه لايحمل إلاَّ البُسرَ، وبعضُه لايحمل إلا الخلاَل ، وكنَّا متى تناولْنا من الشِّمْراخِ بُسْرَةً ، خلقَ ٥٦
اللهُ مكانها بُسرتين ، لَمَا كان بذلك بأس ! ثم قال : أستغفرُ الله ! لو كنتُ تمنَّيتُ أن يكونَ بدل نواةِ التمر زُبدة كان أصوَب ! !

ومنه ما يعرِض من جهة الأوجاع التى تعرِض للمذاكير والخصيتين ، حتى ربما امتلخَهما طبيبٌ ، وربَّما قطَع إحداهما ، وربما سقطتا جميعًا من تلقاءِ أنفسهما .

(نسل منزوع البيضة اليسرى)

والعوامُّ يزعمون أنَّ الولدَ إنَّما يكونُ من البيضة اليسرى[٢] ، وقد زعمَ ناسٌ من أهل سليمان بن عليٍّ ومواليهم ، أنَّ ولدَ داود بن جعفر الخطيب المعتزِليّ ، إنَّما وُلِدَ له بعد أن نُزِعت بيضتُه اليُسرى ، لأمرٍ كانَ عرضَ له .

والخصيُّ الطيَّان ، الذى كان فى مسجدِ أُبن رَغبان[٣] ، وُلِدَ له غلام ، وكان ليس له إلاَّ البيضةُ اليُمنى ، فجاء أشبهَ به من الذُّباب بالذُّباب ، والغرابِ بالغرابِ ، ولوأبصرَه أجهلُ خلقِ الله تعالى بفِراسةٍ ، وأبعدُهم من قِيافةٍ ، ومن مخالَطةِ النخَّاسين ، أومن مجالسةِ الأعرابِ ، لعلِمَ أنَّه سُلالتُه

(١) فى ط ، س « المخزع » و ل « المنصف » وصواب الأول « المجزع » وهو البسر أرطب إلى نصفه .
(٢) لهذا كلام فى البيان ١ : ٢١٥ .
(٣) فى ط « ابن زغبان » بالزاى وأبدلته بما فى ل وما فى معجم البلدان ، وقال ابن قتيبة فى المعارف ٢٦٦ « ابن رغبان الذى ينسب إليه المسجد ببغداد ، هو مولى حبيب بن مسلمة . وكان حبيب عظيم القدر، على الولايات زمن عثمان ومعاوية » .

وخلاصـــته ، لايحتاج فيه إلى مجزّز المُدْلجِيّ(١) ، ولا إلى أبن كُرَيز(٢) الخُزَاعى .

(خصاء الروم)

ومن أهل الملل ، من يَخْصى ابنَه ويقفُه على بيت العبادَة ، ويجعله سادنًا ، كصنيع الروم ، إلا أنهم لا يُحدثون فى القضيب حدثاً ، ولا يتعرضون إلا للأنثيين ، كأنهم إنما كرهوا لأولادهم إحبالَ نسائهم ورواهبهم(٣) فقط !! فأما قضاء الوَطَر وبلوغُ اللذة ، فقد زعموا أنهم يبلغُون من ذلك مبلغا لايبلغُه الفحل ، كأنهم يزعُمون أنه يستقصى جميعَ ماعِندها ويستَجْلبه ، لفَرْط قوّته على المطاولة .

(الروم أول من ابتدع الخصاء)

وكلُّ خصاء فى الدنيا فإنما أصلُه من قِبَل الروم ، ومن العجب أنهم نصارى ، وهم يدَّعون مِن الرأفة والرحمة ، ورقَّة القلبِ والـكَبِد ، ما لايدَّعيه أحد من جميع الأصناف ، وحسبك بالخِصاء مُثْلةً ! وحسبك بصنيع الخاصى قسوة ! ولا جرَم أنهم بعثوا على أنفسهم من الخِصيان ، من طَلَب الطوائل وتذكُّر الأحقاد ، مالم يظنُّوه عندهم ، ولا خافوه من قِبَلِهم ،

(١) فى ط «محرز» وإنما هو «مجزز» كما فى ل والقاموس والإصابة . وهو صحابى له ذكر فى الصحيحين .. وكان الرجل قائفا .

(٢) فى ل «كرز» .

(٣) فى ط «ودواهيهم» وتصحيحه من ل ، والرواهب جمع راهبة .

فلاهم يَنزِعون ، ولا الخِصيانُ يَنْـكِلون ، لأن الرِّمايةَ فيهم فاشية ، وإن كان الخصيُّ أسواراً بلغ منهم(١) ، وإن كان جمع مع الرماية الثَّرْوة ، واتخذ بطَرَسُوس ، وأذَنَة ، الضِّياعَ واصطنعَ الرجال ، واتخذ العُقَدَ المُغِلَّة(٢) فضرَّةُ كلِّ واحدٍ منهم عليهم ، تَـفِي بمَضَرَّةِ قائدٍ ضخم . ولم ترَ عَداوةً قطُّ تجوزُ مقدارَ عداوتهم لهم ، وهذا يدلُّ على مقدار فرطِ الرغبة فى النساء ،
وعلى شهوةٍ شديدةٍ للمباضَعة ، وعلى أنهم قد عرفوا مقدار مافقدوا ، وهذه ٥٧
خصلةٌ كريمة مع طلب المثوبة ، وحسن الأحدوثة .

(خصاء الصابئة)

فأما الصابئون ، فإنَّ العابدَ منهم ربَّما خصى نفْسَه ، فهو فى هذا الموضع قد تقدم الروميَّ، فيما أظهرَ من حُسْنِ النيَّة ، وانتحل من الديانةِ والعبادة ، بخصاء الولد التامِّ(٣) ، وبإدخاله النقصَ على النَّسلِ، كما فَعَل ذلك أبو المبارك الصابى . وما زال خلفاؤنا وملوكنا يبعثون إليه ، ويسمعون منه ، ويَسمَرَ عندَهم ، للَّذى يجدونه عنده من الفهم والإفهام ، وطُرَف الأخبار ، ونوادر الـكتب ، وكان قد أربى على المـائة ، ولم أسمعْ قطُّ بأغزَلَ منه ، وإنْ كان يصدُق عن نفسه ، فما فى الأرض أزنى منه .

---

(١) ط « وإن كان الخصى أسود أبلغ منهم » وتصحيحه من ل . والأسوار بالضم وبالكسر : قائد الفرس والجيد الرمى بالسهام .

(٢) فى ط « واتخذ العقد والعبيد المغلة » والعقد جمع عقدة وهى الضيعة .

(٣) فى ط « بخصلة الولد التام » .

(حديث أبي المبارك الصابي)

حدَّثني محمد بن عبّاد قال : سمعتهُ يقول ـ وجرى ذِكْرُ النساء ومحلّهن من قلوبِ الرجال ، حتّى زعموا أنَّ الرجلَ كلّما كانَ عليهن أحرصَ كان ذلك أدلَّ على تمامِ الفُحولة فيه ، وكان أذهبَ له في الناحية التي هي في خلقتِه ومعناهُ وطبعِه ، إذ كان قد جُعِل رجلاً ولم يُجْعل امرأة ـ قال ابن عبّاد ، فقال لنا : ألستمْ تعلمون أنّي قد أربَيتُ على المائة ، فينبغي لمن كان كذلك أن يكون وهْنُ الكِبَرِ، ونفادُ الذِّكْرِ(١) ، وموتُ الشهوة ، وانقطاعُ ينبُوعِ النطْفة ، قد أماتَ حنينه إلى النساء وتفكيرَه في الغزَل، قال : قلنا : صَدقتَ . قال : وينبغي أن يكون مَن عوَّد نفسه تركَهنَّ مدداً، وتخلى عنهن سنِينَ ودَهراً(٢) ، أن تكون العادة وتمرينُ الطبيعة ، وتوطينُ النفسِ ، قد حطَّ من ثقل منازعة الشهوة ، ودواعي الباءة ، وقد علمتمْ أنَّ العادَةَ [التي] هي الطبيعة الثانية ، قد تستحكم ببعض عمدِ هَجْرٍ لملامسةِ النساء(٣) . قال : قلنا : صدقت . قال : وينبغي أن يكونَ مَن لم يذُقْ طعمَ الخَلوة بهنَّ ولم يجالسهنَّ متبذلات ، ولم يسمَعْ حديثَهنَّ وخَلاَبتهنَّ للقلوب ، واستمالتهنَّ للأهواء ، ولم يَرَهُنَّ منكشفاتٍ عارياتٍ ، إذا تقدم له ذلك معَ طولِ التَّرك ، ألا يكون بقي معه من دواعيهن شيء ، قال ، قلنا : صدقت . قال : وينبغي أن يكون لِمَنْ قد علِم أنه مجبوبٌ ، وأنَّ سببه إلى خِلاطهنَّ محسوم ، أن يكون اليأسُ من أمتن أسبابه إلى الزهد

---

(١) الذكر هنا في معنى التذكار .

(٢) في ل «زهدا» بدل «مددا» وفي ط «منهن» موضع «عنهن» .

(٣) في ل « عمر » موضع « عمد » و «هجراني» موضع «هجر» .

والسلوة ، وإلى موت الخواطر . قال : قلنا : صدقت . قال : وينبغي أن يكونَ من دعاةُ الزُّهدِ فى الدنيا ، وفيما يحتويه النساء مع جمالهنّ وفتنةِ النُّسَّاكِ بهنّ ، واتخاذِ الأنبياء لهنّ ، إلى أن خَصَى نفسه ، ولم يُكْرِهْه عليه أبٌ ولاعدوٌّ ، ولاسباه سابٍ ، أن يكون مقدارُ ذلك الزهدِ هو المقدار الذى يُميت الذِّكْرَ لهنّ ، ويُسَرِّى عنه ألم فقد وُجودِهنّ[1] ، وينبغى لمن ٥٨
كان فى إمكانه أن ينشئ العزم[2] ويختارَ الإرادة التي يصير بها[3] إلى قطع ذلك العضوِ الجامع لكبار اللذات ، وإلى ما فيه من الألم ، ومع مافيه من الخطر ، وإلى مافيه من المُثْلة والنقْصِ الداخل على الخِلقة ، أن تكون الوساوس فى هذا الباب لا تعرُوه ، والدواعى لا تقْروه[4] . قال : قلنا : صدقت . قال : وينبغى لَمَنْ سَخَتْ نفسه عن السَّكَن وعن الوَلد ، وعن أن يكون مذكوراً بالعقب الصالح ، أن يكون قد نسى هذا البابَ ، إن كان قد مرّ منه على ذِكْر . هــذا وأنتم تعلمونَ أنِّى سَمَلْتُ عينى يومَ خَصَيت نفسى ، فقد نسيتُ كيفية الصُّوَرِ وكيف تروع ، وجَهِلت المراد منها ، وكيف تُراد ، أفما كان[5] [من كان كذلك] حَرِيًّا أن تكون نفسُه ساهيةً لاهيةً مشغولةً بالباب الذى أُحتمل له هــذه المكاره . قال : قلنا : صدقت . قال : أوَ لوْ لم أكنْ هَرِمًا[6] ، ولم يكن هاهنا طولُ اجتنابٍ ، وكانت الآلةُ قائمةً أليس فى[7] أنّى لم أذُقْ حيواناً منذُ ثمانينَ

---

(١) فى ل « ويستوى عندهن فقدهن ووجودهن » .

(٢) فى ط « وينبغى لمن كان فى مكانه ألا ينسى العزم » .

(٣) فى ط « يصيب بها » .

(٤) قراه يقروه : قصده . وفى الأصل « تطروه » .

(٥) فى ط « فما كان ذلك » وتصحيحه من ل .

(٦) فى الأصل « أوليس لولم أكن هرما » .

(٧) فى الأصل « ألا » .

سنة ولم تمتلِ عُروقى[١] من الشرابِ مخافةَ الزيادة فى الشهوة ، والنقصانِ من العزم ـ أليسَ[٢] فى ذلك ما يقطع الدواعى ، ويُسْكِن الحركة إن هاجت ؟ ! قال : قلنا : صدقت . قال : فإنّى بعدَ جميعِ ما وصفتُ لكم ، لأسْمَعُ نغْمةَ المرأةِ فأظنُّ مرّةً أنّ كَبِدى قد ذابت ، وأظنُّ مرّةً أنّها قد انصدعت ، وأظنُّ مرّةً أنّ عقلى قد اختُلِس ، وربّما اضطرَب فؤادِى عند ضَحِك إحداهُنّ ، حتّى أظنُّ أنّه قد خرجَ من فمى ، فكيف ألومُ عليهنّ غيرى ! ؟

فإن كان ـ حفظك الله ـ تعالى قد صدَق على نفسه فى تلك الحال ، بعد أن اجتمعت فيه هذه الخصال ، فما ظنُّك بهذا قبل هذا الوقت بنحو ستّين سنةً أوْ سبعين سنةً ! ؟ وما ظنُّك به قبلَ الخصاء بساعة ؟ ! وليس فى الاستطاعةِ ولا فى صفةِ الإمكان ، أن يحتَجِز عن إرادة النساء ، ومعَه من الحاجةِ إليهنّ والشهوةِ لهنّ هذا المقدارُ ! الله تعالى أرحمُ بخلْقِه ، وأعدَلُ على عباده ، من أن يكلّفَهم هِجرانَ شىء ، قد وصلَه بقلوبهم هذا الوصلَ ، وأكّدَه هذا التأكيد .

وقد خصى نفسَه من الصابئين رجالٌ ، قد عرَفناهم بأسمائهم وأنسابهم ، وصفاتهم وأحاديثهم . وفى الذى ذكرنا كفايةٌ إن شاء الله تعالى .

(استئذان عثمان بن مظعون فى الخصاء)

وقد ذُكِر أنّ عثمانَ بن مَظْعونٍ ، اُسْتأْذَنَ النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم فى السياحة فقال : « سِيَاحَةُ أُمَّتِى الجَمَاعَة » واستأذَنَه فى الخصاء فقال :

(١) فى ط «تشمل» وما أثبته من ل .
(٢) فى الأصل « لكان » .

« خِصاء أُمّتى الصوم ، والصوم وِجاء » فهذا خِصاء الديانة .

(خصاء الجلب وقسوته) ٥٩

فأمّا من خصى الجَلَب(١) على جهة التجارة ، فإنه يَجُبُّ القضيبَ ، ويمتلخ الأنثيين ، إلاّ إن تقلّصت إحداهما من فَرْط الفَزَع(٢) ، فتصيرُ إلى موضعٍ لا يمكن ردُّها إلاّ بعلاج طويل ، فالخاصى عند ذلك ظلمٌ لا يفى به ظُلم ، وظلم يُرْبى على كلّ ظلم(٣) ، لأنّه عندَ ذلك لا يحفِل بفوت المتقلص(٤) ، ويقطع ماظهر له ؛ فإن برئَ مجبوبَ القضيب أو ذَا بيضةٍ واحدة ، فقد تركه لا امرأةً ولا رجُلا ولا خَصِيًّا ، وهو حينئذٍ مِمّن تخرُج لحيتُه ، ومِمّن لا يدعه الناسُ فى دُورهم ومواضعِ الخُصوص من بيوتهم ، فلا يكونُ مع الخصيان مقرَّبًا ومكرّما ، وخَصِيبَ العَيش منعّما ، ولا هو إذا رُمِى به فى الفحول ، كان له ما للفحول من لَذَّةِ غِشيان النساء ، ومِن لذّةِ النسل والتمتُّعِ بشمّ الأولاد ، فلم يزَل عندَ الفحولِ مستضعَفاً محتقراً ، وعند الخِصيان مجرحا مطرحا(٥) ، فهو أسوأُ حالا من السَّدِمِ المعنّى(٦) فلا أعلم قَتْلَهُ — إذا كان

(١) الجلب : ماجلب من خيل وغيرها .
(٢) ط « الفرع » والصواب مافى ل .
(٣) ل « وظلم يربى على الظلم الأول وعلى كل ظلم » .
(٤) ط « بموت المقلص » وصوابه فى ل .
(٥) ل « محرجا مطردا » .
(٦) اللسان : السدم : الذى يرغب عن فحلته ، فيحال بينه وبين ألافه ، ويقيد إذا هاج ، فيرعى حوالى الدار ، وإن صال جعل له حجام يمنعه عن فتح فمه . قال الوليد بن عقبة :

قطعت الدهر كالسدم المعنى   تهدر فى دمشق وماتريم

القتلُ قِتلةً صريحة[(١)] مُرِيحة — إلاّ أصغرَ عند الله تعالى ، وأسهلَ على هذا المظلوم من طول التعذيب ، والله تعالى بالمِرصاد .

(خصاء البهائم)

وأمّا خصاء البهائم ، فمنه الوِجاء ، وهو أن يشدَّ عصَبُ مجامع الخُصيةِ من أصل القضيب ، حتّى إذا نَدَرت البيضة ، وجَحَظت الخُصية ، وجأها حتى يرضّها ، فهي عند ذلك تذْبل وتنخسف ، وتذوى وتستَدِقّ ، حتي تذهبَ قُواها ، وتنسدَّ المجارى إليها ، ويسرىَ ذلك الفسادُ إلى موضع تربيةِ النُّطْفة ، فيمنعَها من أن تكثُر أو تعذب أو تخثُر .

ومنهامايلون بالشدِّ والعصْب ، وشدّةِ التحزيق ، والعَقْدِ بالخيط الشديد الوَتير الشديد الفتل ، فإذا تركه على ذلك عمِل فيه وحزَّ ، أو أكَلَّ ومنعَه من أن يجرىَ إليه الغذاء ، فلا يلبثُ أن ينقطعَ ويسقط .

ومنه الامتلاخ ، وهو امتلاخ البيضتين .

(خصاء الناس)

فأمّا خصاء الناس ، فإنّ للخاصى حديدةً مرهَفَةً مُحْماة ، وهى الحاسمة ، وهي القاطعة . قال أبو زيد [يقال] خصَيت الدابة أخصِيها خِصاء ، ووجأتها أجَؤُها وِجاء . ويقال ، برئتُ إليك من الخِصاء أوالوجاء ، ولايقال ذلك إلاّ لمـا كان قريبَ العهد لم يبرأ منه ، فاذا برئَ لم يُقَل له[(٢)] .

---

(١) ل « سريحة » .

(٢) في الأصل « لم يقله » وهو خطأ فى الرسم أوجبه تكرار اللام والوجه ما كتبت .

وأما الخِصاء فهو أنْ يسلّ الخُصيتين ، والوجاء أن توجَأ العروقُ والخصيتان على حالهما . والمعصوب من التيوس الذى تُعصَب خُصيتاه حتى تسقطا . والواحد من الخصيان خَصِيٌّ ومخصىّ . ويقال ، ملست الخصيتَين أملُسهما ملْسا ، ومتَنْتُهما أمتُنهما متْنا ، وذلك أن تشقّ عنهما الصَّفَن فتسلَّهما بعروقهما . والصَّفَن : جلدة الخُصيتين .

والخِصاء فى أَحداثِ البهائم ، وفى الغنم خاصةً ، يدع اللَّحمَ رَخْصاً وندِيًّا عذبا ؛ فإنْ خَصَاه بعد الكبر ، لم يقو خِصاؤُه — بعدَ استحكامِ القوّة — على قلْب طباعه . وأجود الخِصاء ما كانَ فى الصغَر ، وهو يسمى بالفارسية ثر بخت[١] ، يُعْنَى بذلك أنّه خُصِىَ رطبا . والخَصىُّ من فحولها أحملُ الشحم ، لعدم الهيْج والنَّعْظ ، وخروج قواه مع ماء الفِحْلة[٢] ؛ وكثرةُ السِّفاد تورثُ الضَّعْفَ والهُزالَ فى جميعِ الحيوان . وقد ذُكِر لمُعاوية كثرة الجِماع فقال : ما اشتهر به أحدٌ إلاّ رأيت ذلك فى مُنّته[٣] .

والديك يُخصى ليَرطب لحمُهُ ويطيب ويحمِل الشحم .

(خصاء العرب لفحولة الإبل)

وكانت العربُ تَخصِى فُحُولَةَ الإبل ، لئلاَّ يأكلَ بعضُها بعضاً ، وتستبقِى ما كانَ أجودَ ضِرابًا ، وأكثرَ نَسْلا ، وكلّ ما كان مِثناثا[٤]

---

(١) ط « بربخت » .

(٢) ط « مما يجامع الفحلة » وهو تحريف .

(٣) ط « متنه » . والمنة : القوة .

(٤) ط « ماسا » وهو تحريف صوابه فى ل .

وكان شابًّا ولم يكن مِذكارا ، وهم يسمُّون الإذكار المحْقَ الخَفِيّ[١] ، وما كان منها عيَايَاء طبَاقاء ، فمنها مايجعل السَّدِمَ المعَنَّى . وإذا كان الفحلُ لايُتَّخَذ للضِّراب ، شدُّوا ثِيلَه شدًّا شديداً ، وتركوه يهدِر ويُقبقِب فى الهَجْمة ، ولايصل إليهنّ وإن أردنَه ، فإذا طلبْنَ الفحلَ جِيء لهنّ بفحلٍ قَعْسرىٍّ[٢] ويقولون « لَقْوَةٌ لاقَتْ قَبِيسا ! » والقَبِيس من الجِمال: السريع الإلقاح ، واللَّقوة : السريعة القَبولِ لماء الفحلِ .

وشكت امرأةٌ زوجَها ، وأخبرتْ عن جهلِه بإتيان النساء ، وعِيِّه وعجْزِه ، وأنَّه إذا سقط عليها أطبَقَ صدرَه — والنساء يكرهْنَ وقُوعَ صدورِ الرجال على صدورهنّ — فقالت : زَوْجِى عيَايَاء طبَاقاء وكلُّ داء لَهُ داء !! . وقال الشاعر :

طَباقَاء لم يشهَدْ خُصومًا ولم يَقُدْ ... رِكابًا إلى أكوارِها حينَ تعكف[٣]

(خصاء العرب للخيل)

وكانوا يخْصُون الخيل لشبيهٍ بذلك[٤] ، ولعلَّة[٥] صهيلها ليلةَ البيَات ، وإذا أكمنوا الكُمَناء وكانوا هُرَّابا .

---

(١) ط « وهم يسمون المذكار المحق الخفى » وهو تحريف مافى ل .

(٢) القعسرى : الضخم الشديد .

(٣) ط « لم يكن » و « حين تعلف » وفى ل « لم ينخ » و « حين تعكف » وأصلحت البيت كما ترى من ل والبيان ١ : ٨٨ .

(٤) ط « للتشبه بذلك » .

(٥) ل « ولقلة » .

(القول فى كلمة خنذيذ)

ويزعم من لاعلم له ، أنّ الخنذيذ[١] فى الخيل هو الخصىّ . وكيف يكون ذلك كما قال ، مع قول خُفَاف بن نَدْبة :

وخناذيذ خصيةً وفُحُولا[٢]

وقال بشرُ بنُ أبى خَازم :

وخنذيذٍ تَرَى الغُرْمُولَ منهُ كَطَىِّ البُرْدِ يَطويه التِّجَار[٣]

وليس هذا أرادَ بِشْر ، وإنَّما أراد زمانَ الغزو ، والحالَ التى يعترى الخيلَ فيها هذا المعنى ، كما قال جد الأُحيمر[٤] :

لا لا أعقُّ ولا أحُو ب ولا أُغِيرُ على مُضَرْ

لكنَّما غزوِى إذا ضجّ المطىُّ من الدَّبَرْ ٦١

وإنَّما فخَر بالغزْوِ فى ذلك الزمان .

وأما الخنذيذ فهو الكريم التامُّ ، وربَّما وصفوا به الرجل ، وقال كثير :

على كل خنذيذ الضُّحَى متمطِّرٍ وخَيْفانةٍ قد هذَّب الجرى آلَهَا[٥]

وقال القطامى :

(١) يتكرر فى ط رسم هذه الكلمة ومشابهاتها برسم «خنزير» و «خنازير» وهو تصحيف أصلحته من ل ومن اللسان ، ومن البيان ٢٣:٢ — ٢٤ وأدب الكاتب ١٦٣ والاقتضاب ٣٦٢ وصحاح الجوهرى .

(٢) البيت منسوب فى البيان ٢ : ٢٤ إلى البرجمى ، وهو فى اللسان خفاف بن عبد قيس من البراجم ، وفى الصحاح خفاف بن قيس ، فيكون غير خفاف بن ندبة ، إذ أن ابن ندبة من بنى الشريد ، وهو ابن عم الخنساء ، وليس بنو الشريد من البراجم . وصدر البيت المذكور هو كما فى اللسان : وبرازين كأبيات وأتنا

(٣) البيت فى البيان ٢ : ٢٤ .

(٤) فى الأصل « جد الأحيمز » وتصحيحه من بيان الجاحظ ٣ : ١٢٠ والأحيمر السعدى شاعر كان من لصوص العرب مثل عبيد بن أيوب العنبرى . وله ترجمة فى الشعراء لابن قتيبة . وأما جده فهو الحارث بن يزيد كما فى البيان .

(٥) المتمطر : السريع . وهى فى الأصل « متمطرا » وليس بشىء . وآلها : شخصها

[على] كلّ خنذيذ السراة مقلَّصُ   تخنَّثَ منـــه لحمُهُ المتكاوسُ(١)

ومن الدليل على أنّهم ربما جعَلوا الرجلَ إذا ما مدحوه خنذيذا ، قولُ بعضِ(٢) القيسيين ، مِن قيسِ بنِ ثعلبة :

دعوتُ بنى سعدٍ إلىَّ فشمَّرتْ   خناذيذُ مِن سعدٍ طِوالُ السواعدِ

(عبد الله بن الحارث وعبد الملك بن مروان)

وقال عبدُ الله بن الحارث ، وكتب بها إلى عبدِ الملكِ بن مرْوان ، حين فارقَ مُصعَبا :

بأىِّ بلاءٍ أم بأيَّةِ عِـــــلَّةٍ   يُقدَّم قبلى مُســـــلِمٌ والمهلَّبُ

وَيُدعَى ابنُ منجوف أمامى كأنَّه   خَصِىٌّ دنا للماءِ من غير مَشْرَبِ(٣)

فقلت ليونس : أقوى ! فقال : الإقواءُ أحسنُ من هذا ! قال : فلمَّا أخذتْه قيسٌ نصبُوه ، فجعَلوا يرمُونه بالنبل ويقولون: أذاتَ مغازل(٤) تَرَى؟! [يريدون بيت ابن الحرّ(٥)] :

ألم تر قيساً قيسَ عَيلانَ برقعت   لِحاهاَ وباعت نبلهـــــا بالمغازل

فلما أُتى مُصعبٌ برأسِه ، قال لسُويد : يأبا المِنهال ! كيف ترى ؟ قال : أيُّها الأمير ! هو واللهِ الذى أتَى المــاءَ من غير مَشْرَب .

---

(١) الزيادة من ل .

(٢) ط « القسيسين » وهو تحريف . والبيت فى البيان ٢ : ٢٤ منســوبا إلى العبسى ، فصوابه القيسى .

(٣) ط « ويدعى ابن منجوت » والصــواب « ابن منجوف » واسمه ســويد ، وله أخبار فى البيان والأغانى .

(٤) ط « منازل » بالنون .

(٥) هو عبيد الله بن الحر الجعفى، قائد من قواد العرب ،كان من أصحاب عثمان ، وبعد مقتله انحاز إلى معاوية ، وشهد صفين . وكان له منازعات مع مصعب بن الزبير ، ولمــا خاف من الأسر ، ألقى بنفسه فى الفرات ، فمــات غريقا سنة ٦٨ .

وقال أعشَى هَمْدان :

وأبو بُرَيذِعةَ الذى حُدِّثتَهُ فينا أذَلُّ مِن الخَصىِّ الديزج (١)

وتعرِض للخصىِّ سُرعةُ الدَّمعة ، وذلك مِن عادةِ طبائِع الصبيان ثم النِّساءِ ، فإنَّه ليس بعدَ الصبيان أغزَر دَمعةً من النساء ، وكذلك بالشيوخ الهرمين .

(أخلاق الخصى)

ويعرِض للخصىِّ العبثُ واللَّعِبُ بالطير ، وما أشبهَ ذلك من أخلاق النساء ، وهو من أخلاق الصبيانِ أيضاً .

ويعرِض له الشَّرَهُ عندَ الطعام ، والبخلُ عليه ، والشحُّ العامُّ فى كلِّ شىء ، وذلك مِن أخلاق الصبيان .

وقال الشاعر :

كأنَّ أبا رومان قيساً إذا غدَا خَصِىُّ بَراذِينٍ يُقَاد رَهيصُ

لهمِعْدَةٌ لايشتكِي الدهرَ ضَعْفهَا وَحنجرةٌ بالدورقين قَموصُ

ويعرِض للخصىِّ سرعةُ الغضبِ والرضا ، وذلك من أخلاق الصِّبْيان ٦٢
والنِّساء . ويعرِض له حبُّ النميمةِ ، وضيقُ الصدرِ بمـا أُودِع من السرّ ، وذلك من أخلاق الصبيان والنساء . ويعرِض له دون أخيه لأُمِّه وأبيه ، ودون ابنِ عمِّه وجميعِ رهطِه ، البصَرُ بالرَّفْع والوضْـع ، والـكنسِ والرشِّ ، والطَّرحِ والبسْطِ ، والصبرُ على الخدمة ، وذلك يعرِض للنساء .

(١) ط « الريذج » والصواب ما أثبت من ل . والديزج : قال ابن قتيبة فى أدب الـكاتب ١٠٥ « الأخضر هو فى كلام العجم الديزج » وقال الاسكافى فى مبادىء اللغة ١٢٣ « والأخضر الأطحم المسمى بالفارسية الديزج » .

ويعرض له الصبرُ على الرُّكوب ، والقوّةُ على كثرةِ الركْض حتَّى يجاوزَ في ذلك رجالَ الأتراكِ وفُرسانَ الخوارِج ، ومتى دفَع إليه مَولاه دابّتَه ودخل إلى الصلاة ، أو ليغتسل في الحمام ، أو ليعودَ مريضاً ، لم يترُكْ أن يُجرِيَ تلك الدابّةَ ذاهباً وجائياً ، إلى رجوعِ مولاه إليه .

ويعرض له حبُّ الرمي بالنُّشَّاب ، لِلَّذِي يدور في نفسِه من حبِّ غزوِ الرُّوم .

ويعرِض له حبُّ أن تَمْلكه الملوك ، على أَلاَّ تقيمَ له إلاَّ القوتَ ، ويكونُ ذلك أحبَّ إليه من أنْ تملكَه السُّوقةُ ، و إن ألحقتْه بعيشِ الملوك ! !

ومن العجب أنَّهم مع خروجِهم من شِطْر طبائع الرجال ، إلى طبائِع النساء ، لايعرِض لهم التخنيث ؛ وقد رأيت غيرَ واحدٍ من الأعرابِ مخنَّثاً متفكِّكا ، ومؤنثا يَسِيلُ سيلاً ، ورأيتُ عدَّةَ مجانينَ مخنَّثين ، ورأيتُ ذلك في الزّنجِ الأقْحاح ، وقد خبَّرني مَن رأى كُرديًّا مخنثاً ، ولم أَر خصيًّا قط مخنَّثاً[(١)] ، ولا سمعتُ به ؛ ولا أدري كيف ذلك ولا أعرف المانعَ منه . ولو كان الأمرُ في ذلك إلى ظاهرِ الرأي ، لقَدْ كان ينبغي لهم أن يكونَ ذلك فيهم عامًّا[(٢)] !

وممَّا يَزيدني في التعجُّب من هذا البابِ ، كثرةُ مايعرِض لهم من الحُلاَق[(٣)] ، مع قلَّةِ ما يعرِض لهم من التخنيث ، مع مفارقتِهم لشطرِ معاني الرجال إلى شبه النساء .

ويزعم كثير من الشيوخ المعمَّرين ، وأهلِ التجربة المميِّزين ، أنّهم اختبروا أعمارَ ضُروبِ الناس ، فوجدوا طُولَ[(٤)] الأعمارِ في الخِصيان أعمَّ

---

(١) هذه الجملة ساقطة من ل .

(٢) في الأصل « ولكن كان الأمر ... ولقد ... الخ » وقد قومت العبارة بما ترى

(٣) الحلاق : أن يفسد متاعه ، فينعكس ميله الجنسي .

(٤) ط « أطول » وتصحيحه من ل .

منه ، فى مثلِ أعدادهم[١] من جميع أجناس الرجال ، وأنَّهم تفقدوا أعمارَهم وأعمارَ إخوتِهم وبنى أعمامهم الذين لم يُخصَوْا ، فوجَدُوا طول العُمُرِ فى الخِصيانِ أعمَّ ، ولم يجدوا فى عمومِ طوال العمر فيهم واحداً نادراً ، كفلان وفلانٍ من الفحول .

وزعموا أنَّهم لم يجدوا لطول أعمارِهمْ علَّةً إلاَّ عدمَ النِّكاح ، وَقلَّةَ استفراغِ النُّطَف لقُوى أصلابهم .

قالوا : وكذلك لم نجدْ فيما يعايشُ الناسَ فى دُورهم من الخيل ، والإبلِ ، والحمير ، والبقر ، والغنم ، والكِلابِ ، والدَّجاج ، والحمام ، والدِّيَكة ، والعصافير ، أطولَ أعماراً من البغال . ٦٣

وكذلك قالوا : وجدْنا أقلَّها أعماراً العصافيرَ ، وليس ذلك إلاَّ لكثْرةِ سفادِ العصافير وقلّةِ سِفادِ البغال .

وجعل هؤلاء القومُ زيادةَ عمر البغلِ على عمرِ أبوَيه دليلاً على أنَّ قول الناس : لايعيشُ أحدٌ فوق عمرِ أبويه ، خطأٌ ، وأولئك إنما عنوا الناسَ دونَ جميع الحيوان .

(النتاج المركب)

وقالوا : قد وجدنا غُرمولَ البغل أطولَ من غرمول الحمار والفرس والبِرذون ، وهؤلاء أعمامُه وأخواله ، فقد وجدْنا بعض النِّتاجِ المركَّب ، وبعضَ الفروعِ المستخرَجة ، أعظمَ من الأصل ؛ ووجدنا الحمام الرَّاعِبى[٢] أعظمَ من الوَرَشان الذى هو أبوه ، ومن الحمامةِ التى هى أمُّه ، ولم نجدْه أخذَ من عمر الوَرَشان شيئاً ، وخرج صوتُه من تقدير أصواتهما ، كما خرج شَحِيج البغْل مِن نهيق الحمار ، وصهيل الفرَس . وخرَج الرَّاعِبى مُسروَلاً ،

---

(١) الأعداد : جمع عد بمعنى الند وزنته ، فالأعداد : الأنداد .

(٢) ط « الزاغبي » والصواب مافى ل . قال فى المجمل : الحمامة الراعبية : ترغب فى صوتها ترعيبا ، وذلك قوة صوتها . تاج العروس .

ولم يكن ذلك فى أبويه ، وخرَج مُثْقَلاً سيِّئَ الهداية ، وللورَشان هداية ، وإن كان دونَ الحمام ، وَجاء أعظمَ جُثَّةً من أبويه ، ومقدارُ النَّفَس مِن ابتداء هَدِيلِهِ إلى منقطَعِه ، أضعافُ مقدارِ هديل أبويه .

وفَوالجُ البُخْتِ إذا ضرَبت فى إناث البُخْت ، لم يخرُج الحُوَارُ إلاّ أدَنَّ[1] قصيرَ العنق ، لا ينال كلأً ولا ماء إلاّ بأنْ يُرْفَعا إليه ، فيصيرُ ـ لمكانِ نُقْصان خلقه ـ جَزورَ لحم ، ولا يكون من اليعمَلات ولا من السابقة ، ولو عالُوه وكفَوه مُؤْنة تكلف[2] المأكولِ والمشروب ، ثم بلَغَ إلى أنْ يَصيرَ جملاً يمكنُه الضِّراب . وكذلك [الأنثى التى هى] الحائل الى أن تصيرَ ناقة ، فلو ألقحها الفحلُ، لجاء ولدُهاأقصرَ عنقا من الفيل ، الذى لولم يجعل اللهُ تعالى له خُرطوما يتناولُ به طعامَه وشرابه ، لمات جُوعا وهُزالا ، وليس كذلك العِرَاب . وإذا ضربت الفوالجُ فى العراب ، جاءت هذه الجوامز[3] والبُخْت الكريمة ، التى تجمع عامّة خصال العراب وخصالِ البُخْت ، فيكونُ مايُخرِج التركيبُ من هذين الجنسين أكرمَ وأفخمَ وأنفس وأثمن ، ومتى ضربت فحولُ العِرَاب فى إناث البُخْت جاءت هذه الإبل البَهْوَنِيَّة[4] [والصرصرانية][5] فتخرج أقبح منظراً من أبويها ، وأشدَّ أسْراً من أبويها [وقال الراجز :

ولا بهونى من الأباعر]

---

(١) ط « أنانا » وهو تصحيف عجيب ، أبدلته بما فى ل .. والدنن محركة : انحناء فى الظهر، ودنوّ وتطامن فى الصدر والعنق . وهو أدن ، وهى دناء .

(٢) ط « تكليف » . (٣) ط « الجواميز » .

(٤) ط « اليهوتية » . ل « اليهونية » وكلاهما تحريف ، وقد جاء فى القاموس « والبهونية من الإبل مابين الكرمانية والعربية » وجاء فى المخصص واللسان « والبهنوى ـ بتقديم النون ـ من الإبل مابين الكرمانية والعربية ، وهو دخيل فى العربية » .

(٥) فى القاموس والمخصص « الصرصرانيات : بين البخاتى والعراب ، أو الفوالج » وفى الأصل « وهى الصرصرانية » وإنما هما ضربان .

وبعد ، فإنّ هذه الشّهْرِيَّة الخُراسانية ، يخرج لها أبدانٌ فوقَ أبدانِ أمّهاتِها وآبائها من الخيل والبراذين ، وتأخذ من عنق الخيل ، ومن وثاجة[1] البراذين ، وليس نِتاجها كنتاج البرذَونِ خالصاً والفرس خالصا .

٦٤ وما أشبهَ قرابةَ الحمارِ بالرَّمَكة والحِجْرِ ، من قرابةِ الجمل الفالج البُخْتِيّ بقرابةِ القَلوص الأعرابيَّة .

(الحمر الوحشية)

ويقال ، إن الحمرَ الوحشيَّة ، بخاصَّةٍ الأخدريَّةَ ، أطولُ الحميرِ أعماراً ، وإنّما هي من نِتَاج الأخدَر ، فرس كانَ لأَرْدَشير بن بابَك صار وحشيّاً[2] ، فحمَى عِدّةَ عاناتٍ فضرب فيها ، فجاء أولادُه منها أعظمَ مِن سائر الحمر وأحسنَ ، وخرجَتْ أعمارُها عن أعمارِ الخيل وسائر الحُمُر — أعني حمر الوحش — فإنّ أعمارَها تزيد على الأهليَّة مِراراً عدَّة .

(عير أبي سيارة)

ولا يعرفون حماراً وحشيًّا عاشَ أكثر وعُمِّر أطولَ من عير أبي سيَّارة عُمَيلة بن أعزل[3] ، فإنهم لا يشكّون أنّه دَفَع عليه بأهلِ الموسم أربعين عاما !! قال الأصمعيّ : لم يكن عيراً وإنما كان أتانا .

---

(١) ط « وشاجة » وإنما هى « وثاجة » كما فى ل . والوثاجة : الاكتناز .

(٢) ط « صار حمارا وحشيا » والصواب ما أبدلت من ل و س .

(٣) ط « غميلة بن أعزل » وإنما هو « عميلة » بالعين كما فى ل والبيان ١ : ٢٠٣ وفيه قال عيسى بن حاضر : لو أراد أبو سيارة عميلة بن أعزل أن يدفع بالموسم =

(لهج ملوك فارس بالصيد)

وزعموا ــ وكذلك هو فى كتبهم ــ أنّ ملوكَ فارسَ، كانت لهجةً بالصيد، إلا أنّ بهرام [جور] هو المشهورُ بذلك فى العوامّ .

وهم يزعمون أنّ فيروز بن قباذ[١] الملك الفارسىّ، ألحّ فى طلبِ حمار أخدرى، وقد ذُكِر له ووُصف، فطاوَله عند طلبه والتماسه، وجدّ فى ذلك فلجَّ به عند طلبه الاعتزام، وأخرجته الحفيظةُ إلى أن آلى ألاّ يأخذَه إلا أسراً، ولا يطاردَه إلا فرداً، فحمل فرَسه عليه[٢]، فحطَّه فى خَبَار[٣]، فجمع جَراميزه وهو على فرسه ووثَب، فإذا هو على ظهره، فقمَص به، فضم فخذيه فحطّم بعض أضلاعه، ثم أقبل به إلى معظمِ الناس، وهم وقوف ينظرون إليه وهو راكبه .

قالوا، وكان الملك منهم إذا أخذ عَيراً أخدريًّا وغيرَ ذلك، فإذا وجدَه فتيا[٤] وسمَه باسمه[٥] وأرَّخ فى وسمِهِ يومَ صيده وخلَّى سبيله، وكان كثيراً إذا ماصاده الملكُ الذى يقوم به بعدَه، سار فيه مثلَه تلك السِّــيرةَ وخلَّى سبيله، فعرَف آخرُهم صنيعَ أوّلِهم، وعرفوا مقدارَ مقاديرِ أعمارها .

= على فرس عربى أو جمل مهرى لفعل، ولـكنه ركب عيرا أربعين عاما، لأنه كان يتأله اهـ . وقد أفاض الثعالبى فى ثمـار القلوب فى الحديث عنه ص ٢٩٥ .

(١) ط « فيروز بن قبار » وتصويبه من ل .

(٢) ط « إلا فردا (اقتداراً لخيار الأرض الرخوة) فحمل عليه » بإقحام الجملة الموضوعة بين قوسين كبيرين، وواضح أنها تعليق لأحـد الـكتاب، حيث فسر الخبار بأنه الأرض الرخوة، وصحفها آخر فجعلها « لخيار » .

(٣) ط « خيار » وصوابه فى ل.

(٤) ط « متينا » .

(٥) ط « وسمه باسم » .

(الحكمة فى تخالف النزعات والميول)

ولولا أنَّ ناساً من كلِّ جيل ، وخصائصَ من كلِّ أمّة ، يلهجون ويَكْلَفون بتعرُّف معانى آخرين لدرستْ ، ولعلَّ كثيراً من هؤلاء يُزْرى على أولئك ، ويعجِّب الناسَ من تفرُّغهم لما لا يجدى ، وتركهم التشاغلَ بما يُجْدِى ، فالذى حبَّب لهذا أن يرصُدَ عمر حِمارٍ أو وَرَشانٍ أو حيَّةٍ أو ضبٍّ ، هو الذى حبَّب إلى الآخَر أن يكون صيَّاداً للأفاعى والحيَّات ، يتتبَّعُها ويطلُبها فى كلِّ وادٍ وموضِع وجبَل للترياقات ، وسخَّرَ هذا ليكون سائسَ الأُسْدِ والفهود والنُّمُور والببور [(١)] ، وتركَ من تِلقاء نفسه أن يكونَ راعىَ غنم !!

والذى فرَّق هذه الأقسامَ ، وسخَّر هذه النفوسَ ، وصَرف هذه العقول لاستخراجِ هذه العلوم من مدافنِها ، وهذه المعانى من مخابِيها ، هو الذى سخَّر بَطْليموسَ مع مُلْكه [(٢)] ، وفلاناً وفلاناً للتفرُّغ للأمور السماويّة ، ولرعايةِ النجوم واختلافِ مَسير الكواكب ، وكلٌّ ميسَّرٌ لِمَا خُلِق له ، لتَتِمَّ النعمة [(٣)] ولتكمُل المعرفة ، وإنما تأبَّى التيسير للمعاصى [(٤)] .

فأمَّا الصناعاتُ فقد تقصُر الأسبابُ بعضَ الناسِ على أن يصير حائكا ، وتقصُر بعضَهم على أن يكون صَيْرَفيًّا ، فهى وإن قصَرتْه على الحِياكةِ ، فلم تقصُرْه على خُلْف المواعيد وعلى إبدال الغزْول ، وعلى تشقيق العملِ دونَ الإحكام والصدق وأداء الأمانة ، ولم تقصر الصيرفىَّ على التطفيف [(٥)] فى

---

(١) فى الأصل « البيور » وإنما هى « الببور » جمع ببر، وللفريق المعلوف باشا كلام جيد فى التعريف بهذا الحيوان ص ٢٤٨ من معجمه .

(٢) يرى الجاحظ — كما يرى بعض المؤرخين — أن بطليموس كان ملكا من ملوك البطالسة اليونانيين ، وللقفطى تحقيق دقيق فى هذا الوهم فى كتابه ص ٦٨ .

(٣) ط « لتتم النعمة » .

(٤) ل « وإنما تأبى التيسير للعاصى » .. والمعتزلة يربئون به تعالى، عن نسبة الشر أصلا

(٥) ل «التقطيف» .

الوزنِ والتغليط فى الحساب ، وعلى دسِّ المموَّه، تعالى الله عزَّ وجلَّ عن ذلك علواً كبيرا .

(خضوع النتاج المركب للطبيعة)

ولو كان أمرُ النِّتاج وما يحدث بالتراكيب ويخرج من التزاويج ، إلى تقدير الرأى وما هو أقربُ إلى الظنِّ ، لكانت الأظْلاف[١] تجرِى مَجْرَى الحوافر والأخفاف . ألا ترى أنَّ قرابة الضأن من الماعز ، كقرابة البُخْت من العراب ، والخيل من الحمير ! !

وسبيل نتائج الظِّلْف على خلافِ ذلك ، لأنَّ التيسَ — على شدَّة غُلمته — لا يعرض للنعجة ، وكذلك الكبشُ والعنز فضلا عن أن يكون بينهما نتاج[٢] لأنه قد يضرِب الجنسُ فى الجنس الذى لا يُلْقِحه ، ولا يكون أُلقاح إلا بعد ضراب .

ويطلب التيسُ للنعجة قليلاً وأقلَّ من القليل ، وكذلك الكبش للعنز ، وأقلَّ من ذلك ألاَّ يتلاقح[٣] ، ولا يمنع ذلك الولد ألبتة[٤] .

وقد تجاسَرَ ناسٌ على توليدِ أبوابٍ من هذا الشكل ، فادَّعوا أموراً ، ولم يحفِلوا بالتقريع والتكذيبِ عند مسألة البرهان !!

(زعم فى الزرافة)

زعموا أنَّ الزرافة خلقٌ مركب من بين الناقة الوحشية و بين البقرة الوحشية

(١) ط « الأخفاف » .
(٢) ط « فيهما نتائج » .
(٣) كذا .
(٤) الكلام من « ويطلب » الخ ساقط من ل .

و بين الذِّيخ وهو ذكر الضباع ؛ وذلك أنهم لمَّا رأوا أنَّ اسمها[١] بالفارسية (أشتر كاو بلنك[٢])، وتأويل «أشتر» بعير ، وتأويل « كاو» بقرة ، وتأويل «بلنك»[٣] الضبع ، لأن الضباعَ عُرْج ، كذلك الذكر والأنثى يكون بهما خُمَاع ، كما عرض للذئب القزَل ـ وكلُّ ذئبٍ أقزَل ـ وكما أنَّ كلَّ غرابٍ يحجِل كما يحجِل المقيَّد من الناس ، وكما أنَّ العصفورَ لا يمشى ، ومشيُه أن يجمَعَ رجليه أبداً معاً فى كلِّ حركةٍ وسكون . وقولهم للزرافة أشتر كاو بلنك[٢] اسم فارسىٌّ ، والفُرس تسمِّى الأشياء بالاشــتقاقات ، كما تقول للنعامة : اشتر مرغ ، وكأنَّهم فى التمديد قالوا : هو طائر وجمل ، فلم نجد هذا الاسمَ أوجبَ أن تكون النعامةُ نِتاجَ ما بين الإبل والطير ، ولـكن القوم لما شبهوها بشيئين متقاربين ، سمَّوها بذينك الشيئين . وهم يسمون الشىء المرَّ الحلو «ترش شيرين» وهو فى التفسير حلو حامض . فجسَر القومُ فوضعوا لتفسير اسم الزرافة حديثاً[٤]، وجعلوا الخِلقةَ ضرْبا من التراكيب ، فقالوا : قد يعرض الذيخ فى تلك البلاد للناقة الوحشية فيسفدها ، فتلقَح بولدٍ يجىء خَلقُه ما بين خلْق الناقةِ والضبع ؛ فإن كان أنثى فقد يعرض[٥] لها الثور الوَحشى فيضربها ، فيصير الولد زرافة ؛ و إن كان ولدُ الناقة ذكراً عرَض للمهاة فألقحها ، فتلد زرافة . فمنهم من حجر ألبتَّةَ أن تكون الزرافة الأنثى تلقَح من الزرافة الذكر ، وزعموا أنَّ كلَّ زرافةٍ فى الأرض ، فإنَّما[٦] هى

(١) ط « أسماءها » وهو تحريف ظاهر .
(٢) ط « اشتركا وبلنك » .
(٣) ط « يلنك » .
(٤) ط « فوضعوا التفسير اسما للزرافة حديثا » .
(٥) ط « فيعرض لها » .
(٦) ط « إنما » .

من النِّتاج الذى ركَّبوا ، وزعموا أنَّ ذلك مشهورٌ فى بلاد الحَبَشة ، وأقاصى اليمن ، وقال آخرون : ليس كلُّ خلقٍ مركَّب لا ينسِل ولا يبقَى نجلُه ولا يتلاقَح نسله ، على ما حكينا من شأن الورشان والرّاعبي[١] . وهؤلاء وما أشبههم يُفسدون العلم ، ويتَّهمون الكتب ، وتغرُّهم كثرةُ أتباعهم ممَّن تجدُه مستهتَراً بسماع الغريب ، ومُغرَمًا بالطرائف والبدائع ، ولو أُعطُوا معَ هذا الاستهتارِ[٢] نصيباً من التثبُّتِ ، وحظًّا من التوقى ، لسَلِمت الكتبُ من كثيرٍ من الفساد .

(النتاج المركب فى الطيور)

وأنا رأيتُ طائراً له صوتٌ غير حسن ، فقال لى صاحب الطيور : إنّه من نِتاج ما بين القُمْرىِّ[٣] والفاختة[٤] .

وقنَّاص الطيرِ ، ومَن يأتى كلّ أُوقة[٥] وغيضةٍ فى التماس الصيد ، يزعمون أنّ أجناساً من الطير الأوابد والقواطعِ ، تلتقى على المياه فتتسافد ، وأنَّهم لا يزالون يرون أشكالاً لم يروها قطُّ ، فيقدِّرون أنَّها من تلاقح تلك المختلفة .

---

(١) ط ، ل « الوردانى والزاغبى » وهو تحريف صوابه ما كتبت كما فى ص ٦٣ من هذا الجزء .

(٢) ط « ولو أعطوا بدلا من هذا الاستهتار » .

(٣) ابن سيده « القمرى : طائر صغير من الحمام » .

(٤) الدميرى «الفاختة : واحدةالفواخت من ذوات الأطواق» . ابن سيده «ضرب من الحمام المطوق ، واشتقاق الفاختة من الفخت وهو القمر أول مايبدو للونها» .

(٥) ط « أودية » وهو تحريف صوابه فى ل . والأوقة بالضم : محضن الطير على رءوس الجبال .

(زعم بعض الأعراب فى الحرباء)

وقال أبو زيدٍ النحوىّ : وذكر عمّن لقى من الأعراب أنّهم زعموا أنّ ذكَرَ أمّ حُبَين هو الحرباء . قال : وسمعت أعرابيًّا من قيسٍ يقول لأمّ حُبين حُبينة ، والحُبينة هواسمها . قال : وقيسٌ تسمّى ذكر العظاءة العَضْرفوط

وقال يحيى الأغرّ : سمعتُ أعرابيا يقول : لاخيرَ فى العَظاءة ، وإنْ كان ضَبًّا مَكُونا . قال : فإذاً سامٌّ أبرَص ، والوَرَل ، والوَحَر ، والضَّبُّ والحَلَكاء ، كلُّها عندَه عَظاءة .

(ولد الثعلب من الهرّة الوحشية)

وزعم يحيى بن نجيم(١) أنّ الثعلب يسفد الهرّة الوحشية ، فيخرج بينهماولدٌ ، وأنشد قول حسان بنِ ثابت رضى اُللّه تعالى عنه :

أبوكَ أَبوكَ وأنتَ ابنُه   فبئس البُنَىُّ وَبئس الأبُ
وأمُّكَ سَوْداء نُوبيّةٌ   كأنّ أناملها العنظب(٢)
يبيتُ أبوكَ بها مُغْدِفا(٣)   كما ساورَ الهرّةَ الثعلبُ

---

(١) ط و س « عليم » .

(٢) العنظب : الذكر من الجراد .. ويروى « الحنظب » كما فى الدميرى ٢ : ٣٩٦ والديوان ٦١ والحنظب : الذكر من الجراد ،أو الخنفساء ، أو ضرب آخر من الخلق المركب . وفى الأصول « سوداء مادونه » وتصحيحه من الدميرى والديوان .

(٣) ل « مغدفا » وفى الدميرى « سافدا » وصواب أولاهما بالفاء كما أثبت فتكون بتلك مساوية للثانية فى المعنى . وفى ط « معرسا » كما فى الديوان ، أى سافدا .

وأنشد أبو عبيدة قولَ عبدِ الرحمن بن الحكمَ :

ألا أبلغْ مُعاويةَ بنَ حربٍ   مُغلغلةً عن الرجُل اليمانى
أتغضَبُ أنْ يقال أبوك عَفٌّ   وترضى أن يُقالَ أبوك زانى
فأشهد أنَّ رِحْمَكَ مِن قُريشٍ   كرِحْم الفيلِ مِنْ وَلَدِ الأتانِ (١)

قال كَيسان : ولأى شيء قال :

كرحم الفيل من ولد الأتان

إنما كان ينبغي أن يقول : كرِحْم الفِيل من الخِنزير . قال أبو عبيدة : أراد هو التبعيدَ بعينه ، وأنت تُريد ماهو أقرب .

(زعم بعض المفسرين والأخباريين فى حيوان سفينة نوح)

وزعم بعض المفسِّرين وأصحابِ الأخبار ، أنَّ أهلَ سفينةِ نوحٍ كانُوا تأذَّوا بالفأر ، فعطَس الأسدُ عَطْسةً فرمى من مِنْخَريه بزوجِ سنانير . فلذلك السِّنَّورُ أشبهُ شيء بالأسدِ ، وسلَح الفيلُ زوجَ خنازير — فلذلك الخنزيرُ أشبهُ شيء بالفيل — قال كيسان : فينبغى أن يكون ذلك السِّنَّورُ آدَمَ السنانير ، وتلك السِّنَّورَة حَوَّاءها . [قال أبو عبيدة لكيسان : أو لم تعلمْ أنت أنَّ لكل جنس من الحيوان آدم وحواء ؟!] وضحك [فضحك] القوم .

---

(١) فى ط « فأشهد أن آلك » و « آلك » محرف « إلك » وأثبت ماقى ل . والأبيات فى الحيوان ٧ : ٢٣ والخزانة ٢ : ٥١٨ بولاق منسوبة كذلك إلى عبد الرحمن بن الحكم أخى مروان بن الحكم . وهى فى الشعراء لابن قتيبة ٧٩ والموشح ٢٧٣ منسوبة إلى يزيد بن مفرغ . وفى الأغانى ١٢ : ٧١ : « والناس ينسبونها إلى ابن مفرغ لكثرة هجائه لزياد . وذلك غلط » .

(شره سعد القرقرة) :

ولمَّا رأى أبو قُرُدُودةَ سعدَ القرقرة ، أكلَ عند النُّعمان مسلوخًا بعظامه قال :

بين النعامِ وبينَ الكلبِ مَنْبِتُهُ وفى الذئاب له ظئْر وأخْوالُ(١)

يقول: إنَّ سعداً ضرب فى أعراقه نجر النعام(٢) الذى يلتهم الجمر، ويلتقم الحجارة، فيطفئ الجمرَ ويميع الصخْر(٣)، وضرب فى أعراقه [نَجْرُ(٤)] الكلبِ الذى يرضُّ كلَّ عظم ، ولا يقبِض عليه بكفِّه إلاَّ وهو واثق بفتِّه ، ولا يسيغه إلاَّ وهو على ثقةٍ من استمرائه(٥) فأمَّا الذئب فإنَّه لا يروم بفكَّيه شيئاً إلاَّ ابتلعه بغير معاناةٍ ، عظماً كان أو غيرَه ، مصمتاً كان أوْ أجْوفَ .

ولذلك قال الراجز(٦) :

أَطلَسُ يُخْفِى شخصَه غُبارُه فى فِيهِ شَفْرتُه ونارُه

فأبو قُرُدودةَ لم يُرِدْ أنَّ الذئب والكلبَ خالاه ، وأنَّ النعام نَجَلَه ، وإنما قال ذلك على المثَل والتشبيه ، ولم يردْ أنَّ له ظئراً من الكلاب ، وخالاً من الذئاب . وشَبيهُ ذلك(٧) قول أمير المؤمنين المأمون لبعض الناس : يانُطَفَ

---

(١) ط « وفى الذئاب ظئيرات وأخوال » .

(٢) فى الأصول « نجل » باللام ، وإنما هو « نجر » بالراء بمعنى الطبع .

(٣) ط « يميغ » وإنما هى « يميع » بمعنى يسيل كما فى ل .

(٤) زيادة يفتقر إليها الكلام .

(٥) فى ل زيادة بعد هذا الكلام لم أر إثباتها فى الصلب لابهامها وهى : « ما كان يمكنه أن يأكل فى مقعد ما أكل » .

(٦) البيتان فى البيان ١ : ١١٤ مضافا إليهما بيتان آخران هما :

هو الخبيث عينه فراره بهم بنى محارب مزداره

وقد تكلم كثير من العلماء فى هذا الشعر . انظر الأمالى (٣ : ١٢٩) والكامل (١ : ١٧٦) والعمدة (١ : ١٦٨) وديوان المعانى (٢ : ١٣٤) .

(٧) فى الأصل « وليس ذلك على » وهو تحريف .

الحمّارين[١] ، ونزائع الظُّؤورة ، وأشباه الخُؤولة . ٦٨

وعلى شبيهٍ بذلك قال سلم بن قُتَيبة[٢] لبعض من ذَكَره ، وهو عند سليمان بن عليّ : أيُّها الأمير ، إنّ آلَ فلانٍ أعلاجُ خلقِ الله وأوباشُه ، لئامٌ غُدُر ، شرّابون بأنقُع[٣] ، ثمّ هذا بعدُ فى نفسه ، نُطفَةُ خمّار فى رَحِم صنّاجة .

(زواج الأجناس المتباينة من الناس)

وقال لى أبو إسحٰق : قال لى أبو العباس — وأبو العباس هذا كانَ ختَنَ إبراهيمَ على أخته ، وكان رجلاً يَدِين بالنجوم ، ولا يقرُّ بشىءٍ من الحوادث إلاَّ بما يجرى على الطباع. قال أبو إسحٰق : وقال لى مرّة : أتعرفُ موضِعَ الحُظْوةِ من خَلْوة النساء ؟ . قُلْتُ : لا واللهِ لا أعرفُه . قال: بل اعلمْ أن لا يكونُ الحظُّ إلاَّ فى نِتاج شكلين متباينين ، فالتقاؤهما هو الإكسير المؤدّى إلى الخلاص : وهو أن تُزاوِج بينَ هِنديَّةٍ وخُراسانىٍّ ، فإنها لا تلد إلاَّ الذهبَ الإبريز . ولكن احرُس ولدَها ؛ إن كان الولدُ أنثى فاحذَر عليها مِن شِبْه لُواطِ رِجال خُراسانَ وزِناء نساءِ الهند ، واعلمْ أنَّ شهوتَها للرجال على قدرِ حُظْوتِها عندَهم ، واعلمْ أنَّها ستساحق النساء على أعراقِ الخراسانيّة ، وتَزْنى بالرجال على أعراق الهند ، واعلمْ أنّه ممّا يزيد فى زِناها ومساحقتها معرفتُها بالحُظوة عند الزُّناة ، وبالحظّ عند السحاقات[٤] .

(١) فى الأصول « الحمّار » والوجه الجمع .
(٢) ط « سلام بن قتيبة » وإنما هو « سلم » كما فى ل . وله أخبار فى الأغانى .
(٣) ط « شرابون ماتقع لهم » والصواب مافى ل . والكلام مثل . والنقع بالفتح الماء المستنقع جمعه أنقع فيقال فى المثل : إنه لشراب بأنقع . يضرب لمن جرب الأمور أو للداهى المنكر ، لأن الدليل إذا عرف الفلوات حذق سلوك الطرق إلى الأنقع .
(٤) ل « عند النساء » .

(مما زعموا فى الخلق المركب)

وقالوا فى الخلق المركَّب ضُروبًا من الحقِّ والباطل ، ومن الصدق والكذب . فمن الباطلِ زعمُهم أنّ الشَّبُّوط ولد الزجْر[(١)] من البُنِّيّ ، وأنّ الشَّبُّوط لا يُخْلَق من الشَّبُّوط ، وأنّه كالبغلِ وتركيبِه وإنسالِه . ورووا ذلك عن أبى واثِلة إياسِ بنِ معاوية [بن قرّة] .

وزعموا أنّ أمَّ جعفر بنت جعفر بن المنصور ، حصَرت[(٢)] فى حوضٍ لها ضخمٍ أو بركةٍ كبيرةٍ عدداً كثيراً من الزجر[(١)] والبُنِّيّ ، وأنّها لم تخلِطْ بهما غيرَهما ، فمات أكثرُه وبقيتْ بقيّةٌ كانت الصميمَ فى القوّةِ ، وفى احتمال تغيُّر المكان فلم تحمل البيضَ حِيناً ، ثمّ إنّها[(٣)] حملت بالشبابيط .

(مطر الضفادع والشبابيط)

وزعم حُريثٌ أنه كان بأيذج[(٤)] ، فإذا سحابة [دهماء] طخياء[(٥)] تكاد تمسُّ الأرض ، وتكاد تمسُّ قِمَمَ رءوسهم ، وأنّهم سمعوا فيها كأصواتِ المجانيق[(٦)] ، وكهدير الفحول فى الأشوال ؛ ثم إنّها دفعَت بأشدِّ مطرٍ رُئى أو سُمِع به ، حتّى استسلَموا للغرق ؛ ثمّ اندفعتْ بالضفادع العظام ، ثم

---

(١) ط « الزخر » بالخاء وإنما هو الزجر كما فى ل . قال الفيروزبادى : سمك عظام .

(٢) ط « حضرت » .

(٣) ط « فلم تحمل البيض حاتم إنما » وتصحيحه من ل .

(٤) فى القاموس « أيذج كأحمد بلدة من كور الأهواز ، وقرية بسمرقند » .

(٥) ط « ضحياء » وصوابه ما فى ل . والطخياء : الشديدة السواد .

(٦) ل « المجاش » وهى جمع مجشّ أو مجشة وهى الرحى .

أندفعت بالشبابيط السِّمان الخِدال[1] فطبخوا واشتوَوا ، وملَّحوا وادَّخَروا .

(غرور أبى واثلة والخليل بن أحمد)

ورووا عن أبى واثلة أنّه زعمَ أنَّ من الدليلِ على أنَّ الشَّبُّوط كالبغل ،

٦٩٠ أنَّ الناسَ لم يجدوا فى طولِ ما أكلوا الشبابيطَ فى جوفِها بَيْضاً قطُّ . فإن كان هذا الخبرُ عن هذا الرجُلِ المَذكُورِ بشدَّةِ العقل ، المنعوتِ بثُقُوب الفِراسة ودِقَّةِ الفطنة صحيحاً ؛ فما أعظَمَ المصيبةَ علينا فيه ، وما أخلَقَ الخبرَ أن يكون صحيحاً ؛ وذلك أنّي سمعتُ له كلاماً كثيراً من تصنيف الحيوانِ وأقسامِ الأجناس ، يدلُّ على أنَّ الرجلَ حينَ أحسَنَ فى أشياء وهَّمه العُجْبُ بنفسِه أنّه لا يَرومِ شيئاً فيمتنعُ عليه ، وغرّه مِن نفسه الذى غرَّ الخليل ابنَ أحمد ، حينَ أحسَنَ فى النحوِ والعَرُوض ، فظنَّ أنَّه يُحسِن الكلامَ وتأليفَ اللُّحون ، فكتبَ فيهما كتابَينِ لايُشيِر بهما ولا يُدلُّ عليهما إلاَّ المِرَّةُ المحترِقة ، ولا يؤدِّى إلى مثل ذلك إلاَّ خِذلانٌ من الله تعالى ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لايُعجزه شىء .

(بيض الشبوط وتناسله)

والشَّبُّوط — حفظك الله تعالى — جِنسٌ كثيرُ الذكورِ قليلُ الإناث ، فلا يكون إناثه أيضاً يجمعْن البيض ، وإذا جمعنَ فلو جمعتَ بَيضَ عشرٍ منهنَّ

---

(٦) ط « الخزال » والصواب « الخدال » كما فى ل . والخدال : جمع خدلة وهى الممتلئة الأعضاء لحما فى رقة عظام .

لمّا كان كشطر بَيضٍ بُنيّةٍ واحدة . وقد رأيتُ بعض(١) الشَّبُّوط وذقتُه للتعرُّف فوجدتُه غيرَ طائل ، ولا مُعجِب . وكلُّ صيَّادٍ تسأله فهو يُنْبيك أنّ له بيضاً ، ولكنّه إذا كانَ يكونُ ضئيلاً قليلا ، لأنَّ الشبابيطَ فى أصلِ العدد من أقلّ السمك ، وكذلك الجنس منه إذا كانت الأنثى منه مِذكارا .

(موطن الشبوط)

على أنّه رُبَّ نهرٍ يكونُ أكثرُ سَمَكه الشَّبُّوط ، وذلك قليل كنهر رَامَهُرْمز . والشَّبُّوط لايتربَّى فى البحار ، ولا يسكن إلاّ فى الأوديةِ والأنهار ؛ ويكره الماءَ الملحَ ويطلبُ الأعذَبَ فالأعذب ؛ ويكون فى الماء الجارى ، ولا يكون فى الساكن . وسنذكر شأنَه فى موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

(رد على مازعموا فى الزرافة)

ولم يصب أبو واثلة ، وكذَبوا على أمّ جعفر . فإذا(٢) قالوا فى الزَّرافةِ ما قالوا(٣) فلا تأمَنْهم على ماهو دُونَه . وإن كان مَن كذَب على الموتى واستشهد الغُيَّبَ أحذَق ، فصاحبُ الزرافة قد استعمل بعض هذه الحيلة ، وصاحبُ الشَّبُّوط يكذِب على الأحياء ، ويستشهد الحضور . وإن كان الذى دعا إلى القول فى الزرافة أنهم جعلوا تركيب اسمه دليلا على تركيب

(١) فى الأصل « فقد » والوجه ما أثبت . وفى ل « بيض » موضع « بعض » .
(٢) ل « وإذ » .
(٣) انظر ص ٦٥ من الطبعة الأولى .

الخلق . فالجاموس بالفارسية كاوماش ، وتأويله ضأنىّ بقرىّ ؛ لأنهم وجدوا فيه مشابهةَ الكبش وكثيراً من مشابهة الثور ، وليس أنّ الكِباشَ ضربت فى البقر فجاءت بالجواميس .

(رأى للفرس فى تقسيم الحيوان)

وزعم الفرس أنّ الحيوان كلّه الذى يلد حيوانا مثله ممّا يمشى على أربعِ قوائم ، لاتخلو أجناسها من المعز والضأن ، والجواميسُ عندهم ضأن البقر ، والبُخْت عندهم ضأن الإبل ، والبَراذين عندهم ضأن الخيل .

(زعم فى الابل)

والناس يقولون فى الإبل أقاويل عجيبةً : فمنهم مَن يزعمُ أن فيها عِرقاً من سِفاد الجنّ ، وذهبوا إلى الحديث : أنهم إنما كرهوا الصلاة فى أعطان الإبل لأنها خُلِقَتْ من أعنان الشياطين (١) فجعلوا المثلَ والمجاز على غير جهته ، وقال ابن ميّادة :

فلما أتانى ما تقول مُحارِبٌ تغنّتْ شياطين وجُنّ جُنونُها

(١) ط « أعناق » وهو تحريف صوابه فى ل واللسان وابن الأثير . ذكر ابن منظور أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الإبل فقال : «أعنان الشياطين لا تقبل إلا مولية ولا تدبر إلا مولية» . قال ابن منظور : فانه أراد أنها على أخلاق الشياطين، وحقيقة الأعنان النواحى .. قال ابن الأثير : كأنه قال : كأنها لكثرة آفاتها من نواحى الشيطان فى أخلاقها وطبائعها . وفى حديث آخر : « لا تصلوا فى أعطان الإبل لأنها خلقت من أعنان الشياطين » .

قال الأصمعى : المأثور من السيوف الذى يقال : إنّ الجنّ عمِلته .

وهم يسمّون الـكِبر والخُنزُوانة والنّعَرة التى تضاف إلى أنف المتكبّر شيطانا قال عمر : حتى أنزَعَ شيطانَه ، كما قال : حتي أنزَع النّعَرة التى فى أنفه(١) . ويسمّون الحَيّةَ إذا كانت داهيةً منها شيطانا ، وهوقولهم : شيطان الحَماطة(٢) قال الشاعر :

تعالج مثنى حَضْرميٍّ كأنه تَمَعُّجُ شَيْطانٍ بذى خِروعٍ قَفْرِ(٣)

شبّه الزّمامَ بالحيّة . وعلى مثل ذلك قال الشاعر :

شـــناحية فيها شناح كأنها حباب بكف الشاومن أسطع حشر(٤)

والحباب : الحية الذكر ، وكذلك الأيم(٥) . وقد نُهى عن الصلاةِ عند غيبوبة الشمس ، وعند طلوع القرص إلى أن يتتامّ ذلك . وفى الحديث : « أنّها تطلُع بين قَرْنَى شيطان » .

(ضرورة حذق اللغة للعالم والمتكلم)

فللعرب أمثالٌ واشتقاقاتٌ وأبنية ، وموضعُ كلامٍ يدُلُّ عندهم على

(١) ابن الأثير : النعرة بالتحريك ذباب أزرق له إبرة يلسع بها ويتولع بالبعير ويدخل أنفه فيركب رأسه . سميت بذلك لنعيرها . ثم استعيرت للنخوة والـكبر . وصاحب القاموس يضبط الـكلمة إذا كانت بمعنى الـكبر كهمزة وبالتحريك ، وإذا كانت بمعنى الذباب كهمزة فقط .

(٢) الحماطة : شجر شبيه بالتين أحب شجر إلى الحيات أو التين الجبلى أو الأسود الصغير أو الجميز قاموس .

(٣) ط «تعامج متنا» والصواب ماأثبت من ل ومن المخصص ولسان العرب (شطن) .

(٤) الشناحية : الطويلة . وفى ل «أسطع جسر» ولعل فى البيت تحريفا .

(٥) الأيم كـكيس والايم بالـكسر : الحية الأبيض اللطيف أوعام جمعه أيوم وانظر معجم المعلوف ٢٦٩ .

معانيهم وإرادتهم ، ولتلك الألفاظ مواضعُ أُخَرُ ، ولها حينئذ دَلالاتٌ أُخر؛ فمن لم يعرفْها جَهِل تأْويلَ الكتابِ والسُّنَّة ، والشاهدِ والمثلِ ؛ فإذا نظَر فى الكلام وفى ضروبٍ من العلم ، وليس هو من أهل هذا الشأْن ، هلَك وأَهلك .

(الإبل الوحشية)

وزعم ناسٌ أنَّ من الإبل وحشيًّا وكذلك الخيل ، وقاسوا ذلك على الحمير والسنانير والحمام وغيرِ ذلك[1] ، فزعموا أنَّ تلك الإبلَ تسكنُ أرض وَبَار ؛ لأنَّها غيرُ مسكونة ، ولأنَّ الحيوانَ كلَّما اشتدَّت وحشيَّتُه كان للخَلاء أطلب . قالوا : وربَّما خرجَ الجملُ منها لبعضِ مايعرِض ، فيضرِب فى أدنى هَجْمةٍ من الإبل الأهلية . قالوا فالمَهْرِيَّةُ من ذلك النِّتاج .

وقال آخرون : هذه الإبلُ الوحشيَّة هى الحُوش ، وهى التى مِن بقايا إبل وَبَار ، فلمَّا أهلكهم الله تعالى كما أهلك الأُمَم مثلَ عادٍ وثمودَ والعمالقة وطَسْمٍ

٧٨ وجَدِيْسَ وجاسم ، بقيَتْ إبلُهم فى أماكنهم التى لايَطُورها إنْسِيٌّ[2] فإن سقَطَ إلى تلك الجيزة بعض الخلعاء[3] ، أَوْ بَعْضُ من أضلَّ الطريق حثَت[4]

(١) ط « وقاسوا ذلك على الحمير والسنانير وما سوى ذلك من الحمير والسنانير والحمام وغير ذلك » . وفى ل: « وقاسوا ذلك على الحمير ، والسنانير وغير ذلك » وقد سردت القول كما ترى .

(٢) كذا فى ل .. وطار المكان يطوره طوراً وطورانا : حام حوله .. وفى ط : « لايطردها أحد » قال فى القاموس : «وطردتهم : أتيتهم وجزتهم» فالعبارتان سليمتان .

(٣) ط « الجزيرة » موضع « الجيزة » و « الخلفاء » موضع « الخلعاء » . وما فى ط تصحيف .. والجيزة الناحية .

(٤) ط « حثا » .

الجُنُّ في وجهه ، فإنْ ألحّ خَبَلته ؛ فضَربَتْ هذه الحوش[(١)] في العُمَانيّة ، فجاءت هذه المَهْرِيّة ، وهذه العسجديّة التي تسمى الذهبيّة ، وأنشدنى سعدان المكفوف[(٢)] عن أبي العميثل قول الراجز[(٣)] :

مادَمّ إبلي عَجَمٌ ولا عَرَبْ جُلودُها مِثلُ طَوَاويسِ الذَّهَبْ

وقال الآخر[(٤)] :

إذا اصطكّتْ بضيق حجْرتاها تلاقَى العَسجديّةُ واللَّطِيمُ

والعسجد من أسماء الذهب .

قالوا : وإنّما سُمّيتْ صاحبةُ يزيد بن الطَّثَريّة حُوشيَّةً على هذا المعنى[(٥)] .

وقال رؤبة :

جرت رحانا من بلاد الحُوش[(٦)]

---

(١) ط « الوحوش » .

(٢) ط « وأنشد ابن سعدان المكفوف » وكتبت ما في ل و س .. وسعدان هذا هو ابن المبارك أبو عثمان الضرير النحوى . له ترجمة في البغية للسيوطى ٢٠٤ وتاريخ بغداد ٤٧٨١ ، ونزهة الألباء ٢٠٦ ، وهم يذكرونه في رواة العلم والأدب ويقولون : إنه روى عن أبي عبيدة . وأما ابن سعدان . فهو أبو جعفر محمد بن سعدان الضرير النحوى كان من أكابر القراء وله كتاب مصنف في النحو ، وتوفى سنة ٢٣١ ، وله ترجمة في البغية ٤٥ ، وتاريخ بغداد ٢٨٤٦ ، والنزهة ٢١٢ .. ورواية الجاحظ عن كل منهما محتملة .

(٣) ل « عن أبي العميثل الراجز » ولم ينعته واحد ممن ترجموا له بهذا الوصف انظر فهرس ابن النديم ٤٨ ليبسك و ٧٢ مصر وابن خلكان ١ : ٢٦٢ ومعجم الزركلي ٢ : ٥٥٥ . وأبو العميثل هو عبد الله بن خليد الأعرابي الشاعر ، توفى سنة ٢٤٠ هـ .

(٤) هو عاهان بن كعب بن عمرو بن سعد كما في اللسان (لطم) قال : العسجدية : إبل منسوبة إلى سوق يكون فيها العسجد ، وقال ابن برى العسجدية التي تحمل الذهب وقال : اللطيم جمع لطيمة ، وهي العير التي تحمل المسك .

(٥) في الأصل على المعنى هذا .

(٦) كذا في س و ل وهو الصواب . والرحى : جماعة الإبل . وفي ط والعمدة ٢ : ٢٠٥ « رجالا » . ورواية اللسان : إليك سارت من بلاد الحوش

(رد على مازعموا من مطر الضفادع والشبابيط)

وأما الذى زعم أنّهم مُطِروا الشَّبُّوط ، فإنه لما ظنّ أنّ الضفادعَ التى تُصابُ بعَقِبِ المطر ، بحيثُ لا ماءٌ ولا وحلٌ ولا عينٌ ولا شريعة ؛ فإنهم ربّما رأوها وسط الدَّوِّ والدَّهناء والصَّمّان[1] ولم يشُكّ أنّها كانت في السحاب وعلم أنها تكون فى الأنهار ومنابع المياه ، وليس ذلك من الذكر والأنثى ، قاسَ على ذلك الظنّ السمك ، ثم جسَرَ فجعلَ السمكَ شبُّوطا . وتلك الضفادعُ إنما هى شىء يُخلَق تلك الساعة ، من طباع الماء والهواء والزمانِ وتلك التربة ، على مقاديرَ ومقابلات ، وعلى ما أجرى الله تعالى عليه نشأة الخلق .

(امتناع التلاقح بين بعض الأجناس المتقاربة)

وقد تعرف القرابةُ التى تكون فى رأى العين بين الشكلين من الحيوان فلا يكون بينهما تسافدٌ ولا تلاقح ، كالضأن والمعز ، وكالفأر والجُرْذان ، فليس بالعجَب فى البقر والجواميس أن تكون كذلك . وقد رأينا الخِلاسىّ من الدجاج والدّيكة ، وهو الذى تخلّقَ من بين المولَّدات والهنديّات ، وهى تحمل اللحم والشحم . وزعم لى مسعود بن عثمان ، أنه أهدى إلى عمرو بن مَسْعَدة ، دجاجة ووُزِنَ فيها سبعة عشَرَ رطلا بعد طرح الأسقاط وإخراج الحشوة .

---

(١) ط « الدور » موضع « الدو » و « السنان » موضع « الصمان » : والصواب ما كتبت من ل . والدو : الفلاة ؛ والدهناء : الفلاة أيضا . والصمان : كل أرض صلبة ذات حجارة إلى جنب رمل .

(أثر زواج الأجناس المتباينة من الناس)

ورأينا الخِلاسيَّ من الناس ، وهو الذى يتخلّق بين الحبشيّ والبيضاء، والعادةُ من هذا التركيب أنّه يخرج أعظمَ من أبوَيه وأقوى من أصلَيه ومنْشِرَيه . ورأينا البَيْسَرىَّ[1] من الناس، وهو الذى يُخلَق من بين البيض والهند ، لايخرج ذلك النِّتاجُ على مقدار ضخم الأبوين وقوّتهما ، ولكنه
٧٢ يجىء أحسنَ وأملح. وهم يسمُّونَ[2] الماء إذا خالطته الملوحة يسراً[3] قياساً على هذا التركيب الذى حكَينا عن البيض والهنديّات . ورأينا الخِلاسىَّ من الكلاب ، وهو الذى يُخلَق بين السَّلُوقىّ وكلب الراعى ، ولا يكون ذلك من الزِّئنى والقلطى[4] ، ومن كلاب الدُّور والحرّاس . وسنقول فى السِّمْع[5] والسِبار ، وفى غيرِهما من الخَلْقِ المركَّب إن شاء الله تعالى .

(أطول الناس أعماراً)

وذكروا أنّهم وجدوا أطولَ أعمار الناس فى ثلاثة مواضع : أوّلُها سرو حمير ، ثم فرغانة ، ثم اليمامة ، وإنّ فى الأعراب لأعماراً أطول ، على أنّ لهم فى ذلك كذِبًا كثيراً ، والهندُ تُرْبِي[6] عليهم فى هذا المعنى . هكذا يقول علماء العرب .

---

(١) البياسرة : جيل بالسند تستأجرهم النواخذة لمحاربة العدو ، والواحد بيسرى .
(٢) ط « يسمونه » .
(٣) كذا فى ل ، ولعل صوابه « بيسريا » وفى ط : « يسرا » .
(٤) الزئنى : القصير القوائم ، وقد تحدث عنه الجاحظ فى الحيوان ٢ : ٦٥ ساسى . والقلطى : القصير جداً.
(٥) ط « السلع » وهو تحريف ما فى ل .
(٦) ط « تزرى » .

(أثر النبيذ فى عمر الإنسان)

وكان عثمانُ ماش ويزال وجذعان[١] ، يذكرون أنّهم عدُّوا أربعينَ فتًى مِنْ فتيانِ قريش وثقيف أعذارَ عامٍ واحد فأحصَوْا عشرين من قريش ، وعشرين من ثقيف ، وتوخَّوا المتجاوِرين فى المحلّة والمتقاربين فى الدُّور من الموفرين على النبيذ ، والمقصورين على التنادُم ، وأنّهم أحصَوْا مثلَ ذلك العدد وأشباهَ أولئك فى السّن ممّن لايذوق النبيذَ ولا يعرفُ شرابًا إلا المَاء ، فذكَرُوا أنّهُمْ وجـدُوا بعدَ مرورِ دهرٍ عامّةَ من كان يشرَبُ النبيذَ حيًّا ، ومن لايشربه قد مات عامّتُهم ، وكانوا قد بلغوا فى السنّ ، أما عثمان ويزال[٢] فكانا من المعمَّرين ، وقد رأيتهما جميعاً ولم أسمع هذا منهما ، وسنأتى على هذا البابِ فى موضعه من ذكر المعمَّرين ، ونميِّز الصدقَ فيه من الـكذب ، وما يجوز ومالايجوز إن شاء الله تعالى .

(بعض مايعرض للخصيان)

وما أكثر مايعرض للخصيان البولُ فى الفراش وغيرِ ذلك ، ولا سيَّما إذا بات أحدُهم ممتلئا من النبيذ .

ويعرض لهم أيضاً حبُّ الشراب والإفراط فى شهوته وشدّة النهم .

ويعرض لهمْ أيضاً إيثار المُخْفِس[٣] وحبُّ الصِّرْفِ ، وذلك أيضاً

---

(١) ل « وبذال وجدعان » .

(٢) ل « وبذال » .

(٣) ط « المحبس » وليس بشىء ، وفى ل « المخفش » وهما تحريف ما كتبت . والمخفس : الشراب السريع الإسكار .

مما يعرض للنساء ، والإفراط فى شهوتهنّ وشدّة الهمّة لهُنّ والغيرة عليهنّ . ويحتلمون ويَجنُبون ويغتسلون ، ويرون الماء غير الرائق ولا الغليظ ، الّذى له ريح طلع الفُحّال(١) .

ويعرض للخصىّ شدّةُ الاستخفاف بمن لم يكن ذا سلطان عظيم أو مالٍ كثيرٍ أو جاهٍ عريض ، حتّى ربّما كان عند مولاه بعضُ من عسى أن يتقدّم هؤلاء المذكورين الّذين يكون الخصىّ كلِفا بهم وبتعظيمهم ، ومُغرَمًا بخدمتهم ، فى الأدبِ والحسبِ ، وفى بُعْدِ الهمّة وكرم الشّيمة ، فيعمِد عندَ دخولِ ذلك الرجل الّذى له السلطانُ والجاهُ والمالُ إلى متّكإ ٧٣
هذا الأديبِ الكريم ، والحسيبِ الشريف ، فينزعه من تحت مِرْفَقِهِ ، غيرَ محتفل بذلك ولا مكترثٍ لما فيه ، ويضعُه له من غير أنْ يكونَ موضع المرافق بعيداً ، أوْ(٢) كان ذلك مما يفُوت بعضَ الفوت ، ويفعل ذلك وإن كان يعاشر هذا الأديب الكريم مولاه وهو على يقين أنه لا يرى ذلك الموسرَ وصاحبَ الجاهِ أبداً(٣) .

(أقوال فى منع خصاء الخيل وإباحته)

وقد حرّم بعضهم خِصاءَ الخيلِ خاصّة ، وبعضُهُم زاد على ذلك حتّى حرّم خِصاء البهائم . وقال بَعْضُهُمْ : إذا كان الخِصاء إنّما اجتلبه فاعلُه أوْ تكلّفَهُ صاحبُهُ على جهة التماسِ المنفعَة ، أو على طريقِ التجارة ،

---

(١) ط « النخل » .
(٢) ط « إذا » .
(٣) ط « وهو على يقين أنه ليس من حكم الخصاء أن يرى ... الخ » وهذبت القولة من ل .

فذلك جائز ، وسبيلُه سبيل المِيسَم ، فَإِنَّ المِيسمَ نار ، وألمه يجوزُ كلَّ ألم ، وقد رأينا إبلَ الصدَقة موسُومة ، ووسَمَت العربُ الخيلَ وجميعَ أصنافِ النَّعَم في الإسلام ، على مِثل صنيعِها في الجاهليَّة . وقد كانت القَصواء ناقة النبي صلى الله عليه وسلم موسومة ، وكذلك العضْباء .

(أقوال في وسم الحيوان)

وقال آخرون : الخِصاء غيرُ شبيه بالمِيسم ؛ لأنَّ في الخصاء من شدَّة الألم ، ومن المُثْلة ، ومن قطْع النَّسْل ، ومن إدخال النقصِ على الأعضاء ، والنقصِ لموادِّ القوى ، ماليسَ في المِيسم وغيرِه ، وهو بقطع الأَلية أشبَه ، والسِّمَةُ إنَّمَا هي لَذْعة ، والخصاء مجاوِزٌ لكلِّ شديدة[١] .

قال القوم : ولا بأسَ بقطع الأَليةِ إذا مَنعت بِثِقَلِهَا أو عِظَمها الشاةَ من اللَّحاقِ بالقطيع وخِيف عليها من الذئب . وقطعُ الألية في جواز العقول[٢] أشبهُ من الميسم ؛ لأنَّ المِيسمَ ليس للبعير فيه حظٌّ ، وإنَّمَا الحظُّ فيه لربِّ المال ، وقطعُ الأليةِ من شكل الخِتان ، ومن شكل البْطِّ[٣] والفصْد ، ومن جنس الوَجُور والبيطرة ، ومن جنس اللَّدُود[٤] والحِجامة ، ومن جنس الكَيِّ عند الحاجة ، وقطعِ الجارحة إذا خِيف عليها الأَكِلَة .

---

(١) ط « شدة » .
(٢) ط « القول » .
(٣) البط : الجرح . والبطة . البضع .
(٤) اللدود كصبور : مايصبُّ بالمسعط من الدواء في أحد شق الفم .

(وسم الإبل)

قال الأوّلون : بل[١] لعمرى إنّ للإبل فى السِّمات لأعظمَ المنافع ؛ لأنَّها قد تشرَب بِسِماتها ولا تُذَاد عن الحوض إكرامًا لأربابها ، وقد تضِلُّ فتُؤْوَى ، وتُصاب فى الهُوَاشات[٢] فترَدّ .

قالوا : فإنا لا نسألكم إلاّ عن سماتِ الخيل والبغالِ والحمير والغنم . وبعدُ فكيف نستجيز أنْ نَعمَّها بالإحراق بالنار ، لأمرٍ عسى ألاّ يحتاج إليه من ألفِ بعيرٍ بعيرٌ واحد ، ثمّ عسى ألاّ يحتاج [من جميع] ذلك فى جميع عمره [إلاّ] إلى شَرْبةٍ واحدة .

وقال القوم : إنَّمـا المياسم فى النَّعَم السائمة كالرُّقوم فى ثياب البزَّاز ، ومتى ارتفعت الرقومُ ومُنِعت المياسم ، اختلطَت الأموال ، وإذا اختلطت ٧٤ أمكنَ فيها الظلم ، والمظلومُ باذلٌ نفسَه دونَ المعيشة[٣] والهَضيمة . وقالوا : ليس قطعُ الأليةِ كالمجثَّمة وكالشىء المصبور ، وقد نُهينا عن إحراق الهوامّ ، وقيل لنا : لاتعذِّبوا بعذاب الله تعالى ، والميسمُ نار ، وقطعُ الأَلية من شكل قَطْعِ العروق ، وصاحبُ المجثَّمة يقدِر أن يرمِىَ ــ إن كان به تعلُّم الرماية ــ شيئاً لا يألم ولم يُنْهَ عن تعذيبه ، فَمَـا[٤] يردُّ الشىء المصبور من العذاب مَرَدًّا بوجه من الوجوه .

---

(١) ط « قل » وهو تحريف ماق ل .

(٢) الهواشات بالضم : الجماعات من الناس والإبل .

(٣) كذا ولعلها « النكيثة » بمعنى الخطة الصعبة .

(٤) فى الأصل « فما » .

(القول فى نقص بعض أجزاء الحيوان أو نقضها أو إيلامها)

وقال آخرون : ليس لك أن تُحدِث فى جميع الحيوانِ حدَثاً من نقْضٍ أو نقص أو إيلام ، لأنك لا تملك النشأة[١] ، ولا يمكنك التعويضُ له ؛ فإذا أذِن لك مالك العين ، بل مخترعه ومنشئُ ذاته والقادر على تعويضه ، وهو اللّٰه عزّ وجلّ ، حل لك من ذلك ما كان لايحلّ . وليس لك فى حُجَّة العقل أن تصنعَ بها إلاّ ما كان به مصلحةٌ كعلاج الدبَر[٢] وكالبيطرة .

وقال آخرون : لنا أن نصنعَ كلَّ ما كان يُصنَعُ على عهد رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم وبعدَه ، ممّـا لم يكن مدفوعا[٣] عندَ بعضِهم ، إلاّ أن يكونَ نَهْيُ ذلك البعضِ من جماعتهم[٤] ، فى طريق الخلافِ والردِّ والمفارقَة ولا يكونِ عندهم قولاً من الأقاويل ؛ فإنّ ذلك فى سبيل العلاج بعد أن كان المتكلِّف يَعْرِفُ وجهَ الملام . والمذهب فى ذلكَ معروف[٥] ، وإن كان خارجا من ذلك الحدِّ ، فقد علمنا أنَّه أُبيح من طريق التعبُّد والمحنة ، كما جعل اللّٰه تعالى لنا ما أحلَّ ذبحَه من البهائم ، وكما جعَل لنا أن نقتُل القملَ والبراغيثَ والبعوض ، وإن لم يكن منها إلاّ مقدارُ الأذى فقط . والقتل لا يكون قصاصا من الأذى ، ولـكن لمّـا أباح لنا خالقُ الشىء

(١) ل « الشىء » .

(٢) ط « كصلاح الدين» وهو تحريف عجيب صوابه فى ل .

(٣) ط « مرفوعا » وتصحيحه من ل

(٤) فى الأصل . « عن جماعتهم » .

(٥) ل « يعرف وجه العلاج فالمذهب ... الخ » .

والقادرُ على تعويضه قتلَه ، كان قتلُه أسوغَ فى العقل مع الأذى ، مِنْ ذبح البهيمة مع السلامة من الأذى .

قال : وليس كل مؤذٍ ولا كل [ذى] أذى[١] حكمَ اللهُ تعالى فيه بإباحة القتل ، واللهُ عزّ وجلّ ، بمقادير الأمورِ وبحكم المختلِف والمتّفق والقليلِ من ذلك والكثير ، أحكَمُ وأعلم .

وقد أمرَ اللهُ تعالى إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام ، بذبح إسحاق أو إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، فأطاع الوالدُ وطاوع الولد .

والجواب الماضى إنما هو[٢] قول من قال بالتعويض [و] هو قول النظّام . وأكثرُ المتكلّمين يعترِضون عليه فيه .

(منع خصاء الإنسان وإباحته)

ولا يزال — يرحمُك اللهُ تعالى — بعضُ الملحِدين من المعاندين ، أو بعضُ الموحِّدين من الأغبياء المنقوصين ، قد طعَن فى مِلْكِ الخصىِّ وبيعِه ٧٥
وابتياعه ، ويذكرون الخصىَّ الذى كان المقوقِس عظيمُ القِبط أهداه إلى النبى صلى اللهُ عليه وسلم ، وعلى آله مع مارِيةَ القِبطيّة أمِّ إبراهيم عليه السلام .
قالوا : فقد ملك عليه الصلاة والسلام خَصِيًّا بعد أن عرَفه وأحاط علمُه بأنّه خصىٌّ ، وأنتم تزعمون أنّ الخِصاء حرام ، وأنّ من اشترى من الخاصى خَصِيًّا ثم زاد على قيمته ، وهو فحل ، فقد أعان على الخصاء وحثّ عليه ، ورغّب فيه ، وأنّه من أفحش الظلم وأشدّ القسوة ، وزعمتم أنّ من فعل ذلك

(١) ط « وليس كل ضرر ولا كل أذى »
(٢) ط « على » موضع « إنما هو » .

نحو شريكُ الخاصى فى الإثم ، وأنَّ حالَه كحال المعروفين بالابتياع من اللصوص . وقلتم : وكذلك من شهد القِمار[١] وهِراشَ الكلاب ، ونطاحَ الكِباش وقتالَ الديوك ، وأصحاب الجارحات[٢] وحرب الفئتين الضالَّتين . وقلتم : لأنَّ هذه المواضعَ لو لم تحضرها النَّظَّارةُ لما عمِلوا تلك الأعمال ، ولو فعلوها ما بلغوا مقدارَ الشَّطر ، لغلَبة الرياء والسُّمعة على قلوبِ الناس ، فكذلك الخاصِى ، والمشترى ، والمبتاع من المشترى ، شركاء متعاونون ، وخُلَطاء مترادفون ، وإذا كان المبتاع يَزيد فى السِّلْعة لهذه العلَّة ، والبائع يزيد فى السَّوم لهذا السبب ، وقد أقررتم بأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قد قَبِل له من المقوقس ، كما قبلَ مارية ، واستخدمه ، وجرى عليه ملكُهُ وأمرُه ، فافهمْ — فهمك الله تعالى — ما أنا مجيبٌ به فى هذه المسئلة ، والله الموفِّقُ ، وعلى الله قصْدُ السبيل .

أقول : قبلَ كلِّ شيء لا يخلو هذا الحديث الذى رويتموه من أنْ يكونَ مرضىَّ الإسناد ، صحيحَ المخرج ، أو يكونَ مسخوط الإسناد ، فاسدَ المخرج. فإن كان مسخوطاً ، فقد بطلت المسئلة ، وإن كان مرضياً ، فقد علمنا أنَّه ليس فى الحديث أنَّه قَبِله منه بعد أنْ عِلم أنَّه خصىٌّ ، وعلى أنَّ قبولَ الهديّة خلافُ الابتياع ؛ لأنَّ بائعَ الخصىِّ إنَّما يحرُم عليه التماسُ الزيادة ، وكذلك المبتاعُ إنَّما يحرم عليه دفعُ الزيادة إذا كان لو سلِم إليه بذلك الثمن فحلاً أجملَ منه وأشبَّ وأخدمَ منه لم يزِدْه ، والبائع أيضاً لا يَستام بالفحل سَوْمَه بالخصى . وقبول الهديّة ، وقبول الهِبَة، وسبيلُ البيع والابتياع

---

(١) ل « السابين » .

(٢) ط « المخارجات » .

لا بأس به إذا كان على ما وصفنا ؛ وإنّما هديّة الخصيّ كهديّة الثوب والعِطر ، والدابّةِ والفاكهة . ولأنّ الخصيّ لا يحرم مِلكُه ولا استخدامُه ، بل لا يحلّ طرده ونفيُه ، وعتقُه جائز ، وجوازُ العِتق يوجب الملك . ولو باعه المالك على غير طلبِ الزيادة ، أو لو تاب من الخِصاء أو استحلّه ممّا أتى ٧٦
إليه ، لَمَا حرم على الخاصي نفسِه استخدامه ، والخصيُّ مالٌ وملك ، واستخدامه حسَنٌ جميل ؛ ولأنّ خِصاءه إيّاه لا يَعتِقه عليه ، ولا يُزِيل عنه ملكه إلا بمثل ما وَجَب به مِلكُه[١] .

وأخرى : أنّ فى قَبول هديّةِ ذلك المَلِكِ ، وتلقّي كرامتِه بالإكرام تدبيراً وحكمة . فقد بطلت المسئلة ، والحمدُ لله كما هو أهله .

وقد رووا مع ذلك أيضا : أنّ زِنْباعًا الجُذَاميّ ، خصى عبداً له ، وأنّ النبي صلى الله عليه وسلم أعتقَه عليه فيما بلغنا والله أعلم .

وربّما سألوا عن الشيء وليس القولُ فيــــه يقَع فى نسَق القول فى الخصيّ ، وفى الخلْق المركّب ، ولكنْ إذ قد أجبْنا فى مسئلةٍ كلاميَّة من مسائل الطعْن فى النبوّة ، فلا بأسَ أن نُضيف إليها أخرى ، ولا سيّما إذا لم تَطُلْ فتَزِيدُ فى طُولِ الكتاب .

وقد لا يزال الطاعنُ يقول : قد علمْنا أنّ العربَ لم يَسمُّوا حروبَ أيّامِ الفِجار بالفجور[٢] وقريش خاصّة ، إلاّ أنّ القتال فى البلدِ الحرام، فى الشهر الحرام، كان عندهم فجورا ، وتلك حروبٌ قد شهدها النبيُّ صلى الله عليه وسلم

---

(١) ل « الا مثل ما يوجب له به ملكه » .

(٢) ط : « الفجور » .

وعلى آله ، وهو ابن أربعَ عشرةَ سنةً وابن أربعَ عشرة سنة يكونُ بالغا ،
وقال : « شَهِدْتُ الفِجارَ فكنْتُ أنبُلُ على عُمومتى » .

وجوابنا فى ذلك : أنَّ بنى عامر بن صعصعة ، طالبوا أهلَ الحرَم من قريشٍ وكِنانة ، بجريرة البرّاض بن قيس ، فى قتله عروة الرحّال ، وقد علموا أنّهم يُطالِبون مَنْ لم يجنِ ومن لم يعاوِنْ ، وأنَّ البرّاضَ بنَ قيس كان قبلَ ذلك خليعاً مطرودا ، فأتوهم إلى حَرَمهم يُلزِمونهم ذنبَ غيرهم ، فدافعوا عن أنفسِهم ، وعن أموالهم ، وعن ذراريهم ، والفاجر لا يكون المسْعِيّ عليه ، ولذلك أشهَدَالله تبارك وتعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام ذلك الموقف ، وبه نُصروا كما نُصِرت العربُ على فارِسَ يومَ ذى قارٍ ، به عليه الصلاه والسلام وبمخرجه . وهذان جوابان واضحان قريبان ، والله الموفّق للصواب ، وإليه المرجع والمآب .

(محاسن الخصى ومساوئه)

ثم رجَعَ بنا القولُ إلى ذِكرِ محاسِنِ الخَصىّ ومساويه .

الخصىُّ يَنْكِحُ ويتّخذ الجوارىَ ويشتدُّ شغفه بالنساء ، وشغفُهُنَّ به ، وهو وإن كان مجبوبَ العضو فإنّه قد بقى له ما عسى أن يكون فيه من ذلك ما هو أعجبُ إليهنّ . وقد يحتلم ويَخرجُ منه عند الوطء ماء ، ولكنّه قليلٌ ، متغيرٌ الريح ، رقيقٌ ضعيف . وهو يباشِرُ بمشقّة ، ثم لايمنعه من المعاوَدة الماء
٧٧ ألّذى يخرج منه إذْ كان قليل المقدار[1] لايخرجه من القوّة إلى الضعف ،

---

(١) فى الأصول : « إذا كان قليل المقدار » .

مثل ألذى يعترى من يخرج منه شىء يكون من إنسان ، وهو أخثَرُ، وأكثر، وأحدُّ ريحا ، وأصحُّ جوهراً .

والخصىُّ يجتمع فيه أمنيَّةُ المرأة ، وذلك أنَّها تبغض كلَّ سريع الإراقة ، بطىء الإفاقة ، كما تكره كلَّ ثقيل الصدر ، وخفيف العَجُز ، والخصىُّ هو السريع الإفاقة ، البطىء الإراقة، المأمونُ الإلقاح، فتقيمُ المرأةُ معه ، وهى آمِنة العار الأكبر ، فهذا أشدُّ لتوفير لذَّتها وشهوتها . وإذا ابتذلن الخِصيانَ ، وحَقَرن العبيد ، وذهبت الهيبةُ من قلوبهنّ، وتعظيمُ البعول ، والتصنُّع لذوى الأقدار باجتلاب الحياء وتكلُّفِ الخجل ، ظهَرَ كلُّ شىء فى قوى طبائعهنّ وشَهَواتهنّ ، فأمكنَهَا التَّخير[١] والصِّياح ، وأن تكون مَرَّةً من فوقُ ، ومرَّةً من أسفل ، وسمحت النفسُ بمكنونها ، وأظهرَتْ أقصى ماعندها .

وقد تجد فى النساء مَنْ تؤثِر النساء ، وتجدُ فيهنّ من تُؤثِر الرجال ، وتجد فيهنّ مَنْ تؤثِرُ الخِصيان ، وتجد فيهنّ من تجمَعُ ولا تفرِّق ، وتعمُّ ولا تخصُّ ، وكذلك شأنُ الرجال فى الرجال ، وفى النساء والخصيان . فالمرأة تنازِع إلى الخَصىّ لأنَّ أمرَه أسترُ وعاقبتَه أسلم ، وتحرِص عليه لأنَّه ممنوعٌ منها ، ولأنَّ ذلك حرام عليها ، فلها جاذبان : جاذبُ حرصٍ كما يُحْرَص على الممنوع ، وجاذبُ أمْنٍ كما يُرْغَب فى السلامة . وقال الأصمعىّ : قال يونس ابن عُبَيد[٢] : لوأُخِذْنا بالْجَزَع لصَبَرْنا . قال الشاعر :

---

(١) ط « الشخير » .

(٢) يونس بن عبيد من أصحاب ابن سيرين ، وكان بينهما مداعبة . روى فى عيون الأخبار ٣ : ٤١ أن يونس بن عبيد قال : أتيت ابن سيرين فدعوت الجارية فسمعته يقول : قولوا له إنى نائم — يريد سأنام — فقلت : معى خبيص . فقال : مكانك حتى أخرج إليك !.

وزادها كَلَفاً بالحبِّ أنْ منعتْ وَحَبُّ شيء إلى الإنسان مامُنِعا[1]

والحرصُ على الممنوعِ بابٌ لايَقْدِر على الاحتجاز منه ، والاحتراسِ من خُدَعه ، إلّا كلٌّ مبرِّز فى الفطنة ومتمهِّل [فى] العزيمة ، طويلِ التجارب ، فاضِل العقل على قُوَى الشهوات : وبئس الشىء القرينُ السوء . وقالوا : صاحب السَّوْء قِطعةٌ من النار .

وبابٌ من هذا الشكل ، فَبِكم أعظمُ حاجةٍ إلى أن تعرفوه وتقِفُوا عندَه ، وهو مايصنع[2] الخَبَرُ السابقُ إلى السمع ، ولا سيّما إذا صادفَ من السامع قلّةَ تجرِبة ، فإنْ قَرَن بين قلّةِ التجربةِ وقلّةِ التحفُّظ ، دخل ذلك الخبرُ السابقُ إلى مستقرِّه دُخولاً سهلاً ، وصادفَ موضعاً وطيئا ، وطبيعةً قابلة ، ونفسا ساكنة ؛ ومتى صادفَ القلبَ كذلك ، رسَخَ رسوخًا لاحيلة فى إزالته . ومتى أُلقِيَ إلى الفِتيان شىء من أمور الفَتيات ، فى وقت

٧٨ الغَرَارةِ ، وعند غلَبةِ الطبيعة ، وشبابِ الشهوةِ ، وقلّةِ التشاغُل ؛ وكذلك متى أُلقِي إلى الفِتيان شىء من أمورهنّ وأُمُورِ الغِلْمان ، وهناك سُكْر الشَّباب ، فكذلك تكون حالهم . وإنّ الشُّطّار ليَخلُو أحدُهم بالغلام الغَرِير فيقول له : لا يكون الغلامُ فتًى أبداً حتَّى يصادِف فتًى [وإلاّ فهو تِكّش ، والتكش عندهم ألذى لم يؤدّبه فتًى ولم يخرِّجه] ، فما الماء العذْبُ البارد ، بأسرعَ فى طباع العطشان ، من كلمته ، إذا كان للغُلام أدنَى هوًى فى

---

(١) ط « أحب » . ومشهور الرواية ومافى ل هو ما أثبت . وفى عيون الأخبار ٢ : ٣ : « وزاده » موضع « وزادها » وصواب الرواية « وزادنى » فان البيت للأحوص كما فى الأغانى ١١ : ٢٢ . وقبله :

كم من دنى لها قد صرت أتبعه ولو صحا القلب عنها كان لى تبعا

(٢) ط « يصنع » .

الفتوة(١) ، وأدنى داعية إلى المنالة(٢) ، وكذلك إذا خلت العجوز المدربة(٣) بالجارية الحدَثة [كيف تخلبها ، وأنشدنا :

فأتتها طَبَّــــــةٌ عالمةٌ تخلط الجدَّ بأصنافِ اللعب

ترفعُ الصوتَ إذا لانت لها وتَنَاهى عند سَوراتِ الغَضَب]

وقال الشاعر(٤) فيما يشبهُ وقوعَ الخَبَرِ السابق إلى القلب :

نقِّلْ فؤادَك حيثُ شِئْتَ مِنَ الهوى ما الحبُّ إلاَّ للحبيبِ الأوَّلِ

كم منزلٍ فى الأرضِ يألَفُه الفتي وحنينُهُ أبداً لأوَّلِ مَنْزِلِ

وقال مجنون بنى عامر :

أتانى هَوَاهاَ قَبْلَ أنْ أعرِفَ الهوىَ فصادفَ قلباً خالياً فتمكّنَا

(أثر التكرار فى خلق الإنسان)

وبابٌ آخر ممَّا يدعو إلى الفساد ، وهو طولُ وقوعِ البصرِ على الإنسان الذى فى طبعه أدنى قابلٍ ، وأدنى حركةٍ عند مثله ، وطولُ التدانى ، وكثرةُ الرؤيةِ هما أصلُ البلاء ، كما قيل لابنة الخُسّ : لم زَنيتِ بعبْدِك ولم تزنى بحرٍ(٥) ، وما أغْرَاكِ به ؟ قالت : طُولُ السِّوَاد ، وقُرْبُ الوِساد .

ولو أنَّ أقبحَ الناسِ وجهاً ، وأنتَنَهم ريحاً ، وأظهرَهم فقراً ، وأسقطَهم

---

(١) ط « الفتنة » .

(٢) ط « الشطارة » .

(٣) ط « المدربة » .

(٤) هو أبو تمام كما فى الأغانى ١٧ : ١٤٦ والبيتان فى ديوانه ٤٥٧ .

(٥) فى الأصل « ولم تزن بحر » والوجه ما كتبته .. وابنة الخس هى هند . ولها أخبار كثيرة فى البيان .

نفساً، وأوضعهم حسباً، قال لامرأةٍ قد تمكّنَ من كلامِها، ومكّنته من تمنّيها: وأللهِ يا مولاى وسيّدتى، لقد أسهرْتِ ليلى، وأرّقتِ عينى، وشغلْتِنى عن مُهمِّ أمرى، فما أعقِلُ أهلاً، ولا مالاً، ولا ولداً؛ لنقَضَ طِباعَها، ولفسخ عَقْدَها، ولو كانتْ أبرعَ الخلْقِ جمالاً، وأكملَهم كمالاً، وأملحهم مِلحا. فإنْ تهيّأَ مع ذلك مِن هذا المتعشِّق، أنْ تدمَع عينهُ، احتاجت هذه المرأة أن يكون معها ورَعُ أمِّ الدرداء، ومعاذة العدويّة، ورابعةَ القيسيَّة، والشجّاء[1] الخارجيَّة.

(زهد الناس فيما يملكونه ورغبتهم فيما ليس يملكونه)

وإنّما قال عمر بن الخطاب رضى ألله تعالى عنهُ: «اضربُوهنّ بالعُرْى». لأنّ الثيابَ هى المدعاةُ إلى الخُروج فى الأعراس، والقيامِ فى المَناحات، والظهورِ فى الأعياد، ومتَّى كثر خروجُها لم يعدَمها أن ترى من هو من شكل طبعها. ولو كان بعلُها أتمّ حسنا، والذى رأتْ أنقصَ حسنا، لكان مالا تملكه، أطرفَ ممّا تملكُه، ولكان ما لم تنلْه، ولم تستكثر منهُ، أشدَّ لها اشتغالا وأشد لها اجتذابا، ولذلك قال الشاعر:

٧٩. ولِلعين مَلْهًى بالتِّلادِ ولم يقُدْ هوى النفس شىءٌ كاقتيادِ الطرائفِ[2]

وقال سعيد بن مسلم: لأَنْ[3] يرى حرمتِى ألفُ رجل على حالٍ تُكشَف

---

(١) ل «الشجاء» وصوابه «الشجاء» كما فى ط. ولها حديث مع زياد فى الأمالى ٣: ١٧٤.

(٢) ط «ولم يقد» بدل «لم يقد» و«كاقتياد» موضع «كاقتياد».

(٣) ط «لئن».

منها وهي لا ترام ، أحبُّ إليّ من أن ترى حُرْمَتِي رجلاً واحـــداً غيرَ منكشف .

وقال الأوّل: لايضرُّك حُسْنُ من لم تعرف ؛ لأنّك إذا أتبعتها بصَرك ، وقد تقضت طبعك ، فعلمْتَ أنّك لاتتصـــل إليها بنفسك ولا بكتابك ولا برسولك ، كان ألذى رأيت منها كالحلم ، وكما يتصور للمتمنى ، فإذا انقضى ما هو فيهِ مِنَ المنى[1] ، ورجعت نفسُه إلى مكانها الأوّل ، لم يكن عليه من [فقدها إلاّ مثلُ] فقدِ ما رآه فى النوم ، أو مثّلته له الأمانىّ[2] .

(عقيل بن علفة و بناته)

وقيل لعَقيل بن عُلَّفة[3] : لو زوّجْتَ بناتِك ! فإنّ النساء لحمٌ على وَضَمٍ إذا لم يكنّ غانيات !! . قال : كلا ، إنِّى أُجيعُهنّ فلا يأشَرْنَ ، وأُعْرِيهنّ فلا يظهرْنَ[4] !! فوافقت إحدى كلمتيه قولَ النبي صلى ألله عليه وسلّمَ [ووافقت الأخرى قول عمر بن الخطاب ؛ لأن النبى صلى ألله عليه وسلّمَ قال] : « الصّوْمُ وِجَاء » . وقال عمر : استعينُوا عليهنّ بالعُرْى ؛ وقد جاء [فى الحديث : « وفّروا أشعارهن فإنّ] ترك الشعر مَجْفَرَة[5] .

---

(١) ط « ... كالخلسة إذ كان ذلك يقضى مافيه من المنى » وهو تحريف .

(٢) ط « الأمانى مؤنسة » .

(٣) ط « علقمة » وهى على الصواب فى ل . ولعقيل أخبار طريفة فى الأغانى ١١ : ٨١ — ٨٩ .

(٤) ط « يأثرن » موضع « يأشرن » و « يظهرهن » بدل « يظهرن » وما فيها تحريف .

(٥) مجفرة : قال أبو عبيد : يعنى مقطعة للنكاح ونقصا للماء . وانظر اللسان (جفر)

وقد أتينا على هذا الباب فى الموضع الذى ذكرنا فيه شأنَ الغَيرة ، وأوّلَ الفسادِ ، وكيف ينبُت ، وكيف يُحصَد .

(بعض ميول الخصيان)

وقد رأيتُ غيرَ خَصىٍّ يتلوَّط ، ويطلب الغلمان [فى المواضع ، ويخلوبهم ويأخذهم] على جهة الصداقة ، ويحمل فى ذلك الحديد ، ويقاتل دون السخول[١] ، ويتمشى مع الشطار .

وقد كانَ فى قطيعةِ الربيعِ خصىٌّ أثيرٌ عندَ مولاه ، عظيم المنزلة عنده ؛ وكان يثق به فى مِلْكِ يمينه ، وفى حُرَمه من بنتٍ وزوجةٍ وأختٍ ، لا يخصُّ شيئاً دونَ شيء ، فأشرَفَ ذاتَ يومٍ على مِرْبَدٍ له ، وفى المربد غنمٌ صفايا ، وقد شدَّ يدَى شاةٍ وركبها من مؤخَّرها يكومُها ، فلَّما أبصره بَرِقَ وبَعِلَ[٢] وسُقِط فى يديه ، وهجم عليه أمرٌ لو يكون رآه من خصىٍّ لعدوٍّ لَه[٣] لَمَا فارقَ ذلك الهولُ أبداً قلبَه ، فكيف وإنَّما عاينَ الذى عاين فيمَن كان يخلُفُه فى نسائه مِن حُرَمه ومِلْكِ يمينه . فبينا الرجلُ وهو واجم [حزين][٤] وهو ينظر[٥] إليه [وقد تحرّق عليه غيظاً] إذْ رَفَع الخصىُّ رأسَه ، فلمَّا أثبتَ مولاهُ مَرَّ مُسرِعا نحوَ باب الدار ليركَبَ رأسَه ، وكان المولى أقربَ إلى الباب منه ، فسبقه إليه ، وكان الموضعُ الذى رآه منه

---

(١) ط « السجون » .

(٢) كذا فى ل . وفى ط « بعد » ولاوجه له .. وأما (بعل) فهى بمعنى دهش وفرق فلم يدرما يصنع .

(٣) ط « لعدوه » .

(٤) موضع هذه الكلمة فى ط : « قد برق » .

(٥) ط « ينتظر » وهو تحريف .

موضعاً لا يُصعَد [إليه] فحدَثَ لشقائهِ أمرٌ لم يجدْ مولاه [معه] (١) بُدًّا من صُعودِه ، فلبثَ الخصيُّ ساعةً ينتفِض من حُمَّى ركِبتْهُ ثم فاظ ، ولم يُمسِ إلاَّ وهو فى القبر .

ولفرْط إرادتِهم النساء ، وبالحسرة التى نالتهم ، وبالأسف ألذى دخلَهم ، أبغَضُوا الفحولَ بأشدَّ مِنْ تباغُضِ الأعداءِ فيما بينهم ، حتَّى ليس بين الحاسدِ الباغى وبينَ أصحابِ النِّعَم المتظاهرة ، ولا بين المَاشى المنَّى ٨٠
وبينَ راكب الهِمْلاجِ الفارِه ، ولا بين ملوكٍ صاروا سُوقةً ، وبينَ سُوقَةٍ صاروا ملوكا ، ولا بينَ بنى الأعمام مع وقوع التنافسِ ، أو وقوعِ الحرب ، ولا بينَ الجِيرانِ والمتشاكلين فى الصناعات ، من الشنف والبغضاء ، بقدرِ ما يلتحف عليه الخِصيانُ للفحول (٢) .

وبُغضُ الخصيِّ للفَحل ، من شكل بُغض الحاسدِ لذِى النعمة ، وليس مِنْ شكل ما يولِّده التنافسُ وتُلحِقُه الجناياتِ .

(نسك طوائف من الناس)

ولرجالِ كلِّ فَنٍّ وضربٍ من الناس ، ضربٌ من النسك ، إذْ لابدَّ لأحدِهم من النزوع ، ومن تركِ طريقته الأولى : فنسك الخصيِّ غزْو الروم ، لِمَا أنْ كانوا هم ألذين خصَوهم ، ولزُومُ أَذَنة والرِّباطُ بطَرَسُوسَ وأشباهِها ، فظنَّ عند ذلك أهلُ الفِراسة أنَّ سببَ ذلك إنَّما كان لأنَّ الرُّومَ لِما كانوا هم ألذين خَصَوهم ، كانوا مغتاظين عليهم (٣) ، وكانت

---

(١) زيادة يفتقر إليها الكلام .

(٢) ط « المتشا كبين » موضع « والمتشا كلين » و « التنفير » موضع « الشنف » و « يلتحق » موضع « يلتحف » وما فيها محرف .

(٣) ط « متغايظين عليهم » .

متطلِّبَةً إلى التشفِّى منهم ، فأخرج لهم حبُّ التشفِّى شدَّةَ الاعتزام على قتلهم ، وعلى الإنفاقِ فى كلِّ شىء يَبلُغ منهم . ونُسكُ الخراسانىِّ أن يحُجَّ ، ونسكُ البنوى[١] ، أن يَدَع الديوان ، ونسكُ المغنِّى ، أن يُكثر التسبيحَ وهو يشربُ النبيذ ، والصلاةَ على النبي صلى الله عليه وسلم ، والصلاة فى جماعة . ونسك الرافضىِّ ، إظهارُ ترْك النبيذ ، ونسك السَّوادىِّ ، ترْكُ شربُ المطبوخ فقط . ونسكُ اليهودىِّ ، إقامة السبت ، ونسك المتكلِّم ، التسرُّع إلى إكفار أهل المعاصى ، وأنْ يرمَى الناسَ بالجبْر ، أو بالتعطيلِ ، أو بالزندقة ، يريد أن يوهم أموراً :

منها أنَّ ذلك ليس إلاّ من تعظيمه للدين ، والإغراق فيه ، ومنها أن يقال : لو كان نَطِفا ، أو مرتابا ، أو مجتنحا على بليَّة[٢] ، لمـا رمى الناسَ ، ولرضى منهم بالسلامة ، وما كان ليرميَهم إلاّ للعزِّ الذى فى قلبه ، ولو كان هناك من ذُلِّ الرِّيبة شىء لقطعَه ذلك [عن][٣] التعرُّض لهم ، أو التنبيه على ما عسى إنْ حرَّكهم له أنْ يتحرَّكوا . ولم نجدْ فى المتكلِّمين أنطفَ ولا أكثرَ عيوبا ، ممَّن يرمى خصومَه بالـكفر .

(أبو عبد الله الجماز وجارية آل جعفر)

وكان أبو عبد الله الجمَّاز ، وهو محمد بن عمرو[٤] ، يتعشَّق جاريةً

---

(١) فى القاموس : « الأبناء قوم من العجم سكنوا اليمن والنسبة أبناوى وبنوى محركة » وفى رسائل الجاحظ ١٥ ساسى مايفيد أنهم من خراسان .. وهى فى ط : « الجندى » .

(٢) «النطف» : الرجل المريب .. وفى ط : « مجحنا » بدل « مجتنحا » .

(٣) زيادة يقتضيها الكلام .

(٤) من أهل البصرة شاعر أديب ، كان ماجنا خبيث اللسان دخل بغداد أيام الرشيد.

لآلِ جعفر يقال لهـا طُغْيان ، وكان لهم خَصِيٌّ يحفظُها إذا أرادتْ بيوتَ
المغنِّين ، وكان الخصيُّ أشدَّ عشقاً لها من الجمَّاز ، وكان قد حال بينَه وبينَ ٨١
كلامِها ، والدنوِّ منها ، فقال الجماز [وكان اسم الخادم سنانا] .

ماللعَقِيتِ سِـــنانٍ   ولِلظِّباءِ المِــــلاحِ
لَبِئْسَ زانٍ خَصِيٌّ   غازٍ بغير ســـلاحِ(1)

وقال أيضاً فيه وفيها :

نَفْسِي الفداءُ لظبيٍ   يحبُّني وأُحبُّهْ
من أجلِ ذاكَ سِنانٌ   إذا رآني يَسُـــبُّهْ
هَبْهُ أجابَ سِـــناناً   يَنيكُهُ أينَ زُبُّهْ

وقال أيضاً فيهما :

ظبيٌ سنانٌ شريكي   فيـــه فبئسَ الشَّريكُ
فلا يَنيكُ سِنانٌ   ولا يَدَعْنا ننيكُ

(ما قيل من الشعر في الخصاء)

وقال الماخوري(2) يذكرُ محاسنَ خِصالِ الخصيان :

ونساءٌ لمطمئنٍّ مُقيمٍ   ورجالٌ إن كانت الأسفارُ

= وفي أيام المتوكل . وأعجب به المتوكل وأمر له بعشرة آلاف درهم فأخذها وانحدر فمات فرحا بها . تاريخ بغداد ١١٤٣ .

(1) ط « ليس خصي بزان » وفي ل : « أليس زان خصي » ورأيت الصواب فيما كتبت .

(2) ل « الباخرزي » .

[وقال حميد بن ثور يهجو امرأته :

جُلُبَّانَةٌ ورهاء تخصى حمارها بفِي من بغَى خيراً إليها الجلامد[١]]

وقال مزرِّد بن ضِرار :

[فجاءتْ كخاصي العَيرِ لم تَحْلَ عَاجةً ولا جَاجَةٌ منها تلُوحُ على وَشْمِ[٢]

وقال عمرو الخارَكى[٣]] :

إذا لامَ على المرد نصـــيحٌ زادنى حرصا
ولا والله ما أُقلِــع ما عمِّرت أو أُخْصىَ

وقال آخر[٤] :

رَمَاكَ اللهُ من أيْرٍ بأفعَى ولا عافاكَ من جَهْدِ البَلاء
جَزَاكَ اللهُ شَرًّا من رفيقٍ إذا بلغت بى رَكْبَ النساء
أَجُبْنًافى الكريهة حين نلقى وما تنفكُّ تُنعِظُ فى الخَــلاَء
فلا والله ما أمسَى رفيقِي ولولا البولُ عُوجِل بالخصاء

---

(١) الجلبانة : الصخابة السيئة الخلق . والورهاء : الحمقاء .

(٢) فى اللسان « أبو زيد : الجاجة الخرزة التى لا قيمة لها . غيره : ما رأيت عليه عاجة ولا جاجة . وأنشد لأبى خراش الهذلى يذكر امرأته وأنه عاتبها فاستحيت وجاءت إليه مستحية » . وأنشد البيت ثم قال : « يقال جاء فلان كخاصى العير : إذا جاء مستحيا وخائبا أيضا . والعاجة : الوقف من العاج تجعله المرأة فى يدها » . والبيت فى الأصل هكذا :

فجاءت كخاصى العير لم تحل حاجة ولا حاجة منها تلوح على وشم

وتصحيحه من اللسان فى مادتى (جوج) و (عوج) ومن الصحاح (جوج) ، ومن أمثال الميدانى (١ : ١٥٠) مع نسبته إلى أبى خراش الهذلى ، كما فى اللسان .

(٣) ياقوت فى (خارك) : « منهم الخاركى الشاعر فى أيام المأمون أو مايقاربها » .

(٤) الأبيات فى المحاسن للجاحظ ١٧٥ .

وقال بعض عبد القيس :

ما كانَ مُخدَمٌ ابنُ واهِصَةَ الْخُصى … يرجو المناكحَ فى بنى الجارودِ[١]

ومن انتكاسِ ٱلدهرِ أن زُوِّجتَها … ولكلِّ دهرٍ عــثرةٌ بجُدُودِ[٢]

لو كان منذرُ إذ خطبت إليهم … حيًّا لــكان خَصَاكَ بالمغمودِ ٨٢

وقال أبو عبيدة : حدَّثنى أبو الخطاب قال : كان عنــدنا رجلٌ أحدبُ فسقَطَ فى بئرٍ فذهبت حَدَبته وصار[٣] آدَرَ فقيل له : كيف تَجِدكَ[٤] ؟ [فقال] : ٱلذى جاء شرٌّ من ٱلّذِى ذهب .

وأبو الحسن عن بعض رجاله[٥] قال : خرج معاويةُ ذاتَ يومٍ يمشى ومَعه خَصِىٌّ له ، إذ دخلَ على ميسونَ ٱبنة بحــدل[٦] وهى أمُّ يزيد ، فاستترت منه فقال : أتستترين منــه ، وإنَّمــا هو مثلُ المرأة ؟ قالت : أتُرَى أنَّ المثلة به تُحِلُّ ما حرَّم ٱللّٰه تعالى .

(ذكر ما جاء فى خصاء الدوابّ)

ذكر آدمُ بن سليمان عن الشعبىّ قال : قرأت كتابَ عمر رضى ٱللّٰه

(١) ط «مخدم» وهما تحريف ما أثبت من ل . و «واهصة» تصحيح ما فى ل ، وهو « وابصة » . وجاءت هذه الكلمة فى ط « راضخة » والوهص والرضخ بمعنى ، وهو الدق . وانظر اللسان (وهص) .

(٢) ل « وجدود » ط « بهجود » والصواب ما أثبت . والجد : الحظ .

(٣) ط « صاد » وصوابه من ل .

(٤) ط « نجدك » وهو تحريف ما فى ل .

(٥) ط « رجال الأدب » .

(٦) ط « بجدل » وإنما هو « بحدل » بالحاء كما فى ل والأغانى والخزانة (٣ : ٥٩٣ بولاق) .

تعالى عنــه إلى سعد ، ينْهَى عن حذْف أذناب الخيل وأعرافها ، وعن خُصاتها ، ويأمره أن يُجرِيَ من رأس المـائتين وهو أربعة فراسخ .

وسفيان الثورى عن عاصم بن عبد ٱلله بن عمر[١] أنَّ عمر رضى ٱلله تعالى عنه كان ينهى عن خِصَاء البهائم ويقول : هل الإنمـاء إلاّ فى ٱلذكور .

وشريك ٱبن عبد ٱلله ، قال : أخبرنى إبراهيم بن المهاجر ، عن إبراهيم النَّخَعى أنّ عمرَ رضى ٱلله تعالى عنه نَهَى عن خصاءِ الخيل .

وسفيان الثورى عن إبراهيم بن المهاجِر قال : كتب عمرُ بن الخطاب رضى ٱلله تعالى عنـــه لبعض عماله : لا تُجرِيَنَّ فرساً إلاَّ من المـائتين ، ولا تَخْصِيَنَّ فرسا .

قال : وسمعتُ نافعاً يقول : كان عبد ٱلله بن عمر يكرَه خِصاءَ ٱلذكورِ من الإبل ، والبقر ، والغنم .

وعبيد ٱلله بن عمر عن نافع : أنَّ ٱبن عمر رضى ٱلله تعالى عنهما كان يكره الخصاء ويقول : لاتقطعوا نامية خَلْقِ ٱللهِ تعالى .

وعبيد ٱلله وأبو بكر ٱبنا نافع عن نافع قال : نهى رسول ٱلله صلى ٱلله عليهِ وسلم عن أن تُخصَى ذكورُ الخيلِ ، والإبلِ ، والبقر ، والغنم ، ويقول : فيها نشأة الخلق ولا تصلح الإناث إلاّ بالذكور .

---

(١) فى ل « عن عاصم بن عبد الله بن عاصم ، عن سالم بن عبد الله ، عن عبد الله ابن عمر » . وعاصم الذى يروى عنه الثورى هو عاصم بن سليمان الأحول البصرى المتوفى سنة اثنتين ـ أو ثلاث ـ وأربعين ومائة . كما فى تاريخ بغداد (٩ : ١٥٢ ، ١١ : ٢٤٣) . فنى الإسناد نظر .

ومحمد بن أبى ذائب[1] قال : سألت الزُّهرىَّ : هل بخِصاء البهائم بأس ؟ قال : أخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود ، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرِين ، نهى عن صَبْرِ الروح . قالَ الزُّهرىّ : والخِصاء صبرٌ شديد .

وأبو جعفرَ الرَّازىّ قال : حدَّثنا الرَّبيعُ بن أنس ، عن أنس بن مالك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ قال : هو الخِصاء ٨٣

وأبو جرير عن قتادة عن عِكرِمة عن ابن عبّاس نحوه .

أبو بكر الهذلىّ قال : سألتُ الحسنَ عن خِصاء الدواب فقال : تسألُنى عَن هذا ؟ لعن الله من خَصَى الرجال .

أبو بكر الهذلىُّ عن عِكرِمة فى قوله تعالى : ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ قال : خصاء الدواب . قال : وقال سعيد بن جبير : أخطأَ [عكرمة] هو دين الله .

نَصر بن طريف قال : حدَّثنا قَتادة عن عِكرمة فى قوله تعالى : ﴿ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ قال : خصاء البهائم . فبلغ مجاهداً فقال : كذَبَ هو دين الله .

فمن العجب أن الذى قال عكرمة هو الصواب ، ولو كان هو الخطأَ لما جازلأحد أن يقول [له كذبت . والناسُ لايضعون هذه الكلمةَ

---

(١) ط « ذؤيب » موضع « ذئب » ، وهو تحريف ماأثبت من ل . ومحمد هو ابن عبد الرحمن بن أبى ذئب . وأبو ذئب هو هشام بن شعبة . وترجمة محمد فى تاريخ بغداد (٢ : ٢٩٦ ـ ٣٠٥) والمعارف لابن قتيبة ٢١٣ . وانظر تأويل مختلف الحديث ص ١١ .

فى موضع خطأ الرأى ممّن يُظَنُّ به الاجتهاد ، وكان ممّن له أن يقول .
ولو أنَّ إنساناً سمع قولَ الله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللهِ ﴾ قال : إنَّما يعنى الخِصاء ، لم يقبل ذلك منه ؛ لأنَّ ٱللفظ ليست فيه دلالةٌ على شىء دونَ شىء ، وإذا كان ٱللفظُ عامًّا لم يكن لأحدٍ أن يقصِد به إلى شىء بعينه[١] إلاَّ أن يكون النبى صلى ٱلله عليه وسلم قال ذلك مع تلاوةِ الآية ، أو يكونَ جبريلُ عليهِ السلام قال ذلك للنبى صلى ٱلله عليه وسلم ؛ لأنَّ ٱلله تبارك وتعالى لايضمر[٢] ولا ينوى ، ولا يخصُّ ولا يعمُّ بالقصد ، وإنَّما ٱلدلالةُ [فى] بنيةِ الكلام نفسِه ، فصورة[٣] الكلام هو الإرادة وهو القصد ، وليس بينه وبين ٱلله تعالى عملٌ آخر كالذى يكون من الناس ، تعالى ٱللهُ عن قول المشبِّهة علوًّا كبيراً .

أبو جرير[٤] عن عمار بن أبى عمار[٥] أنَّ ٱبنَ عباسٍ قَالَ فى قوله تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللهِ﴾ قَالَ : هو الخصاء .

وأبو جرير عن قَتادة عن عِكرمة عن ٱبن عبّاسٍ مثله .

أبو داود النَّخَعِى ، عن محمَّدِ بن سعيدٍ ، عن عبادة بن نسى ، عن إبراهيم بن محيريز قَالَ : كان أحبَّ الخيلِ إلى سَلَفِ المسلمين ، فى عهد عمر ، وعثمان ، ومعاوية ، رضى ٱلله تعالى عنهم ، الخِصْيان ؛ فإنَّها أخفى للكَمينِ والطلائع ، وأبقى على الجَهْدِ .

---

(١) ط «بعيد» والوجه مافى ل .
(٢) ط «لايصر» .
(٣) ط «فصار» .
(٤) ل «جزء» فى كل موضع يذكر فيه «جرير» .
(٥) ل «عن عمار بن عمار» .

أبو جرير قال : أخبرنى ابن جُريج عن عطاء أنَّه لم يرَ بأساً بخصاء الدواب .

وأبو جرير عن أيُّوبَ عن ابن سيرين، أنَّه لم يكن يرى بأساً بالخصاء ، ويقول : لو تُرِكت الفحولةُ لأكل بعضُها بعضاً .

وعمر ويونس عن الحسن : أنّه لم يكن يرى بأساً بخصاءِ الدواب .

سفيان بن عُيينة عن ابن طاوس عن أبيه : أنَّه خَصى بعيراً .

[وسفيان بن عيينة عن مالك بن مِغوَل عن عطاء أنه سئل عن خصاء البغل فقال : إذا خفت عِضاضه] .

(أقوال فى النتاج المركب) ٨٤

ولْنَصِلْ هذا الكلام بالكلام الذى قبل هذا فى الخلق المركب [وفى تلاقح الأجناس المختلفة زعموا أن العِسبارَ ولد الضبع من الذئب وجمعه عسابر و] قال الكميت .

وتجمَّع المتـــــفرِّقُو ن من الفَرَاعِل والعَسابِرِ [١]

يرميهم بأنَّهم أخلاطٌ وَمُعَلهَجُونَ .

(السمع ولد الذئب من الضبع)

وزعموا أنّ السِّمع ولد الذئب من الضبع ، ويزعمون أنّ السِّمْع

(١) روى صاحب اللسان هذا البيت وقال : « فقد يكون — يعنى العسابر — جمع العسبر (كقنفذ) وقد يكون جمع عسبار وحذفت الياء للضرورة . والفرعل : ولد الضبع من الضبعان » يعنى الذكر من الضباع .

كالحيّةِ لاتعرف العِلَل ، ولا تموتُ حَتْفَ أنفها ، ولا تموت إلاّ بِعَرَضٍ يَعْرِض لها . ويَزْعمون أنّه لايَعدو شيء كعدو السِّمع ، وأنّه أسرعُ مِنَ الريح والطير .

وقالَ سهم بن حنظلة يصف فرسه :

فاعْصِ العواذل وارْمِ اللّيلَ فى عرض
بذى شَبيب يُقاسِى لَيْلَهُ خَبَبَا
كالسِّمع لم يَنقب البَيْطَار سرَّته ولم يَدِجْه ولم يَغمِز له عَصَبا[1]

وقَالَ ابْن كناسة[2] يصف فرسا :

كالعقاب الطلوبِ يَضْرِبُها الطلُّ وقد صَوَّبَتْ على عِسبارِ[3]

وقال سؤر الذئب[4] :

هو سِمْعٌ إذا تمطَّرَ شيئاً وعُقابٌ يحثُّها عِسبارُ

يقول : إذا اشتدَّ هربُ المطلوبِ الهارب من الطالب الجادّ ، فهو أحثُّ للطالب ؛ و إذا صار كذلك صار المطلوبُ حينئذٍ فى معنى من يحثُّ الطالب ، إذ صار إفراطُ سرعَتِهِ سببا لإفراط طالبِ العُقاب .

وقال تأبط شرًّا[5] [أو أبو محرز خلف بن حيّان الأحمر] .

---

(١) ط « ولم يرجه » موضع « ولم يدجه » والودج : قطع الودج : عرق فى العنق .

(٢) ط « أبو كناسة » وصوابه فى ل . وله ترجمة فى فهرست ابن النديم ٧١ ليبسك ، ١٠٥ مصر توفى سنة ٢٠٧ .

(٣) ط « والعقاب » .

(٤) البيت ساقط من ل .

(٥) ط « ابن أخت تأبط شرا » . والقصيدة فى حماسة أبى تمام (١ : ٣٤١ــ٣٤٧).

مُسْبِلٌ بالحىِّ أحوى رِفَلٌّ　　وإذا يَغْدُو فسِمْعٌ أَزَلُّ

وإنَّما قال أَزَلّ وجَعَلَه عاديا ووصفهُ بذلك ، لأنَّه ٱبن ٱلذئب .

وقال الأصمعى :

يدير عينى لمظةٍ عِسْبارَه(١)

وقال فى موضع آخر :

كأن منها طرفه استعارَه(٢)

وقال آخر :

تَلْقَى(٣) بها السِّمْعَ الأَزَلَّ الأطلَسَا

(الديسم ولد الذئب من الكلبة)

وزعموا أَنَّ ولدَ ٱلذئب من الكلبة ٱلدَّيْسَم ، ورووا لبشَّارِ بنِ بُرْدٍ فى دَيْسَم العَنزِىّ أنّه قال :

أَدَيْسَمُ ياٱبْنَ ٱلذئبِ مِنْ نسلِ زارعٍ
أَتَرْوِى هِجائِى سادراً غَيْرَ مُقْصِرِ

وزارع : اسم الكلب ، يقال للكلاب أولاد زارعٍ .

(زعم لأرسطو فى النتاج المركب)

وزعم صاحب المنطق أنّ أصنافاً أُخَرَ من السباع المتزاوِجات

(١) ط : « لاطة » موضع « لمظة » ولعل صوابهما « لظة » بمعنى ملحة، كما يظهر أن هناك كلاما ساقطا بعد «قال الأصمعى». تقديره « يقال عسبار وعسبارة. وأنشد» وأن عبارة « وقال فى موضع آخر » مقحمة على الكتاب .

(٢) ل « شباة » موضع « منها » .

(٣) ط « يلق ».

٨٥ المتلاقحات مع اُختلاف الجنس والصورة ، معروفة النتاج مثل اُلذئاب التى تسفِد الـكلابَ فى أرض رُومِيَة قال : وتتولَّد أيضا كلابٌ سَلوقيةٌ من ثعالبَ وكلاب . قال : و بين الحيوان اُلذى يسمَّى باليونانيَّة طاغريس[1] و بين الـكلب ، تحدث هذه الـكلابُ الهندية . قال : وليس يكون ذلك من الولادة الأُولى .

[قال أبو عُ ن : عن بعض البصريين عن أصحابه قال : وزعموا] أنَّ نِتاجَ الأُولَى يخرُج صعباً وحشيًّا لايلقَّن[2] ولا يؤلَّف .

(تلاقح السبع والـكلبة)

وزعم [لى بعضهم عن رجلٍ من أهل الـكوفة من بنى تميم] أنَّ الـكلبةَ تعرِض لهذا السبع حتَّى تلقَح ، ثم تعرض لمثله مراراً حتى يكون جرو البطن الثالث قليلَ الصعوبة يقبلُ التلقين ، وأنَّهم يأخذون إناثَ الـكلاب ، ويربطونها فى تلك البرارىّ ، فتجىء هذه السباعُ وتسفَدُها ، وليس فى الأرض أنثى يُجتَمَع على حبِّ سفادها ، ولا ذكرٌ يجتمع له من النزوع إلى سفاد الأجناسِ المختلفة ، أكثرَ فى ذلك من الكلب والكلبة .

قال : وإذا رَبَطوا هذه الـكلابَ الإناثَ فى تلك البرارى ، فإن كانت هذه السباع هائجةً سفِدَتها ، وإن لم يكن السبع هائجاً فالـكلبة مأكولة . وقال أبو عدنان[3] :

---

(١) كذا فى نهاية الأرب ٩ : ٢٥٦ و ل ، وفى ط : «طاعوس» .

(٢) كذا فى ل ونهاية الأرب . وفى ط « يألف » .

(٣) قال الجاحظ فى شأنه : « وما كان عنـدنا بالبصرة رجلان أدرى بصنوف العلم ، ولا أحسن بيانا من أبى الوزير، وأبى عدنان المعلمين ، وحالهما من أول ما أذكر =

أيا باكىَ الأطلالِ فى رَسْمِ دمنةٍ
تَرُودُ بها عِينُ المَهَا والجآذِرُ
وعاناتُ جَوّال وهَيْقٌ سَفَنَّجٌ وسنداوة فضفاضة وحَضَاجِرُ[(١)]
وَسِمْعٌ خَفِيُّ الرِّزّ ثِلبٌ ودَوْبَلٌ
وَتُرْمَـلَةٌ تعتادها وعَسابِرُ[(٢)]

وقد سمعنا ماقال صاحبُ المنطق من قبل ، وما نظنٌّ بمثله أن يخلِّد على نفسهِ فى الـكتب شهاداتٍ لايحقِّقُها الامتحان ، ولا يعرِف صدقَها أشباهُه من العلماء ، وما عندَنا فى معرفةِ ما ادَّعى إلاّ هذا القول .

وأمَّا الذين ذَكروا فى أشعارهم السِّمْع والعِسبار ، فليس فى ظاهر كلامِهم دليلٌ على ما ادَّعى عليهم الناسُ من هـذا التركيب المختلف ، فأدَّينا ألذى قالوا وأمسكْنا عن الشهادة ، إذ لم نجد عليها بُرهانا .

(أولاد السعلاة)

وللنَّاس فى هذا الضَّرْب ضروبٌ من الدعوى ، وعلماء السوء يُظهِرون تجويزَها وتحقيقَها ، كالذى يدَّعون من أولاد السَّعَالِى من الناس ، كما ذكروا عن عمرو بن يربوع، وكما يروى أبو زيدٍ النحوىُّ عن السِّعلاة:

= من أيام الصبا » البيان ١ : ١٧٥ ، وقد عده ابن النديم ممن صنف فى غريب الحديث . الفهرست ٨٧ ليبسك ، ١٢٩ مصر .

(١) السنداوة : الذئبة كما فى الدميرى . والفضفاضة : اللحيمة الجسيمة . وبدلها فى ط : « تصبي به » . وحضاجر : اسم للضبع أو لولدها ، معرفة لاينصرف لأنه اسم لواحد على بنية الجمع .

(٢) ط « ثبت » مكان « ثلب » . فى القاموس : الثلب بالكسر وككتف : المعيب .

التي أقامت فى بنى تميم حتي وَلَدت فيهم ، فلمَّا رأتْ برقًا يلمَعُ من شقِّ بلاد السَّعالِي ، حنَّت وطارت إليهم فقال شاعرهم[(١)] :

رأى بَرْقًا فأوْضعَ فَوْقَ بَكْرٍ ... فَلاَ بِكِ ما أسال وما أغاما[(٢)]

وأنشدنى أن الجنَّ طرقوا بعضَهم فقال[(٣)] : ٨٦

أَتَوا نارى فَقُلْتَ مَنُونَ أنتمْ ... فقالوا الجِنُّ قلتُ عِمُوا ظَلاما

فقلتُ إلى الطَّعام فقال منهم ... زعيمٌ نَحْسُدُ الإنسَ الطَّعاما

ولم أعِبِ الرواية ، و إنَّما عبتُ الإيمانَ بها ، والتوكيدَ لمعانيها . فما أكثَرَ من يَروى هذا الضربَ على التعجُّبِ منه ، وعلى أن يجعَلَ الرواية [له] سبباً لتعريفِ النَّاس حقَّ ذلك من باطِلِه ، وأبو زيدٍ وأشباهُه مأمونون على النَّاس ؛ إلاّ أنَّ كلَّ من لم يكن متكلِّما حاذقًا ، وكان عند العلماء قدوةً و إماما ، فما أقرَبَ إفسادَه لهم من إفسادِ المتعمِّد لإفسادهم .

وأنشدوا فى تثبيتِ أولاد السعلاة :

تقول جمع من بُوان وو َتِد ... وحَسَنٌ أنْ كَلَّفْتَنِي مَا أجدْ[(٤)]

وَلَمْ تقل جِيء بأبَانٍ أو أُحُدْ[(٥)] ... أو ولِدِ السِّعلاةِ أوجِرو الأسَدْ

أو ملكِ الأعجام مأسوراً بقِدْ[(٦)]

---

(١) هو عمرو بن يربوع بن حنظلة كما فى نوادر أبى زيد ١٤٦ .

(٢) ط : « فلأيا » موضع « فلابك » وما أثبته من ل ومن النوادر .

(٣) الشعر لشمير (أو سمير) بن الحارث الضبي كما فى النوادر ١٢٣ وخزانة الأدب ٣ : ٣ بولاق وانظر الخزانة ٣ : ٦ .

(٤) ط : « أقول » مكان « تقول » وفى ل « وحسن كلفتنى ... » ، وفى كلتيهما « مالمأجد » وهو تحريف .

(٥) ط « مالمتقل » موضع « ولم تقل » .

(٦) ل « الأعجم » ابن منظور : رجل أعجم وقوم أعجم قال :

سلوم لو أصبحت وسط الأعجم ... فىالروم أو فىفارس أو فى الديلم

إذا لزرناك ولو بسلم

وقال آخر[١] :

يا قاتَلَ اللهُ بَنِي السِّعلاةِ عمراً وقابوساً شِرَارَ النَّاتِ

(ما زعموا فى جرهم)

وذكروا أنَّ جُرْهُماً كان من نِتاج ما بين الملائكة و بنات آدم ، وكان المَلَكُ من الملائكة إذا عصى ربَّه فى السماء أهبَطَه إلى الأرضِ فى صورةِ رجل ، وفى طبيعته ، كما صنع بهاروت وماروت حين كان من شأنهما وشأنِ الزُّهَرة ، وهى أناهيد[٢] ما كان ، فلمّا عصى اللهَ تعالى بعضُ الملائكة وأهبطَه إلى الأرض فى صورةِ رجل ، تزوَّج أمَّ جُرْهمٍ فولدتْ له جُرهما ، ولذلك قال شاعرهم :

لاهُمَّ إنَّ جُرْهُما عِبادُكا الناس طارفٌ وهُمْ تِلادُكا[٣]

(ما زعموا فى بلقيس وذى القرنين)

ومن هذا النسل ومن هذا التركيب والنجل[٤] كانت بِلْقِيسُ ملكةُ

---

(١) هو علباء ابن رقم كما فى النوادر ١٠٤ . والبيت الثانى يروى بدله فى الأمالى ٢ : ٦٨ :

عمرو بن يربوع شرار النات

(٢) هذه الكلمة وما قبلها ساقطتان من ل . وقد ذكر الخوارزمى فى مفاتيح العلوم ١٢٢ أسماء الكواكب بالفارسية ، فقال : « كيوان ، هرمز ، بهرام ، خور ، ناهيد ، تير ، ماه » بمعنى زحل ، المشترى ، المريخ ، الشمس ، الزهرة ، عطارد ، القمر .

(٣) ل « طرف » موضع « طارف » .

(٤) ط « النحل » وصوابه « النجل » كما فى ل .

سبأ ، وكذلك كان ذو القرنين كانت أُمُّه فيرى آدميَّة وأبوه عبرى[١] من الملائكة . ولذلك[٢] لما سمع عمرُ بن الخطَّاب رضى الله تعالى عنه رجلاً ينادى ياذا القرنين ، فقال : أفرَغْتُمْ من أسماء الأنبياء فارتفعتم إلى أسماء الملائكة .

وروى المختارُ[٣] بن أبى عبيد أنَّ عليًّا كان إذا ذَكَرَ ذا القرنين قال : ذلك الملَكُ الأمرط . ٨٧

(ما زعموا فى تلاقح الجن والإنس)

وزعموا أنَّ التناكُح والتلاقُح قد يقع بين الجنِّ والإنس ، لقوله تعالى: ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ . وذلك أن الجِنِّيَّاتِ إنَّما تعرض لصَرْعِ رجالِ الإنس على جهة التعشُّق وطلبِ السِّفاد[٤] ، وكذلك رجال الجنِّ لنساء بنى آدم ، ولولا ذلك لعرض الرِّجالُ للرِّجال ، والنساء للنساء ، ونساؤهم للرجال والنساء .

ومن زعَم أن الصَّرْعَ من المِرَّة ، ردَّ قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ وقال تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ فلو كان الجانُّ لا يفتضُّ

---

(١) فى ل : « قبرى » بدل « فيرى » وهى فى رسائل الجاحظ ٩٧ ساسى « قيرى » . و « عبرى » بدلها فى الرسائل : « عيرى » .

(٢) ط « وكذلك » .

(٣) هو المختار الثقفى من زعماء الثائرين على بنى أمية ، وكان يقال له كيسان وإليه تنسب الطائفة الكيسانية . توفى سنة ٦٧ .

(٤) ل « الفساد » وليس بشىء .

الآدميَّاتِ ، ولم يكنْ ذلك قطُّ، وليس ذلك فى تركيبه ، لَما قال الله تعالى هذا القول .

(ما زعموا فى النسناس وغيره)

وزعموا أنّ النَّسْنَاسَ تركيبُ مابين الشّق والإنسان . ويزعمون أنَّ خلقاً من وراء السدّ تركيبٌ من النَّسْنَاسِ ، والناس ، والشقّ ، ويأجوج ومأْجوج . وذكروا عن الوَاق والدوالباى(١) أنهُمْ نِتاجُ ما بينَ بعض النّباتِ والحيوان . وذكروا : أنَّ أمّةً كانت فى الأرض ، فأمرَ الله تعالى الملائكة فأجلوهم ؛ وإيّاهم عنَوا بقولهم : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ . ولذلك قال الله عزّوجلّ لآدم وحواء: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فهذا يدلُّ على أن ظالما وظلماً قد كان فى الأرض .

قال الأصمعىُّ — أو خلفٌ — فى أرجوزة مشهورة ، ذكرَ فيها طُولَ عمرِ الحيَّة :

أرْقَشُ إنْ أُسبطَ أو تَثَنَّى ۞ حَسِبْتَ وَرْساً خالطَ اليَرَنَّا(٢)
خالطَهُ مِنْ هاهُنَا وَهَنَّا ۞ إذا تراءاهُ الحواةُ أُسْتَنَّا(٣)

قال : وكان يقال لتلك الأمّة مهنا(٤) .

(١) ط « الدوال » ل : «الدوال بأى» وما هنا من رسائل الجاحظ ١٠٧ ساسى .
(٢) الورس : نبت أصفر يزرع باليمن ويصبغ به . وقيل : صنف من الكركم . كذا فى المصباح . واليرنأ : الحناء .
(٣) ط « إذا أتى إد الحداة استنا » واستن : أسرع .
(٤) ط « يهنا » وفى رسائل الجاحظ ٩٩ « بهيا » .

(قول المجوس فى بدء الخلق)

وزعم المجوس أنَّ الناسَ من ولد مهنة ومهنينة ، وأنَّهما تولدا فيما بينَ أرحام الأرَضين ، ونطفتين ابتدرتا[١] من عينَي ابن هُرْمز حين قتله هرمز ، وحماقات أصحابِ الاثنيَن كثيرةٌ فِى هذا الباب ، ولولا أنِّى أحببْتُ أن تسمعَ نوعا من الكلام ، ومبلغَ الرأى ، لتُحدِثَ لله تعالى شكراً على السلامة ، لما ذكرتُ لك كثيراً من هذا الجنس .

(عبد الله بن هلال صديق إبليس وختنه)

وزعم ابن هيثم أنَّه رأى بالكوفة فتًى من ولد عبد الله بن هِلال الحميرى[٢] ، صديقِ إبليس وخَتَنِه ، وأنَّهم كانوا لا يشكُّون أنَّ إبليسَ جَدُّه من قِبَل أمَّهاتِهِ . وسنقولُ فى ذلك بالذى يجبُ إن شاء الله تعالى . وصِلَةُ هذا الكلام تجيء بعد هذا إن شاء الله تعالى .

(حوار فى الكلب والديك)

٨٨ وقلت : ولو تمَّ للكلب معنى السبع وطباعه ، لما ألف الإنسانَ ، واستوحش من السبع ، وكرِه الغياض ، وألِف الدُّور ، واستوحَشَ من البرارِى وجانب القفار ، وألِفَ المجالسَ والدِّيار ؛ ولو تمَّ له معنى البهيمة

---

(١) ط « انتدرتا » .

(٢) كان فى زمن الحجاج ، وكان صاحب شعبذة ونيرنجات ، يدعى أن إبليس يتراءى له ويصادقه ويكاتبه ويطلعه على أسراره . ثمار القلوب ٥٧ .

فى الطبع والخلق والغِذاء ، لما أكل الحيوانَ ، وكَلِب على النّاس . نعمْ حتّى رُبّما كَلِب وَوَثَبَ على صاحبِه وكابَ على أهله . وقد ذكر ذلك طرفةُ فقال :

كُنْتَ لنَا والدُّهورَ آونةً تَقْتُلُ حالَ النَّعيمِ بالبُؤُسِ
ككَلْبِ طَسْمٍ وقدتَرَبَّبه[١] يَعُلُّه بالحَليبِ فى الغَلَسِ
ظلَّ عليه يوما يُفَرْفِرُه إلاَّ يَلَغْ فى الدماءِ يَنْتَهِسِ

وقال حاجب بن دينار[٢] المازِنيُّ فى مثلِ ذلك :

وكم من عدُوٍّ قد أعنتمْ عليكمُ بمالٍ وسُلطانٍ إذا سَلِمَ الحَبْل
كذِى الكلبِ لمَّا أسمَنَ الكَلْبَ رابَهُ
بإِحدى الدَّواهى حينَ فارَقَه الجهلُ

وقال عوف بن الأحوص[٣] :

فإنِّى وقيساً كالمسمِّنِ كَلْبَه تُخَدِّشُهُ أنيابُه وأظافِرُه

وأنشد ابن الأعرابى لبعضهم[٤] :

وَهُمْ سَمَّنُوا كلباً ليأكُلَ بعضَهمْ ولو ظَفِروا بالحزْمِ مَا سَمَّنَ الكَلْبُ

وفى المثل[٥] « سَمِّن كَلْبَكَ يأكُلْكَ »

---

(١) ط « بربيه » . والأبيات ليست فى ديوان طرفة . والبيت الثانى والثالث فى ثمار القلوب ٣١٤ وفيه حديث عن كلب طسم .

(٢) ط « ذيبان » وإنما هو « دينار » كما فى ل .

(٣) انظر يوم الفروق فى مجمع الأمثال ٢ : ٥٧ . وقيس المذكور فى البيت هو قيس بن زهير . والرواية فى مجمع الأمثال ، وفى ثمار القلوب ٣١٥ « تخدشه أنيابه وأظافره » .

(٤) هو مالك بن أسماء كما فى الثمار ٣١٥ .

(٥) ط « الأثر » .

وكان رجلٌ من أهلِ الشام مع الحجَّاج بن يوسف ، وكان يحضُر طعامَه ، فكتب إلى أهله يخبرُهم بما هو فيه من الخِصْب ، وأنه قد سَمِن فكتبت إليه امرأته(١) :

أتُهدِى لىَ القِرطَاسَ والخُبْزُ حاجَتِى ... وأنتَ على بابِ الأمــيرِ بَطِينُ

إذا غِبْتَ لم تَذْكُرْ صَدِيقًا وإن تقم ... فأنتَ على ما فى يَدَيك ضَنِينُ

فأنت كَكَلْبِ السَّوْء فى جُوعِ أهلِه ... فيُهْزَلُ أهلُ الكلب وهو سَمِينُ

وفى المثل : « سمن كلب فى جوعِ أهلِه » ، وذلك أنه عند السُّــواف(٢) يصيب المال ، والإخداجِ(٣) يعرض للنُّوق [يأكُلُ الجِيفَ فيسمَنَ(٤)]. وعلى أنه حارِسٌ مُحتَرَسٌ منه ، ومؤنسٌ شديد الإيحاشِ من نفسه ، وأليفٌ كثير الخيانةِ على إلفه . وإنما اقتنوه على أنْ ينذِرَهم بموضع السارق ،

٨٩ وتركوا طَرده لينبههُم(٥) على مكان المبيِّت [وهو أسرقُ من كل سارقٍ ، وأدومُ جِــنايةً من ذلك المبيِّت] ويدلُّ على أنَّه سروقٌ عنــدَهم ، قولُ الشاعر :

أفِى أنْ سرَى كلبٌ فبيَّت جُلَّةً ... وجَبْجَبةً للوَطب لَيْلَى تُطَلَّقُ(٦)

---

(١) الخبر والأبيات فى أمالى القالى ٢ : ١٣٦ مع اختلاف فى الرواية .

(٢) ط « الصواف » وإنما هو « السواف » كما فى ل . والسواف كغراب : الموتان فى الإبل .

(٣) أخدجت الناقة : أتت بولد ناقص .

(٤) زدتها ليتم الكلام ، اعتمادا على ما فى نوادر أبى زيد ٢٤٨ ، وأمثال الميدانى (٢٦:١٢) .

(٥) فى الأصل « لينبئهم » ولم يعهد تعدية هذا الفعل بعلى . وأثبت ما فى نهاية الأرب .

(٦) ط « أخى » بدل « أفى » ، و « حلة » مكان « جلة » . وتصحيح البيت من ل واللسان (جبب) . وفيه « سلمى » موضع « ليلى » . والجلة ، بالضم : وعاء يتخذ من الخوص يوضع فيه التمر ويكنز . والجبجبة ، بفتح الجيمين أوضمهما: الكرش يجعل فيه اللحم المقطع يتزود به فى الأسفار . وقال ابن الأعرابى : هو جلد جنب البعير يقوَّر ويجعل فيه اللحم الذى يدعى الوشيقة . والوشيقة : لحم يغلى إغلاءة ثم يقدد ، فهو أبقى مايكون .

فهو سَرَّاق ، وصاحب بَيات ، وهو نَبَّاشٌ ، وآ كلُ لحوم النَّاس . ألاَ إنّه يجمعُ سرقة الليل مع سرقة النّهار ، ثم لاتجده أبداً يمشى فى خِزانةٍ ، أو مطبَخ ، أو عَرْصةِ دار ، أو فى طريقٍ ، أو فى بَرارىّ ، أو فى ظهرِ جبل ، أو فى بَطْن وادٍ ، إلاَّ وخطمهُ فى الأرض يتشمَّم ويستروِح ، وإنْ كانت الأرضُ بيضاء حصَّاء[1] ودَوِّيّةً ملساء ، أوصخرةً خلقاء ؛ حرصاً وجشعاً ، وشرهاً وطمعا . نعم حتَّى لاتجده أيضا يرى كلبا إلاَّ اشتمَّ استَه ، ولا يتشمَّم غيرها منهُ ، ولا تراه يُرمَى بحجر أيضاً أبداً إلاَّ رجع إليه فعضَّ عليه ؛ لأنَّه لمَّا كان لايكاد يأ كلُ إلاَّ شيئا رمَوا به [إليه] صار ينسَى لِفَرْط شرَهه وغلَبة الجشع على طبعه ، أنَّ الراميَ إنَّما أراد عقْره أو قتلَه ، فيظنّ لذلك أنَّه إنَّما أراد إطعامه والإحسانَ إليه . كذلك يخيِّل إليه فرْطُ النَّهم وتوهمُه غلبةُ الشَّرَه ، ولـكنَّه رمَى بنفسِه على الناس عجزاً ولؤمًا ، وفُسولةً ونقصاً ، وخافَ السباعَ واستوحش من الصحارى .

وَلَمَّا سمعوا بعضَ المفسرِّين يقول فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ إنَّ المحروم هو الـكلب؛ وسمِعوا فى المثل : « اصنعُوا المعروفَ ولو إلى الـكلب » عَطفُوا عليه واتّخَذوه فى الدُّور . وعلى أنَّ ذلك لا يكون إلاَّ من سِفْلتهم وأغبيائهم ، ومن قلَّ تقزُّزُه[2] وكثُرجهلُه ، وردَّ الآثارَ إمَّا جهلاً و إمَّا معانَدة .

وأما الديك فمِن بهائم الطير وبغاثها ، ومن كُلولِها والعِيال على .

(١) ط « وحصباء » والوجه ما أثبت من ل كما فى نهاية الأرب ٩ : ٢٥٧ نقلا عن الحيوان . والحصاء : الجرداء .

(٢) ط « تقذره » .

أربابها ، وليس مِنْ أحرارها ولا مِنْ عِتاقِها وجوارحها ، ولا مِمَّا(١) يطرِب بصوته ويُشجِي بلحنه ، كالقَمارىّ والدَّباسىّ والشَّفَانين(٢) والوراشِين والبلابل والفواخت ، ولا مِمَّا يُونِق بمنظره ويمتع الأبصارَ حسنُهُ ، كالطواويس والتَّدارِج ، ولا مما يعجِب بهدايته ويُعقَد الذمام بإلْفه ونِزاعه ، وشدَّةِ أُنسه وحنينه ، وتُريده بإرادته لك ، وتَعطِف عليه لحبِّه إياك ، كالحمام . ولا هو أيضاً من ذوات(٣) الطيران منها ، فهو طائرٌ لايطير ، وبهيمةٌ لايَصيد ، ولا هو أيضاً مما يكون صيداً فيمْتِع من هذه الجهة ويُراد لهذه اللذَّة .

والخُفَّاش ، أمرَطُ ، وهو جيِّدُ الطيَران ، والديكُ كاس وهو لايطير .

وأىُّ شىء أعجبُ من ذى ريشٍ أرضىٍّ ، ومن ذى جلدةٍ هوائىّ .

٩٠ وأجمعُ الخلقِ لخصال الخير الإنسان ، وليس الزِّواجُ إلاّ فى الإنسان وفى الطير ، فلو كان الديكُ من غير الطير ثمَّ كان ممَّن لايزاوج ، لقد كان قد مُنِع هذه الفضيلة وعَدِم هذه المشاكَلة الغريبة ، وحُرِم هذا السَّبَبَ الكريم والشِّبْه المحمود . فكيف وهو لايزاوج ، وهو من الطيرِ الذى ليس الزواجُ والإلْف وثباتُ العهْد ، وطَلَبُ الذرء وحبُّ النَّسل ، والرجوعُ إلى السكن والحنين إلى الوطن — إلاّ له وللإنسان . وكلُّ شىء لايزاوج فإنَّما دخله النقصُ وخسِر هذه الفضيلةَ من جهةٍ واحدة ، وقد دخل الديكَ

(١) ط « ممن » وكذلك يتكرر هذا الخطأ فى كل موضع أنت فيه « مما » . وقد جاء على الصواب الذى أثبته ، فى ل .

(٢) ط « الشفانين » وصوابه بالفاء كما فى ل . وهو جمع شفنين بالكسر ، وقد تحدث عنه الجاحظ فى ٣ : ١٦٢ ، ٧ : ٢١ ، ٥٦ من الحيوان الطبعة الأولى وكذلك الدميرى .

(٣) فى الأصل : « ذوى » ولا يكون ذلك إلا للعاقلين والوجه ما أثبت .

النقص مِنْ جهتين، ووصف أبو الأخزر الحِمّانيُّ الحِمَارَ وعَيْرَ العانةِ خاصَّةً[١] ، فإنَّه أمثلُ في باب المعرفة من الأهْليّ ، فذكر كيف يضرِب في الأُتُن ، ووصَفَ استبهامَه عن طلب الولد ، وجهلَه بموْضِع الذَّرْء ، وأنَّ الولدَ لم يجئْ منه عن طلبٍ له ، ولكن النطفة البريئة من الأسقام ، إذا لاقت الأرحامَ البريئةَ مِن الأسقام حدَث النِّتاج على الخلقة ، وعلى ما سوِّيت عليه البِنية[٢] . وذكر أنّ نزوَه على الأُتان ، من شكل نَزْوه على العير ، وإنّما ذلك على قدْر ما يحضُره من الشَّبَق ، ثمّ لا يلتفِت إلى دُبُرٍ من قُبُل وإلى ما يَلقَحُ [من مثلِه ممّا لا يُلقَحُ] فقال :

* لا مُبْتَغِي الضِّنْءِ ولا بالعازل[٣] *

يقول : هو لا يريد الولَد ولا يعزل .

والأشياء التى تألفُ الناسَ ولا تريدُ سِواهم ، ولا تحنُّ إلى غيرهم ، كالعصفور والخُطّاف والكلْب والسِّنَّور. والدِّيك لا يألَفُ منزِلَه ولا ربْعه ولا يُنازِع[٤] إلى دجاجته ولا طَرُوقته ، ولا يحنُّ إلى ولده ، بل لم يَدْرِ قطُّ أنَّ له ولداً ؛ ولو درَى لكان على درَايته دليل فإذ قد وجدناه لبيضِه[٥] وفراريجه الكائنةِ منه، كما نجدُه لما لم يلدْه ولِما ليسَ من شَكلِه ولا يرجِع إلى نسبه ، فكيف تُعرَف الأمور إلاّ بهذا وشبهه. وهو مع ذلك

---

(١) ط « وغير العانة خاصة » وصوابه فى ل وانظر ص ٥٠ .

(٢) ط « عن » بدل « على » .

(٣) ط « لضنيء » .

(٤) كذا فى ل . وفى ط « يحن » فتضعف العبارة بالتكرار .

(٥) ط « فإذا وجدناه لبيضه » والوجه ما فى ل .

أبلَهُ لايعرِف أهلَ دارِه ، ومبهوتٌ لايُثْبِتُ وَجهَ صاحِبه ، وهو لم يُخْلَقْ إلاّ عندَه وفى ظلّه ، وفى طعامِه وشرابِه ، وتَحْتَ جناحه .

والـكلْبُ على ما فيه يعرفُ صاحبَهُ ، وهو والسِّنَّور يعرِفان أسماءهما ، ويألَفَان موضعَهما ، وإن طردا رجعا ، وإن أُجِيعا صَــبَرَا ، وإن أُهِينا احتملا .

والديك يكون فى ألدار من لَدُنْ كانَ فَرُّوجًا صغيراً إلى أن صارديكاً كبيراً ، وهو إن خرَج من باب ألدار وسقط على حائط من حيطان الجيران ، أو على موضعٍ من المواضع ، لم يعرِفْ كيف الرُّجوعُ ، وإن كان يُرَى منزلُه قريباً وسهل[1] المطلب يسيراً ، ولا يَذكُرُ ولا يتذَكَّرُ ،
٩١ ولايهتدى ولا يتصوَّرُ لَه كيف يكونُ الاهتداء ، ولو حنَّ لَطَلَبَ، ولواحتاج لالتمس . ولو كان هــذا الخُبْرُ فى طباعه لظَهَر ، ولـكنَّهَا طبيعةٌ بلهاء مستبهِمة طامحة[2] وذاهلة ، ثمّ يسفَدُ الدّجاجةَ ولا يعرفُها ، هذا مع شدَّةِ حاجته إليهنّ وحرصِه على السِّفاد ، والحاجةُ تفتقُ الحِيلةَ ، وَتَدُلُّ على المعرفة ، إلاّ ما عليه ألديك ؛ فإنَّه مع حِرصِهِ على السِّفاد ، لايعرفُ التى يسفَدَ ، ولا يقصِد إلى ولدٍ ، ولا يحضُن بيضاً ولا يعطِفُه رَحِمٌ ، فهو من هاهنا أحمقُ من الحُبارَى وأعقُّ من الضبِّ .

وقال عثمان بن عفّان رضى ألله تعالى عنه : « كلُّ شىء يحبُّ ولدَه حتَّى الحُبَارى » . فضرَب بها المثلَ كما ترى فى المُوقِ والغفْلة ، وفى الجهل والبَلَه ، وتقول العرب : « أعقُّ من الضَّبِّ » لأنَّه يأكلُ حُسُولَه .

---

(١) ط « وسبيل » .
(٢) لعلها « جامحة » .

(أكل الهرة أولادها)

وكرُمَ عند العرَب حظُّ الهِرَّة ، لقولهم : « أَبَرُّ مِنْ هِرَّة ، وأعقُّ مِنْ ضَبّ » فوجّهوا أكلَ الهرّةِ أولادَها على شدّة الحبّ لها ، ووجّهوا أكْلَ الضبّ لها على شدّةِ البغْض لها ، وليس ينجو منْهُ شىء منها إلاّ بشُغْلِه بأَكْلِ إخْوته عنه ، وليس يحرِمُها ممّا يأكلُها إلاّ ليأكلَها ، ولذلك قال العَمَلَّسُ بن عَقيل ، لأبيه[1] عقيل ابْن عُلَّفَة .

أكلْتَ بَنِيكَ أكْلَ الضَّبِّ حتَّى وَجدتَ مَرارةَ الكَلَإِ الوبيلِ
فلو أَنَّ الأُولى كانُوا شهودًا منعْتَ فِناءَ بيتك من بجيلِ

وقال أيضاً[2] :

أكلْت بَنِيك أكل الضَّبّ حتَّى تركت بَنِيك لَيْسَ لَهُمْ عَدِيل

وشبَّه السّيِّدُ بن محمَّد الحِميَرىُّ ، عائشةَ رضى الله تعالى عنها فى نصْبِها الحربَ يومَ الجملِ لقتال بنيها ، بالهرّةِ حين تأكلُ أولادَها ، فقال :

جاءتْ معَ الأَشْقَيْنَ فى هَوْدَجٍ تُزْجِى إلى البَصْرَةِ أجْنادَها
كأنَّها فى فِعلِها هِرَّةٌ تُرِيدُ أن تأكُلَ أولادَهَا

(رعاية الذئبة لولد الضبع)

وتقول العرب أيضاً : « أحمَقُ مِنْ جَهيزَة » وهى عِرس الذئب ؛ لأنّها تدعُ ولدها وترضع ولد الضبع .

قال : وهذا معنى قولِ ابْن جِذْل الطِّعَان[3] .

كَمُرْضِعَةٍ أولادَ أُخرَى وضيَّعَتْ بَنِيهَا فلم تَرْقع بذلك مَرْقَعا ٩٢

---

(١) ل « لابنه » والصواب ما فى ط ، وفى الأغانى ١١ : ٨٩ أن الشعر لأرطاة ابن سهية .

(٢) هذه الجملة والبيت بعدها ، ليسا فى ل .

(٣) ط « ابن جزل الطعات » وتصحيحه من ل والبيت فى الثمار ٣١٣ والرواية فيه « فلم تحسن بما فعلت صنعاً » وانظر حماسة البحترى ١٧٠

(رعاية الذئب لولد الضبع)

ويقولون : إنَّ الضبعَ إذا صِيدَت أو قُتلت ، فإنَّ الذئب يأتى أولادَها باللحم . وأنشد الكميت :

كما خَامَرَتْ فى حِضْنِها أمُّ عامرٍ   لِذِى الحبل حتى عَالَ أوسٌ عِيالَها[١]

وأوس هو الذئب . وقال فى ذلك :

فى كلِّ يومٍ من ذُؤَالَه   ضِغْثٌ يَزِيد على إبَالَه
فلأَحْشأنَّك مِشْقَصًا   أوساً أُوَيسُ من الهباله[٢]

الأوس : الإعطاء ، وأويس هو الذئب . وقال فى ذلك الهذلىّ[٣] :

ياليتَ شعرى عنك والأَمْرُ أَمَمْ   مافَعَلَ اليومَ أُوَيسٌ فى الغنمْ

وقال أُميّةُ بنُ أبى الصَّلْت :

وأبو اليتامى كانَ يُحْسِنُ أوسهم   وَيَحُوطُهم فى كلِّ عامٍ جامدِ[٤]

(حمق النعامة)

ويقولون : «أَحْمَقُ مِنْ نَعَامة» كما يقولون : «أَشْرَدُ مِنْ نعامة» قالوا ذلك لأنَّها تدَعُ الحَضْن على بيضِها ساعةَ الحاجة إلى الطُّعم ، فإن هى فى

---

(١) ل « لذى الحبل » وهى رواية ابن قتيبة فى عيون الأخبار ٢ : ٧٩ . وبرواية ابن منظور للبيت فى مادة (أوس) «غال أوس» ، وتفسيرها بقوله: «أكل جراءها» بذلك لا يصح الاستشهاد لما استشهد له الجاحظ .

(٢) ط « فلأحشونك » والصواب ما فى ل انظر أدب الكاتب ٥٧ والاقتضاب . وحشأه : رماه . والمشقص : سهم طويل أو عريض .

(٣) الشعر فى اللسان (رخم) منسوب إلى عمرو ذى الكلب . وهو هذلى كما فى الأغانى .

(٤) ط « جاحد » . والعام الجامد : عام الجدب والقحط وامتناع الغيث.

خروجِها ذلك رأتْ بيضَ أخرى قد خرجت للطُّعم ، حضَنت بيضَها ونسِيت بيضَ نفسها ، ولعلَّ تلك أن تُصادَ فلا ترجعُ إلى بيضها بالعَرَاء حتَّى تهلِك .

قالوا : ولذلك قال ابن هَرْمة[1] :

فإنِّى وتَرْكِى نَدَى الأكرَمِينَ   وَقَدْحِى بكَفِّى زَنْدًا شحَاحا

كتاركةٍ بيضَها بالعَرَاء   ومُلبِسةٍ بَيْضَ أُخْرَى جناحا

وقد تحضُن الحمامُ على بيض الدَّجاج ، وتحضُن الدَّجاجةُ بيضَ الطاوُس ، فأمَّا أن يَدَعَ بَيضَه ويحضُنَ بيضَ الدَّجاجة ، أو تدَعَ الدجاجةُ بيضَها وتحضُن بيضَ الطاوس فلا . فأمَّا فرُّوج الدَّجاجة إذا خرج من تحت الحمامة ؛ فإنَّه يكونُ أكيسَ ، وأمَّا الطاوُس الذى يخرج من تحت الدَّجاجة فيكون أقلَّ حسناً وأبغَضَ صوتاً .

(الفرخ والفروج)

وكلُّ بيضةٍ فى الأرض فإنَّ اسمَ الذى فيها والذى يخرُج منها فَرخ ، إلاَّ بيضَ الدَّجاج فإنَّه يسمى فرُّوجا ، ولا يسمَّى فرخا ، إلاَّ أنَّ الشعراء يجعلون الفرُّوج فرخًا على التوسُّع فى الكلام ، ويجوِّزون فى الشعر أشياء لا يجوِّزونها فى غير الشعر ، قال الشاعر :

لَعَمْرِى لَأَصْواتُ المَكَاكِىِّ بالضُّحَى   وسَودٌ تَدَاعَى بالعشىِّ نَوَاعِبُه[2] ٩٣

أحبُّ إلينا من فِراخِ دَجاجةٍ   وَمِنْ دِيكِ أنباطٍ تَنُوسُ غباغِبُه[3]

(١) تكلم فى هذا الشعر الثعالبى فى الثمار ٣٠٣ والدميرى ٢ : ٥٠٢ ولابن طباطبا كلام جيد فيه انظر له الموشح ٢٣٧ .

(٢) السود : سفح مستو كثير الحجارة السود . وفى ط « وسوء » وتصحيحه من ل .

(٣) ل وكذا فى المخصص ١٦٧ : « صفار ومن ديك تنوس غباغبه » .

وقال الشمّاخ بن ضِرار :

ألا مَنْ مُبلغٌ خاقانَ عنّى تأمّلْ حِينَ يَضرِبُكَ الشّتاء
فتجعل فى جنابك من صغير[١] ومن شيخٍ أضرَّ به الفَناء
فراخ دَجاجةٍ يتْبَعْنَ دِيكاً يَلُذْنَ به إذا حَمِس الوَغَاء

[فإنْ] قلت . وأىُّ شىء بلغَ من قدْر الـكلبِ وفضيلةِ الديك ، حتّى يتفرّغ لذكر محاسنِهما ومساويهما ، والموازنةِ بينهما والتنويه بذكرهما ، شيخان من عِلْيةِ المتكلّمين ، ومن الجلة[٢] المتقدّمين . وعلى أنّهما متى أبرما هذا[٣] الحكمَ وأفصحا بهذه القضيّة ، صار بهذا التدبير بهما حظٌّ وحكمة وفضيلة و ديانة ، وقلّدَهما كلُّ مَن هو دونَهما ؛ وسيعودُ ذلك عذراً لهما إذا رأيتهما يوازيان بين الذّبّان[٤] و بناتِ وَرْدانَ ، و بين الخنافس والجُعْلان ، و بين جميع أجناس الهمَج وأصناف الحشراتِ ، والخشاش ، حتّى البعوض والفَراش والديدان والقِردان[٥] فإنْ جاز هذا في الرأى وتمَّ عليه العمل ، صار هذا الضَّربُ من النظر عِوضاً من النَّظَر فى التوحيد ، وصار هذا الشكلُ من التمييز خَلَفا من التعديل والتجويز ، وسقَط القولُ فى الوعد والوعيد ، ونُسى القياسُ والحكم فى الاسم ، و بطَلَ الردُّ على أهلِ الملل ، والموازنةُ بين جميعِ النِّحَل ، والنظرُ فى مراشـــد الناس ومصالحهم ، وفى منافِعهم ومَرافقهم ؛ لأنَّ قلوبَهم لاتتَّسع للجميع ، وألسنَتهم لا تنطلِق بالـكلِّ . و إنّما الرأىُ أن تَبدأ من الفتق بالأعظم ، والأخوفِ فالأخوف .

---

(١) ل « حبالك » موضع « جنابك » .
(٢) ل « جلة » .
(٣) ط « مدعا » .
(٤) ل « رأيتم يوازنون ... الخ » . ط « الذباب » موضع « الذبان » .
(٥) القردان : جمع قراد ، وهو دويبة تنتشر فى أعطان الابل .

وقلتَ : [و] هذا بابٌ من أبواب الفراغ وشكل من أشكال التطرُّف(١) وطريق من طرق المزاح ، وسَبيلٌ من سُبُل المضاحك . ورجالُ الجِدّ غير رجالِ الهزْل ، وقد يحسُن الشىء بالشَّباب ويقبُح مثلُه من الشيوخ، ولولا التحصيلُ والموازَنة ، والإبقاء على الأدب ، والدِّيانة بشدَّة المحاسبة ، لما قالوا : لكلِّ مقامٍ مَقال ، ولكلِّ زمانٍ رجالٌ ولكلِّ ساقطةٍ لاقطة، ولكلِّ طعامٍ أَكَلة(٢) .

(تنوع الملكات وقوتها وضرورة ظهورها)

قد زعم أناسٌ أنّ كلّ إنسانٍ فيه آلة لِمَرْفِقٍ من المرافق ، وأداةٌ لمنفعةٍ(٣) من المنافع ، ولا بدَّ لتلك الطبيعة من حركةٍ وإنْ أبطأَت ، ولا بدَّ لذلك الكامنِ من ظهور ؛ فإنْ أمكنَهُ ذلك بعثَه ، وإلاَّ سَرَى إليه كما ٩٤
يسرى السمُّ فى البدن ، و[نمى] كما يَنْمِى العرق ؛ كما أنَّ البُزُور البرِّيَّةَ ، والحبَّةَ الوحشيَّةَ الكامنةَ فى أرحام الأَرَضِين ، لابدَّ لها من حركةٍ عندَ زمانِ الحركة ، ومن التفتُّق والانتشار فى إبَّانِ الانتشار ؛ وإذا صارت الأمطارُ لتلك الأرحامِ كالنُّطفة ، وكان بعضُ الأرضِ كالأُم الغاذية(٤) فلا بدَّ لكلِّ ثديٍ قوِيٍّ أن يُظهِر قوَّتَه ، كما قال الأوّلُ :

* ولا بدَّ للمصدورِ يوما(٤) من النَّفْث *

---

(١) ط « التطرق »
(٢) ل « آكل » .
(٣) ط « آلة المرفق من المرافق وأداة المنفعة » وهو تحريف ما فى ل .
(٤) ل « ولا بد للمصدور من النفث » .

[وقال][1] :

* ولا بدَّ من شَكوَى إذا لم يكنْ صَبر * ولذلك صارَ طلبُ الحسابِ أخفَّ على بعضهم ، وطلبُ الطِّبِّ أحبَّ إلى بعضهم . وكذلك النِّزاع إلى الهندسة ، وشغَفُ أهلِ النُّجوم بالنُّجوم. وكذلك أيضاً ربَّما تحرَّكَ له بعد الكَبْرَة ، وصَرَف[2] رغبتَه إليه بعد الكهولة ، على قدر قوَّة العِرْق فى بدنه ، وعلى قدْر الشَّواغلِ له وما يعترضُ عليه ، فتجد واحداً يَلهج بطلب الغِناء واللحون ، وآخر يلهج بشهوة القتال ، حتى يَكْتَتِبَ مع[3] الجُند ، وآخر يختار [أن يكون] ورَّاقا ، وآخر يختارُ طلبَ الملك ، وتجِدُ حرصَهم على قدر العلل الباطِنة المحرِّكة لهم ، ثمَّ لا تَدْرِى كيف عرضَ لهذا هذا السَّببُ دونَ الآخَرِ إلاَّ بجملة من القول ، ولا تجدُ المختارَ لبعض هذه الصناعات على بعضٍ يعلَمُ لِمَ[4] اختارَ ذلك فى جملةٍ ولا تفسير ، إذْ كان لم يَجْرِ منه عَلَى عِرْق ، ولا اختارَه على إرْث .

(من سار على غير طبعه)

وليس العجبُ من رجلٍ فى طباعه سببٌ يَصِل بينه و بينَ بعضِ الأمور ويحرِّكه فى بعض الجهات ، ولكنَّ العجبَ ممَّن يموت مغنِّيا وهو لاطبعَ

(١) جعل هذا الشطر والكلام الذى قبله بيتا واحدا وذلك لايستقيم . والزيادة رأيتها ضرورية لاستقامة الكلام . والآتى عجز بيت صدره كما فى البيان ٣ : ٢٤٦
* وما كثرة الشكوى بأمر حزامة *
(٢) ط « وأصرف » .
(٣) ل « يكتب » وصوابه ما أثبت من ط . واكتتب : كتب نفسه فى ديوان السلطان .
(٤) ط « لما » .

له فى معرفه الوزن ، وليس له جرمٌ حسَن ، فيكون إن فاته أن يكون معلِّمًا ومغنِّيَ خاصَّة أنْ يكون مُطربًا ومُغَنِّيَ عامّة . وآخر قد ماتَ عَلَى أن يُذْكَر بالجود ، وأن يسخَّى على الطعام ، وهو أبخلُ الخلقِ طبعاً ، فتراه كلِفاً باتِّخاذ الطيِّبات ومستَهتَرًا بالتكثير منها ، ثمّ هو أبداً مفتَضِحٌ وأبداً منتقِض الطباع ، ظاهرُ الخطإِ ، سيِّئُ الجزع عندَ مؤاكلةِ من كان هو الداعيَ له ، وَالمرسلِ إليه، والعارفَ مقْدارَلقمه ونهايةَ أكله .

فإنْ زعمتم أنَّ كلَّ واحدٍ من هؤلاء إنّما هو رهنٌ بأسبابه ، وأسيرٌ فى أيدى عِلَله ، عذرتم جميعَ اللئام وجميعَ المقصِّرين ، وجميعَ الفاسقين وَالضالِّين . و إن كان الأمر [إلى] التمكين دونَ التسخير ، أفليس من أعجبِ العجَب ومن أسوإِ التقدير التمثيل،[1] بين الدِّيكة والكلاب . ٩٥

قَدْ عرَفنا قولَك ، وفهمْنا مذهبَك .

فأمّا قولُك : « وما بلَغ من خطَرِ الديك وقدر الكلب » فإنَّ هذا ونحوَه كلامُ عبدٍ لم يفهَمْ عن ربِّه ، ولم يَعقِل عن سيِّده ، إلاَّ بقدْرِ فهمِ العامَّةِ أو الطبقةِ التي تلى العامَّة . كأنَّكَ ، فهمَّك اللهُ تعالى ، تظنُّ أنَّ خَلْقَ الحيَّةِ والعقرَب ، والتدبيرَ فى خلقِ الفَراش والذباب ، والحكمةَ فى خلْق الذئاب والأسدِ وكلِّ مبغَّضٍ إليك أو محقَّر عندك ، أو مسخَّرٍ لك أو واثبٍ عليك ، أنَّ التدبير فيه مختلِفٌ أوناقص، وأنَّ الحكمةَ فيه صغيرةٌ أوممزوجة .

(١) ط « والتمثيل » والواو هنا لاموضع لها .

(مصلحة الكون ، فى امتزاج الخير بالشر)

اعلم أنَّ المصلحةَ فى أمرِ ابتداء الدنيا إلى انقضاءِ مُدَّتها ، امتزاجُ الخيرِ بالشرِّ والضارِّ بالنافع ، والمكروهِ بالسارِّ ، والضَّعَةِ بالرِّفعة ، والكثرة بالقِلَّة . ولو كان الشرُّ صِرفًا هلَكَ الخلقُ ، أو كان الخيرُ محْضاً سقَطت المِحْنة وتقطَّعَتْ أسبابُ الفِكرة ، ومع عَدَم الفِكرةِ يكون عَدَمُ الحكمة ، ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز ، ولم يكن للعالِمِ تثبُّتٌ وتوقُّفٌ وتعلُّمٌ ، ولم يكن علم ، ولا يُعرف بابُ التبيُّن ، ولا دفعُ مضرةٍ ، ولا اجتلابُ منفعة[(١)] ، ولا صَبْر على مكروهٍ ولا شكْرٌ على محبوب ، ولا تفاضُلٌ فى بيانٍ ، ولا تَنَافس فى درجةٍ ، و بطلَت فَرحةُ الظَّفَر وعزُّ الغلبة ، ولم يكن على ظهرها مُحِقٌّ يجد[(٢)] عزَّ الحقِّ ، ومُبْطِلٌ يجد ذِلَّة[(٣)] الباطل ، وموقنٌ يجد[(٤)] بَرْدَ اليقين ، وشاكٌّ يجد[(٢)] نقصَ الحَيرةِ وكَرْبَ الوُجوم ؛ ولم تكن للنفوس آمالٌ ولم تتشعَّبْهَا الأطماع . ومَن لم يعرف كيف الطَّمعُ لم يعرِفْ اليأس ، ومن جَهِل اليأسَ جهِلَ الأمن ، وعادت الحالُ من الملائكة الذين هم صفوة الخلق ، ومن الإنس الذين فيهم الأنبياء والأولياء ، إلى حالِ السبُعِ والبهيمة ، و إلى [حال] الغباوةِ والبلادة ، و إلى حال النجوم فى السُّخْرة ؛ فإنها أنقص من حالِ البهائم فى الرَّتْعَةِ . ومَنْ هذا الذى يسرُّه أن يكون

---

(١) ط « التدبير » موضع « التبين » و« المضرة » موضع « مضرة » و « المنفعة » موضع « منفعة » .

(٢) ط «بجد» وهو تصحيف .

(٣) ط « بجد ذل » وهو تحريف كذلك .

(٤) ط « وموفق بجد » وهو تحريف .

الشمسَ والقمرَ والنّارَ والثلج ، أو برجًا من البروج أو قطعةً من الغيم ؛ أو يكونَ المَجرّةَ بأسْرها ، أو مكيالاً من المـاء أو مقداراً من الهواء ؟! وكلُّ شيء فى العالم فإنمـا هو للإنسان ولـكلِّ مختَبِرٍ ومُختار ، ولأهل العقول والاستطاعة ، ولأهل التبيُّن[1] والرويَّة .

وأين تقعُ لذّةُ البهيمة بالعَلُوفة ، ولذّة السبع بلَطْع الدّمِ وأ كل اللحم — مِن سرورِ الظَّفَر بالأعداء ؛ ومِن انفتاحِ بابِ العلم بعد إدْمان القَرْع ؟ وأين ذلك من سرورِ السُّودَد ومن عزِّ الرياسة ؟ وأين ذلك من حال النُّبوّةِ

والخِلافة ، ومِن عزِّهما وساطعِ نورهما . وأينَ تقعُ لذّةُ درْكِ الحواسِّ الذى ٩٦
هو ملاقاةُ المطعَم والمشرب ، وملاقاةُ الصوتِ المطرِبِ واللّونِ المونق ، والملمسة[2] اللّيِّنة — مِن السرور بنَفاذ الأمرِ والنّهى ، وبجوازِ التوقيع ، وبمـا يُوجب الخاتَمُ من الطاعة ويُلزِم من الحجّة ؟!.

ولو استوَت الأمورُ بطَلَ التميزُ ، وإذا لم تكن كلفةٌ لم تكن مَثوبة ، ولو كان ذلك لبطلتْ ثمرةُ التوكُّلِ على الله تعالى ، واليقينِ بأنّه الوَزَرُ والحافظ ، والـكالئُ والدافع[3] ، وأنّ الذى يحاسِبُك أَجْوَدُ الأَجْوَدِين ، وأرحَمُ الراحمين ، وأنه [الذى] يقبلُ اليسيرَ ويَهَبُ الـكثير ، ولا يهلِكُ عليه إلاّ هالك . ولو كان الأمرُ على ما يشتهيه الغَرِيرِ والجاهلُ بعواقبِ الأمور ، لبطَلَ النّظَرُ وما يشحذ عليه[4] ، وما يدعو إليه ، ولتعطّلت

---

(١) ط « التبين » .

(٢) ط « واللبسة » .

(٣) ط « والـكاف والرافع » .

(٤) الشحذ : السوق العنيف .

الأرواحُ من معانيها ، والعقولُ من ثِمارها ، ولعَدِمت الأشـــياء حظوظَها وحقوقَها .

فسبحان من جعل منافعَها نعمةً ، ومضارَّها ترجع إلى أعظم المنافع ، وقسّمها بين مُلِذٍّ ومُؤلِم ، وبين مؤنِسٍ ومُوحِش ، وبين صَغيرٍ حقيرٍ وجليلٍ كبير ، وبين عدوٍّ يرصُدُك وبين عقلٍ يحرسك ، وبين مُسَالِمٍ يَمْنَعُكَ ، وبين مُعِينٍ يعضُدك ، وجعل فى الجميع تمامَ المصلحة ، وباجتماعها تمُّ النعمة ، وفى بطلانِ واحدٍ منها بُطلانَ الجميع ، قياساً قائماً وبرهاناً واضحاً . فإنّ الجميع[1] إنّما هو واحدٌ ضُمّ إلى واحدٍ وَواحدٌ ضُمّ إليهما ، ولأنّ الـكلَّ أبعاضٌ ، ولأنّ كلَّ جُثّةٍ فمن أجزاء ، فإذا جوّزتَ رفْعَ واحدٍ والآخرُ مثلُه فى الوزن وله مثلُ علّتِه وحظِّه ونصيبه ، فقد جوَّزْتَ رفعَ الجميع ؛ لأنّه ليس الأوّلُ بأحقَّ من الثانى فى الوقت[2] الّذى رجوتَ فيه إبطالَ الأوّل ، والثانى كذلك والثالث والرابع ، حتّى تأتى على الـكلِّ وتستفرغ الجميع . كذلك الأمورُ المضمَّنة والأسباب المقيَّدة[3] ؛ ألا ترى أنَّ الجبلَ ليس بأدلَّ على الله تعالى مِنْ الحصاة ، وليس الطاوسُ المستحسنُ بأدلَّ على الله تعالى مِنْ الخِنزيرِ المستقبح . والنارُ والثلج وإنْ اختلفا فى جِهَة البرودة والسُّخونة ، فإنّهما لم يختلفا فى جهة البرهان والدّلالة .

وأظنّك ممّن يرى أنّ الطاوسَ أكرمُ على الله تعالى من الغراب ، وأن

---

(١) من كلمة « قياسا » سقط الـكلام فى ل إلى هنا .

(٢) ط « فالحق » وهو تحريف .

(٣) ط « المطمئنة » مكان « المضمنة » و « المقيدة » مكان « المقـيدة » وهو تحريف .

التُّدْرُجَ(١) أعزُّ على الله تعالى من الحِدَأةِ ، وأنّ الغزالَ أحبُّ إلى الله تعالى من الذئب . فإنَّما هذه أمورٌ فرّقها الله تعالى في عيون الناس ، وميّزها في طبائع العباد ، فجعَلَ بعضَها بهم أقربَ شبها ، وجعل بعضَها إنسيًّا، وجعل بعضَها وحشيًّا ، وبعضها عادِيًا ، وبعضها قاتلا . وكذلك الدُّرّة وَالخَرَزة والتمرة(٢) والجَمرة ... فلا تَذْهَبْ إلى ما تريك العـــينُ واذهَبْ إلى ٩٧
ما يريك العقل .

(الاعتماد على العقل دون الحواس)

وللأُمور حكمان : حكمٌ ظاهرٌ للحواس ، وحكمٌ باطنٌ للعقول . والعقل هو الحجَّة . وقد علمْنا أنَّ خزَنَةَ النارِ من الملائـكة ، ليسوا بدون خزَنَةِ الجنَّة ، وأنَّ ملكَ الموت ليس بدُونِ ملَكِ السحاب ، وإن أتانا بالغَيث وجلب الحيَاء(٣) . وجبريلُ ألذى يَنْزِل بالعذاب ، ليس بدونِ ميكائيلَ ألذى ينزِل بالرحمة ، وإنَّما الاختلافُ في المطيع والعاصي ، وفي طبقاتِ ذلك ومواضعه . والاختلاف بين أصحابنا أنّهم إذا استووا في المعاصي استَووا في العقاب ، وإذا استَووا في الطاعة استووا في الثواب ، وإذا استووا في عدم الطاعة والمعصية استووا في التفضل . هذا هو أصل المقالة ، والقُطْب ألذى تدورُ عليه الرحى .

---

(١) للفريق أمين باشا المعلوف بحث طيب في التعريف بهـذا الحيوان ص ١٨٧ من معجمه .

(٢) في الأصل « الثمرة » والوجه ما كتبت .

(٣) ط « احياة » وهو تصحيف مافي ل . والحيا : الخصب والمطر . ويمد .

(التين والزيتون)

وقد قال الله عزّ وجلّ ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ فزعم زَيدُ بنُ أسلم أنّ التّين دمشق ، والزيتون فِلَسطين . وللغالية في هذا تأويلٌ أرغبُ بالعِتْرة عنه[1] وذكره . وقد أخرجَ الله تبارك وتعالى الكلامَ مُخرَجَ القسم ، وما تُعرَف دِمَشق إلاّ بدِمَشق ، ولا فِلَسطين إلاّ بفلسطين ، فإن كنتَ إنّما تقف من ذكر التين على مقدار طعمِ يابسِه ورَطْبه ، وعلى الإكتنانِ بورَقه وأغصانه ، والوَقود بعِيدانه ، وأنّه نافعٌ لصاحب السُّلّ ، وهو غذاءٌ قويٌّ ويصلُح في مواضعَ من الدواء ، وفي الأَضْمدة ، وأنّه ليس شيءٌ حلو إلاّ وهو ضارٌّ بالأسنانِ غيره ، وأنّه عند أهلِ الكتاب الشّجرةُ التي أكَلَ منها آدمُ عليه السلام ، وبورقها سترَ السّوءة عند نزولِ العقوبة ، وأنّ صاحبَ البواسيرِ يأكله ليُزْلِقَ عنه الثفل ، ويسهلَ عليه مخرج الزّبل[2] ؛ ونقف من الزيتون على زيتِه والاصطباح به ، وعلى التأدُّم بهما والوَقود بشجرها ، وما أشبه ذلك من أمرها — فقدْ أسأتَ ظنًّا بالقرآن ، وجهِلتَ فضلَ التأويل . وليس لهذا المقدارِ عظّمهما الله عزّ وجلّ ، وأقسَمَ بهما ونوّه بذكرها .

(التأمل في جناح البعوضة)

ولو وقفْتَ على جَناحِ بَعوضةٍ وُقوفَ معتبِر ، وتأمّلته تأمُّلَ متفكّرٍ بعد

---

(١) ط « أرغب عن التعبير عنه » .

(٢) ط « الثقل » موضع « الثفل » و « البول » بدل « الزبل » وأثبت ما في . ل

أن تكونَ ثاقبَ النَّظرِ سليمَ الآلة ، غوّاصاً على المعانى ، لايعتريك من الخواطر إلاّ على حسب صحّةِ عقلك ، ولا من الشواغل إلاّ مازادَ فى نشاطك ، لملأت ممّا تُوجِدك العِبرة من غرائب الطوامير الطِّوال ، والجلود الواسعةِ الكِبار ، ولرأيتَ أنّ له من كثرة التصرُّف فى الأعاجيب ، ومن تقلُّبه فى طبقات الحكمة ، ولرأيتَ له من الغزْر والرَّيع ، ومن الحلْب والدَّرّ ولتبَجَّسَ عليك[1] من كوامنِ المعانى ودفائِنها ، ومن خَفِيّاتِ الحِكَم ٩٨
وينابيعِ العلم ، مالا يشتدُّ معه تعجُّبُك ممّن وقفَ على مافى الدِّيك من الخصالِ العجيبة ، وفى الكلبِ من الأمور الغريبة ، ومن أصنافِ المنافع ، وفنون المرافق ؛ وما فيهما[2] من المِحَن الشِّداد ، ومع ماأُودِعا من المعرفة ، التى مَتى تجلَّت لك تصاغرَ عندك كَبيرُ ماتستعظم ، وقلَّ فى عينك كثير ماتستكثر . كأنّك تظنُّ أنّ شيئاً وإنْ حسُن عندك فى ثمَنه ومنظره ، أنّ الحكمةَ التى هى فى خلْقه إنّما هى على مقدارِ ثمَنه ومنظَره .

(كلمات الله)

وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَافِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَانَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ ﴾ والكلماتُ فى هذا الموضع ، ليس يُريد بها القولَ والكلامَ المؤلَّفَ من الحروف ، وإنّما يريد النِّعَم والأعاجيب ، والصفات[3] وما أشبه ذلك ، فإنّ كلاًّ من هذه الفنون

---

(١) ط « ولا ينحبس » .
(٢) ط « فيها » .
(٣) ط « الصلاة » وليس بشىء

لو وقَف عليه رجلٌ رقيقُ اللسان صافى الذهن ، صحيحُ الفِكْر تامُّ الأَدَاة ، لمـا بَرِح أن تحسره(١) المعانى وتَغْمُرَه الحِكَمَ .

وقد قال المتكلمون والرؤساء والجِلَّةُ العُظماء فى التمثيل بين الملائكةِ والمؤمنين ، وفى فرقِ مابين الجنِّ والإنس . وطباعُ الجنِّ أبعدُ من طباعِ الإنس ، ومن طباعِ الديك ، ومن طباع الكلب . وإنَّمـا ذهبوا إلى الطاعة والمعصية . ويخيَّل إلىَّ أنك لو [كنت] سمعتَهما يمثِّلان مابين التُّدْرُج والطاوُس ، لَمَـا اشتدَّ تعجُّبُك . ونحن نرى أنَّ تمثيلَ مابينَ خصالِ الذَّرَّة والحمامة ، والفيل والبعير ، والثَّعلبِ والذيب أعجَب . ولسنا نعنى أنَّ للذَّرَّة ماللطاوس من حسنِ ذلك الريش وتلاوينه وتعاريجه(٢) ، ولا أنَّ لهـا غَنَاءَ الفرَس فى الحرب والدَّفْعِ عن الحريم ؛ لـكنَّا إذا أردنا مواضعَ التدبير العجيبِ من الخلْق الخسيس ، والحسَّ اللطيفِ من الشىء السخيف(٣) ، والنَّظرِ فى العواقب من الخلق الخارج من حدود الإنس والجنِّ والملائكة ، لم(٤) نذهب إلى ضِخَم البدَن وعِظَم الحجم ، ولا إلى المنظر الحسَن ولا إلى كثرة الثمن . وفى القرد أعاجيبُ وفى الدُّبِّ أعاجيب ، وليس فيهما كبير مَرْفِقٍ إلاَّ بقدْرِ ماتتكسَّب به [أصحاب(٥)] القردة ، وإنمـا قصـدنا إلى شيئين يَشيعِ القولُ فيهما ، ويكثُرُ الاعتبار ممَّـا يستخرِج العلماء من خفِىِّ أمرها . ولو جمعْنا بينَ الدِّيك وبين بعضِ

---

(١) ط « تحشره » ويكون صوابها « تحشر له المعانى » . وأثبت ما فى ل . يقال : حسر البعير : ساقه حتى أعياه .

(٢) يقال ثوب معرَّج : أى مخطط فى التواء . . وفى ل : « تفاريجه » .

(٣) ط « والحسن اللطيف فى الشىء السخيف » وهى عبارة مشوَّهة .

(٤) فى الأصل « ولم » .

(٥) زدتها ليستقيم الـكلام .

ماذكرت ، وبين الكلابِ وبين بعضِ ماوصفت ، لاتقطع القولُ قبل أن يبلغَ حدَّ الموازنةِ والمقابلة .

وقد ذكرتَ أنَّ بعضَ مادعاك إلى الإنكار عليهما والتعجُّبِ من أمرهما، سقوطُ قدرِ الكلب ونذالته ، وبَلَهُ الدِّيكِ وغباوتُه ، وأنَّ الكلبَ لابهيمةٌ ٩٩
تامّةٌ ولا سبعٌ تامٌّ ، وما كان ليخرِجَه من شيء من حدود الكلاب إلى حدود الناس ، مقدارُ ماهو عليه من الأُنس بهم ، فقديكون فى الشىء بعضُ الشبه مِنْ شىء ولا يكون ذلك مُخرِجًا لهما من أحكامِهما وحدودِهما .

(تشبيه الإنسان بالقمر والشمس ونحوهما)

وقد يشبِّه الشعراء والعلماء والبلغاء الإنسانَ بالقمر والشمس ، والغيثِ والبحر ، وبالأسد والسيفِ ، وبالحيَّة وبالنَّجم ، ولا يخرجونه بهذه المعانى إلى حدِّ الإنسان . وإذا ذمُّوا قالوا : هو الكلب والخنزير ، وهو القِرد والحمار ، وهو الثور ، وهو التَّيس ، وهو الذيب ، وهو العقرب ، وهو الجُعَل وهو القرنْبَى ثم لايُدخِلون هذه الأشياء فى حدود الناس ولا أسمائِهم ، ولا يُخرجون بذلك[1] الإنسانَ إلى هذه الحدودِ وهذه الأسماء . وسمَّوا الجاريةَ غزالاً، وسمَّوها أيضاً خِشْفاً ، ومُهْرةً ، وفاخِتةً ، وحمامةً ، وزهرةً ، وقضيباً ، وخيزرانا ، على ذلك المعنى . وصنَعوا مثلَ ذلك بالبروج والكواكب ، فذكَروا الأسدَ والثور ، والحَمَل والجدى ، والعقربَ والحُوت ، وسمَّوها بالقَوس والسُّنبلة والمِيزان ، وغيرها . وقال فى ذلك ابن عَسَلة الشيبانىّ[2] :

---

(١) ط «ذلك» .

(٢) هو عبدالمسيح شاعرجاهلى ، روى له صاحب المفضليات ثلاث قصائد ص ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٦ والبيت روايته فى البيان ١ : ١٦٣ مطابقة لهذه . والرواية فى المفضليات : « لصحوت » وقبله :

فَصَحَوتُ والنَّمَرِيُّ يَحسَبُها عَمَّ السِّمَاكِ وخَالةَ النَّجْمِ

ويُروى عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « نِعْمَتِ العَمة لَكُمْ النَّخْلة [خُلقت مِنْ فضلة طينةِ آدم] » وهذا الكلام صحيحُ المعنى ، لايَعيبه إلاّ مَن لايعرِف مجاز الكلام . وليس هذا ممّا يطَّرِد لنا أن نقيسَه ، وإنّما نُقدِم على ماأقدَموا ، ونُحجِم عما أحجموا ، وننتهى إلى حيثُ انتهوْا .

ونراهم يسمُّون الرجلَ جملاً ولا يسمُّونه بعيراً ، ولا يسمُّون المرأةَ ناقة ؛ ويسمُّون الرجلَ ثوراً ولايسمُّون المرأةَ بقرةً ، ويُسَمُّونَ الرجل حمارا ولايسمون المرأة أتاناً ؛ ويسمُّون المرأة نعجةً ولايسمُّونها شاة . وهم لايضعون نعجةً اسمًا مقطوعا ، ولا يجعلون [ذلك][1] علامةً مثلَ زيد وعمرو ، ويسمُّون المرأة عنْزا .

(تسمية الإنسان بالعالم الأصغر)

أوَ ماعلمتَ أنَّ الإنسان الذى خُلقت السمواتُ والأرضُ وَمَابينَهما مِن أجْله[2] كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿ سَخَّرَ لَكُمْ مافى السَّمَوَاتِ وما فى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنه ﴾ إنَّما سمَّوه العالَمَ الصغيرسليلَ العالَمَ الكبير ، لِمَا وجَدوا فيه من جَمْع أشكالِ مافى العالم الكبير ، ووجدْنا له الحواسَّ الخمسَ ، ووجدُوا فيه المحسوساتِ الخمس ، ووجدُوه يأكل اللَّحمَ والحبَّ ، ويجمعُ

يا كعب إنك لو قصرت على حسن الندام وقلة الجرم
وسماع مدجنة تعللنا حتى تنام تناوم العجم

(١) زيادة يتطلبها الكلام .

(٢) فى الأصل « والأرض من أجله وما بينهما » وسويت القول كما ترى .

بينَ ماتقتاتة البهيمةُ والسبع ، ووجَدوا فيه صَولةَ الجمل ووُثوبَ الأسد ،
وغدْرَ الذئب ، ورَوَغان الثعلب ، وجُبْن الصِّفْرِد ، وجَمْعَ الذَّرَّة ، وصنْعةَ ١٠٠
السُّرْفة[1] وجُودَ الدِّيك ، وإلفَ الـكلب ، واهتداءَ الحمام . ورُبَّمـا وجدوا
فيه ممَّـا فى البهائم والسباع خُلُقَيْن[2] أو ثلاثة ، ولا يبلغُ أن يكون جملاً
بأن يكون فيه اهتداؤه وغَيرته وصَولته وحِقدُه وصبرُه على حَمْل الثِّقْل ،
ولا يلزَم شبهُ الذئب بقدْر ماتَهَيَّأَ فيه من مِثل غدْره ومكْره ، واسترواحِه
وتوحُّشه ، وشدَّة نُـكْره . كما أنَّ الرجلَ يصيبُ الرأىَ الغامضَ المرَّةَ والمرَّتين
والثَّلاثَ ، ولا يبلغُ ذلك المقدارُ أن يقال له داهيةٌ وذو نَـكراء أو صاحبُ
بَزْلاء[3] ، وكما يخطئ الرجل فيفحُش خَطَاؤُه[4] فى المرَّة والمرَّتين والثلاث،
فلا يبلغ الأمرُ به أن يقال له غبيٌّ وأبلهُ ومنقوص .

وسمَّوه العالمَ الصغيرَ لأنَّهم وجدُوه يصوِّر كلَّ شىء بيده ، ويحكى
كلَّ صوتٍ بِفَمه[5] . وقالوا : ولأنَّ أعضاءه مقسومةٌ على البروج الاثنى
عشر والنجومِ السبعة ، وفيه الصفراء وهى من نِتاج النار ، وفيه السوداء
وهي من نِتاج الأرض ، وفيه الدَّمُ وهو من نِتاج الهواء ، وفيه البلغَمُ وهو
من نِتاج المـاء . وعلى طبائعه الأربع وضعت الأوتاد الأربعة[6] .

---

(١) ط « وصفة السرفة » وصوابه فى ل ويقال فى المثل : أصنع من سرفة ... الدميرى : دويبة سوداء الرأس وسائرها أحمر تتخذ لنفسها بيتا مربعا من دقائق العيدان تضم بعضها إلى بعض بلعابها على مثال الناوس ثم تدخل فيه وتموت .

(٢) فى ثمـار القلوب ٢٨٠ حيث نقل هذا الـكلام : « خلتين » وهو الأشبه . بكلام الجاحظ .

(٣) ط « نكر » بدل « نكراء » وكلاهما صحيح .. النكراء ، والنكر بالضم : الدهاء والفطنة .. والبزلاء : الرأى الجيد والشدائد .

(٤) الخطاء : الخطأ . والجاحظ يميل إلى استعمال الـكلمة الأولى .

(٥) ط « بعيه » والوجه مافى ل .

(٦) ل « وجدت الأوتار الأربعة » .

فجعلوه العالَمَ الصغير ، إذ كانَ فيه جميعُ أجزائه وأخلاطِه وطبائعه ، ألا ترَى أنَّ فيه طبائعَ الغضبِ والرضاَ ، وآلة اليقين والشكِّ ، والاعتقاد والوقف[١] وفيه طبائعُ الفِطنةِ والغَباوة ، والسلامة والمكر[٢]، والنصيحةِ والغِشِّ ، والوَفاء والغدر ، والرياء والإخلاص ، والحبِّ والبُغْض ، والجِدِّ والهزْل ، والبخْل والجُود ، والاقتصادِ والسَّرَف ، والتواضع والكبر ، والأُنسِ والوحشة ، والفكرة[٣] والإهمال ، والتمييز والخبْط ، والجبْن والشجاعة ، والحزم والإضاعة ، والتبذير والتقدير ، والتبذل ، والتعزز ، والادِّخار[٤] والتوكُّل، والقَناعة والحِرْصِ ، والرغبة والزُّهْد ، والسُّخْط والرِّضا ، والصبر والجزَع ، والذِّكرِ والنسيان ، والخوفِ والرجاء ، والطَّمَعِ واليأس ، والتنزُّه والطَّبَع ، والشكِّ واليقين ، والحياء والقِحَة ، والكِتْمانِ والإشاعة ، والإقرار والإنكار، والعلم والجهل ، والظلم والإنصاف ، والطلب والهَرب . والحِقْد وسرْعة الرضا ، والحِدَّةِ وبُعْدِ الغضب ، والسُّرور والهمّ ، واللَّذّةِ والألَم[٥] والتأميلِ والتمنِّي ، والإصرارِ والنَّدَم ، والجِماحِ والبَدَوات[٦] ، والعيِّ والبلاغَة ، والنُّطْق والخرَس ، والتصميمِ والتوقف[٧] والتغافُلِ والتفاطُن ، والعفوِ والمكافأة ، والاستطاعةِ والطبيعة[٨] وما لا يحصى عدده[٩] ، ولا يُعرَف حدُّه .

---

(١) ط « والتمنى » .
(٢) ط : « والنكر » .
(٣) لعلها « الطفرة » ليصح قرنها بالإهمال .
(٤) ط « والتبذل والتعزز » وهو تحريف ما فى ل .
(٥) ط « والآلام » والوجه ما فى ل .
(٦) كذا فى ل . وفى ط : « البذات » .
(٧) ل « والتكى » .
(٨) كذا
(٩) ط : « عده » .

فالـكلبُ سبع و إن كانَ بالناس أنيساً ، ولا تخرِجُه الخَصلة والخَصلتان ١٠١
ممّـا قاربَ بعضَ طبائِع الناس ، إلى أن يخرجَه من الـكلْبيَّة . قال : وكذلك الجميع . وقد عرَفت شبَه باطنِ الـكلب[1] بباطن الإنسان ، وشبَه ظاهرِ القرد بظاهر الإنسان : ترى ذلك فى طَرْفِه وتغميضِ عينه ، وفى ضِحْكه وفى حكايته ، وفى كفِّه وأصابِعه ، وفى رفعِها ووضعِها ، وكيف يتناولُ بها ، وكيف يجهز اللُّقمة إلى فيه وكيف يكسِر الجَوْزَ ويستخرج لبَّه[2] وكيف يَلْقَنُ كل مَا أُخِذَ به[3] وأُعِيدَ عليه ، وأنّه من بينِ جميعِ الحيوان إذا سقط فى المـاء غرِق مثلَ الإنسان ، ومع اجتماعِ أسبابِ المعرفة فيه يغرق ، إلاّ[4] أن يكتسب معرفةَ السباحة ، و إن كان طبعُه أوفى وأكمل فهو من هاهنا أنقص وأكلُّ . وكلُّ شىء فهو يسبَح من جميع الحيوانات ، ممّا يوصف بالمعرفة والفِطنة ، وممّـا يوصَفُ بالغَباوة والبَلادة ؛ وليس يصير القردُ بذلك المقدار من المقارَبَة إلى أن يخرُج من بعض حدود القرود إلى حدود الإنسان .

(عود إلى الحوار فى شأن الـكلب والديك)

وزعمتَ أنَّ ممّـا يمنعُ من التمثيل بين الديك والـكلب أنّه حارسٌ محترسٌ منه . وكلُّ حارسٍ من الناس فهو حارسٌ غيرُ مأمونٍ تَبدُّلُه . ولقد سأل زيادٌ ليلةً من الليالى : مَنْ على شُرطتكم ؟ قالوا : بَاْجِ بنُ نُشْبَة الجُشَمىّ . فقال :

وساعٍ معَ السلطانِ يَسعى عليهمُ ‍ ‍ ‍ ‍ ومحترِسٍ مِن مثلِه وهو حارسُ

(١) ط « باطن شبه الكلب » .
(٢) ل « سره » وهما بمعنى .
(٣) ط « يلق كلما أخذ به » وهو تحريف وفى ثمار القلوب ٣٢٤ « يتقن » .
(٤) ط « إلى » .

ويقال : إن الشاعر[1] قال هذا الشعرَ فى القلافس النَّهشَلى[2] ، حين ولِىَ شُرطةَ الحارثِ بن عبد الله [فقال] .

أقلِّى علىَّ اللومَ يا ابنةَ مالكٍ وذُمِّى زماناً سادَ فيه القلافسُ

وساعٍ مع السلطان يَسعَى عليهمُ ومُحترِسٍ من مثلِه وهو حارسُ

وليس يُحكمَ لِصغار المضارّ على كبارها[3] بل الحكمُ للغامر على المغمور[4] والقاهرِ على المقهور ؛ ولو قد حكَينا ماذكر هذا الشَّيخُ من خِصال الكلب وذكَرَ صاحبُه من خصالِ الديك ، أيقنتَ أنَّ العجَلةَ من عمل الشيطان ، وأنَّ العُجْبَ بئس الصاحب .

وقلتَ : وما يبلغُ من قدْر الكلب ومِن مقدارِ الديك ، أن يتفرّغ لهما شيخان من جِلَّة المعتزِلة ، وهم أشراف[5] أهلِ الحكمة ؛ فأىُّ شىء بلغ ، غفر الله تعالى لك ، من قدْرِ جزء لايتجزَّأ من رمْل عالج ، والجزءِ الأقلِّ من أوَّل قطع الذَّرَّة المكان السحيق ، والصحيفة التى لاعمقَ لهـا ، ولأىِّ
١٠٢ شىء يُعنَوْن بذلك ، وما يبلغ من ثمنِه وقدْرِ حجْمه ، حتَّى يتفرَّغَ للجدالِ فيه الشُّيوخ الجِلَّة ، والكهولُ العِلْية ، وحتَّى يختاروا النَّظرَ فيه على التسبيح والتهليل ، وقراءةِ القرآن وطولِ الانتصابِ فى الصلاة ؛ وحتَّى يزعم أهلُه

---

(١) هو عبد الله بن همام السلولى . ترجم له ابن قتيبة فى الشعراء ٥٢ وانظر عيون الأخبار ١ : ٥٧ .

(٢) قال ابن قتيبة : كان القلافس هذا على شرطة الكوفة من قبل الحارث بن عبد الله ابن أبى ربيعة المخزومى أخى عمر بن أبى ربيعة .. وخرج القلافس مع ابن الأشعث فقتله الحجاج .

(٣) ل « على كبار المنافع » .

(٤) ل « للعامر على المعمور » وما أثبته من ط أشبه .

(٥) ل « شراف » .

أنَّه فوقَ الحجِّ والجهاد، وفوقَ كلِّ برٍ واجتهاد[1] . فإنْ زعمتَ أنَّ ذلك كلَّه سواء، طالت الخُصومةُ معَك ، وشغلْتنا [بهما] عمَّا هو أولى بِنا فيك . على أنَّك إذا عمَمْتَ ذلك كلَّه بالذمِّ ، وجلَّلته بالعيب ، صارت المصيبةُ فيك أجلَّ ، والعزاء عنها أعسر . وإن زعمتَ أنَّ ذلك إنَّما جاز لأنَّهم لم يذهبُوا إلى أثمان الأعيان فى الأسواق ، وإلى عظم الحجم ، وإلى مايروقُ العينَ ويلائمُ النفس ، وأنَّهم إنَّما ذهبوا إلى عاقبة الأمر فيه ، وإلى نتيجتِه ، وما يتولَّد عنه من علمِ النِّهايات ، ومن باب الكلِّ والبعْض ، وكان ويكون ، ومن باب مايحيط به العلم أو مايفضل عنه ، ومن فَرقِ [ما][2] بين مذاهب الدُّهريَّة ومذاهب الموحِّدين . فإن كان هذا العذْرُ مقبولاً ، وهذا الحكم صحيحاً ، فكذلك نقول[3] فى الكلب ، لأنَّ الكلبَ ليس له خطرٌ ثمين ولا قَدْر فى الصدرِ جليل ؛ لأنَّه إن كان كلبَ صيد فديتُه أربعون دِرهما ، وإن كان كلب ضَرْعٍ فديتُه شاة ، وإن كان كلبَ دارٍ فديتُه زِنبيلٌ من ترابٍ ، حُقَّ على القاتل أن يؤدِّيَه ، وحُقَّ على صاحبِ الدار أن يقبلَه . فهذا مقدارُ ظاهرِ حاله [ومُفتَّشِه] . وكوامنُ خِصاله ، ودفائنُ الحكمةِ فيه . والبرهاناتُ على عجيب تدبير الربِّ تعالى ذِكرُه فيه ، على خلاف ذلك ؛ فلذلك استجازُوا النَّظَرَ فى شأنه ، والتَّمثيلَ بينَه وبين نظيره .

وتعلم أيضاً مع ذلك أنَّ الكلبَ إذا كانَ فيه ، مع خمُوله وسقوطِه ، مِن عجيبِ التدبير والنِّعمةِ السابغةِ والحكمةِ البالغة ، مثلُ هذا الإنسان

(١) ل « كل أثرة وإجهاد » وليس بشىء .
(٢) زيادة يقتضيها الكلام .
(٣) ط « يقول » وهو تحريف .

الذى له خلق الله السمواتِ والأرضَ وما بينهما ، أحقُّ بأنْ يُفكرَ فيه ، ويُحْمَدَ اللهُ تعالى على ما أودَعَه من الحكمةِ العجيبةِ ، والنِّعمة السابغة .

وقلت : ولو كان بدلُ النظرِ فيهما النَّظرَ فى التوحيدِ ، وفى نفى التشبيه ، وفى الوعد والوعيد ، وفى التعديل والتجويز ، وفى تصحيح الأخبار ، والتفضيلِ بين علم الطبائع والاختيار ، لكان أصوبَ .

(دفاع عن المتكلمين)

والعجبُ أنَّك عَمَدْتَ إلى رجالٍ لاصناعةَ لهم ولا تجارةَ إلاَّ الدعاء إلى ماذكرت ، والاحتجاجُ لما[1] وصفت ، وإلاَّ وضْعَ الكتبِ فيه والولايةَ والعداوةَ فيه ، ولا لهمْ لَذَّةٌ ولا همٌّ ولا مذهبٌ ولا مجازٌ إلا عليهِ وإليه ؛

١٠٣ فحين أرادُوا أن يُقَسِّطُوا بينَ الجميعِ بالحِصص ، ويَعْدِلوا بينَ الكلِّ بإعطاء كلِّ شىء نصيبه ، حتَّى يقعَ التعديلُ شاملاً ، والتقسيطُ جامعًا ، ويظهرَ بذلك الخفىُّ من الحِكمَ ، والمستورُ من التدبير ، اعترضْتَ بالتعنُّتِ والتعجُّب ، وسطَّرت الكلامَ ، وأطلتَ الخطب ، من غير أنْ يكون صوَّبَ رأيَكَ أديبٌ ، وشايَعَك حكيم .

(نسك طوائف من الناس)

وسأضرِب لك مثلاً قد استوجبتَ أغلظَ منه ، وتعرَّضتَ لأشدَّ منه ولكنَّا نستأنِى بك وننتظِرُ أوْبَتَك . وَجَدْنَا لجميعِ أهلِ النَّقص ، ولأهلِ كلِّ صِنفٍ منهم نُسُكاً يعتمِدون عليه فى الجَمال ، ويحتسبون به فى الطاعةِ وطَلَب المثُوبة ، ويفزَعون إليه ، على قدْرِ فسادِ الطِّباع ، وضعفِ الأصل ،

---

(١) فى الأصل « بما » .

واضطرابِ الفرْع ، مع خُبْث المَنشإ ، وقلّةِ التثبُّتِ والتوقُّفِ ، ومع كثرة التقلُّب والإقدام معَ أوّلِ خاطر : فنُسكُ المَريبِ المرتابِ من المتكلِّمين أنْ يتحلَّى برمْي الناسِ بالرِّيبة ، ويتزيَّنَ بإضافةِ مايجدُ فى نفسه إلى خَصمه ، خوفاً من أن يكونَ قد فطِن له ، فهو يستُرُ ذلك الداءَ برمْيِ الناس به .

ونُسكُ الخارجيِّ الذى يتحلَّى به ويتزيَّا بجماله ، إظهارُ استعظامِ المعاصى ، ثم لايَلتفِتُ إلى مجاوزَةِ المقدارِ وإلى ظُلْمِ العباد ، ولا يقِف على أنَّ الله تعالى لايحبُّ أن يَظْلِمَ أظلمَ الظّالمين ، وأنَّ فى الحقِّ ماوسِعَ الجميع.

ونسْك الخُراسانيِّ أن يحُجَّ ويَنَام على قفاه ، ويعقد[1] الرِّياسة ، ويتهيَّأ للشَّهادة ، ويبسُطَ لسانَه بالحِسْبة . وقد قالوا : إذا نَسَك الشَّريفُ تواضَعَ ، وإذا نسَكَ الوضيعُ تكبَّر . وتفسيرُه قريبٌ واضح .

ونُسْك البَنَوى[2] والجنديِّ طرحُ الديوانِ ، والزِّرايةُ على السّلطان[3] . ونسك دَهاقِين السَّوادِ تركُ شُرْب المطبوخ[4] ونُسْك الخَصِيِّ لُزُوم طَرَسُوس وإظهارُ مجاهَدَةِ الروم . ونُسك الرافضيِّ تركُ النبيذ . ونسك البستانىِّ تركُ سَرِقة الثَّمر . ونُسْك المغنِّى الصَّلاةُ فى الجماعة وكثرةُ التسبيح ، والصلاةُ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم .

ونسك اليهودىِّ التشدُّدُ فى السَّبْت وإقامته .

والصوفىُّ المظهِرُ النُّسكَ من المسلمين ، إذا كان فسلاً يبغض العمل

---

(١) ط « يفقد » وليس بشىء .

(٢) ط « السكوفى » .

(٣) ط « والزيارة للسلطان » ل « والزيارة على السلطان » وقد جعلت القول كما ترى .

(٤) فى القاموس : « الطبيخ ضرب من المنصف » وفى مادة نصف « وكمعظم : الشراب طبخ حتى ذهب نصفه » .

تطرف[1] وأظهر تحريمَ المكاسب ، وعاد سائلاً ، وجعل مسألتَه وسيلةً إلى تعظيم الناسِ له .

وإذا كان النَّصرانيُّ فسلاً نذْلا مبغِضًا للعمَل ، ترهَّب ولَبِس الصُّوف؛ لأنَّه واثقٌ أنَّه متي لبِس وتزيَّا بذلك الزِّيِّ وتحلَّى بذلك اللِّباس ، وأظهر تلك السِّيما ، أنَّه قد وجَبَ على أهل اليُسرِ والثَّروه منهم أن يعُولُوه ويَكْفُوه ، ثمَّ لايرضى بأنْ ربحَ الكِفايةَ باطلاً حتي استطال بالمرتبة .

١٠٤ فإذا رمى المتكلِّمُ المريبُ أهلَ البراءة ، ظنَّ أنَّه قد حوَّل ريبتَه إلى خَصمه ، وحوَّل براءةَ خصمِه إليه. وإذا صار كلُّ واحدٍ من هذه الأصناف إلى ماذكرنا ، فقد بلغ الأمنيَّة ، ووقَفَ على النِّهاية . فاحذَرْ أن تكونَ منهم واعلَمْ أنَّك قد أشبهتهم فى هذا الوجه ، وضارعتَهم فىهذا المذهب .

باب

مِمَّا قدَّمْنا ذكرَه ، وبينَه وبينَ ماذكرنا بعضُ الفرْق .

يقال : أجرأ من الليث ، وأجبَنُ من الصِّفْرِد ، وأسخَى مِنْ لافِظة ، وأصبرُ على الهُونِ[2] من كَلب ، وأحذر من عَقْعَق ، وأزهى مِن غراب ، وأصنَع من سُرفَة[3] وأظلم من حيَّة ، وأغدَرمن الذئب ، وأخبَثُ من ذئبِ خَمَرَ[4] وأشدُّ عداوةً من عقرب ، وأروغُ من ثعلب ، وأحمقُ من حُبارى ، وأهدى من قطاة ، وأكذَبُ مِن فاختة ، وألأمُ من كلبٍ على جيفة ،

---

(١) ط « بين » بدل « من » و « يبعض » موضع « يبغض » . وفى ل : « تصوف » موضع « تطرف » .

(٢) ل « الهوان » وهما بمعنى .

(٣) ط « واصنع من شرفة » وانظر الحاشية رقم (١) ص ١٠٠ .

(٤) ط « ضمر » وهو تحريف . والخمر : ماوراك من شجر وغيره .

وأجمَعُ من ذَرّة ، وأضلُّ من حِمار أهلى[1] ، وأعقُّ من ضَبّ . وأبرُّ من هِرّة ، وأنفَر من الظليم ، وأضلّ من وَرَل[2] وأضلُّ من ضبّ ، وأضلُّ من الحيَّة .

فيعبِّرون عن هذه الأشياء بعبارةٍ كالعبارة عن الناس ، فى مواضع الإحسانِ والإساءة ، حتّى كأنّهم من الملومين والمشكورين ، ثم يعبِّرون فى هذا البابِ الآخَر بدونِ هذا التعبير ، ويجعلونَ خبَرهم[3] مقصوراً على مافى الخِلقة من الغريزة والقُوى فيقولون : أبصرُ من عُقاب ، وأسمَعُ من فرَس ، وأطولُ ذماء من ضبّ ، وأصحُّ من الظليم .

والثانى يشْبه العبارةَ عن الحمد والذمّ ، والأوّل يُشبِه العبارةَ عن اللائمةِ والشكر[4] . وإنَّما قلنا ذلك ، لأنّ كلّ مشكورٍ محمود ، وليس كلُّ محمودٍ مشكورا ؛ وكلّ ملومٍ مذموم ، وليس كلُّ مذمومٍ ملوما . وقد يحمدون البَلدةَ ويذمُّون الأخرى ، وكذلك الطعام والشراب ، وليس ذلك على جهة اللَوم ولا على جهة الشكر ؛ لأنّ الأجْر[5] لايقع إلاّ على جهة التخيُّر والتكلّف ، وإلاّ على ما لايُنال إلاّ بالاستطاعة[6] والأوّلُ إنَّما يُنالُ بالخِلقة وبمقدارٍ من المعرفة، ولا يبلغ أنْ يسمَّى عقْلا ، كما أنّه ليس كلُّ قُوّةٍ تسمَّى استطاعة . والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(١) ل « أهله » .
(٢) ل « أشرد من ورل » .
(٣) ط « خيرهم » والصواب ما فى ل .
(٤) ط « السلامة والشكر » والوجه ما فى ل .
(٥) ط « الأخر » وهو تصحيف .
(٦) ط « ما لايقال التعنى بالاستطاعة» وهى عبارة مشوّهة .

باب

ماذكر صاحبُ الديك من ذمّ الـكلابِ وتَعدادِ أصنافِ معايبها[١] ومثالبها ، مِن لؤمها وجبنها[٢] وضعفها وشرَهها ، وغدْرِها وبذَائها ، وجهْلها ١٠٥ وتسرُّعِها ، ونتْنها وقذَرها ، وما جاء فى الآثارِ من النَّهْيِ عنِ اتخاذها وإمساكها ، ومن الأَمْرِ بقتْلِها وطردها ، ومن كثرةِ جناياتها وقلّة ودّها[٣] ومِن ضرب المَثَل بلؤمها ونذالتها ، وقبحِها وقبْحِ معاظلتها[٤] وَمِن سماجة نُباحِها وكثرة أذاها ، وتقذُّر المسلمين من دنوّها[٥] [وأنّها تأكل لحومَ الناسِ] وأنّها كالخلْق المركّبِ والحيوانِ الملفّق : كالبغْل فى الدوابّ وكالراعِبيّ فى الحمام[٦] ، وأنّها لاسبعٌ ولا بهيمة ، ولا إنسـيَّةٌ ولا جِنّيَّة ، وأنّها من الحِنِّ دون الجِنّ[٧] وأنّها مطايا الجِنّ ونوعٌ من المِسْخ ، وأنّها تنبُش القبورَ وتأكُلُ الموتى ، وأنّها يعتريها الـكلَبُ مِن أكل لحوم الناس .

فإذا حكَيْنا ذلكَ حكَينا قولَ من عدَّد محاسنَها ، وصنّف مناقبها . وأخذْنا مِنْ ذكر أسمائها وأنسابها وأعراقها ، وتفدية الرجال إيَّاها[٨]

---

(١) ط « معائبها » بالهمز وهو خطأ صوابه فى ل ، إذ المعايب جمع معاب أو معابة بمعنى العيب فياؤه فى الجمع أصيلة غير زائدة فلا يصح قلبها همزة ، مثلها فى ذلك مثل معيشة ومعايش .

(٢) ط « وخبثها » والـكلب يوصف بالجبن .

(٣) ل « ردها » .

(٤) ط « معاطاتها » وهو تحريف . والعظال : الملازمة فى السفاد من الكلب ونحوه .

(٥) ط « درنها » .

(٦) ط « والزاغبي من الحمام » وهو تصحيف نبهت على صوابه فيما سبق .

(٧) ط « الجن » وصوابه فى ل .

(٨) ط « وتفذية الرجال إياها » وهو تحريف .

واستهتارهم بها ، وذكر كسْبِها وحراستِها ، ووفائها وإلْفِها وجميعِ منافعها ، والمرافقِ التى فيها ، وما أُودِعت من المعرفة الصحيحةِ والفِطَن العجيبة والحسِّ اللطيف[١] والأدب المحمود . وذلك سِوى صِدق الاسترواح وجَودَةِ الشمّ ، وذِكْرِ حفظها ونَفَاذها واهتدائها ، وإثباتِها لصُوَر أربابها وجيرانها ، وصبرِها ، ومعرفتِها بحُقوق الكرام ، وإهانتها اللئام ، وذكر صبْرها على الجفا ، واحتمالها للجوع ، وذكر ذِمامها وشدَّةِ مَنْعِها معَاقِدَ الذِّمارِ منها[٢] ، وذكر يَقَظَتها وقِلّة غفلتها[٣] وبُعْدِ أصواتها، وكثرة نسْلها وسرعة قَبولها وإلقاحها وتصرُّفِ أرحامِها فى ذلك ، مع اختلاف طبائع ذكورها والذكور من غير جنسها ، وكثرةِ أعمامِها وأخوالها ، وتردُّدها فى أصناف السِّباع ، وسلامتها من أعراق البهائم ، وذكر لعبها وحكايتها ، وجودة ثقافتها ومَهْنِها[٤] وخِدمتها ، وجِدِّها ولعِبْها وجميعِ أمورها ؛ بالأشعارِ المشهورةِ والأحاديث المأثورة ، وبالكتُبِ المنزَّلة والأمثالِ السائرة ، وعن تجرِبةِ النَّاس لها وفِراستِهم فيها ، وما عاينوا منها ؛ وكيف قال أصحابُ الفأل فيها ، وبأخبار المتطيِّرين عنها ، وعن أسنانها[٥] ومنتهى أعمارها وعدد جرائها ، ومدَّةِ حملها ، وعن أسمائها وألقابِها ، وسِماتِها وشِياتها ، وعن دوائها

(١) ط « والحسن اللطيف » وليس بشىء .

(٢) ل « منتها » موضع « منعها » . ط « الذمام » مكان « الذمار » . والذمار : ما يلزمك حفظه وحمايته ، وأما الذمام فهو الحق .

(٣) ل « وكثرة غفلتها » وبذلك يفسد المعنى .

(٤) ط « ثقافها » موضع « ثقافتها » والوجه فى الثانى . إذ الثقاف : هو الجلاد والخصام وما تسوى به الرماح . ولا وجه له هنا . وأما الثقافة فهى من ثقف ككرم وفرح صار حاذقا خفيفا فطنا ... وفى ل « وفهمها » بدل « مهنها » .

(٥) ط « أسنادها » وليس بشىء .

وأدوائها وسياستها ، وعن اللاتى لاتلقَنُ منها(١) وعن أعراقها والخارجىّ منها(٢) وعن أصول مواليدها ومخارج بلدانها .

وذكر صاحبُ الديك مايحفظ من أكلِ الكلابِ لحُوم النَّاس فقال : قال الجارود بن أبى سَبْرَة(٣) فى ذلك :

أَلم تر أنَّ اللهَ ربِّى بحَوْله ... وقوَّتِه أخزى ابنَ عَمْرَةَ مالكا

١٠٦ فَمَنْ كانَ عنه بالمغيَّبِ سائلاً ... فقد صارَ فى أرض الرُّصافةِ هالكا

تظلُّ الكلابُ العادياتُ يَنُشْنَه ... إذا اجتَبْن مُسْوَدًّا مِنَ الليل حالكا(٤)

وقال نُفَيع بن صفَّار المحاربى(٥) من ولد مُحارِب بن خَصَفَة(٦) فى حرب قيسٍ وتغلِب .

أفنَتْ بَنِى جُشَم بن بكرٍ حَرْبُنا ... حتى تعَادَلَ مَيلُ تَغلِب فاستوَى

أكَلَ الكلابُ أنوفَهم وخُصاهُمُ ... فلتبْكِ تَغْلِبُ للأنوفِ وللخُصى

وقال أبو يعقوب الخُرَيمى ، وهو إسحاق بن حسَّان بن قوهى(٧) فى قتلَى حربٍ ببغداد .

---

(١) ط « لاتلتى منها » وهو تحريف .

(٢) الجاحظ يجعل « الخارجى » مقابل « العريق » كما فى البيان ١ : ٧٦ .

(٣) ط « سمرة » وهو تحريف . قال الجاحظ فى البيان ١ : ٢١٤ « وكان الجارود بن أبى سبرة — ويكنى أبا نوفل — من أبين الناس وأحسنهم حديثا . وكان راوية علامة شاعرا مفلقا . وكان من رجال الشيعة ولما استنطقه الحجاج قال : ماظننت أن بالعراق مثل هذا !! » توفى سنة ١٢٠ كما فى تقريب التهذيب ص ٢٨ .

(٤) ل « ينبنه » مكان « ينشنه » ط إذا اجتن مستورا » .

(٥) ط « نهيع بن الصفار المحاربى » وأثبت مافى ل .

(٦) ط « خضعة » والصواب « خصفة » كما فى نهاية الأرب ١ : ٣٣٤ .

(٧) ط « ابن يعقوب الخزيمى . وهو إسحاق بن حسان بن موسى » والصواب ما أثبت من ل ومن تاريخ بغداد ٣٣٦٩ . قال الخطيب « وأصله من خراسان من بلاد السغد ، وكان متصلا بخريم بن عامر المرى وآله فنسب إليه . وقيل كان اتصاله بعثمان بن خريم ..

وهَل رأيتَ الفتيانَ في باحة المُعْتَرَكِ مَعْفورةً مَنَاخِرُها[1]
كلّ فتًى مانعٍ حقيقَتَه يشقَى به في الوَغَى مَساعِرُها
باتَتْ عليه الكلابُ تنهَشُه مخضوبةً من دمٍ أظافرُها

وقال أبو الشمقمق (وهو مَرْوان بن محمد ، مولى مرْوان بنِ محمَّد ، ويكنى أبا محمَّد)[2] :

يُوسفُ الشاعرُ فَرْخٌ وجَدُوه بالأُبُلَّه
حَلَقِيٌّ قَدْ تلُقِّي كامناً في جوف جُلَّه[3]
خيَّطوها خشْيَةَ الكلبِ عليهِ بِمِسَلَّه

وذُكر لي عن أبي بَكر الهُذَليِّ ، قال : كنَّا عندَ الحسن إذ أقبل وكيع بن أبي سُود فجلس ، فقال ياأبا سعيد : ماتقولُ في دم البراغيث يُصيب الثوب : أيصلَّى فيه ؟ فقال : ياعجبا ممَّن يلَغ في دماءِ المسلمين كأنَّه كلبٌ ، ثم يسألُ عن دم البراغيث !! فقام وكيعٌ يتخلَّج في مِشيتِه كتخلُّج المجنون ، فقال الحسن : إنَّ لله في كلِّ عضوٍ منه نعمةً فيستعين بها على المعصية ، اللَّهمَّ لاتجعلْنا ممَّن يتقوَّى بنعمتِك على معصيتك !!.

وأبوه خريم الموصوف بالناعم » ، ثم قال : « وله مدائح في محمد بن منصور ابن زياد ويحيى بن خالد وغيرهما ... السجستاني : الخريمي أشعر المولدين » . وانظر لخريم الناعم قاموس الزركلي ١ : ٢٩٠ ، وأمثال الميداني ٢ : ٢٨١

(١) ط « ساعة » — ولعلها « ساحة » — موضع « باحة » .

(٢) ترجمته في تاريخ بغداد ٧١٢٨ وابن خلكان ، في تضاعيف ترجمة يزيد ابن مزيد ، ولم يفرد له ترجمة . وأبو الشمقمق اجتمع ببشار وأبي نواس ، ودخل بغداد في أيام الرشيد ، وهو بصرى .

(٣) ط « حلق بلق » وانظر شفاء الغليل للخفاجي في تفسير الحلق . والبلق لعله منسوب إلى البلق بالتحريك بمعنى الحمق ، و « كامنا » هي في الأصل « كامن » والوجه النصب .

(ماأضيف من الحيوان إلى خبث الرائحة)

وقال صاحب الديك : أشياءُ مِنَ الحيوانِ تُضافُ إلى نَتْنِ الجُلُود وخُبث الرائحة، كريح أبْدان الحيَّات، وكنتْن التُّيوس وصُنانِ عرَقها، وكنتن جلْدِ الكلب إذا أصابه مطر. وضروبٌ من النَّتن فى سوى ذلك، نحنُ ذاكروها إن شاء الله تعالى، وقال رَوح بن زِنباع الجُذَاميّ، فى امرأته، وضرب بالكلب المثل :

رِيحُ الكرائم معروفٌ لَهُ أَرَجٌ   وريحُها ريحُ كلْبٍ مَسَّهُ مَطَرُ

قال : وكانت امرأةُ رَوح بن زِنباع أمّ جعفر بنتَ النُّعمان بن بشير، ١٠٧ وكان عبدُ الملك زوَّجه إيَّاها، وقال : إنَّها جاريةٌ حسناء، فاصبرْ على بَذاءِ لسانها .

وقال الآخر :

وريحُ مَجْروبٍ وريحُ جُلَّه   وريحُ كلبٍ فى غَداةٍ طَلَّه[1]

وأنشد أبو زيد فى ذلك :

كأنّ ريحَهُمُ من خُبْثِ طُعْمَتِهِمْ   ريحُ الكلابِ إذا مابلّها المطر[2]

ومما ذُكر به الكلبُ فى أكله العَذِرة، قولُ الراجز :

* أحرَصُ من كلبٍ على عِقْيِ صَبِي[3] *

وقال مثل ذلك حَنْظَلَة بن عَرَادة [فى ذكره] لابنه السَّرَنْدَى .

---

(١) ط « كلة » وتصحيحه من ل .

(٢) ط « إذا مامسها مطر » .

(٣) ط « عنى » والصواب بالقاف كما فى ل . والعقى بالكسر : مايخرج من بطن الولد حين يولد .

ماللسَّرَنْدَى أطالَ اللهُ أيْمَتَهُ خَلَّى أباه بقفر البيد وادَّلجا[١]
مجِعٌ خبيثٌ يُعاطِي الكَلْبَ طُعْمَتَه وإنْ رأى غفلةً من جارِهِ ولجا[٢]
رَبَّيْته وهو مثلُ الفَرْخِ أَصْرُبُهُ
والكلبُ يلحَسُ مِن تحتِ استِه الرَّدَجا[٣]

يقال للذى يخرُج من بطن الصبيِّ حين يخرُج من بطن أمه عِقى بكسر العين، ويقال عقَى الصبي يعقِي عقْياً، فإذا شُدَّ بطنُه للسِّمن قيل قد صُرِبَ ليسمَن[٤]. والعِقى وهو العَقْية الغيبة، وإيّاه عنَى ابنُ عمر حين قيل له: هلاَّ بايعت أخاك ابن الزُّبير؟ فقال: إنَّ أخي وضعَ يده في عَقْيَةٍ[٥] ودعا إلى البَيعة. إنِّي لاأنزَع يدَى مِن جماعةٍ وأَضَعُها فى فُرْقة[٦].

وفى الحديث المرفوع: «الراجعُ فى هِبَتِه كالرَّاجِع فى قَيْئِه». وهذا المثلُ فى الكلب.

ويقالُ: «أبخَلُ من كلبٍ على جيفة». وقال بعضَهم فى الكلب: الجِيفة أحبُّ إليه من اللَّحم الغريض، ويأكل العَذِرة ويرجِع فى قيئه، ويشغَر ببَوله فيصير فى جوفِ فيه وأنفه، ويحذفه تِلقاء[٧] خَيشومه.

---

(١) ط «بقبر البيد».

(٢) ط «ربح خبيث» وهو تحريف. والمجع بالكسر: الأحمق، إذا جلس لم يكد يبرح من مكانه، والجاهل، وفيها: «جارة» وهو تصحيف.

(٣) ط «أعظمه» موضع «أصربه» وفى ل «أطعمه» وأثبت ما يقتضيه كلام الجاحظ الآتى.

(٤) فى الأصل «اشتد» موضع «شد» وهو تحريف. وفى ط: «ضرب» مكان «قد صرب» وتصحيحه من ل.

(٥) ط «قيئة» وبذلك يفوت الاستشهاد. والصواب فى ل.

(٦) ط «واضعا فى فرقة».

(٧) ل «ويسدده».

وقال صاحب الكلب : إنْ كنتُم إنَّما تستسقطون الكلب[١] وتستفلونه بهذا وأشباهه ، فالجيفةُ أنتنُ من العذرة ، والعذِرة شرٌّ من القئ ، والجيفة أحبُّ إلى أشراف السباع ورؤسائها من اللحم العبيط الغريض الغضّ .

(مأكل السبع)

والأسَد سَيِّد السباع ، وهو يأكل الجِيفةَ ، ولا يعرِض لشرائع الوحش وافتراسِ البهائم ، ولا للسابلة من الناس ، ماوَجَدَ فى فريسته فَضْلة . ويبدأ بعدَ شُرْب الدّم فيبقرُ بطنَه ويأكل مافيه من الغثيثة والثفل[٢] والحَشْوة والزِّبل ، وهو يرجع فى قيئه ، وعنه[٣] ورِث السِّنَّور ذلك .

(ما قيل فى السبع من الأمثال)

وهو المضروبُ به المثلُ فى النَّجدة والبسالة ، وفى شِدَّة الإقدام[٤]
١٠٨ والصَّولة ، فيقال : « ماهو إلاّ الأسد على براثنه » «وهو أشدُّ من الأسد» « وهو أجرأ من الليث العادى » « وفلان أسدُ البلاد » « وهو الأسد الأسود[٥] » وقيل لحمزة بن عبد المطَّلب أسدُ الله . فكفاكَ من نُبْل الأسد أنَّه اشتُقَّ لحمزةَ بن عبد المطَّلب من اسمه . ويقال للملك أُصَيْد إذا أرادوا

(١) ط « تستفطون » وهو تصحيف .
(٢) ط « القيئة والتفل » وهو تحريف ما فى ل .
(٣) ط « وعند » وتصحيحه من ل .
(٤) ط « وهو فى شدة الاقدام » وكلمة « هو » مقحمة .
(٥) ط « الأسور » ولعله « وهو أسد الأسود » .

أن يصفوه بالكِبْر وبقلّةِ الالتفات ، وبأنّ أنفَه فيه أسلوب[1] ولأنّ الأسد يَلتفت معاً لأنّ عنقه من عظم واحد . وقال حاتم[2] :

هَلاَّ إذا مَطَرَ السماء عليكُمُ[3] ورفعتَ رأسَك مثلَ رأسِ الاصْيَدِ

وقال الآخر :

يَذُودونَ كلباً بالرِماحِ وطَيِّئاً وَتَغلِبَ والصِّيدَ النواظرَ من بَكر

وقال الآخر :

وكم لى بها من أبٍ أصْيَدٍ نَمَاه أبٌ ماجدٌ أصيَدُ[4]

وبعدُ فإنّ الذى يأكل الجِيفةَ لم يبعُد من طبعِ كثيرٍ من الناس ؛ لأنّ من الناس من يشتهى اللحمَ الغابَّ ، ومنهم من يشتهى النَّمَكْسُود . وَلَيْسَ بَيْنَ النَّمَكْسُودِ وبين المصلوب اليابس كبيرُ فرق وإنّما يذبحون الدِّيَكَةَ وَالْبطَّ وَالدَّجاجَ وَالدُّرّاج من أوّلِ الليل ، ليسترخىَ لحمُها ، وذلك أول التجيف[5] .

فالأسد أجمعُ لهذه الخصال من الكلب ، فهلاّ ذكرتمْ بذلك الأسدَ وهو أنبهُ ذِكراً وأبعدُ صيتا .

وأمّا ماذكرتم من نَتْن الجِلد ومن استنشاق البول ، فإنّ للتيسِ فى ذلك ماليس للكلب ، وقد شاركه فى الحذْفِ ببوله تِلقاءَ أنفه ، وباينه بشدّةِ الصُّنَانِ ؛ فإنّ الأمثالَ به أكثرُ ذِكراً . وفى العنز أيضاً عيوب .

---

(١) ل « وبأن أنفه أسلوب » ط « ... فى أسلوب » وسويت العبارة كما ترى . والأسلوب : الشموخ فى الأنف .

(٢) فى الأصل « أبو حاتم » وإنما هو حاتم الطائى ، والبيت من أبيات ستة لها خبر فى آخر ديوانه بخمسة دواوين العرب ١٢٨ .

(٣) ط « مطرت سماؤكم بها » وفى الديوان :

* ها إنما مطرت سماؤكم دما *

(٤) ط « نماه لمجد أب أصيد » .

(٥) ل « التجييف » .

وفى توجيه التيس ببوله إلى حاقِ خَيشومه قال الشاعرُ لبعض من يهجُوه :

دُعِيتَ يَزِيدَ كى تَزِيدَ فلم تَزِدْ   فعادَ لكَ المُسْمِى فأسْمَاكَ بالقحر[١]

وما القَحْرُ إلاَّ التيسُ يَعْتِكُ بولُه   عَلَيْهِ فيمذى فى لَبَانٍ وفى نحر[٢]

وقال آخر فى مثل ذلك :

أعثمانَ بنَ حَيَّانَ ابن لؤم   عَتُودٌ فى مفارِقه يَبولُ

ولو أنِّى أشافِهُه لشالت   نَعامَتُه ويفهمُ مايقول

١٠٩ وبعد فما يُعلَم من صنيع العنز[٣] فى لبنها وفى الارتضاع من خلفها إلاَّ أقبحَ .

وقال ابن أحْمَرَ الباهليُّ فى ذلك :

إنَّا وجَدْنا بَنى سَهْمٍ وجاملهم   كالعنز تعطِفُ رَوْقَيها وتَرتَضِعُ[٤]

وقلتم : هَجَا ابْنُ غادية السلمى[٥] بعضَ الكِرام ، حينَ عُزِل عن يَنْبُعَ فقال لمن ظنَّ أنَّه إنَّما عُزِل لمكانه :

رَكِبوكَ مُرْتَحَلاً فظهرُكَ منهمُ   دَبِرُ الحراقفِ والفَقَارِ مُوَقَّعُ

كالكلبِ يَتْبَعُ خانِقِيهِ وينتحى   نحوَ الذين بهم يَعِزُّ ويمنعُ

---

(١) ط « بالفجر » وهو تصحيف ما فى ل ، والقحر أصل معناه البعير المسنّ .

(٢) ط « الفجر » موضع « القحر » و « يعتل » مكان « يعتك » . يقال عتك عليه يضربه أى لم ينهنهه عنه شىء ... وفى ل : « ويمذى فى اللبان وفى النحر » .

(٣) ل « فما نعلم صنيع » .

(٤) ط « وجاهلهم » ل «وحاملهم» وتصحيحه مما سيأتى فى هذا الجزء ص ١٧٣ ومن عيون الأخبار ٢ : ٧٥ . والجامل : قطيع الإبل معه رعيانه وأربابه.

(٥) ط : « السلمحا » وفى ل : « عادية » بالعين . وأثبت ما فى س و م .

وقال ابن هَرْمة الفِهرىّ :

فما عادَت لذى يمن رءوسا ولا ضَرَّت بفُرْقتها نِزارَا
كعَنْزِ السَّوْءِ تَنْطَحُ مَنْ خَلاَهَا وتَرْأَمُ مَنْ يُحِدّ لها الشِّفَارَا

وما نعلم الرُّجوعَ فِى الجِرَّة ، وإعادةَ الفرثِ إلى الفم ليُستقصَى مضغُه إلاَّ أسمجَ[١] وأقذرَ من الرُّجوع فى القَىْء . وقد اختار الله عزَّ وجلَّ تلك الطبيعةَ للأنعام ، وجعل الناسَ ليسوا لشىء من اللُّحمان أشــدَّ أكلاً ولا أشدَّ عَجباً بِهِ منكم[٢] ، ولا أصلحَ لأبدانهم ولا أغذَى لهم من لُحُومِ هذه الأنعام أفتائِها ومَسانِّها .

وقال صاحبُ الديك : مايشبه عَوْدُ الماشيةِ فى الجِرَّة ، ورجوعُها فى الفرث تطحَنُه وتُسيغه ، الرجوعَ فى القىْ ٔ . وقد زعمتم أنَّ جِرَّةَ البعيرِ أنتنُ مِن قَىء الـكلاب لطول غُبُوبها[٣] فى الجوف ، وانقلابها إلى طباع الزِّبل وأنَّها[٤] أنتن من الثلط . وإنَّما مثل الجِرَّة مثل الرِّيق الذى ذكره ابنُ أحمر فقال :

هــذا الثناء وأجْدِرْ أن أصاحبه وقَدْ يدوِّمُ رِيقَ الطَّامِعِ الأَمَلُ[٥]

فإنَّما مَثَلُ القَىء مَثَلُ العَذِرَة ؛ لأنَّ الرِّيق الذى زعمتم ، مادامَ فى فمِ

---

(١) ط : « إلى السمع » وهو تحريف ماق ل .
(٢) وضعت كلمة (به) فى ط بعد أكلا . وتصحيحه من ل .
(٣) ط « غيوبها » والغيوب صحيحة ، والأشبه « غبوبها » بالباء كما مضى قريبا وكما فى ل .
(٤) فى ط « وأنه » وفى ل : « وأنهما » والوجه ما أثبت لأن الضمير راجع إلى الجرة .
(٥) ط « يصاحبه » و « يداوم » وتصحيحه من ل ومن البيان ١ : ١٣٣ .

صاحبه ، ألذُّ من السلوى ، وأمتعُ من النسيم ، وأحسنُ موقعاً من الماء البارد من العطشان المسهوم . والريقُ كذلك مالم يزايِل موضعَه ، ومتى زايل فَمَ صاحبِه إلى بعض جِلْده اشتدَّ نَتْنُهُ وعادَ فى سبيل القئ .

١١٠ فالرِّيق والجِرَّةُ فى سبيلٍ واحد ، كما أنَّ القئ والعَذِرة فى سبيل واحد . ولو أن الـكلبَ قَلَس حتَّى يمتلئَ منه فمه ، ثمَّ رجع فيه من غير مباينةٍ له ، لـكان فى ذلك أحقَّ بالنظافة من الأنعام فى جِرَّتها ، وحشيِّها وأهليِّها ، وإنَّ الأرانبَ لتَحيضُ حيضاً نَتِناً ، فما عاف لحمَهَا أصحابُ التَّقَذُّرِ[1] لمشاركَتِهَا الأنعام فى الجِرَّة .

فقال صاحب الكلب : أمَّا ما عبتموه من أكْلِ العَذِرة ، فإنَّ ذلك عامٌّ فى الماشيةِ المتخيَّرِ لحمُها على اللُّحْمان ؛ لأنَّ الإبل والشياه[2] كلُّها جَلاَّلة وهُنَّ على يابسِ مايخرُج من الناسِ أحرَصُ ؛ وعلى أنَّها إذا تعوَّدت أكلَ ماقد جفَّ ظاهرُه وداخلُه رطبٌ ، رَجَع أمرُها إلى ماعليه الـكلب . ثمَّ الدَّجاج لاتَرْضَى بالعَذِرة ، وبما يَبْـقَى من الحبوبِ التى لم يأتِ عليها الاستمراء والهضْم ، حتَّى تلتمِس الديدان التى فيها فتجمع نوعين من العذرة[3] لأنها إذا أكلت ديدانَ العَذِرةِ فقد أتَتْ على النَّوْعينِ جميعاً . ولذلك قال عبد الرحمن بن الحَـكَم[4] فى هجائِه الأنصار بخبيث الطعام ،

---

(١) ط : « التقزز » وهو الاشمئزاز . والتقذر من تقذر الشىء : عده قذرا .

(٢) فى الأصل : «الشاة» والوجه الجمع كما صنعت.

(٣) ط: «فيجتمع نوعان».

(٤) ط : « ابن أم الحـكم » والصواب ماأثبت من ل . وعبد الرحمن بن الحـكم هذا شاعر إسلامى متوسط الحال فى شعراء زمانه . وكان يهاجى عبد الرحمن ابن حسان بن ثابت الأنصارى فيقاومه وينتصف كل واحد منهما من صاحبه . له ترجمة فى الأغانى ١٢ : ٦٩ ــ ٧٣ . وأما عبد الرحمن بن أم الحـكم فهو ممن ولى الـكوفة وأساء بها السيرة ، وولاه خاله معاوية عدة أعمال فذمه أهلها ، وتظلموا منه فعزله واطرحه . الأغانى ١٣ : ٣٢.

فضرب المثلَ بالدَّجاج من بين جميع الحيوان، وترَكَ ذِكر الكلاب وهى له مُعْرِضة فقال :

وَلِلْأَنْصَارُ آكَلُ فى قُرَاهَا ... لِخُبْثِ الْأَطْعِمَاتِ مِنَ الدَّجَاجِ[1]

ولو قال :

وللأَنْصَارُ آكَلُ فى قُرَاها ... لِخُبْثِ الأَطْعِمَاتِ مِنَ الكِلَابِ

لكانَ الشِّعْر صحيحاً مُرضياً .

وعلى أنَّ الكلابَ متي شبِعت ، لم تعرض للعَذِرة ، والأنعامُ الجَلَّالةُ وكذلك الحافِر ، قد جعلت ذلك كالحَمْضِ إذا كانت لها خَلَّةٌ فهى مرَّة تتغذَّى به ومرة تتحمض وقد جاء فى لُحوم الجَلَّالة ماجاء .

(رغبة الملوك والأشراف فى الدجاج)

وملوكُنا وأهلُ العيشِ مِنَّا ، لايرغبون فى شىء من اللُّحمان رغبتَهم فى الدَّجاج ، وهم يقدِّمونها على البطِّ والنواهض ، والقَبَجِ والدُّرَاج . نعمْ وعلى الجِداء والْأَعْنُقِ الحُمْرِ من بَنَاتِ الصَّفَايا . وهم يعرفُون طبعها وسوء قُوتِها[2] ، وهم مع ذلك يأكلون الرَّواعِى كما يأكُلون المسمَّنات .

(الشبوط أجود السمك)

وأطيبُ مافى الأنهار من السمك ، وأحسنُها قُدوداً وخَرْطاً ، وأسبطُها سُبُوطاً[3] ، وأرفعُها ثمنا وأكثرُها تصرُّفا فى المالح والطرىّ ، وفى

---

(١) ل : « نحبث » وهو تحريف .

(٢) ط : « وشهوتها » .

(٣) ل : « سباطة » يقال سبط سباطة وسبوطة وسبوطا ،

القَرِيسِ والنَّشوط الشَّبُّوط(١)، وليس فى المـاء سمكةٌ رفيعةُ الذكر ولاذاتُ خمول ، إلاّ وهي أحرصُ على أكْل العَذِرة منها ، وإنّها لَأَشدُّ طلباً لهـا من الخِنْزير فى البرّ ، والجِرّىّ فى البحر .

(لحم الخنزير)

وقد علم الناسُ كيفَ استطابةُ أكلِ لُحومِ الخنازير ، وأكلُ
١١١ الخنازيرِ لهـا ، وكيف كانت الأَكاسرة والقياصرةُ يقدّمونها ويفضّلونها .
ولولا التعبُّدُ لجَرَى عندنا مَجْراه عندَ غيرِنا وقد علم النَّاسُ كيف استطابةُ أكل الجِرّىّ لأذنابها(٢) .

(ماقيل فى الجرى)

وفى الجِرّىّ قالأبو كَـلْدة : هو أُدْم العُميان ، وجيّدٌ فىالـكَوْشَان(٣) ودواءٌ للـكليتين(٤) ، وصالحٌ لوجَع الظهر وعَجْبِ الذّنب ، وخِلافٌ على اليهود ، وغيظٌ على الروافض ؛ وفى أكله إحياءٌ لبعض السُّنن ، وإماتةُ بعضِ البِدَع ، ولم يُفْلَجْ عليهِ مُـكْثِرٌ منه قطٌّ ، وهو محنةٌ بين المبتدِع

---

(١) فى القاموس : سمك قريس : طبخ وعمل فيه صباغ وترك حتى جمد . . وفى مبادئ اللغة ٧٤ : « والقريس : لحم يطبخ بخلّ ثم يبرد » . وهى فى ط « القريش » وفى ل : « القريص » وهما كلتان محرفتان . . وأما النشوط فهى كلمة ساقطة من ط . والنشوط : سمك يمقر فى ماء وملح.

(٢) فى ط « لأذنابها محشوا » وفى ل « لأذنابها محسيا » ومحسيا ومحشوا كلتان مقحمتان فأسقطتهما واللام فى «لأذنابها» بمعنى إلى .

(٣) الـكوشان : طعام لأهل عمان من الأرز والسمك .

(٤) ط : « فى الـكليتين » وهو تحريف .

والشَّنِّى ، هلك فيه فِئتَانِ[١] مذْ كانت الدنيا ، محلِّلٌ ومحرِّم .

وقال أبو اسحق : هو قبيح المنظر ، عارى الجِلْدِ ، ناقصُ الدِّماغِ ، يلتهم العَذِرة ويأكل الجرذان[٢] [صحاحاً والفأرَ] ، وزَهِمٌ لايُستَطاعُ أكلُه إلاّ محْسُوًّا[٣] ولا يتصرَّفُ تصرُّفَ السمك ، وقد وقع عليه اسم المِسْخ ، لايَطِيب مملوحاً ولا ممقوراً ، [ولايؤكل] كباباً ، ولايُختارُ مطبوخاً ، ويُرمَى كلُّه إلاَّ ذنَبه[٤] .

والأصناف التى تعرض للعَذِرة كثيرة ، وقد ذكرنا الجَلاَّلاَتِ من الأنعام والجِرِّىِّ والشَّبُّوطِ من السمك . ويعرِض لهـا من الطير الدَّجاجُ والرَّخَمُ والهَدَاهِد .

(الأنوق وما سمى بهذا الاسم)

وقد بلغ من شَهوة الرَّخَمَة لذلك ، أنْ سمَّوها الأنوق ، حتى سمَّوا كلَّ شَىْء من الحيوان يعرِض للعذِرة بأنوق ، وهو قول الشاعر :

حتَّى إذَا أضحى تَدَرَّى واكتحل   لجارتيه ثم ولى فنثل
* ذَرْقَ الأَنُوقَينِ القَرَنْـبَى والجُعَل *

(١) ط : « فتيان » وليس بشىء .
(٢) ط : « يلتقم العذرة ويبتلع الجرذان » .
(٣) محسواء، من حسا يحسو حسوا . والمعنى صنع منه الحساء ، وهى فى ط « محشوا » وفى ل « محسيا » .
(٤) ل : « بكله إلا ذنبه » .

(ماقيل من الشعر فى الجُعَل)

ولشدّة طلب الجعل لذلك قال الشاعر :

بَبِيت فى مجلس الأقوام يَرْبؤهم كَأَنَّه شُرَطِىٌّ بَاتَ فى حَرَسِ

وكذلك قال الآخر[١] :

إِذا أَتَوه بطعامٍ وأَكَلْ[٢] بَاتَ يعشّى وَحْدَه أَلْفَىْ جُعَل

هذا البيتُ يدلُّ على عِظَم مقدار النَّجْو ، فهجاه بذلك وعلى أنّ الجُعَل يقتات البُراز .

وفى مثل ذلك يقول ابن عَبْدَل ـ إن كان قاله ـ وإنما قلت هذا لأنّ الشعر يَرتفِـع عنه .

والشعر قوله :

نِعْم جارُ الخنزيرةِ المرضعُ الغر ثى إذا ماغدا أبو كلثوم[٣]

ثاوياً قد أصابَ عند صديقٍ من ثَرِيدٍ ملبّق مأدُوم[٤]

ثم أنحى بجَعره حاجبَ الشمـ سِ فألقى كالمِعْلَفِ المَهْدُوم[٥]

بضَرِيطٍ ترى الخنازير منه عامداتٍ لتــلِّهِ المركُومِ

١١٢ وقال الراجز [فى مثل ذلك]

قد دقَّهُ ثَارِدُه وصَوْمَعَا[٦] مُمَّتَ أَلبَانَ البَخاتِى جَعْجَعا

---

(١) ط « ولذلك قال الشاعر » وهو تحريف .

(٢) هذا البيت ساقط من ل .

(٣) ط : « نم جاز الخنزيرة المرضـع الفرثى » وتصحيحه من ل ومن البيان ٣ : ١٧٧ .

(٤) ثريد ملبق : ملين بالدسم

(٥) ط « ثم أنحى بجمده » وهو على الصواب فى ل والبيان .

(٦) ط « فردقة ثاردة » وهو تصحيف ما فى ل . فى القاموس : ثريدة مصومعة : مدققة الرأس .

جَعْجَعَةَ العَوْدِ ابْتَغَى أنْ يَنْجَعا(١) ... ثُمَّتَ خوّى بارِكاً واسْتَرْجَعا

* عَنْ جاثمٍ يُحْسَبُ كلباً أبقعا(٢) *

وفي طلب الجُعَل للزِّبْلِ قال الراجز (وهو أبو الغصن الأسدى):

ماذا تُلاقى طَلَحَاتُ الحرجه ... من كل ذات بُخْنُقٍ عَمَلَّجه(٣)

ظَلَّ لها بَيْنَ الحلال أرَجَه(٤) ... مِنَ الضُّرَاطِ والفُسَاء السمجه(٥)

فجئتُها قاعِدَةً منشجه(٦) ... تعطيه عنها جُعَلاً مُدحرجَه

وقال يحيى الأغرّ: تقول العرب « سَدِكَ به جُعَلُه(٧) ». وقال الشاعر:

إذا أتيتُ سُلَيمَى شَبَّ لى جُعَلٌ ... إنَّ الشقيَّ الذى يُغْرَى به الجُعَل

يضرب هذا المثلُ للرَّجل إذا لَصِقَ به من يكره، وإذا كان لايزال يراه[وهو] يهرُبُ منه.

قال يحيى: وكان أصلُه ملازمةَ الجُعَل لمن بات فى الصحراء، فكلَّما قام لحاجةٍ تبِعه؛ لأنَّه عنده أنَّه يريد الغائط.

(القرنبى)

وفى القرَنْبَى يقول ابنُ مقبل:

---

(١) ط: « جعجعة العواء تبغى تنجعا » وهو كلام مشوه تصحيحه من ل.

(٢) فى القاموس: « البقع محركة فى الطير والكلاب كالبلق فى الدواب » وفيه: « البلق: سواد وبياض » وفى ل « كبشا أبقعا » والوجه ماأثبت من ط.

(٣) ط: « نجنق » ولا معنى له وصوابه فى ل. والبخنق: خرقة تقنع بها الجارية.

(٤) ل: « بين الحجال ».

(٥) ل: « السمهجة ».

(٦) ل « مفسحة ».

(٧) ط: « سرك به جعله » وإنما هى سدك ــ بمعنى لزم ــ كما فى ل. وفى الأمثال: « ألصق من جعل ».

ولا أطرُق الجَارات بِاللَّيل قابعاً قُبُوعَ القَرَنْبَى أخْلَفَتْه مجاعره[١]

والقبوع : الاجتماع والتقبض . والقَرَنْبى دويْبَةٌ فوق الخُنفَساء ودونَ الجعل ، وهو والجعل يتْبعان الرَّجلَ إلى الغائط.

(الهدهد وخبث ريحه)

ومن الطير الذى يُضَارِع الرَّخمة فى ذلك الهدهدُ، منتنُ البدَن وإن لم تجدْه ملطخًا بشىء من العَذِرة ؛ لأنَّهُ يبنى بيتَه ويصنع أُفحوصَه من الزِّبل ، وليس اقتياتُه منه إلاَّ على قدْر رغبته وحاجته فى ألاَّ يتَّخذ بيتاً ولا أُفحوصاً إلاّ منه ، فخامَرَه [ذلك] النَّتَنَ فعَلِق ببدنه وجرى فى أعراق أبويه ، إذ كان هذا الصنيع عامًّا فى جنسه[٢] .

وتعترى هذه الشَّهْوَةُ الذِّبان ، حتَّى إنَّها لو رأتْ عسلاً وقذَرا ، لكانت إلى القذَر أسرعَ وقال الشاعر[٣] :

قفَا خَلْفَ وَجْهٍ قَدْ أُطِيلَ كأنَّه قفامالِكٍ يُقْصِى الهُمومَ عَلَى ثبق[٤]

وأعظمُ زهواًمن ذُبابٍ على خِرَا[٥] وأبخَلُ من كَلْبٍ عَقُورعلى عَرْق[٦]

ويزعمون أنَّ الزُّنبورَ لهجٌ بصيد الذِّبان ، ولا يكاد يصيده[٧] إلاَّ

---

(١) ط : « محاجره » وأثبت مافى ل .

(٢) ط : « إذ كان هذا التضيع عاما فىجنبه » وهو تحريف مافى ل.

(٣) هو أبو نواس الحسن بن هانىء كما سيأتى وكما فى البيان ٣ : ٢٠٠ وعيون الأخبار ١ : ٢٧٣ والشعر فى هجاء جعفر بن يحيى البرمكى .

(٤) ل : « بثق » .

(٥) ل : « خر » .

(٦) العرق بالفتح : العظم بلحمه . فإذا أكل لحمه فعراق — كغراب — أو كلاهما لكليهما .

(٧) ط : « يصيد » والوجه مافى ل .

وهوَ ساقطٌ على عذرة لفَرْط شَهوَتِه لها [ولاستفراغها] فيعرِف الزُّنبور ١١٣ ذلك ، فيجعل غَفلتَه فُرصة ونُهْزة . قالوا : وإنَّما قلنا ذلك لأنَّا لم نجِدْه يرومُ صيدَه وهو ساقِطٌ على ثمرةٍ ، فما دونها فى الحلاوة .

(شعر فى الهجاء)

وقال أبو الشمقمق فى ذلك :

الطَّرِيقَ الطَّرِيقَ جاءكمُ الأحـــمقُ رأس الأَنتانِ والقَذِره
وابْنُ عمِّ الحمارِ فى صورةِ الفيـــلِ وخالُ الجاموسِ والبقَره
يمشى رويداً يريد خَلْفتكم كمشى خِنزيرةٍ إلى عَذِره(١)

وقال حَمَّادُ عَجْرَد فى بشَّارِ بْنِ بُرْدٍ العُقَيلىّ .

ماصَوَّرَ الله شِبْهاً لَه مِنْ كلِّ مَنْ مِنْ خَلْقِه صَوَّرا
أَشبَهَ بِالخِنزيرِ وجهًا ولا بالكلبِ أعراقًا ولا مَكْسِرا(٢)
ولا رأينا أحـــداً مثله أنجسَ أو أطفَسَ أو أقذرا(٣)
لو طُلِيتْ جلدتُه عنبراً لنتَّنت جِـــلْدتُه العَنْبرا
أو طُلِيت مِسكاً ذَكِيًّا إذَنْ تحوَّلَ المِسْكُ عليه خِرَا

وقال أبو نُواسٍ فى هِجَاء جَعْفرِ بْنِ يحيى بن خالد البرمَكىّ :

إذا مامدحت فتًى من خِرَا أَليس جزَائى أن أُعطَى الخرَا(٤)

وقال أعرابىٌّ يهجو رجلاً يقال له جُـلمود بن أوس ، كان مُنتِنَ العرق :

---

(١) ط «يريد خلفتكم مشى» والوجه مافى ل .
(٢) المكسر — كمنزل — : الأصل والمخبر .
(٣) الطفس بالتحريك : قذر الإنسان إذا لم يتعهد نفسه . وطفس كقذر وزنا ومعنى .
(٤) ط : « من خرى » ل « من خر » . وفى ط : « اعطى الخرا » .

إنِّى إذا ماعارضى تألَّقا[1] ورَعَـدت حافته وبَرَقا

أهلـكتُ جُلمودَ بنَ أَوس غرَقا كانَ حمقاء فصارَ أَحمَقا

* أخبث شيء عرَقاً وخرَقا[2] *

وقال حمَّادُ عَجْرَد فى بشَّار :

ياابنَ بُرْدٍ اخسَأْ إليك فمثلُ الـ كلب فى الخَلْقِ أنتَ لاالإنْسانِ[3]

بَلْ لعَمْرى لأَنْتَ شرٌّ من الـكلـب وأولى منْه بكلِّ هوَانِ

ولَريحُ الخنْزيرِ أطيبُ مِنْ ريـحِكَ يا ابْنَ الطَّيان ذى التبَّانِ

وقال بعض الشعراء فى عبد الله بن عمير :

١١٤ غزَا ابنُ عُميرٍ غزْوةً تركَتْ له ثناءً كريحِ الجَوْرَبِ المتخرِّق

وقال حمَّادُ عَجْرَدٍ فى بشَّار[4] :

قُلْ لشَقِيِّ الجَدِّ فى رَمْسِه ومَن يفِرُّ الناسُ من رِجْسِه[5]

لِلقِردِ بشَّارِ بْنِ بُردٍ ولا تَحْفِل برغم القرد أو تَعسه[6]

للقِرْدِ باللَّيثِ اغترارٌ به فَما الَّذى أدناكَ من مَسِّه[7]

ياابنَ استِها فاصبِرْ على ضَغْمةٍ بنابِهِ ياقِردُ أوْ ضِرْسِهِ

نهارُه أخبثُ من ليلِه ويومُه أخبثُ من أمسِهِ

---

(١) ط « إذا عارضنى تألقا » .

(٢) ط : « أحرقا وعرقا » .

(٣) فى ط نقصان كلمة (إليك) وبذلك يختل البيت . والشعر من الخفيف لحقه التشعيث فى البيت الأول والثالث.

(٤) الشعر فى أمالى المرتضى ١ : ٩٣ ومعاهد التنصيص ١ : ١٠٠ .

(٥) ل : « . . . فى رمسه وأمه الشلاقة الرجسة » وهو تحريف .

(٦) ط : « نخسه » ولعلها « نحسه » وأثبت ما فى ل .

(٧) ل : « ماالذى أدناك » .

وليس بالمُقْلِع عن غَيِّه[١] حتى يُدَلَّى القردُ فى رَمْسِهِ
ما خلقَ اللهُ شبيهاً له من جِنِّهِ طُرًّا ومن إنْسِهِ
واللهِ مَا الخنزيرُ فى نَتْنِه من رُبْعِه بالعُشْر أو خُمْسِهِ
بل ريحُهُ أطيبُ من ريحِهِ ومسُّه ألْيَنُ مِن مسِّـهِ
ووجهُهُ أحسنُ من وَجهِهِ ونفسُه أنبَلُ من نفسِهِ
وعودُه أكرمُ من عُودِه[٢] وجِنسُه أكرمُ من جِنسِهِ

وأنا حفظك الله تعالى أستظرِف وضعَه الخنزيرَ بهذا المكان وفى هذا الموضع ، حين يقول : وعُودُه أكْرَمُ مِن عُودِه .

وأىُّ عودٍ للخنزير[٣] ؟ ! قَبحه الله تعالى [وقبح من يشتهى أكله] .

وقال حمَّادُ عجرد فى بشَّارِ بن بُرد :

إنَّ ابنَ بُردٍ رأى رُؤيا فأوَّلَها[٤] بلا مَشُورةِ إنسانٍ ولا أَثَرِ
رأى العَمَى نعمةً لله سابغة عليه، إذ كانَ مكفوفًا عن النَّظرِ
وقال: لولَمْ أكُنْ أعمى لكنتُ كما قد كانَ بُرْدٌ أبِى فى الضِّيقِ والعُسُرِ
أكُدُّ نفسى بالتطيين مجتهدًا إمّا أجيراً وإمّا غيرَ مُؤتَجَرِ
أو كنتُ إنْ أنا لم أقنعْ بفعلِ أبى قصَّابَ شاء شَقِىَّ الجَدِّ أو بقَرِ
كإخوتى دائباً أشقَى شقاءهُمُ فى الحرِّ والبردِ والإدلاج والبُكَرِ
فقد كفانى العَمَى من كل مَكْسَبَةٍ والرِّزقُ يأتى بأسبابٍ من القَدَرِ[٥]

(١) كذا فى معاهد التنصيص . وفى ط : « غيله » و ل : « فعله » .
(٢) ط : « أحسن » وارتضيت ما فى ل ومعاهد التنصيص .
(٣) ط : وعوده أكرم من عوده أين عود الخنزير من الكرم . ووضع الكلام بهذه الصورة من تلاعب النساخ . وقد رددت الأمر إلى نصابه ، معتمدا ما فى ل .
(٤) ل : « فقال بها » .
(٥) ط : « بأنواع من القدر » .

فصرتُ ذا نَشَبٍ من غير ماطلب … إلاَّ بمَسْألتى إذ كنت فى صِفَرِى[١]
أضمُّ شيئاً إلى شىءٍ فأذخره[٢] … ممَّا أجمِّعُ من تمرٍ ومن كِسَرِ
مَن كان يعرفُنى لو لم أكن زَمِناً … أو كان يبذُلُ لى شيئاً سوى الحَجَرِ؟!
فقل له لاهداه اللهُ مِن رجُلٍ … فإنَّها عَرَّةٌ تُربِى على العُرَرِ[٣]
لقد فطِنتَ إلى شىءٍ تعيش به … ياابنَ الخبيثة قد أدقَقْتَ فى النظر[٤]
ياابنَ التى نَشَزت عن شيخ صِبْيَتِها … لِأُيرثوبانَ ذى الهامات والعُجَرِ[٥]
أما يكفُّكَ عن شَتْمِى ومنقَصَتى … ما فى حِرامِّكَ من نَتْنٍ ومن دَفَرِ[٦]
تَفَتْكَ عنها عُقَيلٌ وهى صادقة … فسل أسيدًا وسل عنها أبا زُفَرِ[٧]
ياعبدَ أمِّ الظباء المستطبِّ بها … من اللَّوى، لستَ مولى الغُرِّ من مُضَرِ
بل أنتَ كالكلب ذُلاًّ أو أذلَّ وفى … نَذَالةِ النفس كالخنزيرِ والْيَعَرِ[٨]
وأنتَ كالقِردِ فى تشويه منظرِه … بل صورةُ القرد أبهى منك فى الصور

ووصف ابن أبى كريمة حُشَّاله، كان هو وأصحابه يتأذَّون بريحه فقال:

ولى كَنيفٌ بِحَمْدِ الله يطرقنى … أرواح وارى خيال غير فَتَّار[٩]

---

(١) ط: «إلا بمسئلتى إن كنت فى صفر» وهو تحريف.

(٢) «فأحرزه».

(٣) العرة بالفتح: الخلة القبيحة. فى ط: «لاهداك الله».

(٤) ط: «لاقد» وهو تحريف، وفيها «قدوقفت فى النظر».

(٥) ط: «عن شيخ ميتها لايرميان بذى» وهو تحريف.

(٦) كذا فى ل. وفى ط «ذفر» بالذال. وهما بمعنى. فى أدب الكاتب ١٥٧: «الذفر: شدة ريح الشىء الطيب والشىء الخبيث».

(٧) ط: «فسل أسيد أو فاسأل».

(٨) اليعر: ساكنة العين: الشاة أو الجدى يشد عند زبية الذئب أو الأسد. ومن أمثالهم: هو أذل من اليعر. وقد جاء محركا فى هذا الشعر. وفى ط: «وفى نذالة النفس والخنزير والنقر».

(٩) كذا.. وفى ل: «وادى خبال» وفى س «وادى خيال» وفى م «واد خبال».

له بدائعُ نَتْنٍ ليس يَعرفها[١] من البَرِيَّةِ إلاَّ خازنُ النَّارِ
إذا أتانى دَخِيلٌ[٢] زَادَنِى بِدَعاً كأنَّهُ لَهِجٌ عَمْدًا بِإِضْرَارِى
قد اجتوانِى له الخُلاَّنُ كلُّهُمُ وباعَ مَسْكَنَهُ مِن قُرْبِه جارى
فمن أراد من البِرْسَامِ أقتلَهُ أو الصُّداع فمُرْه يدخُلَنْ دارى
استكثَفَ النَّتنُ فى أنفى لِـكثرتِهِ فليس يوجِدُنيه غيرُ إضمارى[٣]

(ثروة المحلول من الشعر)

وقيل للمحلول[٤] : ويلك ، ما حفظتَ بيتَ شعرٍ قط ؟ فقال : بيتاً واحداً اشتهيته فحفظتُه . فقيل له : فهاته . فقال : أمَا إنِّى[٥] لاأحفَظُ إلاَّ بيتاً واحداً . قيل . فكيف رزق منك هذا البيت ، فأَنشِدْه . فأنشَدَهم :

كأنما نَـكْهتُهَا مِدَّةٌ تَسِيلُ من مَخْطَةِ مَجْذُومِ

وزعم أصحابنا أنّ رجُلاً من بنى سعد ـ وكان أنتنَ الناس إبطًا ـ بلغه أن ناسًا من عبد القيس يتحدَّثونَه برجلٍ منهم ، فمضى إليهم شدًّا فوافاهم ، ١١٦
وقد أزْبَدَ[٦] إبطاه وهو يقول :

أقبلتُ مِنْ جَلْهَةِ ناعتينا[٧] بِذِى حُطاطٍ يُعطِسُ المَخنُونا[٨]

---

(١) كذا فى ط : وفى ل : « يعجزها » وليس بشىء .

(٢) ط : « بخيل موضع » « دخيل » .

(٣) يوجدنيه : يجعلنى أشعر بوجوده . وفى ط « يوجد فيه » وهو تحريف .

(٤) روى الجاحظ خبرا له فى البيان ٣ : ٢٢٦ .. وفى البخلاء ٩٩ مايفيد أن المحلول مولى لتمام بن جعفر .

(٥) فى الأصل « أما أنا » .

(٦) ط : « زبد » .

(٧) فى معجم البلدان والقاموس أن « ناعتين » موضع ولم يعينه واحد منهما .. وفى ط « باعثينا » محرفة .

(٨) الحطاط بالضم : الرائحة الخبيثة . والمخنون : المزكوم وأصله من الخنان فى الإبل وهو لها كالزكام للناس .. وفى ط « بذى حضيض يعطش المجنونا » وهو تحريف .

يَزْوِى له من نَتْنِهِ[1] الجَبينا حتَّى ترَى لوجهِهِ غُضُونا

* نُبِّئتُ عبدَ القيسِ يَأْبِطونا *

قال : ومتَح أعرابىٌّ على بئرٍ وهو يقول :

يارِبَّها إذا بَدا صُنَانِى كأنَّنِى جانِى عُبَيثُرانِ[2]

وقال آخر :

كأنَّ إبطىَّ وقد طالَ المدى نَفْحَةُ خُرْءٍ مِنْ كَوامِيخِ القرى[3]

ويقال إنَّهُ ليس فى الأرض رائحةٌ أنتنُ ، ولا أشَدُّ على النفس ، من بَخَرِ فمٍ أو نَتْنِ حِرٍ ، ولا فى الأرض رائحةٌ أعصمُ لرُوحٍ من رائحة التفاح .

وقال صاحب الكلب : فما نرى النَّاسَ يَعافُون تسميدَ بقولِهم قبلَ نُجومِها وتفتُّقِ بزورها[4] ولا بعد انتشارِ ورقها وظهورِ موضع اللُّبِّ منها حتَّى ربَّما ذَرُّوا عليها السَّمادَ ذَرًّا ، ثُمَّ يُرْسَل عليها الماء حتى يَشْرَبَ اللُّبُّ[5] قُوَى العذِرة ، بل مَن لهمْ بالعَذِرة ؟ ! وعلى أنَّهُم ما يصيبونها إلاَّ مغشوشةً مُفْسدة . وكذلك صنيعُهم فى الريحان . فأمَّا النَّخْل فلواستطاعوا[6] أن يَطْلُوا بها الأجذاعَ طلياً[7] لفعلوا . وإنَّهم لَيُوقدون بها

(١) ط : «من شمه» .

(٢) العبيثران . قال ابن سيده : « هو من ريحان البرّ طيب الريح ، قريب الشبه من القيصوم ونوره مثل نوره وهو أطيب منه ... وقيل هو أغبر شبيه بالقيصوم إلا أن له شمراخا مدلى ، عليته نور أصفر شبيه بالذى يكون فى وسط الأقحوان . ويوضع فى المجالس مع الفاغية فلا يفوقه ريحان » . وهى فى ط : « عيثرانى » محرفة.

(٣) النفحة : الدفعة .. وهى فى ط « لفحة » وانظر عيون الأخبار ٣ : ٦٣ .

(٤) ل : « بذورها » بالذال وهما بمعنى .

(٥) ط : « يشرب موضع اللب » و« موضع » مقحمة.

(٦) ط : « استطالوا » وهو تحريف مافى ل.

(٧) ط : « طلبا » وهو تحريف ظاهر .

الحَمَّامات وأتاتينَ المِلاَل[١] ، وتنانير الخبز . ومن أكرم سَمادهم الأبعارُ كلُّها والأخثاء إذا جفَّت . ومابينَ الثَّلط جَافا والخثاء يابساً ، وبين العَذِرة جافَّةً ويابسةً فرق . وعلى أنَّهم يعالجِون بالعَذِرة وبخُرْءِ الكلاب ، من الذبحة والخانُوق[٢] فى أقصى مواضِع التفرز[٣] وهو أقصى الحلق ، ومواضع اللهاة[٤] ، ويضعونَها على مواضع الشَّوكة ، ويعالجون بها عُيونَ الدَّواب .

(أقوال المسبح الكناس)

وقال مسبّح[٥] الكناس : إِنّمَا اشتُقّ الخير من الخُرْءِ . والخرء فى النوم خير . وسَلْحةٌ مُدرِكَةٌ ألذُّ مِن كَوْمِ العَروس ليلةَ العُرس . ولقد دخلتُ على بَعْضِ الملوك لبعض الأسباب ، وإذا به قُعاصٌ وزُكام وثِقَلُ رأس ، وإذا ذلك قد طاولَه ، وقد كان بلغنى أنّه كان هجَر الجلوسَ على المقعدة وإتيانَ الخلاء ، فأمرتُه بالعَود إلى عادته ، فما مَرّت به أيامٌ حتى ذهب ذلك[٦] عنه.

وزعم أنَّ الدنيا مُنتِنة الحِيطانِ والتُّرْبةِ ، والأنهارِ والأودية ، إلاَّ أنَّ النَّاسَ قد غمرهم ذلك لنتْن المحيط بهم ، وقد مَحَقَ حِسَّهم له طولُ مُكثِه فى خياشيمهم . قال : فمن ارتابَ بخبرى ، فليقِفْ فى الرَّدِّ إلى أن يمتحنَ ذلك فى أوّل مايخرجُ إلى الدنيا ، عَنْ بيتٍ مطيَّب ؛ وليتشمَّمْ[٧] تشمُّمَ ١١٧

---

(١) المليل : الخبز واللحم وضعته فى الملة.والملة : الرماد الحار ... وفى ل : «القلال»

(٢) الذبحة : وجع فى الحلق أودم يخنق فيقتل . وفى ط : « الخانوق » موضع الخانوق ،

(٣) ط : « التفزر » وهو تصحيف مافى ل .

(٤) ط : « ومواضع اللهات » وهو تحريف .

(٥) ط : « مسبح » .

(٦) ط : « حتى ذهبت عنه » .

(٧) ط : « ليشم » .

المتشبِّث. عَلَى أنَّ البقاعَ تتفاوت فى النتن. فهذا قولُ مسبّح[1] الـكنّاس .

(عصبية سلمويه وابن ماسويه)

وزعم لى سَلْمَوَيه وابن ماسَوَيه مُتطبِّبا الخلفاء[2] ، أنَّه ليس على الأرض جِيفةٌ أنتنُ نَتْنًا ولاأثْقَبُ تقوبًا مِن جيفةِ بعيره ، فظننتُ أنَّ الذى وهّمهما ذلك عَصَبِيَّتُهُمَا عليه ، وبغضُهما لأربابه ، ولأنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، هو المذكورُ فى الـكتب براكب[3] البعير. [ويقال إن الحجاج قال لهم : أىُّ الجيَفِ أنتن ؟ فقيل : جيف الـكلاب فامتحنتْ فقيل له : أنتن منها جيف السنانير، وأنتن جيفها الذكورُ منها . فصلب ابن الز بين جفيتى سنّورين ذكرين] .

(أطيب الأشياء رائحة وأخبثها)

وأنا أقول فى النتن والطِّيب شيئًا ، لعلك إن تفقّدتَه أن توافقَنى عليه وترضى قولى . أمَّا النتن فإنِّى لم أشمَّ شيئًا أنتنَ من ريحِ حُشٍّ مقيَّر ، يبول فيه الخِصيان ولا يُصَبُّ عليه المـاء ؛ فإنَّ لأبوالهم المترادفة المتراكبة[4] ولريح القار وريح هواءِ الحش[5] ومايتفصل إليه من ريح

ل : «مسيح».

(٢) سلمويه هو ابن بنان خدم المعتصم . ترجم له القفطى ١٤٣ ، وابن النديم ٢٩٦ ليبسك ، ٤١٢ مصر . وأما ابن ماسويه فهو أبو زكريا يحيى أو يوحنا . خدم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل كما فى الفهرست ٢٩٥ ليبسك ، ٤١١ مصر . . . وفى ط : « مطبب الخلفاء » وصحته فى ل .

(٣) ط : « بركوب ».

(٤) ط : « لأبوالهم المتراكة » .

(٥) ط «ولريح القار وريح هوائه» وهوكلام محرف.

البالوعة ـ جِهةً من النَّتْن ومذهبًا فى المكروه ، ليس بينه و بين الأبدان عمل ، و إنَّما يقصِد إلى عين الرُّوح وصميمِ القلب ، ولا سيَّما إذا كان الخلاء غيرَ مكشوف ، وكان مغمومًا غيرَ مفتوح . فأمَّا الطِّيب فإنى لم أشْمَمْ رائحةً قطُّ أحيا للنفس ولا أعصَمَ للرُّوح ، ولا أفتَقَ ولا أغنج ، ولا أطيب خمرة من ريحِ عَرُوس[1] ، إذا أُحكِمت تلك الأخلاط ، وكان عَرْف [بَدَنها] و رأسِها وشعرها سليمًا . و إن كانت بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإنَّك ستجد ريحًا تعلَمُ أنَّهُ ليس فوقَها إلاَّ ريحُ الجنة .

(ماقيل فى الظربان)

ومما قالوا فى النَّتْن ، وفى ريح جُحْرِ الظَّرِبان خاصَّة ، قول الحكم بن عَبْدَل :

أَلقيتَ نفسَكَ فى عَرُوضٍ مَشَقَّةٍ ... ولَحَشْدُ أنفِكَ بالمنَاجِل أهْوَنُ[2]

أنت امروٌ فى أرضٍ أمِّكَ فُلفل ... جَمٌّ وفُلفُلنا هُناكَ الدِّنْدِنُ[3]

فبحقٍّ أمِّك وهي منك حقيقةٌ ... بالبرِّ واللَّطَفَ الذى لا يُخْزَنُ

لاتُدْنِ فاكَ من الأميرِ ونحِّهِ ... حتَّى يُداوِى ما بأنفِكَ أهْرَنُ[4]

إن كان للظَّرِبانِ جُحْرٌ مُنتِنٌ ... فلَجُحْر أَنفِك يامحمَّدُ أنتَنُ

---

(١) ل : « مشطة امرأة » .

(٢) العروض : الناحية ، والطريق فى عرض الجبل فى مضيق .

(٣) الدندن : ما اسودَّ من نبات أو شجر ، وأصل الصليان.

(٤) هو أهرن القس بن أعين . الفهرست ٢٩٧ ليبسك ، ٤١٣ مصر ، والقفطى ٥٧ وفى ط : « أهون » والصواب فى ل وفيما سيأتى قريبا ، وفى عيون الأخبار ٤ : ٦٢ . وانظر الأغانى ٢ : ٤٢٤ دار الكتب والشعر فيه محرف .

وقال الربيع بن أبي الحُقَيق ـ وذكر الظَّرِبان ـ حينَ رمى قومًا بأنَّهم يفسُون في مجالسهم ، لأنَّ الظَّرِبان أنتنُ خلْقِ الله تعالى فَسْوةً ، وقد عرَفَ الظَّرِبانُ ذلك فجعَلَه من أشدِّ(١) سِلاَحِهِ ، كما عرَفَتِ الحُبارَى مَا في
١١٨ سُلاَحِها من الآلة ، إذا قرب الصقر منها . والظَّرِبانُ يدخل على الضبِّ جُحرَه وفيه حُسوله أو بيضُه ، فيأتِي أضيقَ موضعٍ في الجُحر فيسدُّه بيديه ، ويحوِّل استَه فلا يفسو ثلاثَ فَسَواتٍ حتى يُدَارَ بالضبِّ فيخِرَّ(٢) سكرانَ مغشيًّا عليه ، فيأكله ، ثم يقيم في جُحره حتَّى يأتِيَ على آخِرِ حُسوله .

وتقول العرب : إنَّه ربَّمَا دخَل في خِلال الهَجْمة فيفسو ، فلا تتِمُّ له ثلاثُ فسواتٍ حتى تتفرَّق الإبل عن المبْرَك ، تتركه وفيه قِرْدان فلا يردُّها الراعي ، إلاّ بالجَهْدِ الشديد .

فقال الربيع ، وهجاهم [أيضا] بريح التُّيوسِ :

قَلِيلٌ غَنَاؤُهمُ فِي الهِياجِ ... إذَا مَاتَنَادَوْا لأمرٍ شديدِ
وأنتم كِلاَبٌ لدَى دُورِكم ... تهِرُّ هريرَ العقور الرَّصُودِ(٣)
وأنتم ظَرَابِيُّ إذ تجلسونَ ... وما إنْ لنا فيكمُ من نَدِيدِ(٤)
وأنتم تيوسٌ وقد تُعْرَفونَ ... بريحِ التُّيوسِ وقُبْحِ الخدودِ(٥)

قال : ويقال : « أفسى من الظَّرِبان » ويسمَّى مفرِّقَ النَّعَمِ ، يريدون من نتْن ريحِ فُسَائه . ويقال في المثل ـ إذا وقعَ بين الرجُلين

---

(١) ط : « أحد » .
(٢) ط : « فيحز » وصوابه في ل وثمار القلوب ٣٣٢ .
(٣) ط : « الصرود » .
(٤) نديد : مثيل ، وفي ط « مزيد » وهو تحريف مافي ل وثمار القلوب .
(٥) ط : « الجدود » وفي الثمار : « ونتن الجلود » .

شرٌّ فتباينَا وتقاطعَا ـ : « فسَا بَيْنَهُمَا ظَرِبَان » . ويقال : « أنتَن مِنْ ظربان » لأنَّ الضبَّ إنَّمـا يخدع[1] فى جُحْره ويُوغِل فى سِرْبه لشدَّة طلب الظَّرِبان له ، وقال الفرزدق فى ذلك :

ولو كنتُ فى نارِ الجحيم لأصبحَتْ ظَرَابِيُّ من حِمَّانَ عنِّى تثيرها[2]

وكان أبو عُبيدة يُسمِّى الحِمَّانِيَّ صاحِبَ الأحمر[3] ، يريد هذا المعنى كما يسمى كل حِمَّانِىٍّ[4] ظَرِبَانا ،

وقال ابن عَبدَل :

لاتُدْنِ فاكَ من الأميرِ ونحِّهِ حتَّى يداوِى مابأنْفِك أهْرَنُ
إن كانَ للظَّرِبانِ جُحرٌ مُنتِنٌ فَلَجُحر أنفِك يامحمَّدُ أنتَنُ

فى شعره الذى يقول :

ليتَ الأميرَ أطاعَنِى فشفيتهُ من كلِّ مَن يُكْفِى القصيدَ ويَلْحَنُ
متَكَوِّرٌ يَحْثُو الكلام كأنَّما باتَتْ مناخِرُهُ بدُهْنٍ تُعْرَنُ[5]
وبَنَى لهم سِجنًا فكنتُ أميرَهم زَمنًا فأضربُ مَنْ أشاءُ وأسجُنُ
قل لابنِ آكِلةِ العِفَاصِ محمَّدٍ إن كنتَ من حبِّ التقرُّبِ تجْبُنُ[6]
ألقيْتَ نفسكَ فى عَروضٍ مَشَقَّةٍ وَلَحَصْدُ أنفِك بالمناجِلِ أهْوَنُ ١١٩
أنتَ امرؤٌ فى أرضِ أمِّك فلفلٌ جَمٌّ وفلفلنا هناكَ الدَّنْدِنِ

---

(١) خدع الضب فى جحره : دخل .. وفى ط « ينخدع » وهما بمعنى .

(٢) البيت فى النوادر لأبى زيد ٢١١ . وفى ط : « تشير » بدل « تثيرها » وليس بشىء .

(٣) كذا ،

(٤) فى الأصل « حمان » والوجه ماأثبت .

(٥) كوّره فتكوّر : صرعه فصرع أو هو من تكور : سقط . ويحثو : يلقى . وفى ط « متكورا » محرفة . وفى ط « يحسو » محرفة

(٦) ل : « قد كدت من حب التعزب تحتن » وهو تحريف مافى ط وما فى م

فبحقِّ أمِّكَ وهى منك حقيقةٌ ... بالبرِّ واللُّطفِ الذى لايُخزَن(١)
لاتُدْنِ فاكَ من الأميرِ ونحْوِهِ ... حتَّى يُداوِى مابأنفك أهْرَنُ
إنْ كانَ للظَّرِبانِ جُحْرٌ منتنٌ ... فلَجُحْر أنفك يامحمَّدُ أنتَن(٢)
فسَلِ الأميرَ وأنْتَ غيرُ موفَّقٍ ... وَبَنُو أبِيهِ للفَصاحة مَعْدِنُ
وسَلِ ابْنَ ذَكْوانٍ تَجِدْهُ عالِمًا ... بسَليقةِ العُرْب التى لاتحزُن(٣)
إذاأنتَ تجعلُ كلَّ يومٍ عفصةً(٤) ... فتجيدُ ماعملت يَداك وتحسِنُ
أشبهتَ أمَّكَ غيرَ بابٍ واحدٍ ... أنْ قد خُتِنْتَ وأنَّهَا لاتُخْتَنُ
فلَئِن أصبتَ دراهمًا فدفنتَها ... وفُتِنت فيها ، وابنُ آدَمَ يُفتَنَ ،
فبما(٥) أراكَ وأنتَ غيرُ مُدَرْهِمٍ ... إذْ ذاكَ تَقْصِف فى القِيانِ وتَزْفِنُ
إذ رأسُ مَالِكَ لُعْبَةٌ بصريَّةٌ ... بَيْضَاء مُغْرِيَةٌ(٦) عليها السَّوْسَنُ

وقال ابن عبدل أيضاً

نحوت(٧) محمداً ودخانُ فيه ... كرِيحِ الجَعْرِ فوقَ عَطِينٍ جِلْدِ
ركبتُ إليه فى رَجُلٍ أتانى ... كريمٍ يطلبُ المعروفَ عِندى
فقلتُ له ولم أعجَل عليه ، ... وذلكَ بعدَ تقريظى وحَمْدى
فأعرَضَ مُكْمَحًا عنِّى كأنِّى ... أكلِّمُ صَخْرَةً فى رَأسِ صمْدِ(٨)

---

(١) ط « لايحزن » وهو تحريف .
(٢) محمد هذا هو ابن حسان بن سعد كما فى الأغانى ٢ : ٤١٢ طبع دار الكتب وعيون الأخبار ٤ : ٦٢ .
(٣) من الحزونة وهى الصعوبة . وفى الأصل « تخزن » .
(٤) ط : « غمصة » .
(٥) ل : « لبما » وهما سيان .
(٦) ط : « معرية » بالعين .
(٧) ل : « نقدت » ولعلها محرف قصدت ، أ
(٨) المكمح : من يرفع رأسه من الزهو . وفى ط « مكفحا » وتصحيحه من ل والصمد : المكان المرتفع الغليظ . وفى ط : « صمد » وفى ل « ضمد » بالضاد ولا يتجه أحدهما .

أقرِّبُ كل آصِرَةٍ[١] ليدنو ... فما يزْداد منِّى غيرَ بُعْدِ
فأقسِمُ غيرَ مستثنٍ يميناً ... أبا بَخَرٍ[٢] لتتَّخِمَنَّ رَدِّى
فلو كنتَ المهذَّبَ من تميم ... لخفتَ ملامَتى ورجوتَ حَمدى
نَحَوتُ[٣] محمداً فوجدتُ ريحاً ... كريح الكلبِ ماتَ قريبَ عَهْدِ
وقد ألْدَعتَنِى[٤] ثعبانَ نَتْنٍ ... سيبلغ إنْ سلِمْنا أهلَ نَجْدِ
وأدنَى خَطْمَه فوددتُ أنِّى ... قَرَنْتُ[٥] دنوَّه منى ببُعْدِ
كما افتَدَتِ المعاذةُ من جَواهُ[٦] ... بخِلْعتِها ولم ترجِع بزَنْدِ
وفارقَها جواه فاستراحَتْ ... وكانَتْ عندَه كأسيرِ قِدِّ[٧]
وقد أدنيتُ فاه إلىَّ حتى ... قتلتُ بذاكَ نفسى غيرَ عَمْدِ
وما يدنُو إلى فيه ذُبابٌ ... ولو طُلِيت مَشافِرُه بقَنْدِ[٨]
يَذُقن حلاوةً ويخفْن موتاً ... زعافا إنْ هَمَمْنَ له بوِردِ[٩]
فلما فاحَ فُوه علىَّ فَوْحًا ... بمثل غَثيثَةِ الدَّبِرِ المُغِدِّ[١٠]
فقلت له تنحَّ بفيكَ عنِّى ... فما هذا بريحِ قُتارِ رَنْدِ[١١]

---

(١) الآصرة : الرحم والقرابة . وفى ل : « ذى صرم » وليس بشىء .
(٢) البخر بالتحريك : نتن الفم . وفى ل : « بحر » والوجه ماقى ط .
(٣) ل : « نجوت » بالجيم وهو تحريف .
(٤) ط : « لدعتنى » .
(٥) كذا فى ط . وفى ل : « فديت » .
(٦) ط : « كما افتدت المعادن من حواه » .
(٧) هذا البيت فى الأصول متأخر عن البيت الذى بعده وقد قدمت موضعه ليستقيم الشعر
(٨) القند : عسل قصب السكر إذا جمد . معرب .
(٩) الزعاف والذعاف : السم القاتل . وفى ل : «ذعافا» وفيها كذلك « يرين حلاوة »
(١٠) الغثيثة : القيح . والمغد : المصاب بالطاعون . وفى ط : « المغد » وهو تحريف
(١١) الرند : نبت طيب الرائحة . . وفى ل : « وقلت له » وفى ط « بعيد عنى »
وتصحيحه من ل .

وما هذا بريح طلاً ولـكنْ ... يفوحُ خِرَاكَ منه غير سَرْدِ(١)
فحدِّثنى فإنَّ الصِّدقَ أدنى ... لبابِ الحقِّ من كذب وجَحْد
أباتَ يجولُ فى عَفَجٍ طحور ... فأعلمَ أم أتاكَ به مُعَدِّى(٢)
[نكهتَ علىَّ نكهةَ أخدَرىّ ... شتيمٍ أعصلِ الأنياب وَرْدِ]
فإن أهديتَ لى من فيكَ حتْفى ... فإنِّى كالذى أهديتَ أهدى(٣)
لـكم شُرُداً يَسرن مغنِّياتٍ ... تكونُ فنونُها من كل فِندِ(٤)
أما تخزَى خَزِيت لها إذا ما ... رَوَاها النَّاسُ من شِيبٍ ومُرْدِ(٥)
لأَرجُو إن نجوتُ ولم يُصبْنى ... جَوًى إنِّى إذن لَسعيد جَدِّ
وقلتُ له متى استطْرفْتَ هذا ... فقال أصابنى من جَوفِ مَهْدِى
فقلت له أما دَاويتَ هذا ... فتعذر فيه آمالا بجَهْد(٦)
فقال أمَا علمتَ له رِقَاء ... فتسديَه لنا فيما ستُسْدى(٧)
فقلت له ولا آلُوه عيا ... له فيما أسرُّ له وأُبدِى(٨)
عليكَ بقيئةٍ وبجَعْرِ كَلْبٍ ... ومثْلَىْ ذاكَ من نونٍ كَنعْد(٩)
وحِلتيتٍ وكُرَّاثٍ وثَومٍ ... وعُودَى حَرْمَلٍ ودماغِ فَهْد(١٠)
وحَنْجَرةِ ابنِ آوى وابنِ عُرسٍ ... ووزنِ شَعيرةٍ من بَزْرِ قَقْد(١١)

(١) الطلاء بالـكسر : الخمر . وفى ط « فيه غير سرد » .

(٢) العفج : ماينتقل إليه الطعام بعد المعدة . والطحور : السريع . وفى ط:
أبت تجول فى عفج طحون ... فاعلم إذا أتاك به معدى (كذا)

(٣) ل : « مهد » .

(٤) الفند بالـكسر : النوع . وفى ط « قند » ولا وجه له .

(٥) ط « خزيت له إذاما » والوجه مافى ل . ل : « رآها الناس » والوجه مافى ط

(٦) كذا .

(٧) فى الأصل تسدى » ولا يستقيم بها القول .

(٨) هذا البيت والأبيات الأربعة السابقة له ، ساقطة من ل . وفى البيت كلة « عيا » وهى محرفة .

(٩) كذا فى ل . وفى ط « من لون كقعدى » .

(١١) ط : «وحنتيت» والصواب باللام كما فى ل .

(١٠) فى القاموس: « القفد نبات » ولم يفسره . وفى ل « ققد » بتقديم القاف وهو تصحيف . وفى ط : « وحنجرة ابن آوى ثم دفلى » .

وكَفُّ ذُرُحْرُحٍ (١) ولسانِ صَقرٍ   ومثقالين من صَوّان رَقْدِ (٢)
يُدَقُّ ويُعجَن المنخول منه   ببولٍ آجِنٍ وبجَعْرِ قِرد
وتدفِنُه زمانًا فى شعيرٍ   وترقبه فلا يَبدُو لبَرْدِ (٣) ١٢١
فدخِّن فاكَ ماعتَّقتَ منــه   ولا يعجن بأظفار ويَدِّ (٤)
فان حضَرَ الشتاءُ وأنتَ حيٌّ ، أراكَ اللهُ غَيَّكَ أمرَ رشدِ (٥)
فدَحْرِجْها بنِدقٍ وازدرِدْها   متي رُمْتَ التكلُّم أىَّ زَرْدِ
فتقذف بالمِصَلِّ على مِصَلٍّ   ببلعومٍ وشِدْقٍ مُسْمَعِدِّ (٦)
ووَيْلَكَ مالبَطنِك مذْ قعَدْنا   كأنّ دوِيَّهُ إرزام رَعد (٧)
فإن لِحِكَّةِ الناسور عندى   دواءً إن صبرتَ له سيُجدِى
يُميت الدُّودَ عنكَ وتشتهيه   إن أنتَ سَنَنْتَه سنَّ المَقَدِّى (٨)
به ، وطليتَه بأصــولِ دِفْلَى   وشىءٍ من جَنَى لَصَفٍ ورَنْدِ (٩)
أظُنِّى ميِّتًا مِنْ نَتْنِ فيــهِ   أهانَ اللهُ من ناجاهُ بَعْدِى

---

(١) الذرحرح . دويبة حمراء منقطة بسواد ، تطير ، وهى من السموم . وهى فى ط « زرحرح » و ل : « ذرائح » محرفتان . وفى ط « ومثالين » محرف « ومثقالين » .

(٢) رقد : جبل تنحت منه الأرحية ، كما فى القاموس . وفى معجم البلدان اختلاف فيه وفى ط : «رفد» محرفة .

(٣) فى الأصل : « وترميه فلا يبدو لبرد » وكتبت بدلهـا « ترقبه » ليتجه القول .

(٤) ل « ولا تعجن بأظفار وسعد » ط « ولا يعجن بأظفاروند» ط ولعل صوابهما ما أثبت . « واليد » بالتشديد : لغة فى اليد .

(٥) كذا فى ل . وفى ط : « أزال الله عنك أمور رشد » .

(٦) مصل : له صليل كثير . والمسمعد : المنتفخ ورماء ، ومثله المعمغد والمسمغد . وفى ل « مصمغد » .

(٧) ط : « كأن روبه » وهو تحريف .

(٨) السنّ : الصب فى سهولة ، والمقدى : ضرب من الشراب غليظ ، وفى ل : « المعد » وفى ط « المقد » محرفتان.

(٩) الدفلى : نبت مرّ قتال زهره كالورد الأحمر وحمله كالخرنوب . واللصف: نبت ورقه كورق لسان الحمل أو أدق . والرند : نبت طيب الرائحة . وفى ط : « سعدى » موضع « دفلى » وهو تحريف و « نصف » موضع « لصف » وهو تحريف أيضا . وفى ل « زبد » وليس بشىء .

(أشعار العرب فى هجاء الكلب)

وقال صاحب الديك : سنذكُرُ أشعار العرب فى هجاء الكلب مجرّدا على وجهه ، ثمّ نذكُر ماذمُّوا من خلالِهِ وأصنافِ أعماله ، وأموراً من صفاته ، ونبدأ بذكرِ هجائه فى الجملة . قال بشّار بن بُرْد :

عددتَ سويداً إذ فخرتَ وتَوْلبَا ... ولَلْكَلْبُ خيرٌ من سُويدٍ وتولَبِ

وقال بشّارٌ أوغيرُه :

أتذكُرُ إذ ترْعَى على الحيِّ شاءَهُمْ ... وأنتَ شريكُ الكلبِ فى كلِّ مَطْعَمِ

وتلحَسُ ما فى القَعْبِ من فَضْلِ سُؤْرِهِ ... وقد عاثَ فيه باليدَين وبالفمِ

[وقال ابن الذئبة :

من يجمع المالَ ولا يُثِبْ به[(١)] ... ويترك المالَ لِعَامِ جدْبِهِ

* يهُنْ عَلَى النَّاسِ هوانَ كلبِهِ] *

وقال آخر :

إنّ شَرِيبِى لاَ يغبُّ بوجهه ... كُلومى كأنْ كلباً يُهارِش أكلباً[(٢)]

ولا أقْسِمُ الأعطانَ[(٣)] بينى وبينَه ... ولا أتوقّاه وإن كان مُجْرِبا

وهجا [أبو] الأحوص[(٣)] ابناً له فشبّهه بجَرْوِ كَلْبٍ فقال :

أقبِحْ به من ولدٍ وأشقِحْ ... مثل جُرَيِّ[(٤)] الكلب لم يُفَقِّحِ

---

(١) كذا فى عيون الأخبار ١ : ٢٤٣ . وفى ل « يثبه » وهو تحريف إملائى . وفى البخلاء ١٥٥ : « يثبته » وليس بشىء . وانظرها .

(٢) ط : « إن شرابى لاتعب بوجهه كلوم » وهو قول محرف صوابه فى ل .

(٣) كذا فى ل وهو الصواب وفى ط : « الأعكان » .

(٤) جرى : مصغر جرو . وفى ل « جرىء » .

إِن يَرَ سُوءًا مَايَقُمْ فينبَح[١] بالبابِ عند حاجةِ المستفتِح[٢]

وقال أبو حُزَابة[٣] . ١٢٢

يا ابنَ عليٍّ بَرِح الخَفاءُ أنتَ لغَيْرِ طَلْحَةَ الفِدَاءُ[٤]

قد علِمَ الأشرافُ والأكفاءُ أنَّك أنت النَّاقصُ اللَّفَاءُ[٥]

حَبَنَّقَ جَدَّعه الرِّعاءُ[٦] يغمُّه المِئزَرُ والرِّدَاءُ

بنو عليٍّ كلُّهمْ سواءُ كأنَّهم زِينِيَّةٌ جِراءُ[٧]

وقال عبدُ بني الحَسْحاس ، وذَكر قُبْح وجهه [فقال] :

أتيتُ نِساءَ الحارِثِيِّينَ غُدْوَةً بوجهٍ بَرَاهُ اللهُ غيرِ جميلِ[٨]

فشبَّهنَنى كلباً ولستُ بفوقِهِ ولا دونَه إن كانَ غيرَ قليـــل

---

(١) ط : « إن ير سوءا لم يقم فينبح » .

(٢) ط : « خلقة المستقبح » .

(٣) كذا فى ل وهو الصواب ، وفى ل « أبوخدانة » . . وأبو حزابة هو الوليد ابن حنيفة أحد بنى ربيعة بن حنظلة شاعر من شعراء الدولة الأموية . بدوىّ حضر وسكن البصرة ثم اكتتب فى الديوان وضرب عليه البعث إلى سجستان فكان بها مدة وعاد إلى البصرة وخرج مع ابن الأشعث لما خرج على عبد الملك . قال أبو الفرج : وأظنه قتل معه . وكان شاعرا راجزا فصيحاً خبيث اللسان هجاء . انظر الأغانى ١٩ : ١٥٢ ـ ١٥٦ والمشتبه للذهبي ١٦٠ ليدن وتاج العروس (حزب) .

(٤) الفداء هنا بمعنى البدل . وفى ل : « أنت لقبر طلحة الفداء » وفى الأغانى ١٩ : ١٥٣ : « أنت لعين طلحة الفداء » . وابن على هذا هو عبد الله بن على بن عدى ولى سجستان بعد طلحة . وطلحة هذا هو ابن عبيد الله بن خلف ، الذى يقال له طلحة الطلحات وكان واليا على سجستان قبل عبد الله بن على . وكان طلحة يحبو ابن حزابة ، وكان عبد الله شحيحا ممسكا.

(٥) اللفاء كسحاب : الخسيس الحقير . وفى ل : « اللقاء » وهو تحريف .

(٦) الحبلق: غنم صغار لاتكبر ، أو قصار المعز ودمامها . وفى ط « الدعاء » موضع « الرعاء » وهو تحريف .

(٧) الزينية : كلاب قصيرة القوائم . وفى الأغانى « بنو عدى » .... الخ

(٨) كذا فى ل وعيون الأخبار ٤ : ٣٥ بمعنى خلقه غير جميل . وفى ط « يراه الله » .

وقال أبو ذُبَاب السَّعْدىّ[1] فى هَوَان الكلب :

لَكِسْرَى كانَ أعقَلَ من تميمٍ ... ليالِيَ فرَّ من أرْضِ الضِّبَابِ
وأسكنَ أهلَه ببلادِ رِيفٍ ... وأشجارٍ وأنهارٍ عِذَابِ
فصار بنُو بَنِيه لها مُلوكاً ... وصرنا نحنُ أمثالَ الكِلابِ
فلا رَحمَ الإلٰهُ صدى تميم ... فقد أزْرَى بنا فى كلِّ بابِ

وأراد اللَّعين[2] هجاء جريرٍ - وجَريرٌ من بنى كُليب - فاشتقَّ هجاءَه من نسبه فقال :

سأقْضِي بين كلبِ بنى كُليبٍ ... وبين القَيْنِ قَيْنِ بنى عِقالِ
فإنَّ الكلبَ مَطعَمُه خبيثٌ ... وإنَّ القينَ يَعمَل فى سَفالِ
كِلا العَبدينِ - قد علمتْ مَعَدٌّ - ... لئيمُ الأصلِ من عمٍّ وخالِ
فما بُقيَا علىَّ تركتُمانى ... ولكنْ خِفتُما صَرَدَ النبالِ

وقال رجلٌ من هَمْدان ، يقال له الضَّحَّاك بن سعد ، يهجو مَرْوان بنَ الحكم واشتقَّ له اسماً من الكلب فجعله كلبا فقال :

لجَّ الفِرَارُ بمرْوانٍ فقلتُ له ... عادَ الظلوم ظليماً همُّهُ الهرب[3]
أينَ الفِرارُ وتركُ المُلْكِ إن قبلت ... منك الهُوَيْنَى فلا دِينٌ ولا أدبُ
فَرَاشَةُ الحلمِ فِرعونُ العذابِ، وإن ... يُطلَبْ نَدَاهُ فكلبٌ دونَه كَلِبُ

---

(١) أبو ذباب السعدى : صحابى شاعر ومن سعد العشيرة . له فى إسلامه خبر طريف وهو ممن عرف بكنيته فقط ترجم له ابن حجر فى الاصابة أول قسم الذال من باب الكنى . . وهو فى ط «ابن دب» وفى ل « ابن دواب » ولعل صوابهما ما أثبت والأبيات أعادها الجاحظ فى الحيوان ج ٦ : ٣١ .

(٢) هو منازل بن زمعة المنقرى ، من بنى منقر . وكان ممن قضى بين جرير والفرزدق فأصابه الشر، قال ابن قتيبة وكان اللعين هجاء للأضياف قال :

وليس أبغض مابى جلَّ مأكله ... إلا تنفخه عندى إذا قعدا
مازال ينفخ كتفيه وحبوته ... حتى أقول لعل الضيف قد ولدا

(٣) ط : « عاد الظليم ظليما » والظليم : الذكر من النعام .

وقال آخر وجعل الكلبَ مثلاً فى اللُّؤم : ١٢٣

سَرَتْ ماسَرَتْ من ليلِها ثمّ عرّستْ　　على رجُلٍ بالعَرْجِ أَلأَمَ مِنْ كلْب

وكذلك قول الأسود بن المنذر ، فإنّه قال :

فإنّ امرءًا أنتمُ حولَه　　تحفُّون قُبّتَه بالقِبابِ

يُهينُ سَرَاتَكمُ جاهداً　　ويقتلُكم مثلَ قتلِ الكلابِ

وقال سحيمة بن نعيم :

ألستَ كليبيًّا لكلْبٍ وكلبةٍ　　لها عندَ أطْنَاب البيُوتِ هَرِيرُ

وقال النَّجْرانىُّ فى ذلك :

مِن منْزِلى قد أخرجَتْنى زوجتى　　تهِرُّ فى وجهى هَرِير الكَلبةِ

زُوِّجتُها فقيرةً من حِرْفَتى　　قلت لها لمّا أراقتْ جَرّتى

أمَّ هِلالٍ أَبْشِرِى بالحسرةِ　　وأبشِرِى منك بقُرب الضَّرَّةِ

(فلحس)

ويقال للكلب « فَلحَس » وهو من صفات الحِرْص والإلحاح . ويقال : « فلان أسأَلُ مِنْ فَلْحَس » . وفَلْحَسٌ رجلٌ من بنى شيبان[1] كان حريصاً رغيبا ومُلحِفا مُلِحًّا . وكلُّ طُفَيلىٍّ فهو عندهم فَلْحَس .

(الارشم)

والأرشَم[2] : الكلب والذئب ، وقد اشتقّ منه للإنسان إذا كان يتشمّم الطعام ويتّبع مواضعه . قال جريرٌ فى بعضهم :

(١) ط « من ابنى شيبان » . وانظر أمثال الميدانى (١ : ٣١٧)
(٢) ل « الأرسم » وهو تصحيف . والأرشم : الذى يتشمم الطعام ويحرص عليه .

لَقَى حملتهُ أمُّه وهى ضَيفةٌ   فجاءتْ بيَتْنٍ للضِّيافةِ أرْشَما[١]

وقال جرير فى استِرواح الطعام[٢] :

وبنو الهُجَيم سَخيفةٌ أحلامهُم   ثُطُّ اللِّحَى مُتشابهُو الألوانِ

لو يَسمَعون بأَكلةٍ أو شَرْبةٍ   بعُمَانَ أضحى جمْعُهم بعُمانِ

متأبِّطين بنيهمُ وبناتِهِمْ   صُعْرَ الخدودِ لريحِ كلِّ دُخانِ[٣]

وقال سَهم بن حنظَلَة الغَنَوىُّ فى ذلك :

وأمَّا كِلابٌ فمثلُ الكِلا   بِ لايُحسِنُ الكلبُ إلَّاهريرَا

وأمَّا نُمَيرٌ فمثلُ البِغا   لِ أشبَهْنَ آباءهُنَّ الحَميرا[٤]

١٢٤ وأمَّا هِلالٌ فعَطَّارَةٌ   تَبيع كِباءً وعِطرًا كثيرا[٥]

(بين جرير والراعى)

ومرَّ جريرٌ يومًا بالمِرْبَد ، فوقفَ عليــه الراعى وابنه جنْدَل ، فقال له ابنه جندل : إنَّه قد طال وقوفُك على هذا الـكلب الـكُلَيبىّ ، فإلى متى؟! وضرب بغلَته فمضى الراعى وابنه جندل ، فقال جرير : والله لأُثْقِلنَّ

(١) ل : « أرصما » مصحفا . وفى ط : « فتى » محرفا . والبيت على الصواب فى اللسان (رشم ويتن) وأدب الـكاتب لابن قتيبة ١٢٧ والاقتضاب ٣٤٦ . وقد نسب فى كل تلك إلى البعيث. ابن‌منظور (يتن) : قال ابن سيده : وأنشد أبوعبيد هذا البيت لجرير . قال : وهو غلط .

(٢) الأبيات فى البيان ٣ : ١٨٢ وعيون الأخبار ٣ : ٢٢٥.

(٣) البيت ساقط من ل .

(٤) يبتدئ هذا البيت والذى قبله فى ل ، بكلمة « فأما » مع الفصل بين البيتين بكلمة « وقال : » وفى ط : « وأما تميم فمثل البغال » .

(٥) الـكباء كـكتاب : عود البخور أو ضرب منه . وبدله فى ل « ملابا » وهو كسحاب : عطر أو الزعفران .

رواحلك ! فلما أمسى أخذَ فى هجائِه ، فلم يأته مايريد ، فلما كان معَ الصبح افتتح له القولُ فقال :

فغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ من نُميرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا

ولو جُعِلت فِقاحُ بنى نُميرٍ على خَبَثِ الحديدِ إذاً لَذابا

ثم وقف فى موقفه ، فلمّا مرَّ به جندلٌ قبض على عِنان فرسِه ، فأنشده قوله ، حتى إذا بلغ إلى هذا البيت :

أَجندلُ ماتقول بنو نميرٍ إذا ما الأَيرُ فى استِ أبيك غابا

قال : فأدبَرَ وهو يقول : يقولون والله شرًّا[١] .

وقال الشاعر — وضرب بالكلب المثلَ فى قُبْح الوجه — :

سَفَرَتْ فقلتُ لهاهَجٍ فتبرقَعَتْ فذكرتُ حين تبرقعت ضَبَّارا[٢]

وضَبَّار : اسم كلب له[٣]

(أمثال فى الكلاب)

وقال كعب الأحبارِ لرجل وأراد سفراً : إنَّ لكلِّ رُفقةٍ كلباً ، فلا تكنْ كلبَ أصحابِك .

وتقول العرب : « أحبُّ أهلى إلىّ كلبهم الظاعن[٤] » ومن الأمثال « وقَع الكلبُ على الذِّئب ليأخذَ منه [مثل] ماأَخَذ ». ومن أمثالهم :

---

(١) سقط الكلام فى ل من « ثم وقف » إلى هنا .

(٢) فى الصحاح : « هج مخفف زجر الكلب يسكن وينون » وأنشد البيت فى (هجج وهبر) برواية « هبار » وكذلك فى اللسان (هبر) ولكن فى (هجج وضبر) : « ضبارا » كما فى ٢ : ٨ من الحيوان .

(٣) ل : « لهم » .

(٤) فى عيون الأخبار ٢ : ٨٢ : « الكلب أحب أهله إليه الظاعن » .

« الـكلابَ على البقَر »(١) ومن أمثالهم فى الشؤم قولهم : « على أهْلِها دلَّتْ بَرَاقِش » وبراقش : كلبةُ قومٍ نبحَت على جيشٍ مرُّوا ليلا وهمْ لايشعُرون بالحىِّ ، فاستباحوهم واستدلُّوا على مواضعهم بنباحها . قال الشاعر :

ألم تر أنَّ سيِّدَ آل ثور نباتة عضَّهُ كلبٌ فماتا(٢)

(قتيل الـكبش وقتيل العنز)

وقال صاحب الـكلب : قد يموت الناسُ بكلِّ شىء ، وقد قال عبدالملك بن مروان : ألا تتعجبون من الضحَّاك بن قيس يطلب الخلافة ونطح أباه كبش فوُجِد ليس به حَبَضٌ ولا نَبَضٌ(٣) وقال عَرَفَجَة بن شريك يهجو أسلَمَ بن زُرْعة — ووطئتْ أباه عنزٌ بالمِربد فمات — فقال :

١٢٥ ولم أستطعْ إذْ بانَ(٤) منِّىَ معشَرى مكانَ قتيل العنز أنْ أتكلَّما

فيا ابنَ قتيلِ العنْز هل أنت ثائرٌ بزُرعةَ تيساً فى الزَّرِيبةِ أزنما(٥)

وقال أبو الهول يهجو جعفر بن يحيى(٦) :

أصبحتُ محتاجًا إلى الضَّرْب فى طلَب العُرْف إلى الـكلْبِ

---

(١) فى الأصل : « الـكلاب كل البقر » والمثل معروف. ولصاحب القاموس، وكذلك للدميرى فى حياة الحيوان كلام كثير فيه وانظر المزهر ١ : ٦٥ .
(٢) ط : ألم تر أن سيد آل شور بنابه عضه كلب فماتا .
(٣) فى القاموس : مابه حبض ولا نبض : حراك .
(٤) ط : « بات » وهو تحريف مافى ل .
(٥) الأزنم : ذو الزنمة ، وهى هنة معلقة فى حلقه تحت اللحية . وفى ط « أزرما » .
(٦) أبو الهول الحميرى شاعر مقلٌّ له شعر يبلغ خمسين ورقة . ابن النديم فى الفهرس ١٦٣ ليبسك و ٢٣٢ مصر .. وفى ط «أبو الغول» محرفا والشعر فى العمدة ١ : ٤٠ والبيان ٣ : ١٩٨ واسمه عاصم بن عبد الرحمن . تاريخ بغداد ٦٦٨٢

قد وقَّح السبُّ له وجهَه ... فصار لا يَنحاشُ للسبِّ

إذا شكا صبٌّ إليه الهوَى ... قال لهُ مالى وللصبِّ

أعْنِى فتًى يُطعَن فى دِينِه ... يشِبُّ مَعَهُ خَشَبُ الصلْبِ (١)

قال : وقلتُ لأبى عبيدة : أليس بُقْعُ الكلاب أمثلَها ؟ قال : لا . قلت : ولم قال :

وخِفْتُ هجاءهم لما تَوَاصَوْا

كخَوْفِ الذِّئبِ من بُقْعِ الكِلابِ (٢) ؟

قال : ليس هكذا قال ، إنما قال :

* كَخَوْفِ الذِّئب من سُودِ الكِلابِ * ألا ترى أنَّه حين أراد الهجاء قال :

كأنَّك بالمبارَكِ بعدَ شهرٍ ... تخُوضُ غُمورَه بُقْعُ الكِلابِ (٣)

ويدل على ذلك قول الجَدَلِىّ (٤) .

لَعَمْرِى لَجَوٌّ من جِواء سُوَيقَةٍ ... أسافلُه مَيْثٌ وأعلاه أجْرَعُ

أحبُّ إلينا أن نجاوِرَ أهلَه ... ويصبِحَ منَّا وهو مرأًى ومسمعُ

مِن الجَوْسَقِ الملعونِ بالرَّىِّ لا ينِى ... على رأسه داعى المنيَّةِ يلمَعُ

يقولون لى صبراً فقلتُ لطالَما ... صَبَرتُ ولكنْ لا أرى الصَّبرَ ينفعُ

---

(١) ل : « . . . دبره يشب منه » وهو تحريف .

(٢) ل : « وخفت هجينهم » .

(٣) المبارك : اسم نهر بالبصرة احتفره خالد بن عبد الله القسرى لهشام بن عبد الملك . وفى ط : « بالمنازل » وهو تحريف . والغمور : جمع غمر وهو الماء الكثير . وفى ط : « غمورة » وفى ل « عموره » وصوابهما ما أثبت وانظر معجم البلدان رسم (المبارك) والبيت فيه للفرزدق ، وقد أعاده الجاحظ فى ٢ : ٢٦ .

(٤) نسبه ياقوت إلى الغطمش الضبى فى رسم (الجوسق) .

فليتَ عطائى كانَ قُسِّمَ بَيْنَهُمْ   وكان لى الصَّمَّانُ والحزْنُ أجمعُ[(١)]

وكان لهم أجْرِى هنيئاً وأصبحَتْ   بِىَ البازلُ الكوماءُ بالرمل تُضْبِـعُ

أأَجعلُ نفسى عِدْلَ علجٍ كأنَّما   يموتُ به كلبٌ إذا ماتَ أبقَعُ

قال : فقد بيَّن كما ترى أنَّ الأبقَعَ شرُّها . قال : وقلت : فلم قال الشاعر :

أرسلْتَ أُسداً على بُقْعِ الكلاب فقد

أمسى شَرِيدُهمُ فى الأرض فُلَّالَا[(٢)]

قال ؟ فكيف يقول ذلك وهو يمدحهم ؟ وإذا صغَّر شأنَ من هزَموا

١٢٦ فقد صغَّر شأنَ الممدوح . بل إنَّما قال «أرسلتَ أسداً على سود الكلاب»

قال : وإنَّما جاء الحديثُ فى قتل سُود الكلاب ، لأنَّ عُقُرَها أكثرُ ماتكون سوداً ، وذلك من غلَبة أنفسها .

وليس فى الأرض حيوانٌ من بقرةٍ وثورٍ وحمَارٍ وفرس وكلبٍ وإنسان . إلاَّ والسُّودُ أشدُّها شرًّا وعَصْيا[(٣)] ، وأظهرُها قوَّةً وصبْراً .

وقال أبو سعد المخزومي[(٤)] فى هجائه دِعبلا :

---

(١) ط « وكان لى الكتمان » .

(٢) فى اللسان : وهم قوم فل : منهزمون ، والجمع فلول وفلال . وللأخفش فى هذه الكلمة بحث جيد فى اللسان .

(٣) عصيا : مصدر عصى يعصى .

(٤) أبو سعد المخزومى ممن عرف بكنيته وهو شاعر مقل من شعراء الدولة العباسية . وقد عاصر دعبلا وله معه مهاجاة وإقذاع . وقد نعته الجاحظ فى البيان ٣ : ١٤٧ بأنه دعى بنى مخزوم . وفى ط : « أبو سعيد » والصواب ماقى ل . ويؤيد ذلك قول ابن أبى الشيص فيه (الأغانى ١٨ : ٥٤) .

أنا بشرت أبا سعـد فأعطانى البشارة

وقول دعبل :

إن أبا سعد فتى شاعر يعرف بالكنية لا الوالد

يا ثابتَ بن أبى سـعيدٍ إنَّها دُوَلٌ وأحْرِ بها بأَنْ تتنقَّلا
هلاَّ جعلتَ لهـا كحُرْمَةِ دِعْبِلٍ فى است[أمِّ] كلبٍ لايساوى دِعبِلا

[وقال ابن نوفل] .

وجئتَ على قَصْواءَ تنقلُ سَوءةً إلينا وكم من سوءةٍ لاتهابُها[1]
وتزعمُ أَنْ لم تخزِ سَلْمَ بنَ جنْدَلٍ وقدخَزِيتَ بعدَ الرِّجال كلابُها[2]

وقال الحسن بن هانىء يهجو جعفرَ بنَ يحيى :

قفا خلف وجه قد أُطيل كأنَّه قفا مالك يقضى الهموم على بثق[3]
وأعظم زهواً من ذباب على خِرًا[4] وأبخَلُ من كَلْبٍ عَقُورٍ على عَرْقِ

وقال أبو الشمقمق :

أهلُ جودٍ ونائلٍ وفَعالٍ غلَبُوا الناسَ بالنَّدى والعطيَّهْ
جئتُه زائراً فأدنَى مكانى وتلقَّى بمرْحَبٍ وتحيَّهْ
لا كمِثْلِ الأصَمِّ حارثةِ اللؤ مِ شبيهِ الـكُلَيبة القَلَطيَّهْ
جئتُه زائراً فأعرضَ عنِّى مثلَ إعراض قحبةٍ سُوسيَّهْ[5]
وتولَّى كأنَّه أير بغلٍ غابَ فى دُبْر بَغلةٍ مِصريَّهْ

وقال أيضاً :

ألا قُولا لسرَّان الخازى ووجهِ الـكلب والتَّيسِ الضروطِ[6]

---

(١) ط : « جنبت على قصواء » وهو تحريف .
(٢) ل : « سلمى بن جندل » وهو تحريف .
(٣) ط : « تتق » .
(٤) ل : « خر » .
(٥) ط : « سرسية » .
(٦) ط : « ألا قولا لشران » .

له بطنٌ يضلُّ الفيلُ فيه ودُبرٌ مثلُ رَاقود النَّشُوط[1]
وأيْرٌ عارمٌ لاخــيرَ فيــه كدَوْرِ سفينةٍ فى بَثْق رُوط[2]
ولحيَةُ حائكٍ من باب قلب[3] مُوَصَّــلَةَ الجوانبِ بالخُيوطِ
له وجهٌ عليــه الفقــرُ بادٍ مُرقعةٌ جوانبـــه بقوطٍ[4]
إِذَا نَهَضَ الْـكِرَامُ إِلَى المَعَالِي تَرَى سَرّانَ يَسْفُلُ فِي هُبُوط

١٢٧ وقال أيضاً فى ذلك :

يارازق الـكلبِ والخنزيرِ فى سعةٍ والطيرِ والوحش فى يهماءَ دوِّيَّه[5]
لوشئتَ صيَّرتَه فى حالِ فاقته حتى تُقِرَّ بتلك الحالِ عينيَّه[6]

وقال جرير بن عطية يهجو الصَّلَتان العبدىّ[7] :

أقول لهـا والدمعُ يغسِل كُحلَهَا متى كان حكمُ اللهِ فى كَرَبِ النخل

فأجابه الصَّلَتَانُ فقال :

تُعيِّرنا أن كانت النَّخلُ مالَنا ووَدَّ أبوك الـكلبُ لو كان ذَا نَخْلِ

يعيِّره جريرٌ بأنَّه كان هو وأبوه من أصحاب النَّخْل[8] .

---

(١) الراقود : دنٌّ كبير أو طويل الأسفل يسيع داخله بالقار . والنشوط : سمك يقر فى ماء وملح .

(٢) عارم من يوم عارم : نهاية فى البرد . والروط بالضم : النهر ، معرب . وبثق النهر : كسر شطه لينبثق المـاء . وفى ل : « زوط » وليس بشيء .

(٣) ل : « قلبا » .

(٤) ط : « بغوط » وقد كتب هذا البيت تاليا للذى بعده فى ط ، ورددته إلى موضعه سابقا له كما فى ل .

(٥) ط : « فى يهما روية » وهو تصحيف . وفى ل « من سعة » .

(٦) ل : « حتى يقر » .

(٧) ل : « قال الصلتان العبــدى يهجو جريرا » وهو خطأ صوابه فى ط ، وفى الخزانة٢ : ١٥٥ ، والشعراء لابن قتيبة ١٢٠ .

(٨) ل : « يعير جريرا وأباه بأنهما كانا أصحاب نخــل » وهو خطأ انظر له المراجع السابقة .

وقال وضّاحُ اليمن :

وأكتم السرَّ غضباناً وفى سكرى حتى يكون له وجهٌ ومستَمعُ
وأترُكُ القولَ عن علمٍ ومَقْدرةٍ حتى يكون لذاك النَّجْدِ مُطّلَع[1]
لاقُوَّتى قُوّةُ الراعى ركائبَه يبيتُ يأوى إليه الكلبُ والرُّبَع[2]
ولا العَسيفِ الذى تشتدُّ عُقْبَتُهُ حتَّى يَثُوبَ وباقى نعْلِه قِطَع[3]

وقال محمَّد بن عبَّاد الكاتب مولى بجيلة، وأبوه[4] من سبي دابق وكاتب زهير، وصديق ثُمامة، يهجو أبا سعد[5] دعيَّ بنى مخزوم وبعد أن لقى منه مالَقى :

فعلتْ نزارُ بك الذى اســتأهَلتَه نفياً وضَرْبَا
فهجوتَ قحطانا لأهجو هم مكايَدَةً وإرْبا[6]
وأردتَ كيما تشتَفى بهجائهم منهم فتَرْبَا
ووثقت أنَّك ماسببــتَ، حَمَاكَ لؤمُك أن تُسَبَّا
كالكلب إن ينبح فليـ س جوابُه إلاَّ أخسَ كَلْبَا[7]
خفِّض عليك وقَرْمكا نَكَ لاتطفْ شرقاً وغربا
واكشِفْ قناع أبيك فالآ باءُ ليس تُنال غَصْبا

---

(١) ط : « حتى يكون بذاك » .
(٢) الربع : ولد الناقة فى الربيع ، وفى ط « الولع » وصوابه فى ل ، وفى الحماسة ١ : ٢٦١ . والشعر فى الحماسة غير منسوب .
(٣) العسيف : العبد أو الأجير . وعقبته : مرفوع على الفاعل ، أو منصوب على الظرف (برواية : يشتد) أى وقت عقبته ، والعقبة من المعاقبة وهى النوبة . وفى ط «وباقى فعله» وتصحيحه من ل ومن الحماسة وانظر التبريزى (٢. ٩٧)
(٤) كلة « وأبوه » ساقطة من ل والصواب إثباتها كما فى الأغانى ٦ : ١٤ وانظر البيان ١ : ٥١ وفى ط « من سبي وابق » وتصحيحه من ل ومن البيان .
(٥) ط : « أبو سعيد » وهو تحريف نبهت عليه ص ٢٦٢
(٦) ل : « لأهجوكم » . ط « مكابرة وإربا » .
(٧) ل : « كالكلب » .

١٢٨ وقال آخر يصف كلباً :

ولَذٍّ كطَعْمِ الصَّرْخَدِيِّ تركتُه ... بأرض العِدَا من خَشية الحَدَثانِ
ومُبْدٍ لِيَ الشَّحناءَ بيني وبينه ... دعوتُ وقد طال السُّرى فدعاني

فوصفه كما ترى أنَّه يبدى له البغضاء .

وقال آخر :

سَرَتْ ما سَرَتْ من ليلها ثم عرَّست ... عَلَى رجُلٍ بالعَرْج ألأمَ من كلْبِ

وقال راشِد بن شِهاب اليشكُرِيُّ :

فلستُ إذا هبَّتْ شَمالٌ عَرِيَّةٌ ... بكَلْبٍ على لحم الجزورِ ولا بَرَمْ

وقال كُثَيِّر بن عبد الرحمن ، وهو يصف نعلاً من نِعال الكرام[(١)] :

إذا طُرِحَتْ لم يَطَّبِ الكلبَ رِيحُها ... وإن وُضِعت في مجلس القَوم شُمَّتِ

وقال اللَّعين فى بعض أضيافه[(٢)] ، يخبر أنَّه قراه لحمَ كلب . وقد قال ابنُ الأعرابى : إنَّما وصف تيساً .

فقلتُ لعبْدَيَّ اقتُلا داءَ بطنِهِ ... وأعفاجِهِ اللائى لهنَّ زوائدُ[(٣)]
فجاءا بخِرِ شاوَى شَعير عليهما ... كَرَادِيسُ من أوصالِ أعقَدَ سافدِ

وقال خُلَيد عَينَين[(٤)] وهو يهجو جرير بن عطيه ويرد عليه :

وعيَّرتَنا بالنخل أن كان مالنا ... وودَّ أبوك الكلبُ لو كان ذا نخل

---

(١) للبغدادى كلام فى البيت الآتى . الخزانة ٤ : ١٤٧ بولاق . وهو مع بيتين سابقين له فى البيان ٣ : ٦٤ ، ولبشار مثل هذا المعنى إذ يقول :

إذا وضعت فى مجلس القوم نعلها ... تضوع مسكا ما أصابت وعنبرا

(٢) انظر ترجمة اللعين ص ٢٥٦ .

(٣) فى هذا البيت إقواء . وقد روى ياقوت فى معجم البلدان برسم (حلامات) سبعة أبيات من قصيدة اللعين هذه ، اثنان منها مضموما القافية يليهما خمسة مكسورات القوافى . وهذا البيت هو الرابع فى روايته . وقد روى عجزه هكذا :

* وأعفاجه العظمى ذوات الزوائد *

(٤) هو من ولد عبد الله بن دارم ، وكان ينزل أرضا بالبحرين يقال لها «عينين» فنسب إليها . وقد أجازه زياد لمناسبة طريفة . الشعراء ١٠٨ .

وقال دعبل بن عليّ :

ولو يُرزَقُ الناسُ عن حيلة لما نال كفًّا من التُّرْبهْ
ولو يشربُ الماءَ أهلُ العفا ف لما نال من مائهم شَرْبَهْ
ولكنّه رزقُ مَنْ رِزْقُهُ يعمُّ به الكلبَ والكلبهْ

باب

ذكر من هُجِيَ بأكلِ لحوم الكلاب ولحومِ الناس

قال سالم بن دارة الغطفانيّ[1] .

يافقعسِيُّ لِمْ أكلته لِمَهْ لو خافَكَ اللهُ عليه حرَّمه
* فما أكلتَ لحمَه ولادَمه *

وقال الفرزدق فى ذلك :

إذا أسديٌّ جاعَ يومًا ببلدةٍ وكان سميناً كلبُه فهو آكلُه

وقال مساور بن هند : ١٢٩

إذا أسدِيّةٌ ولدَتْ غلامًا فبشِّرها بلؤمٍ فى الغُلامِ
يخرِّسها نساءُ بنى دُبَير بأخبثِ مايجدن من الطَّعام[2]
ترى أظفارَ أعقَدَ مُلقيات براثنُها على وَضَم الثُّمامِ[3]

فهذا الشعر وما أشبهُه يدلُّ على أنَّ اللعين إنّما قراهم كلباً ولم يَقرِهم تيساً ، وأنَّ الصوابَ خلافُ ماقال ابْنُ الأعرابيِّ .

وقال مُساور بن هند أيضاً :

بَنِى أسدٍ أنْ تمحل العامَ فَقْعسٌ فهذا إذنْ دَهْرُ الكلابِ وعامُها

---

(١) هو سالم بن مسافع . ودارة أمه ، وهو شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام ، وكان رجلا هجاء ، وله ترجمة مسهبة فى الخزانة ٢ : ١٢٥ — ١٣٠ والشعر فى البخلاء ١٩٧ وانظر الحيوان ٢ : ٥٨ ، ٤ : ١٤ .

(٢) ط : « مايكون من الطعام » وأثبت مافى ل والبخلاء ١٩٧

(٣) وضم الثمام: مثل للقلة والهون . وفى ط «الشمام» وصوابه فى ل والبخلاء ١٩٧

وقال شُرَيح بن أوس يهجو أبا المهوّش الأسدى[١]:

وعيَّرْتنا تمرَ العراق وبُرَّه ... وزادُك أيرالكَلْب شيَّطه الجمرُ

(أكل لحوم الناس وما قيل فى ذلك من الشعر)

وقال معروف الدبيرى[٢] فى أكلِهم لحومَ الناس:

إذا ماضِفْتَ يوماً فقعسيّاً ... فلا تَطعَمْ له أبداً طعاما

فإنَّ اللحم إنسانٌ فدَعْهُ ... وخيرُ الزّادِ مَامَنَع الحراما

وقد هُجِيت هذيل وأسد وبالعنبر وباهلة بأكلِ لحوم الناس، قال حسّان بن ثابت يذكر هذيلا:

إنَّ سرّكَ الغَدْرُ صِرفاً لامِزَاجَ له ... فأتِ الرجيعَ وسل عن دارِ لَحْيانِ

قومٌ تواصَوا بأكلِ الجاربينهم ... فالكلبُ والشّاةُ والإنسانُ سِيّانِ

وقال الشاعر فى مثل ذلك فى هذيل:

وأنتمْ أكلتمُ شحمة بن مخدَّم ... زباب فلا يأمنكم أحدٌ بعد[٣]

تداعَوا له من بين خَمْسٍ وأربعٍ ... وقدنصل الأظفارُ وانسبأ الجِلْدُ[٤]

---

(١) أبو المهوش الأسدي: هوحوط بن رئاب، أوربيعة بن وثاب من المخضرمين الذين أدركوا النبي صلى الله عليه وسلم ولم يروه. وانظر الخزانة ٤ : ٨٦ بولاق والإصابة ٢٠١٥ . وفى ط «المهوس» وصوابه فى الخزانة و ل والبخلاء ١٩٨ .

(٢) ط : «الأسدى» وأثبت ماقى ل والبخلاء ١٩٩ .

(٣) ل : «شخفة بن من مخدم» وفى البخلاء ١٩٨ «سحفة ابن محدم» وفى ط «زمانا» موضع «زباب» والزباب : ضرب من الفأر، وهومما يهجى به . قال:

وهم زباب حائر لاتسمع الأذان رعدا

(٤) ط : «نسل» وليس بشيء وصوابه فى ل والبخلاء .

ورَفَعتم جُرذانَه لرئيسكم مُعاوِيةالفلحاءيالكَ ماشُكْدِ(١)

وقال الشاعر فى ذلك فى باهلة:

إنّ غفاقا أكلته باهله تمشَّشوا عظامَه وكاهلَه

* وأصبحتْ أم غفاق ثاكلَه(٢) *

وهجا شاعرآخر بالعنبر، وهو يريدثَوْبَ بن شَحْمَة(٣)،وكان شريفاوكان يقال له ١٣٠
مجير الطير ، فأمّا مجير الجراد فهو مدلج بن سويد بن مرشد بن خيبرى(٤)
فعيَّر الشاعرُ ثوب بنَ شحمة(٣) بأكل الرجلِ العنبرىّ(٥) لحمَ المرأة إلى أن
أتى ثوبٌ(٦) من الجَبَل فقال :

عجِلتُمُ ماصادَكم عِلاجْ من العُنُوق ومن النِّعاجْ

* حتى أكلتمْ طَفْلَة كالعاجْ *

فلما عيَّره قال ثوب(٧):

يابنتَ عمِّى ما أدراكِ ماحسبي إذلاتجنّ خبيثَ الزادأضلاعى(٨)
إنِّى لذو مِرَّةٍ تُخْشَى بوادِرُه عِنْدَالصِّياح بِنَصْلِ السَّيْفِقرّاعِ

ومن ظريف الشعر قول أبى عدنان(٩):

---

(١) ط : ودفعتم جيرانه لرئيسكم معاوية الفساء يالك ماشكد
والصواب فى ل والبخلاء و « يالك ما » كذا وردت والوجه « يالك من » .

(٢) ط : « عفاقا » و « أم عفاق » بالعين وأثبت ما فى ل والبخلاء

(٣) كذا فى القاموس والبخلاء ١٩٨، وفى ط « ثور بن شحمة » وفى ل « ثوب ابن سحمة» وكلاهما محرف . وكان ثوب سيداً شريفاً قد أجار الطير فكان لايثار ولا يصاد بأرضه فسمى مجير الطير ثمار القلوب ٣٠٥ .

(٤) ط : « جبير » وانظر خبر مجير الجراد فى أمثال الميدانى (١ : ٢٠٢) وبلوغ الأرب (١ : ١٤٤) .

(٥) ل : « القينى » وفى البخلاء « بأكل الفتى » .

(٦) ط : « ثورا » وصوابه فى ل .

(٧) ط : « ثور » .

(٨) ط : « مايدريك » وهما سيان ، « لاتجر » ل : « لايجز » وتصحيحه من البخلاء .

(٩) سبقت ترجمته ص ١٨٤ ؟

فما كلبةٌ سوداءُ تفرى بنابِها عِراقاً من الموتى مِراراً وتَكدِمُ[1]

أُتيح لها كلبٌ فضنَّتْ بعِرْقِها فهارشَها وهى على العَرْق تَعْذِمُ[2]

فقف على هذا الشعر فإنه من أعاجيب الدنيا .

وقال سُنَيح بن رباح شار الزِّنجى[3]

مَابالُ كلبِ بنى كُلَيبٍ سبَّنا أن لم يُوازِنْ حَاجِباً وعِقالا

(قتيل الكلاب)

وتنازع مالك بن مِسْمَع وشقيق بن ثور ، فقال له مالك : إنَّما رفعك قَبْرٌ بتُسْتَرَ[4] فقال شقيق : حينَ وضعَك قبرٌ بالمشقَّر ، ياابن قتيلِ النساء وقتيل الكلاب!! . قال : وكان يقال لمسمع بن شيبان قتيل[5] الكلاب ، وذلك أنَّه لجأ فى الردة إلى قومٍ من عبد القيس ، فكان كلبُهم ينبحُ عليه فخاف أن يدلَّ على مكانه فقتَلَه فقُتِلَ به .

(أمثال أخرى فى الكلب)

قال : والعرب تقول : « أسرَعُ من لَحْسَةِ كلبٍ أنفه » ويقال :

---

(١) ط : « تفرى بنابها » وهو تحريف . وفيها « مراداً وتكدم » وصوابهما فى ل

(٢) تعذم : تعض أو تأكل بجفاء .

(٣) ط : « وقال الشاذ برجى » ل « وقال السارزنجى » وهذا تحريف كتبت بدله ماقى رسائل الجاحظ ٦١ ساسى والبيان ٣ : ٤٤ . وفى الكامل ٤١٥ ليبسك « رباح بن سنيح الزنجى » وانظر الرسائل ٦٢ .

(٤) ط : « بتشير »

(٥) فى ثمار القلوب ٣١٨ : « مسمع بن سنان » .

« أحرص من لَعْوة » وهي الكلبة ، وجمعها لِعاء[١] وفى المثل : « ألأم من كلبٍ على عرْق » و « نَعِم كلبٌ فى بؤس أهله » وفى المثل . « اصنع المعروف ولو معَ الكلب » .

(رؤيا الكلب وتأويلها)

وقال ابن سيرين . الكلبُ فى النوم رجلٌ فاحش ، فإن كان أسودَ فهو عربىٌّ ، وإن كان أبقعَ فهو عجمى .

وقال الأصمعى عن حمّاد بن سلمة عن ابنِ أخْتِ أبى بلال مِرداسِ ابن أُدَّية[٢] قال : رأيتُ أبا بلالٍ فى النوم كلباً تذرِف عيناه ، وقال : إنّا حُوِّلنا بعدَكم كلاباً من كلاب النار .

قال . ولمّا خرج شَمِر بن ذى الجَوشَن [الضبابى] لقتال الحسين بن على رضى الله عنه تعالى عنهما ، فرأى الحسينُ فيما يرى النائم أنَّ كلباً أبقعَ يلغُ فى دمائهم ، فأوّلَ ذلك أن يقْتُلهم[٣] شمر [بن ذى الجوشن] وكان مُنْسلخًا برصاً[٤] ١٣١

قال . والمسلمون كلُّهم يسمُّون الخوارجَ كلابَ النار[٥] .

---

(١) فى ط « لفوة » و « لقاء » وصوابهما فى ل .

(٢) ط : « أبى بلال بن مرداس بن أدية » وأبو بلال كنية مرداس نفسه كما فى الأغانى وقاموس الأعلام .

(٣) ط : « فأول ذلك بقتلهم شمر » .

(٤) ل : « متسلخا برصا » .

(٥) ل : « أهل النار » والصواب مافى ط وثمار القلوب ٣١٥ .

(شعر فى تشبيه الفرس بضروب من الحيوان ليس بينها الكلب)

وقال صاحب الديك : صاحب الكلب[1] يصِفُه بالسُّرعةِ فى الحُضْر، وبالصبر على طول العَدْو، وبسَعَة الإهاب، وأنّه إذا عدا ضَبَع وبسَط يديه ورجليه حتى يمسَّ قَفَصُهُ الأرْض، وحتى يشرط أذنيه بشَبَا[2] أظفاره، وأنّه لايحتشِى ريحاً معها[3] يصيب الكلاب من اللَّهَث. فإن كان كما تقولون فلم وصفت الشعراء الفرسَ وشبّهتهُ بضروب من الخلق، وكذلك الأعضاء وغير ذلك من أمره، وتركوا الكلب فى المَنْسَأ[4] لايلتفت أحَدٌ لِفْتَه[5]؟!
وقال أبو دواد الإياديُّ فى ذلك :

عن لسانٍ كجثّة الوَرَل الأحـــمرمجَّ النّدى عليه العَرار[6]

ولم يذكره فى شىء، وقال خالد بن عجرة الكلابى[7].

كأن لسانَه وَرَلٌ عليه بدار مضية مج العرار

وقال امرؤ القيس :

وخدٌّ أسيلٌ كالمِسَنّ وَبِرْكَةٌ كجُؤجؤ هَيقٍ دَفُّه قد تموَّرا

---

(١) ط : « لصاحب الكلب » وصوابه فى ل .
(٢) شبا : جمع شباة : وهى الحد . وفى ط « بسباء » محرفا .
(٣) ل : « لايحتسى ريحا مع ما » و ط : « لايحتشى ريحا مما » وسوبت القول كما ترى .
(٤) المنسأ : المزجر . وفى ل : « المنسى » وفى ط « المنسا » .
(٥) لفته : جهته . وفى ط : « لايلتفت إليه أحد » .
(٦) الورل : ضرب من الوزغ . قال ابن منظور : « ولون الورل إلى الصحمة : وهى غبرة مشربة سواداً وإذا سمن اصفر صدره » وروى البيت برواية : « كجثة الورل الأصفر » ونسب البيت إلى عدى بن الرقاع .
(٧) ط « حماد مجرد الكلابى » والبيت فى النوادر لأبى زيد ١١٦ غير منسوب ، وبهذه الرواية :

كأن لسانه ورل عليه بدار مضنة مج العرارا

وفى ل « ندى رمصيه » .

ولم يذكره فى شىء وقال عُقْبة بن سابق :

عريض الخدّ والجبـــهةِ والصّهوةِ والجنب

ولم يذكره فى شىء . وقال امرؤ القيس :

وسامعتان تعرِف العتقَ فيهما　　كسامعتَى مذعورة وسطَ ربرب

ولم يذكره فى شىء من ذلك . وقال عقبة بن سابق :

ولهـا بِركةٌ كجُؤجؤ هيَقٍ　　ولَبانٌ مضرّجٌ بالخِضابِ

ولم يذكره فى شىء . وقال خُفاف بن نَدبة :

عَبِلُ الذّراعين سليم الشَّظا　　كالسِّيدِ يومَ القِرّةِ الصاردِ(١)

[ولم يذكره فى شىء من ذلك] . وقال امرؤ القيس :

سليمِ الشَّظاعبلِ الشّوى شَنِــجِ النَّسا　　أقبَّ كـتَيسِ الحُلَّبِ الغَذَوانِ(٢)

ولم يذكره فى شىء من ذلك . وقال عقبة بن سابق .

وأرساغ كأعناقِ ظِباء أربع عُلْبِ ١٣٢

ولم يذكره فى شىء من ذلك . وقال الجَعْدىُّ .

كأنَّ تماثيلَ أرساغِهِ　　رِقابُ وُعُولٍ لَدَى مَشْرَبِ

ولم يذكره فى شىء من ذلك . وقال امرؤ القيس :

لهـا متْنَتَانِ خَظَاتَا كما　　أكبَّ عَلَى ساعديه النَّمِرْ

ولم يذكره فى شىء من ذلك . وقال أبو دواد :

---

(١) ط : « يوم نقرة الصادر » وهو تحريف ماق ك . وفى ل : « أمين الشظا »

(٢) الحلب : نبت تعتاده الظباء يخرج منه شىء شبيه باللبن إذا قطع . والغذوان : النشيط المتمرح ، وفى ط « العدوان » من العدو، وهو الجرى . وهما روايتان. الديوان ١٢٣ .

يمشى كمشى نعامتين تُتابعان أشقّ شاخِصْ

ولم يذكره فى شىء من ذلك . وقال ابن الصَّعِق[(١)] :

بمحنّبٍ مثلِ العُقا بِ تخاله للضُّمر قِدْحاً[(٢)]

ولم يذكره فى شىء من ذلك . وقال رَبيعة بن جُشَم [النمرى] ويروى لامرىء القيس[(٣)] :

وساقانِ كعباهما أصمعَا نِ لحمُ حماتَيهما منبترٌ

ولم يذكره فى شىء من ذلك . وقال عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت الأنصارى :

كأنَّ حماتَيهما أَرنبانِ تقبَّضتا خيفةَ الأجـــدل[(٤)]

ولم يذكره فى شىء من ذلك . وقال خالد بن عبد الرحمن فى مثل ذلك[(٥)] :

كأنَّ حماتَها كردوس فَحْلٍ مقلَّصةٌ على ساقَي ظليمِ

ولم يذكره فى شىء من ذلك . وقال الأعشى :

أمَّا إذا استقبلتَه فكأنَّه جِذْعٌ سَماَ فوقَ النَّخيلِ مشذَّبُ
وإذا تصفَّحَه الفوارسُ معرضاً فتقولُ سِرحانُ الغَضَا المتصوِّبُ[(٦)]
أما إذا استدبرته فتسوقُه ساقٌ يقمِّصها وظيفٌ أحدَبُ

---

(١) هو يزيد بن عمرو بن خويلد . له ترجمة فى الخزانة ١ : ٣٨٨ .

(٢) المحنب : المعوج الساقين . وفى ط « بمجنب » وليس بشىء .

(٣) جملة « ويروى لامرىء القيس » ساقطة من ل . وانظر ديوان امرىء القيس أول قصيدة منه .

(٤) الحماة : عضـــلة الساق . وفى ط : « كأن حمايتهـا » وهو تحريف . والأجدل : الصقر .

(٥) جملة « خالد بن عبد الرحمن فى مثل ذلك » ساقطة من ل .

(٦) ط : « وإذا تصفحه الفوارس مغضبا » .

منـــهُ وجاعرة كأنّ حماتها لما كشفت الجُلّ عنه أرنب[١]

ولم يذكره فى شىء من ذلك . وقال الأسعر الجُعْفى[٢] :

أما إذا اســـتقبلْتَه فكأنّه بازٍ يكفكفُ أن يطيرَ وقد رأى
أما إذا استعرضتَه متمطِّرا فتقول هذا مثلُ سِرحان الغَضا
أمّا إذا اســـتدبرته فتَسُوقه ساقٌ قَمُوصُ الوَقْع عاريةُ النَّسا ١٣٣

ولم يذكره فى شىء . وقال أبو دواد :

كالسِّيد مااستقبلتَه وإذا ولَّى تقول مُلَمْلَمٌ ضَرْبُ[٣]
لأمٌ إذا استعرضتَه ومشَى متتابعاً ما خانَه عَقْبُ
يمشِى كمشى نعامةٍ تبعتْ أُخرى إذا هى راعَها خطْبُ

[ولم يذكره فى شىء من ذلك]. وقال امرؤ القيس :

له أيطلاَ ظَبى وساقَا نعامةٍ وإرخاء سِرحانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ

[ولم يذكره فى شىء من ذلك]. وقال ابن سِنانٍ العبْدىّ :

أما إذا ماأقبلت فمُطارةٌ كالجِذع شذَّبهُ نقىُّ المِنْجَلِ
أما إذا ماأعرضتْ فنبيلة ضخمٌ مكانُ حِزامِها والمِرْكَلِ[٤]
أما إذا تشـــتدُّ فهى نعامةٌ تنفِى سنابكُها صِلابَ الجَنْدَلِ[٥]

(قول أبى عبيدة فى تشبيه الفرس بضروب من الحيوان)

قال أبو عبيدة: ومما يشبِه خلْقُه من خَلْق النعامة طولُ وظيفِها وقصرُ

(١) الجل : غطاء الفرس . وفى ط « الحبل » محرفا. وفى ل « هنة وجاعرة » .
(٢) الأبيات فى الخزانة ٤ : ٢٢ بولاق بتقديم الثالث على الثانى .
(٣) الضرب : الخفيف اللحم . وفى ل : « صرب » .
(٤) ط : « فقليلة » .
(٥) ل : « أما إذا ما أدبرت فنعامة » .

ساقيها وعُرى نسيها[١] . ومِمَّا يشبه من خلقه خلْقَ الأرنب صِغَرَ كعبَيها . وممَّا يشبه من خَلْقه خلْقَ الحمار الوحشيِّ غِلظ لحمِهِ ، وظمأ فصوصه وسَراته ، وتمحص عصَبِه[٢] ، وتمكُّن أرساغه ، وعَرض صهوته .

قال صاحب الكلب : قد قال أبو عبيدة : إنّ مما يشبه من خلقه خلْقَ الكلب هَرَت شدقِهِ ، وطول لسانه ، وكثرة ريقه ، وانحدار قَصِّه[٣] ، وسبوغ ضُلوعِهِ ، وطول ذراعيه ، ورُحْب جلده ، ولحوق بطنه .

وقال طُفَيل الغَنَوِيّ ، يصف الخيل :

تبارِي مراخِيها الزِّجاج كأنَّها ... ضِراءٌ أحسَّتْ نبأةً من مكلِّبِ[٤]

وقال طُفَيل أيضاً :

كأَنَّ عَلَى أعطافِهِ ثوبَ مائحٍ ... وإن يلقَ كلبٌ بين لَحيَيهِ يَذْهَبِ[٥]

وقال صاحب الديك : وأين يقع البيتُ والبيتان والثلاثة ، من جميع أشعار العرب ؟ !

وقال صاحب الكلب : لعلَّنا إن تتبَّعنا ذلك وجدناه كثيراً ، ولكنك تقدَّمت فى أمر ولم تُشْعِر بالذى تعنى ، فنَلتقط[٦] من الجميع

١٣٤ أكثَرَ مما التقطت. والإنسان شريف الأعضاء وقد تشبه مواضعُ منه مواضع من الفرس العتيق . وما حضرنا من الأشعار إلاّ قوله :

---

(١) ط : « نسيها » وليس بشىء .

(٢) تمحص العصب : شدته . وفى ط : « تمحيص » .

(٣) القص والقصص : الصدر . ل : « قصبه » ط « قصه » محرفتان .

(٤) يقول: إن هذه الخيل المراخى — وهن المسرعات، واحدها مرخاء — تبارى الزجاج: جمع زج . أى تكاد تسبق مايحمله أربابها من سلاح . مثله قول لبيد :

يطرح الزجاج يبارى ظله ... بأسيل كالسنان المنتخل

وفى ط ، ل « تبادى » . وفى ط « مراحيها » . وذلك تحريف . انظر الحيوان (٢ : ٢٧)

(٥) المائح: الذى ينزل البئر فيملأ الدلو ، والماتح : الذى يجذب الدلو ليخرجها . وفى ل « كأن على أعطافها ثوب ماتح » وفى ط « كأن على أعطافه ثوب مائح » وانظر أدب الكاتب ٨٧ والاقتضاب ٢٢٧ .

(٦) فى الأصل « فلتقط » .

وترى الكميتَ أمامَه وكأنَّه رجلٌ مُغاضِبْ ١٣٤

وقال الشاعر فى ذلك :

خُوصٌ تَرَاحَ إلى الصراخ إذا غدت فِعْلَ الضِّراءِ تَرَاح للكَلَّابِ(١)

وقد شبهوا بالكلب كلَّ شيء . وكان اسم فرس عامر بن الطفيل ، الكلب ، والمزنوق ، والوَرد .

(شعر فى وصف الناقة ونشاطها)

قال صاحب الديك : قد قال أوس بن حجر ، ووصف الناقةَ ونشاطَها والذى يَهيجها فقال :

كَأَنَّ هرًّا جَنِيباً عند مَغْرِضها والتفَّ ديكٌ برجليها وخِنْزِير(٢)

فهلاَّ قال : والتف كلبٌ كما قال : والتفَّ ديك ! ! وقال أبو حيَّة .

[و] تزاورَتْ عنه كأن بدَفِّها هِرًّا ينشِّبُ ضَبْعَها بالأظفر(٣)

وقال الأعشى :

بجُلالةٍ سُرُحٍ كأَنَّ بدَفِّها(٤) هرًّا إذا انتعل المطىُّ ظلالَها

وقال عنترة بن شدَّاد العَبْسى :

وكأنَّما ينأى بجانب دَفِّها الـ ـوحْشِىِّ من هَزِجِ العشىِّ مُؤَوَّمِ(٥)

---

(١) ل : « إلى الصياح » وكذلك فى اللسان مادة (روح) .

(٢) لابن طباطبا نقد فى هذا البيت ذكره المرزبانى فى الموشح ٨٦ ، ولابن رشيق كلام فيه فى العمدة ٢ : ٢٢٥ ، وانظر معاهد التنصيص ١ : ٤٧ .

(٣) ينشب : يعلق به . وفى ط : « تنشب » .

(٤) ل : « بغرزها » والغرز : ركاب من جلد . والدف : الجانب .

(٥) فى الأصل : « دفها الوحشى فى هزج ... » وانظر التبريزى ١٨٧ .

هرٌّ جَنيبٌ كلَّما عطفَتْ له غَضْبَى اتقاها باليدينِ وبالفمِ[١]

وقال المثقِّب العَبْدىّ :

فسلِّ الهمَّ عنك بذاتِ لَوْثٍ عُذَافِرةٍ كَمِطْرَقةِ القيُونِ

وصادقةِ الوَجيفِ كأنَّ هرًّا يُبارِيها ويأخُذُ بالوَضين[٢]

قال صاحب الكلب : إنّما يذكرون فى هذا الباب السِّباعَ المنعوتة بالمخالب وطولِ الأظفار ، كما ذكروا الهرّ وابن آوى . والكلبُ ليس يوصف بالمخالب ، وليس أنّ الهر أقوى منه . ألا ترى أنّ أوسَ بن حجرٍ قال فى ذلك :

* كأنّ هرًّا جَنيباً عِنْدَ مَغْرِضِها *

فذكر الموضع الذى يوصف بالخلْبِ والخدْشِ والخمش والتظفير ، فلما أراد أن يفزِّعها ويثوِّرَها حتى تذهبَ جافلة فى وجهِها[٣] ، أو نادّة ،

١٣٥ أو كأنّها مجنونة من حاقّ المرح والنشاط[٤] قال:

* والتفَّ دِيكٌ بِرِجلَيها وخِنزيرُ[٥] *

وقال أبو النجم :

لو جُرَّ شَنٌّ وسطها لم تُجْفِلِ[٦] من شهوةِ الماءِ ورُزْء معضل[٧]

[ويروى تحفل] . ولو قال أوس :

---

(١) ط . « التقاها » .

(٢) ل : « بصادقة الوجيف » .

(٣) ل : « وجهه » وهو تحريف .

(٤) حاق المرح : صادقه . وفى ط « حال المرح » .

(٥) البيت لأوس بن حجر كما سبق قريباً . وصدره .

* كأن هرا جنيبا عند مغرضها *

(٦) ط : « لو جرشن خلفها لم يحفل » .

(٧) البيت ساقط من ل .

* والتفَّ شَنٌّ بِرِجليها وخِنزِير *

لكان جائزًا ، لولا يُبْس الشنّ وقحُوله ، وأنّه ليس ممـا يلتوى على رجليها . وقال آخر :

كأنَّ ابنَ آوى مُوثَقٌ تحت غَرْزِها إذا هو لم يَكلِمْ بنابَيهِ ظَفَرا

وقال صاحب الديك : حديث عمرو بن شُعيب عن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لايحِلُّ لرجلٍ [أنْ] [1] يُعطِيَ عَطِيّةً ويرجِع فيها ، إلاّ الوالد فيما يعطى ولده . ومثل الذى يُعطى العطيَّةَ ثم يرجِعُ فيها كمثل الكلب يأكل ، حتى إذا شَبِع قاء ثم عاد فى قيئه » [2] .

وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لايرجع فى هبته إلاّ الوالد من ولده . والعائدُ فى هبتِه كالعائد فى قيئه » .

وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن عبد الله بن جعفر ، أنّ أبا بكرٍ أمر بقتل الكلاب . قال عبد الله بن جعفر : وكانت أمّى تحتَ أبى بكر ، وكان جروٌ لى تحت سريره [3] فقلت له : ياأبتِ ، وكلبى أيضاً ؟ فقال : لاتقتلوا كلبَ ابنى ، ثمّ أشار بإصبعه إلى الكلب ــ أى خذوه من تحت السرير ــ وأنا لاأدرى ، فقتل .

وإسماعيل بن أُميَّة قال : أمّتان من الجنّ مُسِختا ، وهما الكلاب والحيّات .

ابن المبارك قال : إذا عرف الرجلُ قدْرَ نفسه صار عِند نفسِه أذلّ من الكلب .

(١) ليست بالأصل .
(٢) ل : « قاءه ثم عاد فى قيه » .
(٣) ط : « تحت السرير » .

(لؤم الكلب)

قال صاحب الديك ـ وذَكَرَ الكلب فقال ـ : من لؤمه أنّه إذا أسمنتَه أكلك ، وإن أجعتَه أنكرك . ومن لؤمه اتّباعه لمن أهانه ، وإلفُه لمن أجاعَه ؛ لأنّه أجهلُ من أن يأنس بما يؤنس به(١) وأشره وأنهَمُ وأحرصُ وألجُّ من أن يذهب بطعمته(٢) مايذْهَب بطامع السباع .

ومن جهله أيضا أنّا لم نجدْه يحرُس المحسنين إليه بنباحه ، وأربابَهُ الذين ربّوه وتبنّوه(٣) إلا كحراسته لمن عَرَفه ساعةً واحدة ، بل لمن أذلّه وأجاعَه وأعطشه . بل ليس ذلك منه حراسةً ، وإنّما هو فيه من فضل البَذَاء أو الفُحْش ، وشدّة التحرُّش والتسرُّع . وقد قال الشاعر فى ذلك :

١٣٦ إذا تخازَرْتُ ومابى من خَزَرْ ثم كسَرت العينَ من غير عَوَر(٤)
أبْذَا إذا بُوذيت من كلبٍ ذَكَرْ(٥) أسودَ قزّاحٍ يُعوّى فى السَّحَر(٦)

وإنّما ذلك شكل من شكل الجبن ، وكالذى(٧) يعترى نساءَ السِّفْلة من الصخَب .

(جبن الكلب)

والكلب جبانٌ وفيه جرأة ولؤم . ولو كان شجاعًا وفيه بعض التهيُّب

---

(١) ل : « منه » .
(٢) مطمعته : طمعه . وفى ط : « بطمسه » .
(٣) ط : « وواسوه » والوجه مافى ل .
(٤) ل : « الطرف » موضع « العين » .
(٥) أبذا من البذاء . ط « أبزى إذا بوزيت » صوابه فى ل . وانظر الأمالى (١ : ٩٦) وأمثال الميدانى (٢ : ١٢٧) . والرجز منسوب إلى عمرو بن العاص عند الدميرى (١ : ٤١٠)
(٦) القزاح : الذى يدفع ببوله دفعا . وفى ط « قراع » . وفى ط « تعوى فى السحر » وفى ل « يغضى فى السحر » .
(٧) ط : « ولا الذى » وهو تحريف .

كان أمثل . ومن فرط الجبن أنَّه يفزَع من كلّ شيء وينبحه .

والبرذون ربّما رمَح البرذونَ مبتدئا ، وقلق وصهل صَهيلا فى اختلاط ، وليس ذلك من فضْل قوّةٍ يجدُها فى نفسه على المرموح ، ولكنَّه يكون جبانا ، فإذا رأى البِرذون الذى يظنّ أنَّه يعجِز عنه أراه الجبنُ أنَّه واقعٌ به ، فعندها يقلَق وإذا قلِق رمَح . وهذه العلَّة تعرض للمجنون : فإنّ المجنونَ الذى تستولى عليه السَّوداء ، ربما وثَب على من لا يعرفه . وليس ذلك إلاّ لأنَّ المِرّة أو همته أنَّه يريده بسوء ، وأنّ الرأى أن يبدأه[١] بالضرب ؛ وعلى مثل ذلك يرمى بنفسه فى الماءِ والنار .

(ممـا حدث للنظام)

فأمَّا الذى شهدت أنا من أبى إسحق بن سيَّار النظّام ، فإنّا خرجنا ليلةً فى بعض طرقات الأُبُلَّة ، وتقدَّمتهُ شيئاً ، وألحّ عليه كلبٌ من شكل كلاب الرِّعاء ، وكره أن يعدوَ فيغريَه ويُضَرِّيه[٢] ، وأنف أيضًا من ذلك — وكانَ أنِفاً شديدَ الشَّكيمةِ أبّاء للهَضيمة — وكره أن يجلسَ مخافةَ أن يشغَر عليه[٣] أو لعلَّه أن يعضَّه فيَهْرِتَ ثوبَه ، وألحّ عليه فلم ينله بسوء[٤] . فلمَّا جُزْنا حدَّه وتخلَّصنا منه ، قال إبراهيم فى كلامٍ له كثير ، يعدِّد خصالَه المذمومة ، فكان آخر كلامه أن قال : إن كنت سَبُعْ فاذهبْ مع السِّباع ، وعليك بالبرارِى والغِياض ، وإن كنت بَهيمة فاسكتْ عنَّا سكوت البهائم !

---

(١) ط : « أن يبدأه » .
(٢) يضربه : يغريه . وفى الأصل « ويضربه » .
(٣) فى ط « يشر عليه ببوله » وهو تحريف .
(٤) ل : « أن يأكله فهرت ثوبه وألح عليه ولم يرد سواه » .

ولاتنكر قولى وحكايتى عنه بقولٍ ملحون . من قولى « إن كنت سَبْع » ولم أقل « إن كنت سبعاً » ! .

(إفساد الإعراب لنوادر المولدين)

وأنا أقول : إنّ الإعرابَ يفسد نوادر المولَّدِين ، كما أنّ اللحنَ يُفْسِد كلام الأعراب[1] ؛ لأنّ سامعَ ذلك الكلام إنّما أعجبْته تلك الصورة[2] وذلك المخرَج ، وتلك اللغة وتلك العادة ؛ فإذا دَخَلْتَ على هذا الأمر — الذى إنما أضحك بسُخْفِه وبعضِ كلام العجميَّة التى فيه[3] — حروفَ الإعراب والتحقيق والتثقيل[4] وحوّلتَه إلى صورةِ ألفاظ الأعراب الفصحاء ، وأهلِ المروءة والنجابة[5] انقلب المعنى مع انقلاب نظْمِه ، وتبدَّلَتْ صورته .

١٣٧ ثم قال أبو إسحاق : إنْ أطعَمه اللصُّ بالنهار كسرةَ خُبْزٍ خلاّه ، ودارَ حولَه ليلا . فهو فى هذا الوجه مرتشٍ وآكلُ سُحت ؛ وهو مع ذلك أسمجُ الخلْقِ صوتاً ، وأحمق الخلق يقَظَةً ونوما ، ينام النّهارَ كله على نفس الجادَّة ، وعلى مدقِّ الحوافر ، وفى كل سوقٍ وملتقَى طريق ، وعلى سبيل الحَمُولة[6] وقد سهر الليلَ كله بالصياح والصَّخَب ، والنَّصَب والتَّعب ، والغيظ والغضب ، وبالمجىء والذَّهاب ، فيركبه من حبِّ النوم

(١) ل : « يفسد كلام المولدين كما أن اللحن يفسد نوادر كلام الأعراب » .
(٢) ل : « أضحكته » بدل « أعجبته » .
(٣) ط : « فيها » والوجه مافى ل .
(٤) ط : « والتخفيف والتثقيل » والوجه مافى ل :
(٥) ل : « والثخانة » .
(٦) الحمولة بالفتح : ما احتمل عليه القوم من بعير وحمار ونحوه . وفى الأصل : « الحمولة » بالحاء مصحفة .

على حسب حاجته إليه ، فإن وطئته دابّةٌ فأسوأُ الخَلْق جزَعاً وألأمه لؤما ، وأكثره نُباحا وعُواء ، فإن سلم ولم تَطَأْهُ دابّةٌ ولا وطئه إنسان ، فليست تتمُّ له السلامة ؛ لأنّه فى حالِ متوقّعٍ للبليّةِ . ومتوقّعُ البليّةِ فى بَليّةٍ . فإنْ لم يسلم فليس على ظهرها مبتلى أسوأُ حالاً منه ؛ لأنّه أسوَؤهم جزَعاً وأقلُّهم صبرا ، ولأنّه الجانى ذلك على نفسه ، وقد كانت الطُّرق الخالية له معرّضة ، وأصول الحيطان له مباحة .

وبعد فإنّ كلّ خلقٍ فارقَ أخلاقَ الناس فإنّه مذموم . والناس ينامون بالليل الذى جعله الله تعالى سكَنا ، وينتشرونَ بالنّهار الذى جعله الله تعالى لحاجات الناس[1] مَسْرحا .

قال صاحب الكلب : لوشئنا أن نقول : إنّ سهره بالليل ونومَه بالنهار خصْلَةٌ ملوكيّة لقلنا ، ولو كان خلافُ ذلك ألذّ لكانت الملوك بذلك أولى . وأمّا الذى أشرتمْ به من النوم فى الطرق الخالية ، وعبتُموه به من نومه على شارعاتِ الطُّرق والسِّككِ العامرة[2] وفى الأسواق الجامعة ، فكلُّ امرئ أعلم [بِشَأْنِهِ]. ولولا أنّ الكلبَ يعلمُ مايَلقَى من الأحداث والسُّفهاء وصِبيان الكتّاب ، من رضِّ عظامِه بألواحهم إذا وجدوه نائماً فى طريق خالٍ ليس بحضرته رجالٌ يُهابون[3] ، ومشيخةٍ يرحمون ويزجرون السفهاء ، وأنّ ذلك لايعتريه فى مجامع الأسواق — لقلّ خلافه عليك ، ولما رقد فى الأسواق . وعلى أنّ هذا الخُلُق إنّما يعترى كلاب الحُرّاس ، وهى

---

(١) ل : « النفوس » .

(٢) شرع المنزل : صار على طريق نافذ . وفى ل : « على مربعات السكك العامرة »

(٣) فى الأصل « فى طريق ليس خال بحضرته .. الخ » وكلمة « خال » مزحزحة عن موضعها ،

التى فى الأسواق مأواها ومنازلها . وبعد فمن أخطأ وأظلمُ ممَّن يكلِّف السباعَ أخلاقَ الناس وعاداتِ البهائم !! وقد علمْنا أنّ سباعَ الأرض عن آخرها إنَّما تَهيج وتَسرح وتلتمس المعيشةَ وتتلاقى على السفاد والمِطال ليلاً؛ لأنها تبصر بالليل .

(سبب اختيار الليل للنوم)

وإنما نام الناسُ بالليل عن حوائجِهم ، لأنَّ التمييز والتفصيل والتبيُّن(١) لايمكنهم إلاّ نهارا ، وليس للمتعَب المتحرِّك بدٌّ من سكون يكون جِماماً له . ولولا صرفُهم(٢) التمـاسَ الجِمام إلى الوقت الذى لولم يناموا فيه والوقتُ مانع
١٣٨ من التمييز والتبيُّن(٣) ، لـكانت الطبائعُ تنتقض . فجعلوا النَّوم باللـيـل لضربين : أحدهما لأنّ الليلَ إذ كان من طبعه البرد والرُّكود والخُثورة ، كان ذلك أنزَعَ إلى النوم وما دعا إليه ، لأنَّه من شكله . و [أمّا](٤) الوجه الآخر فلأنّ الليلَ موحِشٌ مَخُوف الجوانب من الهوامّ والسباع ، ولأنّ الأشياء المبتاعةَ والحاجات إلى تمييز الدنانير ، والدراهم ، والحبوب ، والبزور ، والجواهر ، وأخلاط العطر، والبَزّ نهارا(٥) ومالا يحصى عــدده . فقادتهم طبائعُهم وساقتهم غرائزهم إلي وضعِ النوم فى موضعه ، والانتشار

---

(١) ط : « والتفضيل والتبيين » والوجه ماقى ل .
(٢) ل : « فصرفهم » .
(٣) ط : « التبين » .
(٤) زيادة يفتقر إليها الـكلام .
(٥) ل : « والبر بهار » وهو تحريف . وفى العبارة نقص

والتصرف[1] فى موضعه على ماقدَّر الله تعالى من ذلك وأحبَّه . وأمَّا السباع فإنها تتصرَّف وتبصر بالليل ، ولها أيضاً عللٌ أخرى يطول ذكرُها .

(نوم الملوك)

وأمَّا ماذكرتموه من نوم الملوك بالنَّهار وسهرهم بالليل، فإنَّ[2] الملوكَ لم تجهل فضلَ النوم بالليل والحركةِ بالنهار ، ولكنَّ الملوك لكثرة أشغالها فضلت حوائجها عن[3] مقدار النهار ولم يتَّسع لها ، فلما استعانت بالليل ولم يكن لها بدٌّ من الخلوة بالتدبير المكتوم والسرِّ المخزون ، وجمعت المقدارَ الفاضلَ عن اتِّساع النهار إلى المقدار الذى لابدَّ للخلوة بالأسرار منه ؛ أخذتْ من الليل صدراً صالحاً . فلمَّا طال ذلك عليها أعانها المِران[4] ، وخفَّ ذلك عليها بالدُّربة .

وناسٌ منهم ذهبوا إلى التناول من الشراب وَإلى أن سَماع الصوت الحسن مما يزيد فى المُنَّة، ويكون مادَّةً للقوة . وعلموا أنَّ العوامَّ إذا كانت لاتتناول الشَّرابَ ولا تتكلَّف السماع على هذا المعنى ، أن ظنَّها سيسوء[5] ، وقولَها سيكثُر ؛ فرأوا أنَّ الليل أسترُ وأجدرُ أن يتمَّ به التدبير[6] وقال الراجز :

* أَللَّيلُ أخفَى والنَّهارُ أفضَحُ *

وقالوا فى المثل : « أَلليل أخفى للويل »[7] .

---

(١) ط « والانتشار بالتصرف » وهو تحريف .
(٢) فى الأصل « وإن » والوجه ماأثبت .
(٣) ط : « على » موضع « عن » .
(٤) ط : « المرات » وهو تحريف .
(٥) ط : « متيسر » وهو تحريف ماف ل .
(٦) ط : « به باقى التدبير » .
(٧) ط : « أنقى للويل » . وانظر أمثال الميدانى(٢ : ١٢٧)

(تلهى المحزون بالسماع)

ومازالت ملوكُ العجم تلهّى المحزون بالسماع ، وتعلّل المريض ، وتَشغله عن التفكير ، حتّى أخذت ذلك ملوكُ العرب عن ملوك العجم . ولذلك قال ابن عَسَلة الشيبانى[1] .

وسماع مُدْجنةٍ تعلِّلُنَا حتَّى نَنَامَ تناوُمَ العُجْمِ
فصحوتُ والنَّمَرِىُّ يحسَبُها عَمَّ السِّماكِ وخالةَ النَّجْمِ

النجم : واحد وجمع ، وإنّما يعنى فى البيت الثريّا . ومدجنة : يعنى سحابةً دائمة .

(قول أم تأبط شرا فى ولدها)

وفيما يحكى عن امرأةٍ من عقلاء نساء العرب ـ وإذا كان نساء العرب
١٣٩ فى الجملة أعقلَ من رجال العجَم ، فما ظنُّكَ بالمرأةِ منهم إذا كانت مقدَّمة فيهم[2] ـ فروَوا جميعاً أنّ أمّ تأبّط شرًّا قالت: والله ما وَلَدْتُه يَتْنًا، ولاسقَيته غَيْلاً ولا أبتُّه على مَأْقة .. فأمّا اليتن فخروج رِجل المولود قبلَ رأسه ، وذلك علامة سوءٍ ، ودليلٌ على الفساد . وأما سَقى الغَيْل ، فارتضاع لبن الحبلى ، وذلك فسادٌ شديد .

---

(١) سبق هذا الشعر ص ٢١١ كما سبقت ترجمة ابن عسلة .
(٢) ل : « عندهم » .

(ماينبغى للأم فى سياسة رضيعها حين بكائه)

وأما قولها فى المـأقة ، فإنَّ الصبيَّ يبكى بكاءً شديداً متعباً موجعًا ، فإذا كانت الأمُّ جاهلةً حرّكته فى المهد حركةً تورثه الدُّوار ، أو نوّمته بأن تضرب يدَها على جنبه . ومتى نام الصبيُّ وتلك الفزْعةُ أو اللَّوعة أو المكروه قائمٌ فى جوفه ، ولم يعلَّلْ ببعضِ مايلهيه ويُضحكه ويسرُّه ، حتى يكون نومه على سرورٍ ، فيسْرِى فيه ويعمَل فى طباعه ، ولايكون نومه على فزعٍ أو غيظ أو غمٍّ ؛ فإنَّ ذلك ممَّا يعمل فى الفساد . والأمُّ الجاهلةُ والمرقِّصةَ الخرقاء ، إذا لم تعرف فرقَ مابين هاتين الحالتين ، كثُر منها ذلك الفساد ، وترادَفَ ، وأعان الثانى الأوّلَ والثالثُ الثانىَ حتَّى يخرجَ الصبيُّ مائقا. وفى المثل «صاحبى مَئِق وأنا تئق» يضرب هذا المثل للمسافر الأحمق الرّفيق والزّميل ، وقد استفزغه الضَّجر لطول السفر[1] فقلبهُ ملآن ، فأوّلُ شيء يكون فى ذلك المئق من المكروه لم يحتمله[2] بل يَفيض ضجره عليه ، لامتلائه من طول ماقاسى من مكروه السفر .

(مايحتاج إليه الملوك)

فاحتاج حُذَّاق الملوكِ وأصحابُ العنايات التامّةِ ، أن يداووا أنفسَهم بالسماع الحسن ، ويشدُّوا من متْنِهم بالشراب ، الذى إذا وقعَ فى الجَوف حرّكَ الدّم ، وإذا حرك الدّم حرّكَ طباعَ السرور ، ثمَّ لايزالُ زائداً فى

---

(١) ل : « بطول السفر »
(٢) ط : « ولم يحتمله » والواو مقحمة .

مِكيال الدم ، زائداً فى الحركة المولِّدة للسرور . هذه صفةُ الملوك . وعليه بنَوا أمرَهم ، جهل ذلك مَنْ جهله ، وعَلِمه من علمه .

وقال صاحب الـكلب : أمّا تركه الاعتراضَ على اللّصّ الذى أطعمه أيّامًا وأحسنَ إليه مِراراً ، فإنّمـا وجب عليه حفظُ أهلِه لإحسانهم إليه ، وتعاهدهم [١] له. فإذا كان عهده ببرّ اللص أحدَثَ من عهده ببرّ أهله [٢] ، لم يكلّف الـكلبُ النظرَ فى العواقب ، وموازنةَ الأمور . [٣] والذى أضمر اللصُّ من البَيات غَيْبٌ قد سُتِر عنه ؛ وهو لايدرى أجاء ليأخذَ أم جاء ليعطى ، أوهم أمروه أو هو المتكلِّف لذلك ؛ ولعلَّ أهله أيضاً [أن] يكونوا قد استحقُّوا ذلك منه بالضَّرب والإجاعة ، وبالسبِّ والإهانة .

وأمّا سماجة الصَّوت فالبغل أسمجُ صوتاً منه ، كذلك الطاووس على
١٤٠ أنّهم يتشاءمون به . وليس الصَّوت الحسنُ إلاّ لأصناف الحمـام من القَماريّ والدَّباسىّ ، وأصناف الشفانين [٤] والوراشين . فأمّا الأسد والذئب ، وابن آوى والخنزير ، وجميعُ الطيرِ والسباع والبهائم فكذلك . وإنّمـا لك أن تذمَّ الـكلبَ فى الشىء الذى لايعمّ . والناس يقولون : ليس فى الناس شىءٌ أقلُّ من ثلاثةِ أصناف : البيان الحسن ، والصوت الحسن ، والصورة الحسنة ؛ ثمّ النَّاس بعدُ مختلِطون ممتزجون . وربّمـا كان مِنَ الناسِ بل كثيراً ماتجدُه وصوته أقبحُ من صوت الـكلب ، فلم تخصُّون الـكلبَ بشىءٍ عامّةُ الخلقِ فيه أسوأ حالاً من الـكلب ؟!

وأما عُواؤه مِن وَطْء الدَّابّة وسوء جزَعه من ضرب الصِّبيان ، فجزعُ

---

(١) ل : « وتعهدهم له » وهما بمعنى .
(٢) ط : « فإذا كان عهده بين اللص وبينه أحـدث من عهده بينه وبين أهله » وأثبت مافى ل مع إبدال « بينه وبين » بكلمة « ببر » .
(٣) ط : « وموازنة الأمور » .
(٤) ط « الشفانين » وهو تحريف سبق التنبيه عليه ص ١٩٤ .

الفرَس من وقْع عذَبة السَّوط ، أسوأ من جزَعه من وقع حافر بِرذون . وهو فى هذا الموضع للفرس أشدُّ[1] مناسبةً منه للحمار . على أنَّ الدِّيكَ لايُذ كَر بصبرٍ ولا جزَع .

(نوادر ديسيموس اليونانى)

قال صاحب الديك : حدَّثنى العُتْبى[2] قال : كان فى اليونانيِّين ممرورٌ له نوادرُ عجيبة ، وكان يسمَّى ديسيموس[3] ، قال : والحكماء يروون له أكثرَ من ثمانين نادرة [ما منها] إلاَّ وهى غُرَّةٌ وعينٌ من عُيون النوادر : فمنها أنَّه كان كلَّما خرجَ من بيته مع الفجر إلى شاطىء الفرات للغائط والطهور ، ألقَى فى أصل باب دارِه وفى دُوَّارته حجرًا ، كى لاينصفق الباب ، فيحتاج إلى معالجة فتحه ، وإلى دفعه[4] كلَّما رجَع من حاجته ، فكان كلَّما رجع[5] لم يجد الحجرَ فى موضعه ، ووجد البابَ منصفقاً . فكَمَن له فى بعضِ الأيَّام[6] ليرى هذا الذى يصنع[7] مايصنع . فبينا هو فى انتظاره إذْ أقبل رجلٌ حتَّى تناوَلَ الحجر ، فلمَّا نحَّاه عن مكانه انصفق

(١) ل : « إلى الفرس » وفى الأصل « أشد منه » . وكلمة « منه » مقحمة .

(٢) ل : « القيني » وهو تحريف . وقد سبقت ترجمة العتبي ص ٥٤

(٣) كتابة هذا العلم بالدال هى الصواب كما فى ل ورسائل الجاحظ ١٤٣ . وهو علم يونانى متداول وحرّف بالراء فى ط والبخلاء ٦٥٨ ، والبيان ٢ : ١٦٤ .

(٤) ط : « رفعه » والوجه مافى ل .

(٥) ل : « إذا رجع » .

(٦) ط : « فى بعض الأمكنة فى بعض الأيام » .

(٧) ط : « الباب يصنع » وهو تحريف .

البابُ ، فقال له : مالكَ ولهذا الحجر ؟ ومالك تأخذه ؟ فقال : لم أعلمْ أنَّه لك . قال : فقد علمتَ أنَّه ليس لك ؟!

قال : وقال بعضهم : ما بال ديسيموس يعلِّم الناسَ الشِّعرَ ولا يقول الشعر ؟ قال : ديسيموس كالمِسَنِّ الذى يشحَذ ولا يقطع

ورآه رجلٌ يأكل فى السُّوق فقال: أتأكل فى السوق ؟ فقال : إذا جاع ديسيموس فى السُّوق أكلَ من السوق .

قال : وأسمعه رجلٌ كلاما غليظا وسطاً عليه ، وفحش فى القول، وتحلَّم عنه فلم يجبه ، فقيل له : مامنعك من مكافأته وهو لك مُعرِض؟ قال : أرأيتَ لو رمَحك حِمارٌ أكنتَ ترمحُه ؟ قال : لا. قال : فإن ينبح عليك كلب تنبح[1] عليه ؟ قال : لا ، قال : فإنَّ السفيهَ إمّا أن يكونَ حماراً ، وإما أن يكون

١٤١ كلبا ؛ لأنَّه لايخلو من شَرارةٍ تكون فيه أو جهل ، وما أكثر مايجتمعان فيه[2] .

(أمثال أخرى فى الكلب)

وقال صاحب الديك : يقال للسفيه إنَّما هو كلب ، وإنَّما أنتَ كلبٌ نبّاح ، وما زالَ ينبَح علينا منذُ اليوم ، وكلبُ مَن هذا ؟ ويا كلب ابن الكلب ، وأخسأْ كلباً .[3]

وقالوا فى المثل : « احتاج إلى الصُّوف مَنْ جزَّ كلبَه » و «أجِعْ كلبَك يتبَعْك » و « أحبُّ شىء إلى الكلبِ خانقُه » و « سمِّن كلبَك يأكلْك »

---

(١) ل : « فإن نبح عليك الكلب » إلخ . . .

(٢) ط : « من يجتمعان فيه » والوجه ما فى ل .

(٣) ل : « ويا كلب ابن الكلبة واخس كلبا » .

و « أجوَعُ من كَلْبة حَومَل » و « كالكلب يربِض فى الأرِىِّ فلا هو يأكل ولا يدَعُ الدابَّة تعتلف » .

(براقش)

وفى أمثالهم فى الشؤم : « على أهلها دلّت بَراقِشُ » . وبَراقش : كلبة نبحتْ على جيشٍ مرُّوا فى جوف الليل وهم لا يشعُرون بموضع الحىِّ ، فاستدلُّوا عليهم بنُباح الكلبة فاستباحوهم .

(الجن والحن)

وقال صاحب الدِّيك : روى إسماعيلُ المكىّ عن أبى عَطاء العُطارِدى قال : سمعت ابن عبَّاس يقول : السُّود من الكلاب الجِنّ ، والبُقْع منها الحِنّ . ويقال إنَّ الحنَّ ضَعفة الجنّ . كما أنَّ الجنّىَّ إذا كفر وظَلَم وتعدَّى وأفسد ، قيل شيطان ؛ وإن قوى على البنيان والحمل الثقيل ، وعلى استراق السمع قيل مارد ، فإنْ زاد فهو عِفريت ، فإن زاد فهو عبقرىّ . كما أنَّ الرجلَ إذا قاتل فى الحرب وأقدم ولم يحجم فهو الشجاع [1] ، فإن زاد فهو البطل ، فإن زاد قالوا : بُهْمة ، فإن زاد قالوا : أَلْيَسَ [2] ، فهذا قول أبى عبيدة .

وبعض النَّاس يزعم أنَّ الحنّ والجنَّ صِنفان مختلفان ، وذهبوا إلى قول الأعرابى حينَ أتى بعضَ أبواب الملوك ليكتتَب فى الزَّمْنى ، فقال فى ذلك :

إن تكتبُوا الزَّمْنَى فإنِّى لَزَمِنْ   مِن ظاهر الدَّاء وداء مُسْتَكِنّْ

(١) ل : « ولم يخم .. » وهما بمعنى .
(٢) الأليس من الليس بمعنى الشجاعة . وفى ط : « ليث » وهو تحريف .

أبيتُ أهوى فى شياطينَ تُرِنُّ   مختلفٍ نجارُهم جِنٌّ وجِنّْ .

(ماورد من الحديث والخبر فى قتل الكلاب)

وعن أبى عنبسة[1] عن أبى الزبير عن جابر :[2] قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب ، حتى أن المرأة لتقدم بكلبها من البادية فنقتله ، ثم نهانا عن قتلها وقال : عليكم بالأسود البهيم ذى النكتتين على عينيه فإنه شيطان . وعن أبى الزبير عن جابر قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب ، فكنا نقتلها كلهاحتى قال : إنها أمة من الأمم ، فاقتلوا البهيم الأسود ذا النكتتين على عينيه فإنه شيطان . وعبدالله وأبو بكر
١٤٢ أنبأنا نافع[3] عن ابن عمر ، ونافع عن أبى رافع قال : أمرَنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنْ أقتلَ الكلاب ، فكُنَّا نقتلُها ، فانتهيت إلى ظاهر بنى عامر ، و إذا عجوزٌ مسكينة معها كلب وليس قربها إنسان[4] فقالت : ارجعْ إلى النبىِّ صلى الله عليه وسلم فأخبِرْه أنَّ هذا الكلبَ يُؤنِسنى ، وليس قربى أحد . فرجع إليه فأخبره ، فأمر أن يقتَل كلبها فقتله . وقال فى حديث آخر[5] : إنَّه لمَّا فرَغ من قتل كلاب المدينة وقتلِ كلْب المرأة قال : الآنَ استرحْت . قالوا : فقد صحَّ الخبرُ عن قتل جميع الكلاب ، ثمَّ صحَّ الخبر بنسخ بعضه وقتل الأسود البهيم منها ، مع الخبر بأنَّها من الجنّ والحِنّ ، وأنَّ أمّتين مُسِختا ، وهما الحيَّات والكلاب .

---

(١) ل : « ويحيى بن أبى أنيسة » .
(٢) فى ل بعد هذا زيادة : « لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها فاقتلوا منها كل أسود بهيم . وعن أبى الزبير عن جابر » كما أن الحديث الآتى فى ل روى بعد الذى يليه هنا .
(٣) ل : « ابنا نافع » .
(٤) ط : « يقربها إنسان » .
(٥) ل : « قال وفى حديث » .

ثم روى الأشعث عن الحسن قال : ماخطَب عثمانُ خُطبةً إلاَّ أمرَ بقتْل الكلاب وذبح الحمام .

وعن الحسن قال : سمعت عثمانَ بنَ عفّان يقول : اقتلوا الكلابَ واذبحوا الحمام .

قال : وقال عطاء : فى قتل كلب الصيد إذا كان صائداً أربعُون درهما ، وفى كلب الزرع شاة .

(ماورد من الحديث والخبر فى دية الكلب)

والحسن بن عمارة عن يعلى بن عطاء عن إسماعيل بن حسان عن عبد الله بن عمر [1] قال : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كلب الصَّيدِ بأربعين درهما ، وفى كلب الغنم بشاة ، وفى كلب الزرع بفرَق من طعام [2] ، وفى كلب الدار بفرَق من تراب ، حُقَّ على القاتل أن يؤدِّيه ، وحُقَّ على صاحب الدار أن يقبِضه .

قالوا : والتراب لايكون عقلا إذا كان فى مقدار الفرَق .

وفى قوله : وحُقَّ على صاحب الدار أن يقبضه ، دليلٌ على أنَّه عقوبة على اتِّخاذه [3] وأن ذلك على التصغير لأمر الكلب وتحقيره ، [و] على وجه الإرغام لمالكه . ولوكان عوضاً أو ثوابا أو كان فى طريق الأموال المحروص عليها لما أُكْرِه على قبضه أحد ، ولكان العفو أفضل .

---

(١) فى الأصل : « حسان بن عبد الله بن عمر » .

(٢) الفرق بالتحريك : مكيال يقال إنه يسع ستة عشر رطلا . المصباح . وفى ل « من الزرع » .

(٣) ط « على النهى عن اتخاذه » وتصحيحه من ل .

(ماورد من الحديث والخبر فى شأن الكلب)

قال : وسئل عن الكلب يكون فى الدار وفى الدار مَن هو له كاره .

ابن أبى عروبة عن قَتادة عن أبى الحكم : أنّ ابنَ عمر سئل عن ذلك فقال : المأثَمُ على ربِّ الدّار الذى يملكها .

وعن ابن عُمر قال : من اتخذ كلباً ليس بكلب زَرْع ولا ضَرْع ولا صَيد نَقَص من أجره كلَّ يوم قيراط . فقال رجل : فإن اتخذه رجلٌ وهو كاره ؟ قال : إنَّما إثمه على صاحب الدار .

وصدقة بن طَيْسَلة[1] المازنيّ قال : سألت الحسن قلت : إنَّ دورَنا فى الجبّان[2] وهى مُعْوِرة وليس عليها أبواب ، أفترى أن نتَّخذ فيها كلابا ؟ قال : لا لا .

١٤٣ وعن ابن أبى شيبة[3] عن سالم عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من اقتَنَى كلباً إلاَّ كلب صيدٍ أو كلب ماشية ، نقَص من أجره كلَّ يوم قيراطان » .

وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم « من اقتنى كلبا[4] فإنّه ينقُص من عمله كلَّ يوم قيراط » .

ويونس عن أبيه عن إسحاق[5] قال حدثنا هُنَيدَةُ بن خالد[6] الخزاعى قال : انطلقت مع نفرٍ من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، نعودُ رجلاً من

---

(١) ط : « طيلسة » وأثبت ما فى ل .
(٢) الجبان والجبانة : المقبرة والصحراء . وفى ط « الجنان » وهو تحريف .
(٣) ل : «وابن أبى أنيسة » .
(٤) ل : « من أمسك كلبا » .
(٥) ل « ويونس بن أبى إسحاق » .
(٦) ط : « هنيرة » وهو تحريف صوابه فى ل والإصابة . ١ . ٩

الأنصار ، فلمّا انتهوا إلى باب الدار ثارت أكلُبٌ في وجوه القوم ، فقال بعضهم لبعض : مايُبقِى هؤلاء من عمل فلانٍ شيئا ، كلُّ كلبٍ منها ينقُص قيراطاً في كل يوم .

هشام بن حسان عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من اتخذ كلباً ليسَ بكلبِ صيدٍ ولا زرْع ولا ضَرْع ، فإنه ينقُص من أجره كلَّ يوم قيراطٌ ، والقيراطُ [1] مثلُ جبل أحدٍ » .

يونس عن أبي إسحاق [2] عن مجاهد [3] قال : أقبل عبد الله بن عمرو بن العاص حتّى نزل ناحية مكّة ، وكانت امرأةٌ عمٌّ له تهاديه ، فلما كانت ذاتَ يوم قالت له : لو أرسلتَ إليَّ الغنمَ فاستأنستُ برعائها وكلابها فقد نزلتُ قاصية ! فقال : لولا كلابُها لفعلتُ ؛ إنَّ الملائكةَ لاتدخلُ داراً فيها كلب .

الثوريُّ عن سماك بن حرب ، أنَّ ابنَ عباس قال على منبر البصرة : إنَّ الكلاب من الجن [4] وإنَّ الحِنَّ من ضَعَفة الجن ، فإذا غشيكم منها شيء فألقُوا إليها شيئاً أو اطردوه [5] ، فإنَّ لها أنفُس سوء .

وهُشيم عن المغيرة عن إبرهيم قالوا : لم يكونوا ينهَوننا عن شيء من اللعب ونحنُ غلمان [6] إلاَّ الكلاب .

قال صاحب الديك : روى إبرهيم بن أبي يحيي الأسلميّ ، عن محمّد بن المنكدر ، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال : تقامر رجُلان على عهدِ

---

(١) ل : « وقيراط » .
(٢) ل : « يونس بن أبي إسحاق » .
(٣) ل : « عن أبيه عن مجاهد » .
(٤) ط : « الجن » بالجيم ، والصواب بالحاء كافى ل .
(٥) كذا جاء فى الأصل بتغاير الضميرين .
(٦) ط : « وعن غلمان » وليس بشيء وانظر الجزء الثاني ص ١٠٦ .

عُمر بديكين ، فأمر عمر بالديكة أنْ تُقْتَل (١) فأتاه رجلٌ من الأنصار فقال : أمرتَ بقتل أمّةٍ من الأمم تسبّح الله تعالى ؟ ! فأمر بتركها .

وعن قَتادة أنّ أبا موسى قال : لاتتّخذوا الدَّجاج فى الدُّور فتكونوا أهل قرية ، وقد سمعتم ماقال الله تعالى فى أهل القرى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ . وهذا عندى من أبى موسى ليس على مايظنُّه الناس ، لأنّ تأويلَه هذا ليس على وجه ، ولكنّه كره للفُرسان ورجالِ الحرب (٢) اتّخاذَ مايتّخذه الفلّاح وأصحابُ التعيُّش ، مع حاجته يومئذ إلى تفرُّغِهم لحروب العجم ، وأخْذهم فى تأهُّب الفُرسان وفى دُرْبة رجال الحرب . فإن كان ذهب إلى الذى يظهرُ فى اللفظ فهذا تأويلٌ مرغوب عنه .

١٤٤ وقال صاحب الكلب لصاحب الديك : فقد أمر عُمَر بقتل الدّيَكة ولم يستثنِ منها شيئاً دون شىء ، ونهى أبو موسى عن اتّخاذ الدجاج ولم يستثن منها شيئاً دون شىء ، والدِّيكةُ تدخل فى هذا الاسم ، واسم الدَّجاج يجمعها جميعا . ورويتم فى قتل الحمام مثلَ روايتكم فى قتل الكلاب ، ولم أركم رويتم أنَّ الحمام مِسْخ ، ولا أنَّ بعضَه من الجن و بعضه من الحِن ، ولا أنَّ أمتين مسختا وكان أحدها الحمام . وزعمتم أنَّ عمر إنَّما (٣) أمر بقتل الدّيَكة حين كره الهِراش بها والقِمار بها . فلعلَّ كلابَ المدينة فى تلك الأيَّام كثُر فيها العَقُور (٤) وأكثر أهلُها من الهِراش بها والقمار فيها . وقد علمتم أنّ ولاة المدينة ربّما دَمَرُوا على صاحب الحمام (٥) إذا خيف قِبَلَه

---

(١) ط : « تقل » وهو تحريف .
(٢) ل : « والرجال » .
(٣) فى الأصل « لما » والوجه ما كتبت .
(٤) ل : « العقر » وهو جمع عقور .
(٥) دمروا عليه : دخلوا عليه وهجموا فجأة .

القِمار (١) وظنُّوا أنه الشَّرَف . (٢) وذكروا عنه الرَّمْىَ بالبُندق وخديعةَ أولادهم بالفراخ . فما بالكم لم تُخرِّجوا للكلاب من التأويل والعذْر، مثلَ الذى خرَّجتم للحمام والديكة .

(المسخ من الحيوان)

ورويتم فى الجِرِّىّ (٣) والضِّباب أنهما كانتا أمَّتين مُسختا . وروى بعضهم فى الإِرْبيانة أنَّها كانت خيَّاطة تسرِق السُّلوك، وأنَّها مُسِخت وتُرِك عليها بعضُ خيوطها لتكون علامةً لها ودليلا على جِنْس سرقتها، ورويتم فى الفأرة أنَّها كانت طحّانة، وفى سهيل أنّه كان عشَّارًا باليمن (٤) وفى الحيَّة أنَّها كانت فى صورة جَمَل، وأنَّ الله تعالى عاقبها حتى لاطَها بالأرض، وقسم عقابَها على عشرة أقسام، حين احتملت دخولَ إبليس فى جوفها حتَّى وَسوَس إلى آدم مِنْ فِيها . وقلتم فى الوَزَغة وفى الحكَأة (٥) ماقلتم . وزعمتم أنَّ الإبل خُلِقَت من أعنان الشياطين (٦)، وتأوّلتم فى ذلك أقبحَ التأويل . وزعمتم أنَّ الكلابَ أمّةٌ من الجنّ مُسخت . والذئبُ أحقُّ بأن يكون شيطاناً من الكلب، لأنَّه وحشىٌّ وصاحبُ قِفار، وبه يُضرَب

---

(١) ط : « من قبل القمار » والصواب مافى ل .

(٢) الشرف : الإشفاء على خطر من خير أو شر . وفى ل « به التشرف » وفى ط « أنه السرف » .

(٣) الجرّىّ : ضرب من السمك . وفى ط « الجدى » وهو تحريف .

(٤) العشار : من يأخذ العشر .

(٥) الحكأة : عظاءة مخططة بخمس خطوط سود تعرف فى مصر بالسحلية الخضارى معجم المعلوف ١٥٥ ... وفى ط : « الحدأة » وهو تحريف .

(٦) الأعنان : النواحى والجوانب . وفى الأصل « أعناق » وهو تصحيف نبهت عليه ص ١٥٢ وانظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ١٦٣ .

المثل فى التعدّى ، والـكلب ألوفٌ وصاحبُ دِيار ، وبه يُضرَبُ المثل . والذئب ختُور غدّار ، والـكلب وفيٌّ مناصح . وقد أقام الناسُ فى الدِّيار الـكلابَ مُقامَ السَّنانير للفأر[1] . والذئب مضرّةٌ كلُّه ، والكلبُ منافعُه فاضلةٌ على مضارِّه بل هى غالبةٌ عليها وغامرةٌ لهـا ، وهذه صفةُ جميعِ هذه الأشياء النافعة .

والناس لم يُطبِقوا على اتّخاذها عبثاً ولا جهْلا ، والقضاة والفقهاء والعُبّاد والوُلاة والنُّسّاك ، الذين يأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر ، والمحتَسِبة وأصحاب التكلُّف والتسليم جميعاً ، لم يطبقوا على ترك النَّـكير على[2]

١٤٥ مايشاهدونه منها فى دورِ مَنْ لايعصيهم ولا يمتنِـع عليهم إلاّ وقد علِموا أنّه قدْ كان لقتلِ الـكلابِ بأعيانها فى ذلك الدّهر ، معنى . وإلاّ فالنَّاسُ فى جميع أقطارِ الأرض لايُجمِعون على مسالمةِ أصحاب المعاصي ، الذين قد خلعوا عُذُرَهم وأبرزوا صَفحتَهم[3] . بل ماترى خصماً يطعن على شاهدٍ عندَ قاض بأنَّ فى داره كلباً ، ولا ترى حَـكَما يردُّ بذلك شهادة . بل لو كان اتّخاذُ الـكلاب مأموراً به ، لَمـا كان إلاّ كذلك .

ولو أنّـكم حملتم حكم جميع الهَداهد على حكم هدهد سليمان ، وجميعَ الغربان على حكم غُراب نوح ، وجميعَ الحمام على حكم حمامة السفينة[4] ، وجميعَ الذئاب على حكم ذئب أُهبان بن أوس ، وجميعَ الحميرِ على حكم حمار عُزَير لـكان ذلك حكماً مردودا .

---

(١) ل : « من الفأر » .

(٢) فى الأصل « وعلى » والواو مقحمة .

(٣) ط : « مجتهم » وهو تحريف .

(٤) فى الأصل « حمام السفينة » وهو تحريف . انظر الحيوان ٢ : ١١٧ والثمار ٣٦٧ .

(مالا يحدث إلا فى دهر الأنبياء ونزول الوحى)

وقد تعرض لخصائص الأمور أسبابٌ فى دهر الأنبياء ونزول الوحى، لا يعرض مثلُها فى غير زمانهم: قد كان جبريل عليه السلام يمشى فى الأرض على صورة دِحية الكلبىّ، وكان إبليس يتراءى فى السكك[1] فى صورة سُراقة المُدْلجى، وظهر فى صورة الشيخ النَّجْدى. ومثل هذا كثير.

(مايسمى شيطانا وليس به)

فإن زعمتم أنّ النبى صلى الله عليه وسلم نظر إلى رجل يتبع حمامًا طيّارا فقال: « شيطانٌ يتبع شيطانًا » فخبِّرونا عمن يتخذ الحمام[2] من بين جميع سكان الآفاق ونازلةِ البُلدان من الحرميِّين والبصريِّين[3] ومن بنى هاشم إلى من دونَهم، أتزعمون أنّهم شياطينُ على الحقيقة، وأنّهم من نجل الشياطين؛ أو تزعمون أنّهم كانوا إنساً فُسِخوا بعدُ جِنًّا؛ أم يكون قوله لذلك الرجل شيطان، على مثل قوله ﴿ شَيَاطِينَ الجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ وعلى قول عمر: لأَنْزَعَنَّ شيطانَه من ثُغْرَتِه[4]، وعلى قول منظور بن رواحة[5]:

فلما أتانى ماتقول تَرَقَّصَتْ   شياطينُ رأسِى وانتَشَيْنَ من الخَمْرِ

---

(١) ل: « يتخرق السكك »:

(٢) ط « يتبع الحمام ».

(٣) ل: « الحرمين والمصرين ».

(٤) الثغرة: ثغرة النحر فوق الصدر، وفى ط: « نعرته » وهو تصحيف. وفى ل « نحرته ».

(٥) ط: « منصور بن رواحة» وانظر ص ٣٠١ من هذه الطبعة.

وقد قال مرّةً أبو الوجيه العُكْلى : « وكان ذلك حين ركبنى شيطانى» قيل له : وأىّ الشياطين تعنى ؟ قال : الغضب .

والعرب تسمّى كلَّ حيّةٍ شيطانا . وأنشد الأصمعى :

تلاعب مثنى حَضْرَمىّ كأنّهُ تعمُّج شَيطانٍ بذى خِرْوَعٍ قَفْرِ (١)

وقالت العرب : ماهو إلاّ شيطان الحَمَاطة . ويقولون : ماهو إلاّ شيطان يريدون القبح ؛ وما هو إلاّ شيطان ، يريدون الفطنةَ وشدَّةَ العارضة . وروى عن بعض الأعراب فى وقعة كانت : واللهِ ماقتلْنا إلاّ شَيْطَانَ

١٤٦ بَرِصاً (٢) لأنّ الرجل الذى قاتلهم كان اسمه شيطان ، وكان به برص .

وفى بنى سعد بنو شَيطان ، قال طفيل الغنوى :

* وشيطان إذ يدعوهم ويُثوِّب (٣) *

وقال ابن ميّادة :

فلما أتانى ماتَقُول محاربٌ تغنَّت شياطينى (٤) وجُنَّ جُنونُها

وقال الراجز :

إنّى وإن كنتُ حديثَ السِّنِّ وكانَ فى العين نُبوٌّ عنِّى
فإنَّ شيطانى كبيرُ الجِنِّ

وقال أبو النجم :

إنّى وكلَّ شاعرٍ من البَشَرْ شَيطانُه أُنثى وشَيطانِى ذَكَرْ

وهذا كله [منهم] على وجه المثل ، وعلى قول منظور بن رَوَاحَة :

أتانى وأهلى بالدَّماخ فغَمْرَةٍ مسبُّ عُوَيفِ اللؤم حىّ بنى بَدْرِ (٤)

---

(١) تمعج : تلوى . وفى ط « تنعج » وهو تحريف ، وانظر ص ١٥٣ .

(٢) ل : « شياطينا برصا » والوجه مافى ط .

(٣) شيطان هو ابن الحكم فارس الحذواء ، وصدر البيت كما فى اللسان (شطن وشيط وخذا) :
* وقد منت الحذواء منا عليهم *

(٤) ط « شياطين» وصوابه فى ل . وانظر ص ١٥٢ ثمار القلوب ٥٧ .

(٥) ط « بالرماح » ل « بالدماح » وانظر ياقوت (دماخ — غمرة) . ل «خى بنى بدر » .

فلما أتانى مايقولُ ترقَّصتْ شياطينُ رأسى وانتشَيْنَ من الخَمْرِ

(خرافةُ العذرىُّ)

وقد رويتم عن عبد الله بن فايد بإسنادٍ له يرفعه قال : خرافة رجل من بَنى عذرة استهوته الشياطين ، فتحدَّث رسول الله صلى الله عليه وسلم [يوما] بحديث فقالت امرأةٌ من نسائه : هذا من حديثِ خُرافة قال : « لا وَخُرَافَةُ حقٌّ » .

(حديث عمر مع الذى استهوته الجن)

ورويتم أنَّ شريك بن خُناسة دَخَلَ الجنَّة وخرجَ منها ومعه ورقةٌ من وَرَقِهَا ،(١) وأنَّ عمرسأل الرجل المفقود الذى استهوته الجنُّ فقال : ما كان طعامهم(٢) ؟ قال : الفول والرِّمَّة .(٣) وسأل عن شرابهم فقال : الجدف(٤) وقال الأعشى :

وإنى ومَا(٥) كلفتمونى وربِّكم لأعلمُ من أمسَى أعقَّ وأحْوَبا
لكالثَّورِ والجنىّ يضرِب ظَهْرَه(٦) وماذنبه أنْ عافَت المـاءَ مَشْرَبا

---

(١) « من ورقها » ساقطة من ل .
(٢) ط : « طعامكم » .
(٣) ط : « البعر والبول والرمة » .
(٤) الجدف بالتحريك : نبات يكون باليمن لايحتاج آكله معه إلى شرب ماء . ابن الأثير .. وفى ط « الجدق » وهو تحريف .
(٥) فى الأصل « وإن » . وتصحيحه من هذا الجزء ص ١٩ .
(٦) ط : « ظهرة » وهو تحريف .

(من خنقته الجن ، ثم عود إلى الحوار)

وزعمتم أنّ الجنّ خنقت حرْبَ بن أمية ، وخنقت مِرداسَ بن أبي عامر ، وخنقت الغَرِيضَ المغنِّي ، وأنّها قتلت سعد بن عبادة ، واستهوت عمرو بن عدي ، واستهوت عمارة بن الوليد ؛ فأنتم أملياء بالخرافات [(١)] أقوياء على ردِّ الصحيح وتصحيح السقيم ، وردِّ تأويل الحديث [(٢)]
١٤٧ المشهورِ إلى أهوائكم . وقد عارضْنا كم وقابلنا كم وقارضْنا كم .

وقالوا : في الحديث أنّه « من اقتنى كلباً ليسَ بكلْب زرْعٍ ولا ضَرْعٍ ولا قَنَص فقد أَثِم [(٣)] » فهاتوا شيئاً من جميع الحيوان يصلح للزرْع والضرْع والقنص . و بعد فهل اتخذوا كلبَ الضَّرْع إلاّ ليحرس الماشيةَ وأولادَها من السباع ؟ وهل عند الكلبِ عند طُروق الأسد والنمر والذئاب وجميع مايقتات اللُّحمانَ من رؤساء السباع ، إلاّ صياحَه ونباحَه وإنذاره ودلالته ، وأنْ يشغلَها بعضَ الشُّغْل ، ويُهجهِج بها بعض الهجهجة ، إلى أن يلحق بها من يحميها ، ويتوافى إليها [(٤)] من يذود عنها إذ ليس في هذا القياس أنا متى وجدْنا دهراً تكْثُر فيه اللصوص ويفشو فيه السُّرّاق ، وتظهر فيه النقوب ، ويشيع فيه التسلُّق ، ممّن إذا أفضى إلى منزلِ القوم لم يرضَ إلا بالحريبة [(٥)] ليس دونها شيء ، أو يأتي على الأنفس ، وهو لايصل إلى مايريدُ حتى يمرَّ على النساء مكشَّفات ، ومن عسى إذا أخذ المرأةَ أخذَ يدِ ألاّ يرضى أن يتوعَّد بذبح الأولاد [و] أن يتّقي بالمال ، [(٦)] حتّى يذبح ،

(١) ل : « ملآء بالخرافات » وهما بمعنى .
(٢) ط : « ورد بأن التنزيل والحديث » والصواب في ل .
(٣) ط : « فهو آثم » .
(٤) ل : « إليه » .
(٥) الحريبة : المال الذي يعيش به الإنسان أو المال الذي يحلب منه . وفي ط بالحربة .
(٦) ل : « وإن لم يتق بالمال » والوجه مافي ط :

ومن عسى إن تمعكّن شيئاً أو أمِن قليلا ، أن يركب الحُرَم بالسّوءة العظمى وبالتى لاشَوَى لها [1] فهذ الحال أحقُّ بالحِراسة من تلك الأحوال .

وبعد فلِمَ صار نساء الحرَمَين يتزاورون ليلا ، ونساء المصرَين [2] يتزاورون نهاراً ، ونساء الحرمين لايرين نهاراً ، ونساء المصرَين [2] لايُرين ليلاً ؛ إلاّ للمكابرات ولمكانِ كثرةِ من يستقى ويتصوّب [3] للنقب والتسلّق وإذا كان الأمر كذلك فأىُّ الامورِ أحقُّ بالتحصين [4] والحياطة ، وأيُّهما أشبه بالتغرير والإضاعة ، اتخاذ الكلاب التى لاتنام عند نوم من قد دأب نهاره ، أو ترك اتّخاذها ؟ ويقَظة السُّرّاق على قدر نوم المسروقين .

وعلى أنّا لو حُلنا [5] بين حرس الأَسواق وما تشتمل عليه من حرائب الناس ، [6] وبين اتّخاذ الكلاب ، لامتنعوا من ضَمان الحراسة ، ولا متنع كلُّ محروس من إعطائهم [7] تلك الأجرة ، ولوجد اللصوصُ ذلك من أعظم الغُنْم وأجود الفُرَص [8] . أوماتعلمون أنّ هذا الحريم ، وهذه الحرمات [9] وهذه العقائلَ من الأَموال ، أحقُّ بالمنْع والحِراسة والدّفع عنها بكلِّ حيلة ، مِنْ حفظ الغنم وحريمِ الراعى وحُرمة الأجيرِ ؟ !

وبعد فإنّ الذئابَ لاتجتمع على قطيعٍ واحد ، والذى يُخاف من الذئب السّلّة والخطفة ، [10] والاستلابُ والاختلاس . والأموالُ التى فى حوانيت

(١) يريد بالإصابة التى لاتخطىء .
(٢) ط : « المصرين » وهو تحريف .
(٣) ط : « ومن يتخوف » .
(٤) ط : « بالتحصيل » وهو تحريف .
(٥) ط : « جعلنا » وهو تحريف .
(٦) ط « جراءة الناس » وهو تحريف . وسبق قريباً تفسير الحريبة .
(٧) فى الأصل « إعطائه » والضمير ضمير الحرس . فالصواب ما كتبت .
(٨) فى الأصل « الفرض » .
(٩) ط : « الحريمات » .
(١٠) ل : « والخطف » وهما بمعنى .

١٤٨ التجار وفى منازل أهلِ اليسار يأتيها من المدد والعُدَّة ، ومن نجب أصحاب النجدة ، من يحتملها بحذافيرها ، مع ثقل وزنها وعظم حجمها ، ثمَّ يجالدون دون ذلك [1] بسيوف الهند وبالأذرع الطوال . وهم من بين جميع الخليقة لولاَ [2] أنّهم قد أحسُّوا من أنفسهم الجراءة وثباتَ العزيمة ، بما ليس من غيرهم ، لكانوا كغيرهم ؛ ولولا أنَّ قلوبَهم أشدُّ من قلوب الأُسْد لما خرَجوا ، على أنَّ جميعَ الخلق يطالبونهم ، وعلى أنَّ السلطانَ لم يُوَلِّ [3] إلاَّ لمكانهم و[الكلابَ لم تُتَّخَذْ إلا لِ] لإنْذَارِ بهم ، وعلى أنَّهم إن أُنذرَ بهم قاتلوا قتالَ من لاينجيه إلاَّ القِتالُ ، وعلى أنَّهم إذا أُخذوا ماتوا كراما .

ولعلَّ المدينةَ قد كانت [فى] ذلك الدهر مأموناً عليها من أهل الفساد [4] وكان أكثرُ كلابها عقورا ، وأكثرُ فِتيانها من بين مُهارشٍ أو مقامرٍ . والكلبُ العقورُ وَالكلْبُ الكلِبِ أشدُّ مضرَّةً من الذئبِ المأمورِ بقتله .

وَقد يعرض للكلاب الكلَب والجنون لأُمور : منها أن تأكلَ لحومَ الناس ، ومنها كالجنون الذى يعرِض لسائر الحيوان .

(قتل العامة للوزغ)

وجُهّالُ النّاسِ [اليوم] يقتلون الوَزَغ ، على أنَّ آباءها وأمهاتها [5] كانت تنفُخ على نار إبرهيم ، وتنقُل إليها الحطب . فأحسَب أنَّ آباءها

---

(١) ط : « على ذلك » .
(٢) ل : « أولى » والصواب فى ط .
(٣) ط : « يولهم » .
(٤) ل : « مأمونة من أهل الفساد » وأثبت ما فى ط .
(٥) ط : « أباها وأمهاتها » والوجه ما فى ل .

وأمّهاتها قد كنّ يعرفن فصْل (١) مابين النبيّ ، والمتنبّي ، وأنّهن اعتقدْن عداوةَ إبراهيم ، على تقصيرٍ فى أصل النظر ، أو عن معاندةٍ بعد الاستبانة حتى فعلنَ ذلك . كيف جاز لنا أن تَزِر وازرةٌ وِزْرَ أخرى ؟! إلاّ أن تدّعُوا أنّ هـــذه التى نقتلها هى تلك الجاحدةُ للنبوّة ، والـكافرةُ بالربوبيّة ، وأنّها لاتتنا كَح ولا تتوالد .

وقد يستقيم فى بعض الأمرِ (٢) أن تقتل أ كثر هذه الأجناس ، إمّا من طريق المحنة والتعبُّد (٣) وإمّا إذ (٤) كان الله عزّ وجلّ قد قضى على جماعتها الموتَ ، أن يجرىَ ذلك المجرى على أيدى الناس ، كما أجرى موتَ جميع الناس على يدِ ملَكٍ واحد ، وهو ملَك الموت .

و بعد فلعلّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال هذا القول [إن] كان قاله ، على الحـكاية لأقاويل قوم . ولعلّ ذلك كان على معنًى كان يومئذٍ معلوما فترَكَ النَّاسُ العِلّةَ ورووا الخبرَ (٥) سالمًـا من العِلل ، مجرّداً غير مضمّن (٦) ، ولعلّ مَن سمع هذا الحديث شهِد آخرَ الـكلام ولم يشهد أوّلَه ، ولعلّه عليه الصلاة والسلام قصَد بهذا الـكلام إلى ناسٍ من أصحابه قد كان دار بينهم وبينه فيه شىء . وكلّ ذلك ممكنٌ سائغٌ (٧) غير مستنكَر ولا مدفوع .

---

(١) فصل : فرق . وفى الأصل « فضل » .

(٢) ل : « فى البدى الأمر » .

(٣) ط : « المحبة والتعبد » ووجهه فى ل .

(٤) ط : « وإما إذا » .

(٥) ط : « وردوا الخبر » وهو تحريف .

(٦) ط : « غير مميز » .

(٧) ل : « شائع » وهو تحريف مافى ط .

وقد رويتم [فى الفواسق ما قد رويتم فى (١) الحيَّة والحِدأة والعقرب والفأرة والغراب، ورويتم] فى الكلب العقور، وكيف يُقتلْنَ (٢) فى الحِلِّ والحرَم. فإنْ كنتم فقهاء فقد علمتم أنَّ تسميةَ الغراب بالفِسق، والفأرة
١٤٩ بالفُويسِقة؛ أنَّ ذلك ليس من شكل تسمية الفاسق (٣)، ولا من شكل تسمية إبليس.

وقد قالوا: ما فجرها إلاَّ فاجر، ولم يجعلوا الفاجر اسماً له لايفارقه. وقد يقال للفاسق من الرجال: خبيث. وقد قال صلى الله عليه وسلم: « من أكَلَ من هذه الشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ (٤) فَلاَ يَقْرَبَنَّ مُصَلاَّنَا » وهو على غير قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ ﴾. وقد قال بعضُ الرُّجّاز وذكر ذئباً:

أما أتاكَ عنِّىَ الحَدِيثُ   إذ أنَا بالغائطِ أَسْتَغِيثُ
والذئبُ وَسْطَ غَنَمِى يَعِيثُ   وَصِحْتُ بِالْغَائطِ ياخَبِيثُ

وهذا الباب كثير، وليس هذا موضعه، وقد ذكرناه فى كتاب الاسم والحكم.

وقد يشبه الاسمُ الاسمَ فى صورةِ تقطيع الصوت، وفى الخطِّ فى القرطاس، وإن اختلفت أماكنُه ودلائله. فإذا كان كذلك فإنَّما يعرف فضلُه بالمتكلِّمين به، وبالحالات والمقالات، وبالذين عُنُوا بالكلام. وهذه جملةٌ وتفسيرها يطول.

---

(١) فى الأصل « من ».

(٢) ط: « يقتل » والوجه مافى ل.

(٣) ط: « الفاذق ». ل: « القاذف » والوجه ماأثبت.

(٤) قال ابن الأثير: يريد الثوم والبصل والكرات.

(القتل والقصاص)

وقالوا : قد أُمِرْنا بقتل الحيَّة والعقرب ، والذئب والأسد ، على مغنًى ينتظم معنَيَيْن[١] : أحدهما الامتحان والتعبُّد بفكر القلب وعمل الجارحة ، لاعلى وجه الانتقام والعقوبة . وأُمرنا بضرب الباغى بالسيف إذا كانت العصاَ لاتُغنى فيه على جهة الدَّفْع وعلى جهة العقاب ، ولم نُؤمَرْ بالقصد إلى قتله ، وإنَّما الغاية فى دفع بأسِه عنا ، فإن أتى إلى ذلك المقدار عليه ، كان كسارقٍ ماتَ من قطع يده ، وقاذفٍ ماتَ عن جلد ظهره[٢] . وقد أُمِرْنا بالقصد إلى قتْل الحيَّات والْعقارب وإن لم تعرض لنا فى ذلك الوقت ؛ لأنَّ جنسَها الجنسُ المتلف متَى همَّ بذلك . وليس لنا أن نضربَ الباغىَ بالسَّيف إلاَّ وهو مقبلٌ غيرُ مدبر ، ولنا أن تقتل الحيَّةَ مقبِلةً ومدبرة ، كما يُقتل الكافرُ مقبِلاً ومدبرا ؛ إلاَّ أنَّ قتلَ الكافر يجمع الامتحان[٣] والعقوبة ، وليس فى قتل الحيَّة إلاَّ الامتحان . وقد كان يجوز أن تمتحَن بحبسها[٤] والاحتيالِ لمنعها ، دونَ قتلها . وإذاولَّى الباغِى منغير أن يكون يريد الرجوع إلى فئة ، فحكمه الأسر والحبس [أبداً] إلى أن يُؤْنَسَ منه النُّزوعُ . وسبيل الأحناشِ والسِّباعِ وذواتِ السموم من الهمَج والحشرات، القتلُ مقبلةً ومدبرة . وقد أُبيح لنا قتلُ ضروبٍ من الحيوان عند مايبلغُ

(١) فى الأصل « بمعنيين » وهو تحريف .

(٢) ط « من جلد ظهره » .

(٣) ط « الانتقام » .

(٤) ط : « يمتحن لجنسها » وهو تحريف .

من جناياتها علينا الخدش ، فضلاً عن الجرح والقتل ، كالبعوض والنمل ، والبراغيث والقمل .

والبعيرُ قتلُهُ فسادٌ ، فإن صال على الناس كان قتلُه صلاحًا . والإنسانُ قتلُه حرام ، فإن خيفَ منه كان قتلُه حلالاً .

(طائفة من المسائل)

والحديث عن مسخ الضبِّ وَالجِرِّىِّ ، وعن مسخ الكلاب والحُكَأة وأنَّ الحمامَ شيطان ، من جنس المُزاح الذى كنَّا كتبنا به إلى بعض إخواننا [١] ممَّن يدَّعى علمَ كلِّ شىء ، فجعلنا هذه الخرافاتِ وهذه الفِطَنَ الصغارَ ، من باب المسائل .

فقلنا له : ما الشَّنقْناقُ والشَّيْصَبانُ [٢] وتنكوير [٣] ودركاذاب [٤] ومَن قاتل امرأة ابنِ مقبل ؟ ومَن خانق الغَرِيض ؟ [٥] ومن هاتف سعد ؟ [٦]

---

(١) هو أحمد بن عبد الوهاب الذى صنع فيه الجاحظ رسالة « التربيع والتدوير » .

(٢) الشنقناق والشيصبان — زعموا — : رئيسان عظيمان من الجن . وسيتحدث عنهما الجاحظ فى الجزء السادس وانظر الثمار ص ٥٥ . وفى ل : « الشيصمان » محرفا .

(٣) ل : « تنكوير » وفى رسائل الجاحظ ١٠٦ « بركوير » .

(٤) ل : « دركازات » وفى الرسائل « دركاداب » .

(٥) الغريض هو عبد الملك كان مولدا من مولدى البربر وولاؤه للثريا صاحبة عمر بن أبى ربيعة ، وكان من رؤساء الغناء أخذ عن ابن سريج . وانظر حديث قتل الجن له فى الأغانى ٢ : ١٤٣ .

(٦) هو سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة الخزرجى ، صحابىٌّ كان سيد الخزرج ، وكان يلقب فى الجاهلية بالكامل ، لمعرفته الكتابة والرمى والسباحة . توفى سنة ١٥ وزعموا أن الجن قتلته ، وسمع هاتفهم يقول :

قد قتلنا سيد الخز　رج سعد بن عباده
ورميناه بسهمي　ن فلم نخط فؤاده

وخبّرنا عن بنى أُقَيش [١] وعن بنى لبنى ، ومَن زَوْجُها ؟ وعن بنى غَزْوان ومَن امرأته ؟ وعن سملقة وزَوبعة ، والميدعان [٢] ، وعن النقار ذى الرقبة [٣] وعن آصف ، ومن منهم أشار بأصفر سليم [٤] ، وعن أُطيقس اسم كلب أصحاب الكهف ، وكيف صارت الكلابُ لاتنبح من سمّاه [٥] ؟ وأين بلغ كتابُ شَرَطهم ؟ وكيف حدّثوا عن ابن عباسٍ فى الفأر والقرد والخنزير والفيل والأرنب والعنكبوت والجِرِّى ، أنّهنّ كلّهنّ مِسخ [وكيف خُصّت هذه بالمِسخ ؟] وهل يحلُّ لنا أن نُصدِّق بهذا الحديث عن ابن عبّاس ؟ وكيف صارت الظباء ماشيةَ الجنّ ؟ وكيف صارت الغِيلان تُغيِّر كلَّ شىء إلاّ حوافرَها ؟ ولِم ماتت من ضربةٍ وعاشتْ من ضربتين ؟ [٦] ولِم صارت الأرانب والكِلاب والنَّعامُ مراكبَ الغيلان ؟ ولِم صارت الرواقيد مطايا السَّواحر ؟ وبأى شىء زوّج أهلُ السّعلاة ابن يربوع ؟ وما فرق مابينه وبين عبد الله بن هلال ؟ وما فعلت الفتاة التى كانت سميت بصبر على يد حرمى

(١) ط « ابن اقيش » ! وبنو أقيش : حى من الجن .

(٢) ط : « والميدعات » .

(٣) ل : « النقاد ذى الرقبة » .

(٤) أصفر سليم . قال الثعالبي فى ثمار القلوب ١١٩ : « كان سليم صيدلانيا بالبصرة، وقد عجن دواء أصفر لكل ماشرب له فكان يستشفى به كل مبرود ومحرور ، فصار مثلا فى البركة وحسن الموقع » اهـ . وقال ابن قتيبة فى المعارف ٢٦٥ : « كان لعبيد الله بن أبى بكرة ثلاثة وكلاء : يقال لهم سليم الناصح ، وسليم الغاش ، وسليم الساحر ، وهذا هو الذى عمل أصفر سليم » . . فى ط « أشعار بأصفر سليم » وهو تحريف صوابه فى ل ، س و م .

(٥) ط : « أطيفش . وفى ل « من سماها » وهو تحريف وانظر قول الحميرى فى كلب أصحاب الكهف . ٢ : ٤٢٨

(٦) سيتحدث الجاحظ عن هذا فى الجزء السادس ص ٧٢ .

وأبى منصور ؟ [١] ولمَ غضِب من ذلك المذهب ؟ ولم مضَى على وجهه شَفشف ؟ [٢] وما الفرق بين الغِيلان والسَّعالى ، وبين شيطان الحضراء [٣] وشيطان الحَماطة ؟ ولم عُلِّق السمك المالح بأذنابه [والطرىّ بآذانه] [٤] وما بال الفراخ تُحمَل بأجنحتها والفراريج بأرجلها ؟ وما بال كلّ شيء أصلُ لسانه ممّا يلى الحلق [٥] وطرفه ممّا يلي الهواء ، إلاَّ لسان الفيل ؟ ولم قالت الهند لولا أنَّ لسانه مقلوب لتكلَّم ؟ ولم صار كلُّ ماضغٍ وآكلٍ يحرِّك فكَّه الأسفل ، إلا التِّمساح [فإنه] [٦] يحرِّك فكَّه الأعلى ؟ ولم صار لأجفان الإنسان الأشفار ، وليس ذلك للدواب إلاّ فى الأجفان العالية ؟ وما بالُ عين الجَرادة وعين الأفعى لاتدوران ؟ وما بيضة العقر ؟ [٧] وما بيضة الديك ؟ ولم امتنع بيضُ الأَنوق ؟ وهل يكونُ الأبلَقُ العَقُوق [٨] وما بال لسانِ سمكِ البحر [عديماً] ؟ وما بال الغريقِ من الرِّجال يطفو على قفاه ، ومن النساء
١٥١ على وجهه ؟ [٩] ولم صار القتيل إذا قُتل يسقط على وجهه ثم يقلبه ذَكَرُه ؟

---

(١) ل : « سمية نصير على يد جرمى . . الخ » .

(٢) ل : « سفسف » .

(٣) ط : « الحصر » .

(٤) ط : « المليح بأذنابه » وتعليق السمك الطرى بآذانه عبارة تهكمية فليس للسمك أذن ظاهرة .

(٥) ط : « مما يلى الفم » ل « مما يلى داخل » .

(٦) حرف يحتاج إليه الكلام .

(٧) ل : «العصفور» وهو تحريف. وبيضة العقر قيل هى التى تمتحن بها المرأة عند الافتضاض أو أول بيضة للدجاجة أو آخرها أو بيضة الديك يبيضها فى السنة مرة .

(٨) الأبلق: الفرس فيه سواد وبياض، وهو ذكر. والعقوق : الحامل أو الحائل، وهى أنثى. ولا يكون الذكر أنثى .

(٩) ل : « يظهر على قفاه » . ط : « ومن النساء على وجهها » .

وأين تذهب [١] شِقشِقة البعير وغُرمول الحمار [والبغْل] وكَبِدُ الكوسج بالنهار ، ودَمُ الميت ؟ [ولِمَ انتصب خَلْق الإنسان من بين سائر الحيوان] وخبِّرنى عن الضفادع ، لِمَ صارت تنِقُّ بالليل [٢] وإذا أُوقدت النارُ أمسَكت [٣] ؟ .

وقالوا : قد عارضناكم بما يجرى مجرى الفساد والخُرافة . لنردَّكم إلى الاحتجاج بالخبَر الصحيح المخرج للظاهر [٤] .

فإن أعجبتك هذه المسائلُ ، واستطْرَفتَ هذا المذهب، فاقرأ رسالتى [٥] إلى أحمد بن عبد الوهاب الكاتب [فهى مجموعةٌ هناك] .

(أصناف الكلاب)

والكلاب أصناف لايحيط بها [٦] إلاّ من أطالَ الكلام . وجملةُ ذلك أنّ ما كان منها للصيد فهى الضِّراء ، وواحدها ضِروة [٧] ، وهي الجوارح والكواسب ، ونحن لانعرفها إلاَّ السَّلُوقيّة؛ وهى من أحرار الكلاب وعتاقها [٨] ، والخِلاسية [٩] هجنها ومقاريفها . وكلابُ الرعاءِ من زينيّها

(١) ط : « وما بال » .
(٢) النقيق : صوت الضفدع . وفى ط « تنعق » والنعيق : للبوم والغربان .
(٣) ل : « إذا أبصرت النهار أمسكت » وهو تحريف ، صوابه فى ل وفى الحيوان ٤ : ١٥٤ .
(٤) هذه الفقرة دخيلة وليس هذا موضعها .
(٥) فى الأصل « فاقدر رسالتى » والوجه « فاقرأ » .
(٦) ل : « لايحصيها » .
(٧) ط : « ضار » وهو تحريف .
(٨) فى الأصل « وهى فى أحرار الكلاب وعتاقها » وصححته كما ترى .
(٩) ط : « الجلاسية » وهو تصحيف .

وكرديها فهي كرادتها (١) .

وقد تصيد الكلابُ غيرُ السَّلوقيّة ، ولكنّها تقصّر عن السَّلوقيّة بعيداً . وسلوق من أرض اليمن كان لها حديدٌ جيِّد الطبع ، كريم العنصر حرُّ الجوهر ، وقد قال النابغة (٢) .

تقدُّ السَّلوقيَّ المضاعَفَ نسجُه ... وتُوقِد بالصُّفَّاح نارَ الحُباحِبِ

وقال الأصمعيّ : سَمعتُ بعضَ الملوك وهو يركض خلفَ كلْبٍ وقد دنا خَطمه من عَجْب ذنب الظبي (٣) وهو يقول إيه فدتكَ (٤) نفسي !!

وأنشد لبعض الرجاز (٥) .

* مفدِّيات وملعَّنات (٦) *

قال صاحب الديك : فلمَّا صار الكلبُ عندهم يجمع خصالَ اللؤم والنَّذالة ، والحرصِ والشَّره (٧) ، والبَذاء والتسرُّع وأشباه ذلك ، صاروا يشتقُّون من اسمه لمن هجَوه بهذه الخصال . وقال بشار :

واستغْنِ بالوجَبات عن ذَهبٍ ... لم يَبقَ قبلكَ لامرئٍ ذَهبُه (٨)

يرِدُ الحريص على متالفه ... والليثُ يبعثُ حَيْنَه كَلَبُهْ

---

(١) كذا وفي ل : « حوادبها ومحامرها » .

(٢) ط : « الشاعر » . والبيت من قصيدة النابغة الذبياني التي مطلعها :

كليني لهم يا أميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطيء الكواكب

(٣) ط : « الظباء » وهو تحريف .

(٤) ل : « إيها » .

(٥) ط : « الرجال » .

(٦) ط « مفديات ومحيات » .

(٧) في الأصل « الشده » وإنما هو الشره قرين الحرص .

(٨) المرتضى في أماليه ٢ : ٢٩ قبل ذكر هذا البيت : « قال ابن السكيت : يقال فلان يأكل الوجبة إذا كان يأكل في اليوم والليلة وجبة » . وفي ل : « الوجنات » وهو تحريف .

(ماأشتق من اسم الكلب)

قال صاحب الكلب: لَمَا[١] اشتقُّوا من اسمه للأشياء المحمودة أكثر.

قال عامر بن الطفيل :

ومدجَّجٍ يسعَى بشِكَّتِهِ   محمرَّةٍ عيناهُ كالكلْبِ[٢]

ومن ولد ربيعة بن نزار كلب[٣] بن ربيعة ، وكلاب بن ربيعة ، ومكالب بن ربيعة ، ومكلبة بنو ربيعة [بن نزار] . وفيهم من السباع أسَد ، وضُبيعة ، وذئب ، وذؤيب ، وهم خمسة عشر رجلاً ثمانية من جميع السباع ، ومن الثمانية أربعة مشتقّة من اسم الكلب . ومن هذا الباب كليب[٤] بن يربوع ، وكلاب بن ربيعة ، وكلب بن وَبرة . ومنه بنو الكلبة ، قال الشاعر :

سَيكْفِيكَ من ابنى نزارٍ لواغب   بنو الكلبةِ الشمُّ الطوالُ الأشاجعِ[٥] ١٥٢

والكلبة لقب ميَّة بنت عِلاج بن شَحْمة العنبرىّ . وبنوها بنو الكلبة الذين سمعتَ بهم — تزوَّجها خزيمة بن [النعمان] من بنى ضُبَيعة ابن ربيعة بن نزار ، فهى أُمُّهم . وفيها يقول شُبَيل بن عزرة[٦] الضُّبعى

---

(١) فى الأصل « كلما » والوجه ماأثبت .

(٢) المدجج عنى به القنفذ ، للشوك الذى عليه . اللسان (دجج) والمخصص ٨ : ٩٥ .

(٣) ل : « أكلب »

(٤) ل : « كلب » .

(٥) ل « لراغب » مكان « لواغب » .

(٦) هذا العلم كثيرا مايقع فيه التحريف والتصحيف فقد ورد فى خزانة الأدب (انظر ١ : ٩٢) برسم (شبل بن عمرو) ، وفى الأمالى (١ : ٤٨) (شبيل بن عروة) وفى فهرست ابن النديم ٦٨ مصر (شبيل بن عرعرة) وفى القاموس (شبيل ابن عروة) وفى ط من الحيوان (شبيل بن غزرة) وصواب هذا كله ما أثبته من ل ، ومانبه عليه الزبيدى فى تاج العروس ، وكما ضبطه ابن دريد فى الاشتقاق ١٩٣ جوتنجن . وقد نبهت على ذلك فى تصحيحى للخزانة .

صاحب الغريب ـ وكان شِيعياً من (١) الغالية ، فصار خارجياً من الصّفريّة ـ :

بنو كلبةٍ هرّارة وأبُوهُمُ خُزَيمةُ عبدٌ خاملُ الأصلِ أوكَسُ

وفى مية [الكلبة] يقول أبوها وهو عِلاج بن شحمة (٢) .

إن تكُ قد بانت بميَّةَ غربة فقد كان مِمّا لا يُمَلُّ مَزَارُها (٣)

دعتْها رجالٌ من ضُبَيعة كَلْبةً وما كان يُشكَى فى الحول جِوارُها (٤)

ومما اشتقّ له من اسم الكلب من القُرى والبُلدان والناس وغير ذلك ، قولهم فى الوقْعة التى كانت بإرمِ الكلبة (٥) ومن ذلك قولهم : حين نزلنا من السراة صرنا إلى نجد الكلبة . وكان سبب خروج مالك بن فَهم بن غُنْم بن دَوس إلى أزدشنوءة من السراة (٦) أنّ بنى أُخته قتلوا كلبةً لجاره ، وكانوا أعدَّ منه (٧) فغضب ومضى فسمّى ذلك النجد الذى هَبط منه نَجْدَ الكَلْبة .

[و بطَسُّوج بادُوريا نهر يقال له نهر الكلبة] .

ويقولون : كان ذلك عند طلوع كوكب الكلب . ومن ذلك قولهم

= وشبيل هذا من خطباء الخوارج وعلمائهم ، وله قصيدة فى الغريب ، وكان أوّلا رافضيا ثم انتقل إلى الشراة وبرئ من الروافض ، ومات بالبصرة ، هذه ترجمة ابن النديم له وهى تشبه ترجمة الجاحظ .

(١) ط : « من كبار الشيعة » ومثله فى س .

(٢) ل : « سحمة » .

(٣) ط : « ميالا يمل » وهو تحريف .

(٤) ل : « فى المحل » .

(٥) إرم الكلبة : موضع قريب من النباج بين البصرة والحجاز ، وللعرب فيه يوم قتل فيه بجير بن عبد الله بن سلمة قتله قعنب الرياحى . معجم البلدان .

(٦) ل : « من أزد شنوءة بالسراة » .

(٧) أعد منه : أكثر عددا . وفى ل «أنجد» .. وفى ط : «لجارهم» موضع «لجاره»

عبّاد بن أنف الكلب . ومن ذلك أبو عُمرَ الكلبُ الجرمىّ النحوى ،[(١)] وكان رجلا من العِلية عالمًا ، عَروضيًّا [نحويًّا] فرضيًّا . وعلُّويه[(٢)] كلب المطبخ ، وكان أشربَ الناس للنبيذ ، وقد راهنوا بينه و بين محمّد بن علىّ .

والكلب كلب الماء ، وكلب الرحى[(٣)] والضبة التى يقال لها الكلب . وكذلك الكُلْبة والكَلْبتان . والكلّاب والكلُّوب .

وقال راشد بن شهاب فى ذلك المعنى .

أُمكنّ كُلّابَ القنا من ثغورها وأخضِب مايبدو من استاهها بِدَمْ[(٤)]

[وقال] :

فسوف يَرى الأقوامُ دينى ودينَكم إذا كلْبتا قَينٍ ومِقْراضُهُ أَزَمْ[(٥)]

وقال الراجز :

مازالَ مذْ كانَ غُلامًا يستتِرْ[(٦)] له على العَيرِ إكافٌ وثفَرْ

* والكَلْبتَانِ والعلاةُ والوتَرْ *

وقال أشهب بن رُميلة ، وكان أوّلَ من رمى بنى مجاشع بأنّهم قُيون : ١٥٣

ياعجبًا هل يركبُ القَيْنُ الفرَسْ وعَرَقُ القَينِ على الخَيلِ نَجَسْ[(٧)]

وإنّما أداتُه إذا جلَسْ الكلبتانِ والعَلاةُ والقبَسْ

وكان اسم المزنوق فرَسِ عامر بن الطفيل ، الكلب .

---

(١) هو صالح بن إسحاق الجرمى مولى جرم بن زبان ، أخذ عن الأخفش ويونس وأبى عبيدة ، وحدث عنه المبرّد ومات سنة ٢٢٥ ، وفى الأصل « أبو عمرو » وهو تحريف انظر نزهة الألباء ١٩٨ وبغية الوعاة ٢٦٨ .

(٢) ط : « علمويه » . محرف . وانظر الحيوان (٢ : ٨٣)

(٣) ط : « الرحاء » وهو تحريف .

(٤) ط : « من نحوره » .

(٥) ط : « كلبت قين » وهو تحريف . وفى ل « بدم » بدله « أزم » وهو تحريف .

(٦) ل : « تستبر » .

(٧) ل : « لحس » وهو تحريف ، وأشهب يهجو بهذا الشعر الفرزدق . وانظر خبر الشعر فى خزانة الأدب ٢ : ٥١٠ بولاق .

وقد زعمت العلماء أنّ حرب أيّام هراميت [1] إنّما كان سببه كلب .

قال صاحب الديك : قد قيل للخوارج كلاب النار ، وللنوائح كلاب النار .

وقد قال جندل بن الراعى [لأبيه] فى وقوفه على جرير : مالكَ تطيل الوقوفَ على كلبِ بنى كليب ؟!

وقال زفر بن الحارث :

يا كلبُ قد كَلِب الزّمانُ عليكُمُ وأصابكمْ منّا عذابٌ مُرسَلُ
إنّ السَّماوة لاسماوةَ فالحقى بمنابتِ الزّيتونِ وابْنِى بَحْدَلُ [2]
وبأرض عكٍّ فى السواحلِ إنّها أرضٌ تذوبُ بها اللِّقاحُ وتُهزَلُ

وقال حصين بن القعقاع [3] يرثى عُتيبة بن الحارث :

بكَرَ النّعىُّ بخيرِ خِنْدِفَ كلِّها بعُتيبةَ بنِ الحارثِ بن شِهابِ
قتلوا ذُؤاباً بعد مقتلِ سَبْعةٍ فشَفَى الغليلَ وريبةَ المرتابِ
يوم الحليس بذى الفقَارِ كأنّه كَلِبٌ بِضرب جماجمٍ ورِقابِ

وقال آخر [4] :

لله درُّ بنى الحَذّاء مِنْ نَفَرٍ وكلُّ جارٍ على جيرانه كَلِبُ
إذا غَدوا وعِصِىُّ الطَّلْح أرجُلُهم كما تُنَصَّبُ وسْطَ البِيعة الصُّلُبُ

وإذا كان العُود سريع العُلوق فى كلِّ زمانٍ أوْ كلِّ أرض [5] ، أو فى

---

(١) يوم الهراميت كان بين الضباب وجعفر بن كلاب ، وهو من أيام العرب فى الإسلام . وكان فى زمن عبد الملك بن مروان . معجم البلدان (هراميت) والعمدة لابن رشيق ٢ : ١٦٧ . والحرب مؤنثة ، وقد تذكر . القاموس .

(٢) ط : « جحدل » وكذلك فى ل . وأثبت ما فى س .

(٣) ط : « حصين بن القا » .

(٤) هو بشر بن أبى خازم كما فى البيان ٣ : ٤٣ . وانظر كلام الجاحظ فى هذا الشعر .

(٥) فى الأصل « وكل أرض » والوجه ما أثبت .

عامَّة ذلك قالوا : ماهو إلاَّ كلب .

وقالوا : قال النبي صلى الله عليه وسلم [في وزَر بنْ] جابر[١] حين خرجَ من عندِه واستأذنه إلى أهله « نعم إن لم تدركْه أمُّ كلبة » يعنى الحمى .

ومِمَّا ذكروا به العضو من أعضاء الكلب والكلبة والخلق منهما أو الصفة الواحدة من صفاتهما ، أو الفعل الواحد من أفعالهما ، قال رؤبة :

* لاقيت مَطْلاً كنُعَاسِ الكَلْبِ[٢] *

يقول : مطلا مُقَرْمَطاً[٣] دائما وقال الشاعر فى ذلك :

يكون بها دليلَ القومِ نَجمٌ   كَعينِ الكلب فى هُبّي قِبَاعِ[٤]

١٥٤ قال : هذه أرضٌ ذات غبرة من الجدب[٥] لايبصر القوم فيها النجم الذى يُهتَدى به إلاَّ وهو كأنّه عين الكلب ، لأنَّ الكلب أبداً مُغمِضٌ غير مطبق الجفون ولا مفتوحها . والهُبّي الظلمة واحدها هابٍ ، والجمع هُبَّى مثل غازٍ وغُزّى ؛ والقِباع التى قَبعت فى القتام ، واحدها قابع ، كما يقبَع القنفذ وما أشبهه فى جُحره . وأنشد لابن مقبل :

ولا أطرقُ الجارات بالّليل قابعاً   قُبُوعَ القَرَنْبي أخلفته مجاعره[٦]

والقبوع : الاجتماع والتقبُّض . والقَرَنْبَي دُوَيبَّة أعظم من الخُنَفساء .

---

(١) كان ممن وفد مع زيد الخيل إلى الرسول . وانظر الحيوان ٢ : ١١٢ .

(٢) للثعالبي قول فى هذا البيت بثمار القلوب ٣١٦ ، وانظر أمثال الميدانى (أنوم من كلب) ٢ : ٢٨٠ .

(٣) فى ط « مقرطقا » وليس له معنى يصح . وأصل القرمطة : مقاربة الخطو .

(٤) ط : « هبا » والصواب فى ل . وانظر الميدانى (كعين الكلب الناعس)

(٥) ط : « الحر » .

(٦) فى الأصل « أسلمته مجاحره » . وانظر ص ٢٣٨ من هذا الجزء

(شعر فى الهجاء له سبب بالكلب)

وقال الآخر فى صفة بعض مايعرض له من العيوب :

ماضرَّ تغلبَ وائلٍ أهجوتَها   أم بُلتَ حيثُ تناطَحَ البحرانِ
إنَّ الأراقمَ لاينالُ قديمَها   كلبٌ عوَى متهتِّمُ الأسنانِ (١)

وقال الشاعر فى منظور بن زبّان :

لبئس ماخلَّفَ الآباءُ بعدَهُمُ   فى الأُمَّهاتِ عِجانُ الكَلْبِ مَنْظُورُ

ومن هذا الضرب قول الأعرابى (٢) :

لقد شانَ صغرى والياها وزيَّنَا   لصغرى فتًى من أهلها لايَزِينُها
كلاب لعاب الكلب (٣) إن ساق هَجْمَة
يعذّب فيها نفســـــه ويُهينُها

وقال عمرو بن معديكَرِب (٤) :

لحا اللهُ جَرْمًا كلَّما ذرَّ شارقٌ   وجوهَ كلابٍ هارشَتْ فازبأرَّتِ

وقال أبو سفيان بن حرب :

ولو شئتُ نجَّتنى كُميتٌ طِمِرَّةٌ   ولم أحمِلِ النَّعماءَ لابن شَعوبِ
ومازالَ مُهرى مَزْجَرَ الكلبِ منهمُ   لدنْ غدوةً حتَّى دنَتْ لغُروبِ

وقال عبد الرحمن بن زياد :

---

(١) ل : «لن ينال قديمها» والشعر للفرزدق كما فى البيان ٣ : ١٤٦ ، وقد سبق البيت الأول ص ١٣

(٢) من هنا يبتدئ سقط كبير فى ل وسأنبه على نهايته .

(٣) كذا

(٤) له ترجمة فى الخزانة ٢ : ٣٨٨ — ٣٩٠ والبيت من أبيات فيها وانظر تنبيه البكرى ٤٢ وحماسة أبى تمام ١ : ٤٣ ومعجم البكرى ٢٨ — ٢٩ .

دعتْه بمسرُوق الحديث وظالعٍ من الطرف حتى خاف بَصبصَةَ الكَلْبِ

وقال شريح بن أوس [١] :

وعيَّرْتَنا تَمْرَ العراقِ ونَخْلَه وزادُكَ أيرالكَلْبِ شيَّطه الجمرُ

وقال آخر [٢] وهو يهجو قوما : ١٥٥

فجاءا بجرٍ شاوَى شعيرٍ عَلَيْهما كرادِيسُ من أوصالِ أعقدَ سافدِ

وقال الحارث بن الوليد :

ذهب الذين إذا رأونى مُقبِلاً هَشُّوا وقالُوا مَرحباً بالمقْبِلِ

وبقيتُ فى خَلْفٍ كأنَّ حديثَهم وَلْغُ الكلاب تهاوَشَتْ فى مَنْهَلِ

وقال سَبْرة بن عمرو الفقعسى ، حين ارتشى ضَمْرة النهشلى ، ونفر عليه عباد بن أنف الكلب الصيداوىّ [٣] فقال سبرة :

ياضَمْرُ كيفَ حكمتَ أمُّكَ هابلٌ والحكْمُ مَسئول به المتعمِّدُ

أحفِظتَ عهداً أم رَعيتَ أمانةً أم هل سمعتَ بمثلها لايُنشدُ

شَنعاءَ فاقِرة تجلِّلُ نهشلاً دَنَساً تَغُور به الرفاق وتُنْجِدُ

إنَّ الرِّفاقَ أمال حَكمكَ حبُّها فلكَ اللقاء وراكبٌ متجرِّدُ

فضحَ العشيرةَ واستمرَّ كأنَّه كلبٌ يبصبص للعظال ويُطْرَدُ

لاشىءَ يعدِلُها ولكنْ دونَها خَرْطُ القَتادِ تَهابُ شوكَتَها اليدُ

جوْعانَ يلحَس أسكتَاز بغيةً غَلِمٌ يشورُ على البراثن أعْقَدُ

وقال مزرِّد بن ضرار :

وإنَّ كُناز اللحْم من بَكَرَاتِكم تَهِرُّ عليها أمُّكمْ وتُكالِبُ

---

(١) الشعر فى هجاء أبى المهوش الأسدى وقد سبق القول فيه ص ٢٦٨

(٢) هو اللعين المنقرى كما فى ص ٢٦٢ .

(٣) ط : « عبادة » . وفى أمالى المرتضى ٣ : ٤٠ « عباد بن أنف الكلبى » (معرفة) ، وفى الأصل « الصيدانى » وإنما هو منسوب إلى بنى الصيداء . المعمرين ٤٣

وليتَ الذى ألقى فناؤك رحلَه . لتَقرِيَه بالتْ عليه الثّعالبُ

وهذان البيتان من باب الاشتقاق لامن باب الصفات وذِكْرِ الأعضاء .

وقال :

ياسبْرُ ياعبدَ بنى كِلابِ ياأيرَ كلبٍ مُوثَقٍ ببابِ

أكان هذا أوّلَ الثّوابِ ياوَرَلاً رَقْرَقَ فى سرابِ

* لا يَعْلِقَنْكمُ ظُفرى ونابى *

وقال الآخر [1] :

كأنّ بنى طُهَيّةَ رهطَ سَلْمَى حجارةُ خارئٍ يَرمي الكِلابا

١٥٦ وقال صاحب الكلب : وممّا اشتُقّ من اسم الكلب فى موضع النباهة ، كليب بن ربيعة ، هو كليب وائل . ويقال إنّه قيل فى رجلين من بنى ربيعة مالم يُقَلْ فى أحدٍ من العرب ، حتّى ضُرب بهما المثل ، وهو قولهم : «أعزُّ من كليبِ وائل» ، والآخر « لاحرَّ بوادِى عوْف» ، قالوا : وكانت ربيعة إذا انتجعت معه لم توقد ناراً ولم تحوّضْ حوضاً ، وكان يحمى الكلأَ ولا يُتَكَلَّمُ عندهُ إلاّ خفضا ، ويجير الصيد ويقول : صيدُ أرضِ كذا وكذا فى جوارى لايباح ، وكان له جرو كلب قد كَتَعهُ [2] فربما قذَف به فى الروضة تعجبُه ، فيحميها إلى منتهى عوائه ، ويلقيه بحريم الحوضِ فلا يرِدُه بعير حتّى تصدُرَ إبله .

---

(١) هوجرير كما فى البيان ٢ : ١٧٩ وللبيت حديث فيه . وانظر ثمار القلوب ٣٩٩ .

(٢) كتعه بمعنى شد قوائمه . وانظر أمثال الميدانى (١ : ٤٤٦) والثمار ٧٧ .

(ماقيل من الشعر فى كليب)

وفى ذلك يقول معبد بن شعبة التميمى (١) :

أظنّ ضِرارٌ أنّنى سأطيعه ... وأنّى سأُعطيه الذى كنتُ أُمنعُ
إذِ اغرورقت عيناه واحمرّ وجهُه ... وقد كاد غيظاً وجهُه يتبضّعُ (٢)
تقدّم فى الظلْم المُبيّن عامِدًا ... ذراعاً إذا ما قُدِّمَتْ لك إصبع (٣)
كفعلِ كُليبٍ كنتُ أُنبئتُ أنّه ... يخلط أكلاءَ المياه ويَمنعُ (٤)
يُجير على أفناءِ بكرِ بن وائل ... أرانب ضاحٍ والظباءَ فترتعُ

وقال دريد بن الصمة :

لعمرُكَ ما كُليبٌ حين دلّى ... بحبلٍ كلبَه فيمن يميح (٥)
بأعظمَ من بنى سفيان بَغْياً ... وكلٌّ عدوّهم منهم مريح (٦)

وقال العبّاس بن مرداس :

كما كان يبغيها كليبٌ بظلمِه ... من العزّ حتى طاح وهو قتيلُها
على وائلٍ إذْ يُنزِلُ الكلبَ مائحا ... وإذْ يُمنَعُ الأكلاءُ منها حلولُها (٧)

وقال عباس أيضاً لكُليب بن عهمة الظفرىّ (٨) :

---

(١) هنا ينتهى السقط فى ل .
(٢) ط : « يتبتع » .
(٣) ل : « إذا ما أرخيت لك إصبع » .
(٤) (يخلط) لعلها (يحلئ) .
(٥) ط « كلبية فيمن يميح » .
(٦) ط : « منه » .
(٧) ط : « يبرك الكلب » وتصحيحه من ل .. وفى ل « فيها حلولها » .
(٨) كذا فى ل . وفى ط « عيمة » وفى الإصابة ٧٤٤٨ « عميمة » .

أَ كُلَيبُ إنَّكَ كلَّ يوم ظالمٌ والظلمُ أنكدُ وجْهُه ملعونُ
تبغِي بقَومِك ماأرادَ بوائلٍ يَوْمَ الغديرِ سَمِيُّكَ المطعونُ
وإخالُ أَنَّكَ سوفَ تَلْقَى مثلَها فى صَفْحتَيك سنانُه المسنونُ (١)

١٥٧ وقال النابغة الجعدى :

كليبٌ لَعمرى كانَ أكثرَ ناصِراً وأيسرَ ذنباً منك ضُرِّجَ بالدَّمِ
رمى ضَرْعَ نابٍ فاستمر بطَعْنَةٍ كحاشيةِ البُرد اليمانى المسهَّمِ

وقال قَطِران العبشَمىُّ [ويقال العبشى (٢)] :

ألم ترجسَّاسَ بنَ مُرَّةَ لم يَرِدْ حِمَى وائلٍ حتى احتداه جَهولُها (٣)
أجرَّ كليباً إذرمى النابَ طعنةً جدت وائلاً حتَّى استخفَّت عقولَها (٤)
بأهون ممَّاقلت إذا أنت سادرٌ وللدَّهرِ والأيَّامِ والٍ يُديلها (٥)

وقال رجل من بنى هلال بن عامر بن صعصعة :

نحن أَبَسْنَا تغلبَ ابنةَ وائلٍ بقتل كُليبٍ إذ طغى وتَخيَّلا (٦)
أبأناه بالنَّابِ التى شقَّ ضَرعها فأصبحَ موطوءَ الحِمى متذلِّلا (٧)

وقال رجل من بنى سَدوس :

وأنت كليبىٌّ لكلبٍ وكلبةٍ لها حولَ أطنابِ البيوتِ هَريرُ

---

(١) ل : « سنانها مسنون » .
(٢) كذا . ولعله « العبسى » .
(٣) ط : « اعتداه » .
(٤) ط : « حدت وائلا » .
(٥) ط : « دال » .
(٦) أبسنا : قهرنا وأذللنا . وفى ط « تحوز النساء » وهو تحريف .
(٧) أبأناه : جعلناه عدلا فقتلناه بها . وفى ط : « أثابته بالناب » وليس بشىء .

وقال ابن مقبل العَجلانى :

بكتْ أمُّ بكرٍ إذْ تبدَّدَ رهطُها … وأنْ أصبحوا منهم شَريدٌ وهالك

وإنَّ كلا حيَّيكِ فيهم بقية … لو أنَّ المنايا حالُها متماسك (١)

كلاب وكعب لا يبيت أخوهم … ذليلاً ولا تُعيِي عليه المسالك (٢)

وقال رجل من بنى كلاب من الخوارج (٣) ، لمعاوية بن أبى سفيان :

قد سرتَ سَيْرَ كُليبٍ فى عشيرته … لو كان فيهم غلامٌ مثلُ جسَّاسِ

الطاعن الطعنة النجلاء عانِدُها … كطرة البرد ، أعيا فتقُها الآسى (٤)

(أهون من تبالة على الحجاج)

وقال أبو اليقظان فى مثل هذا الاشتقاق : كان أوّل عملٍ وليه الحجّاج بن يوسف تَبالة ، فلما سار إليها وقرُب منها قال للدليل : أين هى ، وعلى أىّ سمت هي ؟ قال : تسترك عنها هذه الأكمة . قال : لاأرانى أميراً إلاَّ على موضعٍ تسترنى منه أكمة ، أهونْ بها علىّ ؟! وكرّ راجعا ، فقيل فى المثل : « أهْوَنُ منْ تبَالَةَ عَلَى الحَجاج » والعامة تقول : لهو أهونُ علَىَّ من

١٥٨ الاعراب على عركوك (٥) .

---

(١) ل : « وإن كلى حيك منهم » وهو تحريف .

(٢) ل : « ولا تعيا عليه المسالك » .

(٣) فى نوادر أبى زيد ١٥١ أن قائل الشعر هو بشير بن أبىّ العبسى .

(٤) العاند : العرق يسيل فلا يرقأ . وفى ط «عائدها» وهو تحريف ، وفى ل : « عن عرض» . وفى النوادر « يعيا فتقها » بنصب « فتقها » ، قال : أراد يعيا بفتقها. بهذا ينتهى الجزء الأول من النسخة التى رمزت إليها بحرف ل وتستمر المقابلة على النسخة س .

(٥) كذا .

(الحجاج والمنجّم حينما حضرته الوفاة)

قال : ولمّا حضرت الحجاجَ الوفاةُ وقد ولى قبل ذلك ماولى ، وافتتحماافتتح ، وقتل من قتل ، قال للمنجّم : هل ترى ملِكا يموت ؟ قال : نعم ولستَ به ، أرى ملِكا يموتُ اسمه كُليب ، وأنتَ اسمُك الحجّاج قال : فأنا والله كليبٌ ، أمّي سمّتْني به وأنا صبيّ . فمات ، و [كان] استخْلَفَ على الخراج [١] يزيد بن أبى مسلم ، وعلى الحرب يزيد بن أبى كبشة .

(ما كان العرب يسمّون به أولادهم)

قال : والعرب إنّما كانت تسمّي بكلب ، وحمار ، وحجر ، وجعل ، وحنظلة ، وقرد، على التفاؤل بذلك . وكان الرجل إذا وُلد له ذكر خرج يتعرّض لزجر الطير والفأل ، فإن سمع إنساناً يقول حجرًا ، أورأى [٢] حجراً سمّى ابنَه به وتفاءل فيه الشدّة [٣] والصلابة والبقاء والصبر ، وأنّه يحطم مالقى . وكذلك إن سمع إنساناً يقول ذئبا أو رأى ذئبا ، تأوّل فيه الفطنة والخِبَّ والمكرَ والكسب . وإن كان حماراً تأوّل فيه طولَ العُمر والوقاحة والقوّة والجَلَد . وإن كان كلباً تأوّل فيه الحِراسة واليَقَظة وبُعْدَ الصوت ، والكسبَ وغير ذلك .

---

(١) فى الأصل « الخوارج » وهو تحريف . انظر المعارف لابن قتيبة ١٧٤ وقد زدت كلة كان ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : « ورأى » .

(٣) لعلها « بالشدة » فان الفعل يتعدى بالباء .

ولذلك صوّر عبيد الله بن زياد فى دِهليزه كلبًا وكبشًا وأسداً ، وقال : كلب نابح ، وكبش ناطح ، وأسد كالح ، فتطيَّر إلى ذلك فطارت عليه .

وقال آخر : لو كان الرجل منهم إنّما كان يسمِّى ابنَه بحجر وجبل ، وكلب ، وحمار ، وثور ، وخنزير ، وجُعَل ، على هذا المعنى ، فهلاَّ سمَّى بِبِرْذون [1] ، وبغل ، وعُقاب ، وأشباه ذلك ؛ وهذه الأسماء من لغتهم .

قال الأوّل : إنَّما لم يكن ذلك ، لأنَّه لايكاد يرى بغلا وبِرذونا ، ولعلَّه لا يكون رآهما قط ، وإن كانت الأسماء عندهم عتيدة لأمورٍ لعلّهم يحتاجون إليها يوما ما .

قالوا : فقد كان يسمع بفرس وبعير ، كما كان يسمع بحمار وثور ، وقد كان يستقيم أن يشتقَّ منهما اشتقاقات محمودة . بل كيف صار ذلك كذلك ونحن نجده يسمِّى بنجم ولا يسمِّى بكوكب ! إلاَّ أنَّ بعضَهم قد سمَّى بذلك عبداً له ، وفيه يقول :

كَوْكَبُ إِنْ مُتُّ فَهْيَ مِيتَتِى   لامُتَّ إلاَّ هَرِمًا يا كَوْكَبُ

ووجدناهم يسمون بجبل وسَنَد ، وطود [2] ، ولا يسمُّونَ بأُحُد ولا بثَبير وأجإٍ وسلمى ورَضوى ، وصِنْدِد وحميم [3] ، وهو تلقاء عيونهم متى أطلَعوا رءوسَهم من خيامهم . ويسمونَ ببُرْج ولا يسمون بفَلَك ، ويسمون بقمر وشمس عَلَى جهة اللقب أوعلى جهة المديح ، ولم يسمُّوا بأرضٍ وسماء ، وهواء ١٥٩ وماء ، إلاَّ على ماوصفنا . وهذه الأصول فى الزجر أبلغ ، كما أنَّ جبلاً أبلغُ

(١) فى الأصل « سمى برذون » والوجه ما أثبت .

(٢) فى ط « طور » وهما بمعنى .

(٣) لعله « حنين » وجبال حنين يقول فيها القائل :

سقونى وقالوا لا تغن ولو سقوا (جبال حنين) ماسقيت لغنت

من حجر ، وطودا (١) أجمع من صخر . وتركوا أسماء جبالهم المعروفة .

وقد سمّوا بأسد وليث وأُسامةَ وضِرغامة (٢) . وتركوا أن يسمُّوا بسَبع وسبعة ، [وسبع] (٣) هو الاسم الجامع لكلِّ ذى ناب ومخلب .

قال الأوّل : قد تسمّوا أيضًا بأسماء الجبال ، فتسموا بأبَان وسَلْمَى .

قال آخرون : إنّما هذه أسماء ناسٍ سمّوا بها هذه الجبال ، وقد كانت لها أسماء تُرِكت لثقلها ، أو لعلّة من العلل ؛ وإلاّ فكيف سمّوا (٤) بسلمى وتركوا أجأ ورَضوى .

وقال بعضهم : قد كانوا ربّما فعلوا ذلك على أن يتفّق لواحدٍ وَلودٍ ولمعظَّمٍ جليل ، أن يسمع أو يرى حمارا ، فيسمِّى ابنه بذلك ؛ وكذلك الكلب والذئب ، ولم يتفق فى ذلك الوقت أن يسمع بذِكر فرس ولا حِجْر أو هواء أو ماء ، فإذا صار حمار ، أو ثور ، أوكلب اسمَ رجل معظَّم ، تتابعت عليه العرب تَطيرُ إليه ، ثم يكثر ذلك فى ولده خَاصّةً بعده . وعلى ذلك سمّت (٥) الرعية بنيها و بناتِها بأسماء رجال الملوك ونسائهم ، وعلى ذلك صار كلُّ علىٍّ يكنى بأبى الحسن ، وكل عُمَرَ يكنى بأبى حفص ، وأشباه ذلك . فالأسماء ضروب ، منها شىء أصلىٌّ كالسَّماء والأرض والهواء والماء والنار ، وأسماء أُخَرُ مشتقّاتٌ منها على جهة الفأل ، وعلى شكل اسم

---

(١) فى ط « طور » وهما بمعنى .

(٢) الضرغام والضرغامة والضرغم كجعفر : الأسد .

(٣) زيادة يقتضيها الكلام .

(٤) ط « يسموا » وصوابه فى س .

(٥) فى الأصل « سميت » وهو تحريف ما أثبته .

الأب، كالرجل يكون اسمه عمر فيسمى ابنَه عميرا ، ويسمِّى عميرٌ ابنَه عِمران ، ويسمِّى عمرانُ ابنه مَعْمَرًا . وربّما كانت الأسماء بأسماء الله عزَّ وجلّ مثل ماسمى الله عز وجل أبا إبراهيم آزر ، وسمَّى إبليس بفاسق . وربّما كانت الأسماء مأخوذةً من أمور تحدثُ فى الأسماء ، مثل يوم العَرُوبة سمِّيت فى الإسلام يوم الجمعة ،واشتُقَّ له ذلك من صلاة يوم الجمعة .

(ماترك الناس من ألفاظ الجاهلية)

وسنقول فى المتروك من هذا الجنس ومن غيره ، ثم نعودُ إلى موضعِنا الأوّلِ إن شاء الله تعالى .

تركَ النّاسُ ممـا كان مستعملاً فى الجاهلية أموراً كثيرة ، فمن ذلك تسميتُهم للخَراج إتاوة ، وكقولهم للرشوة ولما يأخذه السُّلطان : الحُلان والمَـكْس . وقال جابر بن حُنَىّ (١) .

أفى كلِّ أسواقِ العراقِ إتاوةٌ ... وفى كلِّ ماباع امرؤٌ مَـكْسُ دِرْهَمِ

وكما قال العبدىُّ فى الجارود (٢) :

أيا ابن المعلَّى خِلتَنا أم حسبتَنا ... صَرَارِىَّ نُعطِى الماكسينَ مُـكوسا (٣)

---

(١) فى الأصل « خارجى » وهو تحريف عجيب . والبيت فى اللسان (مكس) ، وقصيدته فى المفضليات ٩٧ ــ ٩٩

(٢) العبدى هو يزيد بن خذاق ، كما فى المفضليات ١٤٣ . والجارود هو ابن المعلى ، صحابى كان سيد عبد القيس ، قدم على الرسول فى وفد عبد القيس الأخير سنة عشر وأسلم وحسن إسلامه ، وابنه المنذر بن الجارود ، وحفيده الحكم بن المنذر ابن الجارود الذى يقول فيه الأعشى :

ياحكم بن المنذر بن الجارود ... سرادق المجد عليك ممدود

قتل الجارود سنة إحدى وعشرين فى خلافة عمر ، الإصابة ١٠٣٨ .

(٣) ط : « أكابر » ، س : « أكابن » وانظر المفضليات .

١٦٠ وكما تركوا أنعِم صباحًا ، وأنْعِم ظلاما ، وصاروا يقولون : كيف أصبحتم ؟ وكيف أمسيتم ؟

وقال قيس بن زُهير بن جذيمة ، ليزيد بن سنان بن أبى حارثة : أنعم ظلاما أبا ضَمْرة ! قال : نعمتَ فمن أنت ؟ قال : قيس بن زهير .

وعلى ذلك قال امرؤ القيس :

أَلا عِمْ صَباحًا أيُّها الطَّلَلُ البالِى   وهَلْ يَعِمَنْ مَن كان فى العُصُرِ الخَالِى

وعلى ذلك قال الأوّل (١) :

أَتوْا نَارِى فقلتُ مَنُونَ قالوا   سَرَاة الجِنِّ قلتُ عِمُوا ظَلَامَا

وكما تركوا أن يقولوا للملك أو السَّيِّد المطاع : أبيت اللعن ، كما قيل (٢) :

* مَهْلاً أبيتَ اللّعنَ لاتأكُلْ مَعَهْ *

وقد زعموا أن حُذَيفةَ بنَ بدرٍ كان يُحَيَّا بتحيَّة الملوك ويقال له : أبيت اللّعن . وتركوا ذلك فى الإسلام من غير أن يكون كفراً .

وقد ترك العبدُ أنْ يقول لسيده ربِّى ، كما يقال ربُّ الدار ، وربُّ البيت . وكذلك حاشية السيِّد والملِك تركوا أن يقولوا ربّنا . كما قال الحارث بن حلِّزة :

ربُّنا وابننا وأفضَلُ مَنْ يَمْـ   شِى ومَن دُونَ مَالدَيهِ الثّناء

(١) البيت لشمير (أو سمير) بن الحارث الضبي كما فى النوادر ١٢٣ وخزانة الأدب ٣ : ٣ بولاق .

(٢) البيت للبيد من أبيات لها خبر فى الأغانى (١٤ : ٩١ — ٩٢) .

وكما قال لبيد حين ذكر حُذَيفةَ بنَ بدر :

وأهلَــكْنَ يومًا ربَّ كِنْدةَ وابنَه　　وربَّ معَدٍّ بين خَبْت وعَرْعَرِ

وكما عيَّر زيدُ الخَيل حاتمًا الطائيَّ فى خروجه من طيِّئ ومن حرب الفساد ، إلى بنى بدر ، حيث يقول[(١)] :

وفَرَّ من الحَرْبِ العَوانِ ولم يكُنْ　　بِها حاتم طَبًّا ولا متطبِّبا

وريب حصنا بعْدَ أن كان آبياً　　أُبُوَّة حِصْنٍ فاستقالَ وأعتَبَا

أقِمْ فى بنى بدرٍ ولا ما يهمنا　　إذا ماانقضَّتْ حربُنا أنْ تطربا

وقال عوف بن محلِّمٍ[(٢)] ، حين رأى الملك : إنَّه ربى وربُّ الــكعبة . وزوجُه أمُّ أناس بنت عَوف .

وكما تركوا أن يقولوا لقُوّام الملوك السَّدَنة وقالوا الحَجَبَة[(٣)] .

وقال أبو عُبيدة معْمر بن المثَّى عن أبى عبد الرحمن يونس[(٤)] بن حبيب النحوى حين أنشدَه شعر الأسدِىّ :

ومركضة صريحى أبوها　　تهان لهـا الغلامة والغلام[(٥)] ١٦١

---

(١) حرب الفساد كانت فى الجاهلية بين جديلة والغوث . وانظر خمسة دواوين العرب ١٠٧ والأغانى (١١ : ١٢٧) وأمثال الميدانى (٢ : ٣٥٨) .

(٢) هو الذى يقال فيــه : « لاحربوادى عوف » أمثال الميدانى ٢ : ١٦٧ وهو من بنى ذهل بن شيبان ، ومن أشراف العرب فى الجاهلية توفى نحو ٤٥ ق. هـ. قاموس الأعلام ٧٤٧ . وهو غير عوف بن محلم الخزاعى فإن هــذا إسلامى كان ينادم طاهر بن الحسين وابنه عبد الله ، وفارقه بقصيدته المشهورة التى فيها .

إن الثمــانيــن وبلغتها　　قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

(٣) فى الأصل « بالسدنة وقالوا لجحية » وهو تحريف .

(٤) فى الأصل « عن أبى عبــد الرحمن بن يونس » وكلمة « ابن » مقحمة ، فإن أبا عبد الرحمن كنية يونس بن حبيب كما فى بغية الوعاة ٩٣٥ والمعارف ٢٣٥ وقد أخذ عنه أبوعبيدة كمافى البغية ٣٩٥ توفى يونس سنة ١٨٢ عن ثمان وثمانين سنة .

(٥) الجوهرى : صريح : اسم فحل منجب . وأنشد هذا البيت .

قال فقلت له : فتقول : للجارية غلامة ؟ قال : لا ، هذا من الكلام المتروك ، وأسماؤه زالت مع زوال معانيها ، كالمِرباع والنَّشيطة وبقى[١] الصَّفايا، فالمرباع : رُبع جميع الغنيمة الذى كان خالصاً للرئيس ، وصار فى الإسلام الخمس ، على ماسنَّه الله تعالى . وأما النشيطة فإنَّه كان للرئيس أن ينشط عندقِسمة المتاع العِلْقَ النفيسَ يراه إذا استحلاه. وبقى[١] الصَّفِيّ وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من كل مَغْنم ، وهو كالسيف اللَّهذَم[٢] والفرسِ العتيق ، والدرع الحصينة ، والشىء النادر .

وقال ابن عَنَمة الضبّى[٣] حليف بنى شَيبان ، فى مرثيته بِسطام ابن قيس :

لك المِرباعُ منها والصَّفايا وحُكْمُك والنَّشِيطَةُ والفُضولُ

والفُضول : فضول المقاسم ، كالشىء إذا قسم وفضَلت فَضلةٌ استهلكت ، كاللؤلؤة ، والسيف ، والدِّرْع ، والبيضة ، والجارية ، وغير ذلك .

(كلمات إسلامية محدثة)

وأسماء حدثت ولم تكن ، وإنَّما اشتقَّت لهم من أسماء متقدِّمة ، على التشبيه ، مثل قولهم لمن أدرك الجاهليَّة والإسلام مُخَضرم كأبى رجاء العُطاردىّ[٤] ، بن سالمة[١] ، وشقيق بن سالمة ؛ ومن الشعراء النابغة الجَعدىُّ

---

(١) كذا

(٢) س : « الهذام » وهما بمعنى .

(٣) ط : « ابن غنمة » وصوابه فى س . وابن عنمة هذا هو عبد الله ، وهو ممن شهدالقادسية، والبيت منأبيات ثمانية رواها أبوتمـام فى الحماسة ١ : ٤٢٠ .

(٤) لأبى رجاء ترجمة فى الاصابة ج ٧ : ٧٢ واسمه عمران بن ملحان أو ابن تيم .

وابن مقبل ، وأشباههم من الفقهاء والشعراء . ويدلُّ على أنَّ هذا الاسم أحدث فى الإسلام ، أنَّهم فى الجاهليّة لم يكونوا يعلمون أنَّ ناساً يسلمون وقد أدركوا الجاهليَّة ، ولا كانوا يعلمون أنَّ الإسلام يكون .

ويقال إنَّ أوّلَ من سمَّى الأرضَ التى لم تُحفَر قطُّ ولم تحرثْ إذا فعل بها ذلك مظلومة ، النابغةُ حيث يقول :

إلاّ الأواريّ لَأْياً ما أبيِّنُها والنؤىَ كالحَوضِ بالمظلومَةِ الجَلَدِ

ومنه قيل سِقاء مظلوم إذا أعجل عليه قبل إدراكه . وقال الحادرة :

ظَلَمَ البِطاحَ له انهلالُ حَرِيصةٍ فصفَا النِّطافُ له بُعيْدَ المَقْلَعِ

وقال الآخر :

قالتْ له ميٌّ بأعلَى ذِى سَلَمْ لو ماتَزُورُنا إذا الشَّعْبُ ألمّْ

* ألا بلَى يامىّ واليومُ ظُلَمْ [1] *

يقول ظلم حين وضعَ الشىءَ فى غير موضعه . وقال الآخر : ١٦٢

* أنا أبو زينب واليومُ ظُلَمْ [2] *

وقال ابن مقبل :

عادَ الأذلَّةُ فى دارٍ وكان بها هُرتُ الشَّقاشِقِ ظَلاَّمونَ للجزُرِ

وقال آخر :

وصاحبِ صدقٍ لم تنلنى أذاته ظلَمْتُ وفى ظُلْمِى له عامدًا أجْرُ

وقال آخر :

لايَظلِمون إذا ضِيفوا وِطابَهُمُ وهم لجودهمُ فى جُزْرِهِم ظلمُ

---

(١) اليوم ظلم : أى حقا كما تقول لاجرم أى حقا . وانظر اللسان (ظلم) والرجز فيه

(٢) فى الأصل « والنوم ظلم » وانظر التنبيه السابق .

وظلم الجزور أن يعرقبوها ، وكان فى الحقّ أن تُنحر نحراً . وظلمهم الجزُر[1] أيضاً أن ينحروها صحاحا سماناً لاعلّة بها .

قال : ومن ذلك قولهم الحرب غشوم ؛ وإنَّما سمِّيت بهذا لأنَّها تنال غير الجانى .

قال : ومن ذلك قولهم : « مَنْ أَشْبَهَ أباهُ فما ظَلَمَ » يقول : قد وضع الشبه فى موضعه .

ومن المحدَثِ المشتقّ ، اسم منافق لمن رَاءَى بالإسلام واستسرّ بالكفر أُخذ ذلك من النافقاء والقاصعاء والداماء[2] ، ومثل المشرك والكافر، ومثل التيمُّم. قال الله تعالى:﴿ فتيَمَّمُوا صَعِيدًا طيِّبًا ﴾ أى تحرَّوْا ذلك وتوخَّوْه . وقال : ﴿فامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنه﴾ فكثُر هذا فى الكلام حتّى صار التيمُّم هو المسح نفسُه . وكذلك عادتهم وصَنيعهم فى الشىء إذا طالتْ صُحبتهم وملابستهم له[3] .

وكما سمَّوا رَجِيع الإنسان الغائط ، وإنَّما الغيطان البطون التى كانوا ينحدرون فيها إذا أرادوا قضاء الحاجة للستر .

ومنه العَذِرة ، وإنَّما العِذرة الفناء ، والأفنية هى العَذِرات ، ولكن لما طال إلقاؤهم النَّجْو والزِّبل فى أفنيتهم ، سمِّيت تلك الأشياء التى رَموا بها ، باسم المكان الذى رميت به . وفى الحديث : « أَنْقُوا عَذِرَاتِكم »
وقال ابن الرقيات :

رَحِمَ اللهُ أَعْظُماً دفَنُوها بِسِجِسْتَانَ طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ[4]

---

(١) فى الأصل « الجزور » والوجه الجمع .
(٢) هى من أسماء حجرة اليربوع السبع . انظر اللسان (دمم) .
(٣) فى الأصل : « صحبته وملابسته له » .
(٤) طلحة الطلحات ، هو طلحة بن عبد الله الخزاعى ، أحد أجواد العرب توفى سنة ٦٥ وانظر ص ٢٥٥ .

كان لايحجبُ الصديقَ ولا يه   تَلُّ بالبخلِ طيِّبَ العَذِرَاتِ

ولـكنَّهم لـكثرةِ ما كانوا يُلقُون نجوَهم فى أفنيتهم سموها باسمها .

١٦٣ ومنه النّجو: وذلك أنّ الرجل كان إذا أراد قضاء الحاجةِ تستَّر بنجوة. والنّجو : الارتفاع من الأرض قالوا من ذلك ذهب ينْجُو ، كما قالوا ذهب يتغوّط إذا ذهب إلى الغائط لذلك الأمر ، ثمّ اشتقوا منه فقالوا إذا غسل موضع النجو قد استنجى .

وقالوا ذهب إلى المخرَج ، وإلى المتوضَّأ ، وإلى المذهب ، وإلى الخلاء ، وإلى الحشّ ، وإنّما الحشّ القطعةُ من النَّخل وهي الحِشّان ، وكانوا بالمدينة إذا أرادوا قضاء الحاجة دخلوا النخل ؛ لأنّ ذلك أستر ، فسموا المتوضأ الحشّ ، وإن كان بعيداً من النخل ؛ كلّ ذلك هربا من أن يقولوا ذهب للخَرْءِ ، لأنّ الاسم الخرء، وكل شيء سواه من[1] ورجيع وبراز وزِبل وغائط فكله كناية .

ومن هذا الباب المَلّةُ ، والمَلّة موضع الخُبْزة ، فسموا الخُبْزة باسم موضعها . وهذا عند الأصمعيّ خطأ .

ومن هذا الشكل الراوية ، والراوية هو الجمل نفسه ، وهو حامل المزادة فسمِّيت المزادة باسم حامل المزادة . ولهذا المعنى سمَّوا حاملَ الشعر والحديث راوية .

ومنه قولهم : ساق إلى المرأة صَداقها . قالوا : وإنّما كان يقال ذلك

---

(١) فى الأصل فراغ يتسع لـكلمة واحدة .

حين كانوا يدفعون فى الصَّدَاق إبلا ، وتلك الإبل يقال لها النافجة .

وقال شاعرهم :

وليس تِلادى من وِراثةِ والدى ولا شادَ مالِى مُستَفاد النوافِجِ

وكانوا يقولون : تَهنِيك النافجة . قال : فإذا كانوا يدفَعون الصَّدَاقَ عينا ووَرِقا فلا يقال ساق إليها الصَّداق .

ومن ذلك أنَّهم كانوا يضربون على العروس البناء ، كالقبَّة والخَيمة والخيام [1] ، على قدر الإمكان ، فيقال بنى عليها ، اشتقاقاً من البناء ، ولا يقال ذلك اليوم . والعروس إمَّا أن تكون مقيمةً فى مكانها أوْ تتحوّل إلى مكان أقدم من بنائها .

قال : ومن ذلك قولهم فى البَغىّ المكتسِبة بالفُجور قَحْبة ، وإنَّما القُحَاب السعال . وكانوا إذا أرادوا الكناية عن من زنَتْ وتكسَّبت بالزنا ، قالوا قحبت أى سعلت ، كناية . وقال الشاعر :

* إنَّ السُّعالَ هُوَ القُحَاب *

[وقال] [2] :

وإذا ماقَحَبت واحــــدةٌ جاوبَ المبعِدُ منها [3] فَخَضَف

وكذلك كان كنايتهم فى انكشاف عورة الرجل ، يقال كشف علينا متاعَه وعَورته وشواره . والشَّوار: المتاع [4] . وكذلك الفرج وإنَّما [يعنون] [5] الإير والحِرَ والاسْت .

---

(١) كذا فى ط ، س ، م .

(٢) زيادة يقتضيها الكلام .

(٣) ط : «فقحب» وأثبت ماقى س و م ومعنى خضف فى القاموس .

(٤) فى القاموس : « والشوار مثلثة : متاع البيت » .

(٥) زيادة يقتضيها الكلام .

(كلمات للنبي صلى الله عليه وسلم ، لم يتقدمه فيهن أحد)

١٦٤ وكلماتٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، لم يتقدَّمْه فيهنَّ أحد : من ذلك قوله : « إذًا لاينتَطِحُ فيها عَنْزان » ومن ذلك قوله : « ماتَ حتْفَ أنفه » ومن ذلك قوله : « ياخيلَ الله اركَبى » ومن ذلك قوله : « كلُّ الصَّيدِ فى جَوفِ الفَرا » وقولهَ : « لايُلسعُ المؤمنُ من جُحْرٍ مرتين » .

(شنشنة أعرفها من أخزم)

وقال عمر رضى الله تعالى عنه : «شِنْشِنَةٌ أعرِفها من أخزم» يعنى شبه ابن العبَّاس بالعبَّاس . وأخزَم فحل معروف بالكرم .

(ما يكره من الكلام)

وأما الكلام الذى جاءت به كرَاهيةٌ من طريق الروايات ، فروى عن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « لايقولَنَّ أحدُكم خَبُثت نَفسى ولكن ليقلْ لَقِسَت نفسى » كأنه كره صلى الله عليه وسلم أن يضيف المؤمنُ الطاهرُ إلى نفسه الخُبث والفساد بوجهٍ من الوجوه .

وجاء عن عمر ومجاهد وغيرهما النهىُ عن قول القائل : استأثَر اللهُ بفُلان ، بل يقال مات فلان . ويقال [1] استأثرَ الله بعلم الغيب واستأثر الله بكذا وكذا .

---

(١) ط : « ولا يقال » وصوابه فى ل .

قال النَّخَعيّ : كانوا يكرهون أن يقال : قراءة عبد الله ، وقراءة سالم وقراءة أُبَيّ ، وقراءة زيد . وكانوا يكرهون أن يقولوا سنَّة أبي بكر وعمر ، بل يقال سنَّة الله وسنَّة رسوله ، ويقال فلان يقرأ بوجه كذا ، وفلان يقرأ بوجه كذا .

وكره مجاهد أن يقولوا مُسيجِد ومُصيحِف ، للمسجد القليل الذَّرْع ، والمصحف القليل الورق . ويقول : هم وإن لم يريدوا التصغير فإنَّه بذلك شبيه .

(وجوه تصغير الكلام)

وربَّما صغَّروا الشيء من طريق الشفَقة والرِّقَّة ، كقول عمر : أخافُ على هذا العُرَيب . وليس التصغيرَ بهم يريد . وقد يقول الرجل : إنَّما فلانٌ أُخَيّ وصُدَيِّقي ، وليس التصغير له يريد . وذكر عمر ابنَ مسعود فقال : كُنَيِّفٌ مُلِئَ علما . وقال الحباب بن المنذر[1] يوم السَّقيفة : أنا جُذَيْلها المحكَّك ، وعُذَيْقُها المرجَّب . وهذا كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم لعائشة: الحُميراء ، وكقولهم لأبي قابوسَ الملك : أبو قُبَيس . وكقولهم : دبَّت إليه دويهيةُ الدهر ، وذلك حين أرادوا لطافة المدخل ودقَّة المسلك .

---

(١) في الأصل « سلمة بن سلامة بن وقش » وقائل القول الآتي هو الحباب بن المنذر كما هو معروف ، وكما كتبه الجاحظ في البيان ٣ : ١٧١ في حديث يوم السقيفة . وانظر تاريخ الخضري ١ : ٢٠٣ .

ويقال إنّ كلّ فُعيل فى أسماء العرب فإنّمـا هو على هذا المعنى ، كقولهم المُعَيْدِىّ ، وكنحو سُليم ، وضُمَير ، وكُليب ، وعُقَير ، وجُعيل ، وحُميد ، وسُعيد ، وجُبير؛ وكنحوعُبيد ، وعُبيد الله، وعُبيد الرماح(١). وطريق التحقير والتصغير إنّما هو كقولهم : نُجيل ونُذيل . قالوا : ورُبَّ اسمٍ إذا صغَّرْتَه كان أملأ للصَّدْر ، مثل قولك أبو عبيد الله ، هو أكبر فى السماع من أبى عبدالله
وكعب بن جُعَيل ، هو أفخم من كعب بن جعل . وربّما كان التصغير خِلقة ١٦٥
وبِنية ، لا يتغيّر ، كنحو الحُمَيَّا والسُّكَيْتِ ، وجُنَيدة ، والقطيعا ، والمريطاء ، والسُّميراء ، والمليساء — وليس هو كقولهم القصَيْرى ، وفى كبيدات السماء والثريّا .

وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : دقَقت البابَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : من هذا ؟ فقلت : أنا . فقال : أنا ! كأنّه كرِه قولى أنا .

وحدّثنى أبو علىٍّ الأنصارى ، وعبد الـكَريم الغِفَارىّ قالا : حدَّثنا عيسى بن حاضر قال : كان عمرو بن عُبيد(٢) يجلس فى دَارِه ، وكان لا يَدَع بابَهُ مفتوحا ، فإذا قرعه إنسان قامَ بنفسه حتَّى يفتحه له . فأتيتُ الباب يومًا فقرعتْه فقال : من هذا ؟ فقلت : أنا . فقال : ما أعرِف أحداً يسمَّى أنا . فلم أقُلْ شيئاً وقمتُ خلفَ الباب ، إذ جاء رجلٌ من أهل

(١) كذا .

(٢) ط : « عبيدة » وصوابه فى س وعمرو هذا من شيوخ المعتزلة ، وأحد الزهاد المشهورين وله أخبارمع المنصور، توفى بمران سنة ١٤٤ هـ ورثاه المنصور ، قالوا ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه . تاريخ بغداد ١٢ : ١٦٦ والمعارف ٢١٢

خُراسان فقرَع الباب ، فقال عمرو : مَن هذا ؟ فقال : رجلٌ غريبٌ قِدم عليك ، يلتمس العلم فقام له ففتح له الباب ، فلمّا وجدْتُ فرجةً أردت أن ألج الباب ، فدفَع البابَ فى وجهى بعُنف ، فأقمتُ عنده أيّاما [1] ثم قلت فى نفسى : والله إنّى يومَ أتغضَّب على عمرو بن عبيد ، لَغيرُ رشيدِ الرأى . فأتيتُ البابَ فقرعته عليه فقال : من هذا ؟ فقلت : عيسى بن حاضر فقام ففتح لى الباب .

وقال رجل عند الشعبىّ : أليس الله قال كذا وكذا ؟ قال : وما عَلَّمَك ؟

وقال الربيع بن خيثم : اتقُوا تكذيب الله ، ليتّق أحدكم أن يقولَ قال الله فى كتابه كذا وكذا ، فيقول الله كذبتَ لم أقلْه

وقال عمر بن الخطَّاب رضى الله تعالى عنه : لايقل أحدُكم أهرِيقُ الماء ولكن يقول أبول ؟

وسأل عمرُ رجلا عن شىء ، فقال : الله أعلم ، فقال عمر : قد خَزِينا إن كُنّا لانعلم أنّ الله أعلم . إذا سُئِلَ أحَدُكم عن شىء فإن كان يعلمه قاله ، وإن كان لايعلمه قال لاعلم لى بذلك .

وسمعَ عمر رجلاً يدعو ويقول ، اللهمَّ اجعلْنى من الأقلِّين ! قال ؛ ماهذا الدعاء ؛ قال ، إنّى سمعت الله عزّ وجلّ يقول : ﴿ وقليلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُور ﴾ وقال : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلاَّ قَلِيلٌ ﴾ قال عمر : عليك من الدعاء بما يُعرَف .

وكره عمر بن عبدالعزيز قولَ الرجل لصاحبه : ضعْه تحت إبطِك ، وقال :

---

(١) كذا .

هلاَّ قلتَ تحت يدك وتحت مَنكِبك ! وقال مَرّةً ـ ووراثَ فرسٌ بحضْرة سليمان ـ [١] فقال : ارفَعوا ذلك التَّثيل . ولم يقل ذلك الرَّوث .

وقال الحجَّاج لأم عبد الرحمن بن الأشعث [٢] عَمَدْتِ إلى مَالِ الله فوَضَعَته تحْتَ . كأنَّه كره أن يقول على عادة الناس : تحت استك ، ١٦٦
فتلجلج خوفاً من أن يقول قَذَعًا أو رَفَثا ، ثمّ قال : تحتَ ذيلِك .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لايقولَنَّ أحدُكم لمملوكه عَبْدِى وأَمَتى، ولـكنْ يقول: فتاىَ وفتاتى ، ولا يقولُ المملوكُ ربِّي وربَّتِى ، ولـكن يقول سيِّدى وسيِّدَتى » .

وكره مُطرِّف بن عبد الله ، قولَ القائل للـكلب : اللّهُمّ أخزِه .

وكره عِمران بن الحُصين ، أن يقولَ الرَّجلُ لصاحبه : أنعَمَ اللهُ بك عيناً ؛ ولا أنعَمَ اللهُ بك عيناً .

وقد كرهوا أشياءَ ممَّا جاءت فى الروايات لاتُعرَف وجوهها ، فرأى أصحابنا لايكرهونها [٣] . ولا نستطيع الردَّ عليهم ، ولم نسمع لهم فى ذلك أكثرَ من الـكراهة . ولو كانوا يروُون الأمورَ مع عللها وبرهاناتها خَفَّت المؤنة . ولـكنّ أكثر الروايات مجرَّدة ، وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دونَ حكاية العلة ، ودون الإخبار عن البرهان . وإن كانوا قد شاهدوا النوعين مشاهدةً واحدة .

---

(١) هو سليمان بن عبد الملك ، وكان سليمان استوزر عمر ، وولى عمر الخلافة بعده بعهد منه .

(٢) فى الأصل « الأشعب » وهو تحريف . وكان لعبد الرحمن حروب قاوم فيها الحجاج وانتهت بقتل عبد الرحمن سنة ٨٥ هـ كان أهمها وقعة دير الجماجم التى دامت مائة وثلاثة أيام .

(٣) كذا .

قال ابن مسعود وأبو هريرة : « لاتسمُّوا العِنَبَ الكَرْم ؛ فإنَّ الكَرَمَ هو الرجلُ المسلم » وقد رفعوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

وأمّا قوله : « لاتسبُّوا الدَّهرَ فإنَّ الدهر هو الله » فما أحسن ما فسَّر ذلك عبد الرحمن بن مهدىّ (١) قال : وجهُ هذا عندَنا ، أنَّ القوم قالوا : ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إلاَّ الدَّهْرُ ﴾ فلما قال القوم ذلك ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : ذلك الله. يعنى أنَّ الذى أهلك القرونَ هو الله عزَّ وجلَّ ، فتوهم منه المتوهمّ أنّه إنما أوقع الكلام على الدهر .

وقال يونس : وكما غلطوا فى قول النبي صلى الله عليه وسلم لحسَّان « قُلْ ومَعَك رُوح القُدُس » فقالوا : قال النبي صلى الله عليه وسلم لحسَّان قُلْ ومَعَك جِبريل ؛ لأنَّ روح القدوس أيضاً من أسماء جبريل . ألا ترى أنّ موسى قال : ليتَ أنّ رُوحَ الله مع كلّ أحد ، وهو يريد العصمة والتوفيق: والنصارى تقول للمتنبِّي : معه روح دكالا (٢) ، ومعه روح سيفرت (٣) . وتقول اليهود : معه روح بِاْعَرْبوث (٤) ، يريدون شيطانا . فإذا كان نبيا قالوا: روحه روح القدس ، وروحه روح الله ، وقال الله عزَّ وجلّ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ﴾ يعنى القرآن .

---

(١) هو أبو سعيد عبد الرحمن بن مهدى بن حسان العنبرى البصرى من أئمة حفاظ الحديث . قال الشافعي : لا أعرف له نظيراً فى الدنيا توفى بالبصرة ١٩٨ هـ

(٢) فى رسائل الجاحظ ١٠٤ : « دلالا » .

(٣) فى الرسائل « شيفرة » .

(٤) فى الرسائل « بلعد بوث » .

وسمع الحسن رجلاً يقول : طلع سُهيل وبَرُد الليل . فكره ذلك وقال : إنّ سهيلاً لم يأتِ بحرّ ولا ببردٍ قطُّ . ولهذا الكلام مجازٌ ومذهب ، وقد كره الحسنُ كما ترى .

وكره مالك بن أنس أن يقولَ الرجُلُ للغيم والسحابة : ماأخلقها للمطر ! وهذا كلام مجازه قائم ، وقد كرهه ابن أنس. كأنّهم من خوفهم عليهم العودَ في شيء من أمر الجاهليّة ، احتاطوا في أمورهم ، فمنعوهم من الكلام الذي فيه ١٦٧ أدنى متعلّق .

ورووا أنّ ابنَ عبّاسٍ قال : لاتقولوا والذي خَاتَمه على فمي ، فإنّما يختِم الله عز وجل على فم الكافر . وكره قولهم : قوس قُزَح . وقال : قزح شيطان ، وإنّما ذهبوا إلى التعويج والتلوين ، كأنّه كره ما كانوا عليه من عادات الجاهليّة . وكان أحَبَّ أن يقال قوس الله ، فيرفع من قدره ، كما يقال بيت الله ، وزُوّار الله ، وأرض الله ، وسماء الله ، وأسد الله[1] .

وقالت عائشة رضي الله عنها : قولوا لرسول الله صلى اُلله عليه وسلم خاتَم النبيين ، ولا تقولوا : لانَبيَّ بعده ، فإلاّ تكنْ ذهبت إلى نزول المسيح فما أعرف له وجهاً إلاّ أن تكُون قالت لاتغيّروا ماسمعتم ، وقولوا كما قيل لكم ، والفِظوا بمثله سواء

وكره ابنُ عمر رضي اُلله عنهما قول القائل : أسلمت في كذا وكذا ، وقال : ليس الإسلام إلاّ للهِ[2] عزّ وجلّ . وهذا الكلام مجازُه عند الناس سهل ، وقد كرهه ابنُ عمر ، وهو أعلم بذلك .

---

(١) انظر مثل هذا الكلام في الحيوان٢ : ٦٦ وكذا ثمار القلوب ٨ — ٢٨ حيث فسر الثعالبي ماأضيف إلى لفظ الجلالة .

(٢) في الأصل : « الله » .

وكره ابنُ عبّاسٍ رضى الله عنهما قولَ القائل : أنا كسلان .

وقال عمر : لاتسمّوا الطريق السِّكَّة .

وكره أبو العالية قول القائل: كنت فى جِنازة ، وقال : قل تبِعت جنازة كأنَّهُ ذهب إلى أنَّه عنى أنَّه كان فى جوفها ، وقال قل تبعت جنازة . والناس لايريدون هذا ، ومجاز هذا الكلام قائم ، وقد كرهه أبو العالية ، وهى عندى شبيهٌ بقول من كره أن يقول : أعطانى فلان نصف درهم .

وقال : إذا قلت : كيف تكيل الدقيق ؟ فليس جوابه أن تقول : القَفيز بدُنَيْنير ، ولكن يتناول القفيز ثم يكيل به الدقيق ، ويقول: هكذا الكيلة. وهذا من القول مسخوط !

وكره ابن عبّاس قول القائل : الناس قد انصرفوا، يريد من الصلاة ، قال بل قولوا : قد قضَوُا الصلاة ، وقد فرَغوا من الصلاة ، وقد صلَّوْا ؛ لقوله : ﴿ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ قال : وكلام الناس كان ذلك حين انصرفنا من الجنازة ، وقد انصرفوا من السوق ، وانصرف الخليفة، وصرف الخليفةُ الناسَ من الدار اليومَ بخير ، وكنت فى أوّل المنصرفين ، وقد كرهه ابن عبّاس . ولو أخبرونا بعلّتِه انتفعنا بذلك .

وكره حَبيب بن أبى ثابت ، أن يقال للحائض طامِث ، وكره مجاهد قول القائل : دخل رمضان، وذهب رمضان. وقال: قولوا شهر رمضان ، فلعلّ رمضان اسم من أسماء الله تعالى .

قال أبو إسحاق: إنما أُتى من قِبل قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى

أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ فقد قال الناس يوم التَّروية، ويوم عرَفة ولم ١٦٨
يقولوا عرفة.

(رأى النظَّام فى طائفة من المفسرين
وصور من تكلفهم فى التأويل)

كان أبو إسحاق يقول: لا تسترسلوا إلى كثير من المفسِّرين، وإن نصَبوا أنفسَهم للعامَّة، وأجابوا فى كلّ مسألة؛ فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية على غير أساس، وكلَّما كان المفسِّر أغربَ عندَهم كان أحبَّ إليهم، وليكن عندكم عِكْرِمةُ، والكلبىُّ، والسُّدِّى، والضَّحاك، ومقاتل بن سليمان، وأبو بكر الأصمّ، فى سبيل واحدة. فكيف أثق بتفسيرهم (١) وأسكن إلى صوابهم، وقد قالوا فى قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾: إنّ الله عزّ وجلّ لم يعن بهذا الكلام مساجدَنا التى نصلِّى فيها، بل إنَّما عَنَى الجباهَ وكلّ ماسجد الناس عليه: من يدٍ ورجلٍ وَجَبْهةٍ وأنفٍ وثَفِنَةٍ.

وقالوا فى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾: إنه ليس يَعنى الجمال والنُّوقَ، وإنَّما يَعنى السحاب.

وإذا سُئلوا عن قوله: ﴿وطَلْحٍ مَنْضُود﴾ قالُوا: الطلح هو الموز.

وجعلوا الدليلَ على أنَّ شهر رمضانَ قد كان فرضاً على جميع الأمم وأنّ الناس غيَّروه، قولَهُ تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾!

---

(١) فى الأصل «بتفسير».

وقالوا فى قوله تعالى : ﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً ﴾ قالوا : يعنى أنّه حَشَرَهُ بِلاَ حجّة .

وقالوا فى قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ : الويل وادٍ فى جهنم . ثم قَعَدُوا يصِفون ذلك الوادى . ومعنى الويْلِ فى كلام العرب معروف ، وكيف كان فى الجاهليّة قبل الإسلام ، وهو من أشهر كلامهم ! .

وسئلوا عن قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ قالوا : الفلَق وادٍ فى جهنم ، ثمَّ قعدوا يصِفونه . وقال آخرون : الفلق المِقْطَرَة [1] بلغه اليمن .

وقال آخرون فى قوله تعالى: ﴿عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ﴾ قالو : أخطأ من واصلَ بعض هذه الكلمة ببعض . قالو : وإنّما هى : سَلْ سبيلاً إليها يامحمد . فإن كان كما قالوا فأين معنى تسمَّى ، وعلى أىِّ شىء وقع قوله تسمَّى فتسمّى ماذا ، وما ذلك الشىء ؟

وقالوا فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ﴾ قالوا الجلود كناية عن الفروج . كأنه كان لايرَى أنَّ كلام الجِلد من أعجب العجب ! .

وقالوا فى قوله تعالى : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾: إنَّ هذا إنَّما كان كنايةً عن الغائط . كأنه لايرى أنَّ فى الجوع وما ينال أهلَه من الذِّلَّة والعجزِ والفاقة ، وأنَّه ليس فى الحاجة إلى الغذاء — مايُكتَفَى بِهِ فى الدَّلالة على أنّهما مخلوقان ، حتَّى يدَّعى على الكلام ويدَّعى له شيئاً قد أغناه الله تعالى عنه .

---

(١) فى القاموس : المقطرة : المجمرة ، وخشبة فيهاخروق على قدر سعة رجل المحبوسين

وقالوا فى قوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ : إنَّه إنما عنَى قلبه . ١٦٩

ومن أعجب التأويل قول اللَّحيانى : (الجبّار) من الرجال يكون على وجوه : يكون جبّاراً فى الضِّخَم والقوّة ، فتأوّل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ قال : ويكون جبّاراً على معنى قتّالا ، وتأوّل فى ذلك : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ ، وقولَه لموسى صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فى الْأَرْضِ ﴾ أى قتّالاً بغير حقّ . والجبارُ : المتكبِّر عن عبادة الله تعالى ، وتأوّل قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا ﴾ [1] ، وتأوّلَ فى ذلكَ قول عيسى : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أى لم يجعلنى متكبِّرًا عن عبادته ، قال : الجبّار : المسلَّط القاهر ، وقال : وهو قوله ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ أى مسلّط فتقهرهم على الإسلام . والجبّار : الله .

وتأوّل أيضاً (الخوف) على وجوهٍ ، ولو وجدَه فى ألفِ مكانٍ لقال : والخوفُ على ألف وجه ، وكذلك الجبار . وهذا كله يرجِع إلى معنًى واحد ؛ إلاَّ أنّه لايجوز أن يوصَف به إِلاَّ الله عزَّ وجلَّ .

(تكلف بعض القضاة فى أحكامهم)

وقال رجل لعُبيد الله بن الحسَن القاضى [2] : إنّ أبى أوصى بثُلث مالِه فى الحصون قال : اذهبْ فاشترِ به خيلاً : فقال الرجل : إنّه إنّما ذَكَر الحصونَ ! قال : أما سمعتَ قول الأَسْعَر الجُعْفِىّ :

---

(١) هو عبيد الله بن الحسن بن حصين العنبرى ، قاض من الفقهاء العلماء بالحديث من أهل البصرة وتوفى بها سنه ١٦٨ هـ .

(٢) فى الأصل : « ولم أك » وليس فى الكتاب آية بهذا الرسم . مريم ١٤ .

ولقد علمتُ على تجنُّبِيَ الرَّدى (١) أنَّ الحصونَ الخيلُ لا مَدَرُ القُرَى

فينبغي في مثل هذا القياس على هذا التأويل، أنَّه ما قيل للمدن والحصون حصون إلاَّ على التشبيه بالخيل.

وخبَّرني النوشراني قال: قلت للحسن القاضي: أوصى جدِّي بثلث ماله لأولاده، وأنا من أولاده، قال: ليس لك شيء. قلت: ولِمَ؟ قال: أو ما سمعت قول الشاعر (٢):

بنُونا بنو أبنائِنا وبناتُنا بنُوهُنَّ أبناءُ الرِّجالِ الأباعِدِ

قال: فشكوت ذلك إلى فلان فزادني شرًّا.

وقالوا في قوله: مَاسَاءَكَ ونَاءَكَ: [ناءك]: أبعدك، قالوا. وساءك (٣) أبرصك قال: لقوله تعالى: ﴿تَخْرُجْ بيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سوءٍ﴾ وبئس التكلُّف.

وقال ابن قميئة (٤):

وحمَّال أثقالٍ إذا هي أعْرَضت على الأصل لا يَستطِيعُها المتكلِّفُ

وقال الله وهو يخبر عن نبيِّه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ﴾.

وليس يُؤْتَى القوم إلاَّ من الطمع، ومن شدَّةِ إعجابهم بالغريب من التأويل.

---

(١) في ط: « الورى » وهو تحريف ما في س.

(٢) هذا البيت الآتي مع كثرة الاستشهاد به في كتب العربية وفي كتب العروض، لم يعرف له قائل، كما صرح بذلك العيني، والسيوطي في شرح شواهد المغني ٢٨٧. لكن وجدت البغدادي في الخزانة ١: ٤٠٢ قد نقل عن الكرماني أن قائله هو الفرزدق.

(٣) ط « ماساءك وثاءك » وتصحيحه من س. وقد زدت الكلمة التي بين معكفين ليستقيم الكلام. وفي ط « برصك » وصوابه في س.

(٤) ط: « ابن قتة » وصوابه « قميئة » والبيت في البيان ٢: ٣٠.

(رأى فى أبى حنيفة)

وسئل حَفص بن غِياث ، عن فقه أبى حنيفة ، فقال : أعلم الناس بما لم يكنْ ، وأجهلُ الناس بما كان! .

وقالوا في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ قالوا : النعيم الماء الحارّ في الشتاء ، والبارد فى الصيف . ١٧٠

(الصَّرورة)

ومن الأسماء المحدَثة التى قامت مقامَ الأسماء الجاهليّة ، قولهم فى الإسلام لمنْ لم يحجّ : صَرورة . وأنتَ إذا قرأتَ أشعارَ الجاهلية وجدتَهم قد وضعوا هذا الاسمَ على خلافِ هذا الموضع . قال ابن مَقرومٍ الضَّبّىّ [١] :

لو أنَّها عرَضَتْ لأَشْمطَ راهبٍ ... عَبد الإلَهَ صَرُورةٍ مُتَبَتِّل

لدنا [٢] لبهْجَتِها وحُسْنِ حَديثِها ... ولَهَمَّ من تَامُورِه بتنزُّل

والصرورة عندهم إذَا كانَ أرفعَ الناسِ فى مراتب العبادة ، وهو اليومَ اسمٌ للذى لم يَحجَّ إمَّا لعجزٍ ، وإمَّا لتضييعٍ و إمَّا لإنكار [٣] . فهما مختلفان كما ترَى .

---

(١) هو : ربيعة بن مقروم بن قيس الضبى من مخضرمى الجاهلية والإسلام ، وهو من شعراء الحماسة ، وشهد وقعة القادسية سنة ١٦ وتوفى نحو سنة ٢٠ .

(٢) هى فى شعر شبيه بهذا للنابغة « لرنا » .

(٣) فى الأصل « وأما الإنكار » .

(ألفاظ القرآن الكريم)

فإذا كانت العرب يشتقُّون كلامًا من كلامهم وأسماء من أسمائهم ، واللغة عارية في أيديهم ممَّن خلقهم ومكَّنهم وألهمهم وعلَّمهم ، وكان ذلك منهم صواباً عند جميع الناس ؛ فالذى أعارهم هذه النِّعمةَ أحقُّ بالاشتقاق وأوجبُ طاعةً . وكما أنَّ له أن يبتدئ الأسماء ، فكذلك له أن يبتدئها ممَّا أحَبَّ . قد سمَّى كتابَه المنزلَ قرآناً ، وهذا الاسم لم يكنْ حتى كان ، وجعل السجودَ للشمس كفراً ، فلا يجوز أن يكون السجود لها كفراً إلاَّ وترك ذلك السجود بعينه يكون إيماناً ، والترك للشيء لا يكون إلاَّ بالجارحة التى[1] كان بها الشيء ، وفى مقداره من الزمان ، وتكون بدلاً منه وعقبا . فواحدةٌ أن يسمَّى السجود كفراً ، وإذا كان كفراً كان جحوداً وإذا كان جحوداً كان شركًا ، والسجود ليس بجَحْد ، والجحد ليس بإشراك إلاَّ أن تصرفه إلى الوجه الذى يصير [به][2] إشراكا .

(ما اشتق من نباح الكلاب وما قيل من الشعر فيه)

وقال طُفيل الغَنَوِىّ[3] :

عَوَازِبُ لَمْ تَسْمَعْ نُبُوحَ مَقامةٍ ... ولم تَرَ ناراً تِمَّ حَولٍ مجرَّم

وإنَّما أخذ ذلك للجميع من نباح الكلاب .

---

(١) فى الأصل « حق » .

(٢) كلمة يحتاج إليها القول .

(٣) البيت فى الشعراء لابن قتيبة ٦٧ منسوب إلى ابن مقبل . وفى ثمار القلوب ٤٦٢
* عوازب لم تسمع بنوح حمامة *

وذكروا أن الظَّبيَ إذا أسنَّ ونبتَتْ لقرونه شُعَبٌ نَبَح ، وهو قول أبي دُوَاد (١) :

وقصرَى شَنِجِ الأَنْسَا ءِ نَبَّاحٍ من الشعب

يعنى من جهة الشعب ، وأنشد بعضهم :

ويَنبَحُ بينَ الشعبِ نبحًا كأنّه نُبَاحِ سَلُوقٍ أبصَرَتْ مَايُرِيبُها

ويَبَّضها الهُزْل المسوَّدُ غَيْرَها كما ابيضَّ عن حَمْضِ المراحِمِ نيبُها ١٧١

لأن الظَّبيَ إذا هُزِل أبيضّ، والبعير يَشِيب وجهُه من أكل الحَمْض .

وكذلك قال ابن لَجَأ (٢) :

* شابَتْ ولم تُدْن من رِكَابها *

كما قال الآخر :

أكَلْنَ حمضاً فالوُجُوه شِيبُ شَرِبن حتّى نَزح القَلِيبُ

وقد تصير النَّاقة الحمراء إذا أتمَّت حبشيّة . ولذلك قال الشاعر :

* حمراء لاحَبَشِيّة الإتمام *

وما أشبه ذلك بقول العَبدىّ (٣) :

ودوَايتُها حتّى شتَتْ حَبَشِيَّةً كأنَّ عليها سُنْدُسا وسَدُوسا

---

(١) فى الأصل : « ابن داود » وإنما هو أبو دواد كما فى الصحاح . والقصرى : أول الأضلاع أو آخرها . وكان البيت محرفا على الوجه الآتى فصححته منه :

وقصرى سح الأتشا نباح من الشعب

(٢) هو عمر بن لجأ من بنى تيم بن عبد مناة بن أد بن طابخة ، وكان قد لج الهجاء بينه وبين جرير لتنافس حدث بينهما فى الشعر ، فكانت خصومتهما أدبية فى أول الأمر ثم استحالت إلى خصومة الفخر بالنسب ، والقبيلة . ابن سلام ١٠١ — ١٠٢ ليدن وابن قتيبه ١٦١ .

(٣) هو يزيد بن خذاق ، الاقتضاب ٤٠٠ والمفضليات ١٤٣ وانظر أدب الكاتب ٢٢٧

والدَّواء : اللبن ، فلذلك تصير الفرس إذا ألقت شعرها وطرّت ، تستديل هذا اللون .

وقال خالد بن الصَّقْعب النَّهدىّ (١) :

هَبَطْنَا بعدَ عهدك بَطْنَ خَبْتٍ ... تَظَلُّ حمامُه مثلَ الخُصُومِ
كأنَّ عرينَ أيكَتِه تَلاقَى ... به جَمْعانِ من نَبَطٍ ورُومِ (٢)
نُباحُ الهُدْهدِ الحَوْلِىِّ فيه ... كَنَبْحِ الكَلْبِ فى الأَنَسِ المُقيمِ (٣)

ويقال إنَّ الهدهد ينبَحُ . وربَّما جعلوا الهُدْهُدَ ، (الذى ينبح) ، الحمامَ الذكر . قال الشاعر — وهو يصف الحمام الذَّكرَ كيف يصنع فيها؟ — :

وإذا استترن أرَنَّ فيها هُدْهُدٌ ... مِثْلُ المَدَاكِ خَضَبْتَهُ بجِسَادِ (٤)

وقال طُفَيل فى النُّبوح والجاعات (٥) :

وأشْعَثَ تَزْهاه النُّبوح مُدَفَّعٍ ... عن الزَّادِ مِمَّا خَلَّفَ الدهرُ مُحْثَلِ (٦)

وقال الجعدىّ (٧) :

فلما دَنونا لصَوتِ النُّباحِ ... وَلا نُبْصِرُ الحىَّ إلاَّ التِمَاسَا

وقال ابن عبدل :

آليتُ إذ آليتُ مجتهدًا ... ورفعتُ صَوتا مابه بَحَحُ
لايُدْرِكُ الشعراء منزلتى ... فى الشعر إنْ سكَتُوا وإنْ نَبَحُوا

١٧٢ وقال عمرو بن كلثوم :

---

(١) قصيدة هذا الشعر رواها ابن الشجرى فى حماسته وفسرها (٢٨٩ — ٢٩١) .
(٢) فى الأصل : « عريك » و « تلاع » و « قبط » وتصحيحه من الحماسة .
(٣) هذه فى ط . وليست فى س .
(٤) ط : « وإذا استترن » المداك : حجر يسحق عليه الطيب . والجساد : الزعفران .
(٥) فى الأصل « الجاعات » .
(٦) المحثل : السيء الحال ، ورواية اللسان : « ممن حرف الدهر » .
(٧) هو النابغة الجعدى وانظر الأغانى (٤ : ١٢٩) .

وَقَدْ هَرَّتْ كلابُ الحَيِّ مِنَّا   وَشَذَّبْنَا قَتَادَةَ مَنْ يَلِينَا

وقال بعض العلماء : كلاب الحيّ شعراؤهم ، وهم الذين ينبحون دونهم ، ويحمون أعراضَهم. وقال آخرون : إن [١] كلابَ الحَيِّ كلُّ عقورٍ ، وكلُّ ذى عُيونٍ أربع [٢] :

وأما قوله [٣] :

لَعَمْرُكَ ماخَشِيتُ على أُبَىٍّ   رِماحَ بنى مقيِّدةِ الحِمارِ
ولكنِّى خَشِيت على أُبَىٍّ   رِمَاحَ الجِنّ أو إيَّاكَ حارِ [٤]

فالطواعين [٥] هى عند العرب رِماح الجن ، وفى الحديث : « إنَّ الطاعونَ وَخزٌ مِنَ الشيطان »

وقال أبو سلمى [٦] :

لابدَّ للسُّودَد من أرماح   ومن سفيهٍ دائمِ النُّباحِ
ومن عَديدٍ يُتَّقَى بالرَّاحِ

وقال الأعشى :

مِثْلَ أَيَّامٍ لَنَا نَعْرِفُهَا   هَرَّ كلبُ النَّاسِ فيها ونَبَحْ
رُزُنُ الأحْلَامِ فى مجلسِهِمْ   كلَّما كَلْب من الناسِ نَبَحْ

---

(١) فى الأصل « وإن » .
(٢) كذا .
(٣) الشعر فى الحيوان (٦ : ٦٧) منسوب إلى « الأسدى » يقوله للحارث الغسانى وفى آكام المرجان ١١٦ إلى « الأزدى » وفى ثمار القلوب ٥٣ إلى امرأة .
(٤) ط : « رماح الحى » . وتصحيحه من س والمراجع المتقدمة فى التنبيه السابق .
(٥) فى الأصل « والطواعين » .
(٦) الرجز فى البيان ٣ : ١٩٠ .

وقال :

سَيَنْبَحُ كلبي جاهدًا مِن ورائكم   وأغنى غَنَائى عنكم أن أُؤَنِّبا

وقال أبو ذؤيب :

ولاهَرَّهَا كَلْبِي ليبعد نَعْرها (١)   ولو نَبَحَتْنِي بالشَّكاةِ كلابُها

كلابها : شعراؤها ، وهو قول بشر بن أبى خازم :

وإنِّى والشَّكاةَ لآلِ لأمٍ   كذاتِ الضِّغْنِ تَمشى فى الرِّفاقِ

وقال أبو زَبيد (٢) :

ألم تَرَنى سكَّنْتَ لأْيًا كلابَهُمْ   وكفكفت عنكم أكْلُبِي وَهي عُقَّرُ

(هجاء ضروب من الحيوان)

١٧٣ قال صاحب الكلب : قد علمنا أنكم تتبَّعتم على الكلب كلَّ شيء هُجِي به ، وجعلتم ذلك دليلا على سقوط قدْره وعلى لؤم طبعه ؛ وقد رأينا الشعراء قد هَجَوا الأصنافَ كلَّها ، فلَمْ يُفلت منهم إنسان ولا سبع ، ولا بهيمةٌ ولا طائر ولا همَج ولا حشَرة ، ولا رفيع من الناس ولا وضيع ،

---

(١) نعر كنع : صاح . وفى ط : « نعرها » محرفة .

(٢) هو أبو زبيد الطائى ، واسمه حرملة بن المنذر شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام وكان لسنا فصيحا بليغ الوصف ، وصف الأسد بحضرة عثمان وصفاً بلغ فيه الغاية الأغانى ١١ : ٢٣ — ٢٥ ، وقد ترجم له البغدادى فى الخزانة ٤ : ١٤٣ والسجستانى فى المعمرين ٩٨ ليدن ، وابن حجر فى الاصابة ٤٨٠ قسم الكنى .

إلاَّ أنْ يَسلم بعضُ ذلكَ عليهم بالخول ، فكفاك بالخول رِقّةً[1] ولُؤْمًا وقِلّة ونَذالة . وقال أميَّة بن أبي عائذ لإياس بن سهم :

فأبْلِـغْ إياساً أنَّ عِرضَ ابنِ أُختِكمْ
رِداؤكَ فاصطَنْ حسنَه أو تبذَّلِ[2]

فإن تكُ ذا طَوْلٍ فإنِّي ابنُ أُختكم
وكلُّ ابنِ أختٍ من نَدَى الخالِ مُعْتَلِي[3]

فكنْ أسداً أو ثعلباً أو شبيهَه
فمهما تكنْ أُنسَبْ إليكَ وأُشكَلِ

فما ثعلبٌ إلاَّ ابن أختِ ثُعالةٍ[4]
وإنَّ ابنَ أختِ اللَّيثِ رِيبالُ أشبُلِ

ولن تجدَ الآسادَ أخوالَ ثعلبٍ
إذا كانت الهيجا تَلوذُ بمدخلِ

فهذا من الثعلب . وقال مزرِّد بن ضرار[5] :

وإنَّ كِناز اللَّحمِ من بَكَراتِكمْ
تَهرُّ عليها[6] أُمُّكمْ وتكالبُ

وليتَ الذى ألقى فناؤكَ رحلَه
لتَقريَه بالتْ عليه الثعالبُ

فقد وضع الثعلب كما ترى بهذا الموضع الذى كفاك به نذالة . قال ابن هرمة :

فما عادت بذى يَمَنٍ رُءوساً
ولا ضَرَّتْ لفرقتها نِزارَا

---

(١) فى الأصل : « دقة » .
(٢) فى الأصل « فاصبر خشية أو تبدل » وتصحيحه من عيون الأخبار ٣ : ٨٩ .
(٣) فى الأصل « مفتل » والصواب « معتلى » كما فى أشعار الهذليين أو « مغتلى » كما فى عيون الأخبار . واعتلى واغتلى : ارتفع .
(٤) فى عيون الأخبار « ثعالب » .
(٥) فى ط : « مزر بن ضرار » وإنما هو « مزرد بن ضرار » أخو الشماخ .
(٦) فى الأصل « علينا » .

كَمَنْزِ السَّوْءِ تنطحُ من خلاها[1] وترْأَمُ من يُحِدُّ لها الشِّفارا

وهذا قول الشاعر فى العنز. وقال ابن أحمر :

إنا وجدْنا بنى سهمٍ وجاملَهم كالعنْزِ تَعْطِف رَوقيها فترتَضِعُ

وقال الفرزدق :

على حين لم أتركْ على الأرض حَيّة ولا نابحاً إلا استقرَّ عَقُورها

وكانت نقيع إذ هجانى لأهْلِه كباحثةٍ عن مُدْيةٍ تستثيرُها

فهذا قولهم فى العنز. ولا نعلم فى الأرض أقلَّ شرًّا ولا أكثر خيراً من شاة.

وقال الخُرَيمىُّ[2] :

ياللرجال لقومٍ قد مَلِلْتُهم أرى جِوارَهمُ إحدى البليّاتِ

١٧٤ ذئبٌ رضيع وخنزير تُعارِضُها عقاربٌ وُجِنَتْ وَجْناً بحيَّاتِ[3]

ماظنُّكم بأناس خَيْرُ كسبهمُ مُصَرَّح السُّحْتِ سمَّوه الأمانات

فهذا قولهم فى العقارب والحيَّاتِ والضِّباع والخنازير.

وقال حماد عَجْرد فى بشَّار :

قد كان فى حين غزالة شاغلٌ للقرد عن شَتْمى وفى ثَوْبَانِ

أو فى سميعة أختها وشِرادها لمجونها مع سِفْلة المُجّانِ

أو بنت ضيق عرسه وركوبها شرَّ البغاء بأوكسِ الأثمانِ[4]

---

(١) ط : « فلاها » وتصحيحه من س والشعر سبق فى ص ٢٣٢ .

(٢) فى الأصل « الخزيمى » وهو « الخريمى » كما سبق التنبيه فى ص ٢٢٤

(٣) أصل الوجن : الدق ، ومنه ميجنة القصار ، وجعله الشاعر هنا للخلط .

(٤) فى الشعر تحريف .

هذا قول حماد فى القرد . وقال حمّاد فى بشّار بن بُرد أيضاً :

ولكنْ مَعاذَ اللهِ لستُ بقاذفٍ   بَرِيئاً لسوّاق لِقَومٍ نوائحِ

وما قلتُ فى الأعمى لِجَهلٍ وأمّه   ولكِنْ بأمرٍ بيِّنٍ لىَ واضحِ

سأُعرِضُ صفحاً عن حُصينٍ لأمّه   ولست عن القِرد ابنِ برْدٍ بصافِحِ

وقال الآخر :

لما أتيت ابنَى يزيدَ بْن خَثْعَمٍ   أرى القردَ والخنْزِيرَ مُحْتَبِيانِ

أمَامَ بُيوتِ القومِ من آل خَثْعَم   وراء قَبيحاتِ الوجوه بطانِ

وقال العتّابى :

أُسْجدْ لقِرْدِ السَّوءِ فى زَمَانِه   وإن تَلقَّاكَ بِخَنْزَوانه[1]

* لاسيَّما مادام فى سلطانه *

وقال أبو الشمقمق :

إنَّ رِياحَ اللُّؤمِ من شحِّه[2]   لايَطمَعُ الخنزير فى سَلْحِهِ

كفّاه قفل ضلّ مِفتاحهُ   قد يئس الحدّاد مِن فَتْحِهِ

وقال خلف بن خليفة[3] :

فسبحانَ من رِزقُه واسع   يعُمّ به القِرْدَ وَالقِرْدَهْ

---

(١) الخنزوان بفتح الخاء : القرد ، وذكر الخنازير : وبضمها : الكبر .

(٢) فى ط : « شمه » وهو تحريف صوابه فى س .

(٣) شاعر إسلامى مجيد محسن مقل، كان فى زمن جرير والفرزدق، وكان يقال له الأقطع لأنه قطعت يده فى سرقة ، وهو من شعراء الحماسة .

وهذا كثير . ولعمرى لو جُمِع كلُّه لكان مثلَ هجاء الناس للكلب وكذلك لو جمع جميعُ مامُدِح به الأسدُ فما دُونه ، والأمثالُ السائرةُ التى وقعت فى حمد هذه الأشياء ، لَمَا كانت كلُّها فى مقدارِ مديح الكلب . فهذه حُجَّتُنَا فى مَرتبةِ الكلب على جميع السباع والبهائم .

١٧٥ ولما قال معبدٌ فى قتل الكلب ، وتلا قول الله عزَّ وجلَّ ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فاقْصُصِ الْقَصَصَ ﴾ قال أبو إسحاق: وإن كنتَ إنَّما جعلتَ الكلب شرَّ الخلق بهذه العلَّة ، فقد قال على نسق هذا الكلام: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَايَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَايُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذَانٌ لَايَسْمَعُونَ بِهَا أُولٰئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ فالذى قال فى الإبل والبقَر والغنَم أعظم ، فأَسْقِطْ من أقدارها بقدر معنى الكلام . وأدنى ذلك أن تُشرِك بين الجميع فى الذمّ فإنَّك متى أنصفتَ فى هذا الوجه ، دعاك ذلك إلى أن تُنْصِفها فى تتبُّع مالها من الأشعار والأمثال والأخبار والآيات ، كما تتبَّعت ماعليها .

(الشرف والخمول فى قبائل العرب)

وقال صاحب الكلب : سنضرب مثلا بيننا يكون عدلا : إذا استوى القبيلان فى تقادم الميلاد ثم كان أحد الأبوين كثير الذرء[1] والفُرسان والحكماء والأجواد والشعراء ، وكثيرَ السادات فى العشائر ، وكثيرَ الرؤساء [في] الأرحاء[2] وكان الآخر قليل الذّرء[1] والعدد ، ولم يكن فيهم خير كثيرٌ ولا شر كثير ، خملوا أو دخلوا في غمار العرب ، وغَرِقُوا فى معظم الناس[3] ، وكانوا من المغمورين ومن المنسيِّينَ ، فسلموا من ضروب الهجاء ومن أكثرِ ذلك ، وسلموا من أنْ يُضرَبَ بهم المثل فى قِلّةٍ ونذالة إذا لم يكن شرٌّ ، وكان محلُّهم من القلوب محلّ من لايغيظ الشعراء ، ولا يحسدهم الأكفاء ؛ وكانوا كما قال حُميد بن ثور :

وقُولا إذا جَاوزتُما أرْضَ عامرٍ ... وجاوزتُما الحيَّين نهْدًا وَخَثْعَمَا
تَرِيعانِ من جرْم بن زبَّان إنّهم ... أبَوْا أن يُرِيقوا فى الهَزاهِزِ مِحْجما[4]

وإذا تقادم الميلاد ولم يكن الذّرْءُ[1] وكان فيهم خيرٌ كثيرٌ وشرٌّ كثير ، ومثالِب ومناقب ، لم يَسلَموا من أن يُهجَوا ويُضْرَبَ بهم المثلُ ، ولعلّ أيضا أن تتفق لهم أشعار تتصل بمحبة الرواة ، وأمثال تسير على ألسنة

---

(١) الذرء : النسل . وفى الأصل « الذرء » محرفة .

(٢) الأرحاء : جمع رحى، وهى القبيلة المستقلة . وفى الأصل « وكثير الرؤساء والأرجاء » وقد صحت المصحّف ، واجتلبت الكلمة التى بين معكفين ليستقيم الكلام .

(٣) فى ط : « غرقوا » وفى م « عرقوا » وصوابهما ماأثبت من س

(٤) ط : « تزيدان من جرم بن ريان » س « تريعان من جرم بن ربان » .

العلماء ، فيصيرُ حينئذٍ من لاخير فيه ولا شرّ ، أمْثلَ حالاً فى العامّة ،
ممّن فيه الفضلُ الكثيرُ وبعضُ النقص ، ولا سيّما إذا جاوروا من يأ كُلُهم
١٧٦ وخالَفوا منْ لاينصفهم كما لقيتْ غَنِيّ أو باهلة .

ولو أنّ عبْسًا أقامت فى بنى عامر ضِعفَ ماأقامت ، لذهب شِطْرُ شرفها ؛ ولكنّ قيس بنَ زُهير ، لمّا رأى دلائل الشرّ قال لأصحابه : الذلُّ فى بنى غَطفَان خير من العزّ فى بنى عامر ! .

وقد يكون القوم حلولا مع بنى أعمامهم فإذا رأوا فضْلهم عليهم حَسدوهم وإن تركوا شيئا من إنصافهم اشتدّ ذلك عليهم ، وتعاظَمَهم بأ كثر من قدره ، فدَعاهم ذلك إلى الخروج منهم إلى أعدائهم . فإذا صاروا إلى آخرين نهكوهم وحملوا عليهم ، فوقَ الذى كانوا فيه من بنى أعمامهم ، حتى يدْعُوَهم ذلك إلى النّدم على مفارقتهم ، فلا يستطيعون الرُّجوع ، حميةً واتقاء[1] ، ومخافةَ أن يعودوا لهم إلى شىء مما كانوا عليه ، وإلى المقام[2] فى حلفائهم الذين يرون من احتقارهم ، ومن شدّة الصولة عليهم .

(بكل وادٍ بنو سعد)

وقد خرج الأضبَط بن قُرَيع السَّعْدِيّ من بنى سعد ، فجاوَرَ ناساً ، فلما رأى مذْهبَهم وظُلمهم ونَهْكهم[3] ، قال : « بكلّ وادٍ بنُو سعد ! » فأرسلها مثلا .

---

(١) لعلها : « حمية وإبقاء » .
(٢) فى الأصل : « ولا المقام » .
(٣) فى الأصل « وتهكهم » وهو تحريف .

وقد كان عبّاس بن ريطة الرّعلى سيِّدَ بنى سليم ، وقد ناله ضيم فى بعض الأمر ، فأبى الضّيم ، فلما حاولَ مفارقتَهم [إلى] بنى غُنْم عزَّ عليْهِ [(١)] فقال فى كلمة له :

وأُمُّكم تُزْجِى التؤام لبَعْلِها ... وأُمُّ أخيكم كَزَّةُ الرَّحْم عاقِرِ

وزعموا أنّ أبا عمرو أنشد هذا الشعر [(٢)] وخبّرعن هذه القصّة فى يومٍ من أيامه ، فدمعت عينهُ ، فحلف شُبَيل بن عَزرة [(٣)] بالطلاق : إنّه لَعَرَبِىٌّ فى الحقيقة لِغَيَّةٍ أو لِرِشْدة ! .

(قبائل فى شطرها خير كثير
وفى الشطر الآخر شرف وضعة)

فمن القبائل المتقادمة الميلاد التى فى شِطرها خير كثير ، وفى الشطر الآخر شَرف وضَعة ، مثل قبائل غطفان وقيس عيلان ، ومثل فزارة ومرّة وثعلبة ومثل عبس وعبد الله بن غطفان ، ثم غِنىّ [(٤)] وباهلة ، واليعسوب والطفاوة فالشرف والخطر فى عَبس وذبيان ، والمبتلى والملقّى والمحروم والمظلوم ، مثل [(٥)] باهلة وغنىّ ، ممّا لقيت من صوائب سهام الشعراء ، وحتّى كأنّهم آلة [(٦)] لمدارج الأقدام ، ينكب فيها كلُّ ساعٍ ، ويعثُر بها كلُّ ماش .

---

(١) فى الأصل « فلما حاول منافرتهم بنى غنم أعزّ منه » .

(٢) فى الأصل . « وزعم أن أبا عمرو أنشده هذا الشعر » وليس بشىء .

(٣) فى ط : « عروة » وتصحيحه من س وانظر التنبيه رقم ٦ ص ٣١٣

(٤) فى الأصل « يحيى » وإنما هو « غنى » وسيتكرر الحديث عن غنى وباهلة .

(٥) فى الأصل « ومثل » والوجه حذف الواو .

(٦) كذا .

وربّما ذكروا اليَعسوب والطفاوة ، وهاربة البقعاء (١) وأشجَع الخنثى ببعض الذّكر . وذلك مشهور فى خصائص العلماء ولا يجوز ذلك صدورَهم وجلّ معظم البلاء لم يقع [إلاّ] (٢) بغنيّ وباهلة ، وهم أرفع من هؤلاء وأكثر فضولاً ومناقب ، حتى صار من لاخير فيه ولا شرّ عنده أحسنَ حالا ممّن فيه الخير الكثير وبعض الشرّ ، وصار مثلهم كما قال الشاعر (٣) :

١٧٧ اضرب نَدَى طَلْحَةِ الطَّلَحاَت مبتدئا

بِبُخْلِ أشعثَ واستَثْبِتْ وكُنْ حكما (٤)

تخرج خُزاعة من لؤم ومِن كرمٍ

ولا تعُدّ لها لؤمًا ولا كرمًا (٥)

وقد ظرف فى شعره فظلم خُزاعةَ ظُلما عبقريًّا .

وقال فى مثل ذلك الأشعر الرَّقَبان (٦) الأسديّ :

---

(١) هاربة البقعاء هى هاربة بن ذبيان ، انظر القاموس (هرب) ومعجم البلدان (الهاربية) مع المعارف لابن قتيبة (نسب ذبيان بن بغيض) ص ٣٧ .

(٢) حرف يصلح به الكلام .

(٣) هو دعبل بن على الخزاعى كما فى الأغانى ١٨ : ٤٤ ، ٤٨ ، وزهر الآداب ٤ : ٢٠٦

(٤) فى ط : « بندى طلحة » وتصحيحه من س ومن الأغانى . والرواية فيها :ـ

* بلؤم (مطلب) فينا وكن حكما *

والمطلب الذى يعنيه هو ابن عبد الله بن مالك كان واليا على مصر . وقد كان ولى دعبلا على أسوان فلما سمعه يهجوه بهذا الشعر المتقدم عزله عنها .

(٥) فى الأصل « ولا تفركها » وليس بشىء . وصوابه فى الأغانى .

(٦) فى ط : « وقال فى ذلك الشعر الرقبان » وفى س « وقال فى مثل ذلك الشعر الزقبان » والوجه ما أثبت . والأشعر لقب للرقبان ، وهو شاعر جاهلى . والشعر فى نوادر أبى زيد ٧٣ وعيون الأخبار ٢ : ١٩٥ ، ٣ : ٢٦٨ وأمالى القالى ٢ : ٢١١ وانظر اللسان وتاج العروس (مسخ) .

بِحسْبِكَ فى القومِ أن يعلموا ... بأنّكَ فيهم غنىٌّ مضر
وأنتَ مليخٌ كلحمِ الحُوَارِ ... فلا أنتَ حُلْوٌ ولا أنتَ مُرّْ

وكما قال الشاعر فى علباء بن حبيب حيث يقول :

أرى العلباء كالعِلْباءِ ... لاحلوٌ ولا مُرٌّ
شُيَيْخٌ من بنى الجارو ... دِ لاخيرٌ ولا شرٌّ

فهذا ونحوه من أشدّ الهجاء .

والخمول اسمٌ لجميع أصناف النَّقْصِ كلّها أو عامّتها ، ولكنَّهُ كالسَّرْو عند العلماء . وليس ينفعك العامَّةُ إذا ضرّتك الخاصَّة .

ومن هذا الضرب تَيم بن مرّ ، وثور وعُكل ، وتيم ومزينة . ففى عُكل وتَيم ومزَينة من الشرف والفضل ، ماليس فى ثور ، وقد سلِم ثور إلاَّ من الشئ اليسير ، ممـا لايرويه إلاَّ العلماء ، ثم حلَّت البليَّةُ وركَدَ الشرُّ ، والتحف الهجاء على عُكْل وتيم ، وقد شعَثوا بين مزينة شيئاً ، ولكنَّهم حببَّهم إلى المسلمين قاطبةً ماتهيأ لهم من الإسلام ، حين قلّ حظُّ تيم فيه . وقد نالوا من ضبَّة ، مع مافى ضبَّة من الخصال الشريفة ؛ لأنَّ الأبَ متى نقص ولدُه في العدد عن ولد أخيه (١) فقد ركبهم الآخَرون بكلِّ عظيمة ، حتى يروا تسليمَ المرباع إليهم حظًّا ، والسير تحت اللواء ، والحمل على أموالهم في النوائب ؛ وحتّى ربَّمـا كانوا كالعضاريط والعُسَفاء ، والأتباع ، وفى الأتباع والدخلاء ، ثم لايجدون من ذلك بدًّا ؛ كأنهم متى امتنعوا خذَلوهم ، فاستباحوهم ، فرأوا أن النِّعمة أربحُ لهم .

---

(١) فى الأصل « متى نصر ولده فى العدد على ولد أخيه » وأصلحته كما ترى .

وقد أعان غيلان [١] على الأحنف بكلمة ، فقال الأحنف : عبيدٌ في الجاهليّة ، أتباعٌ في الإسلام .

فإن هربوا تفرّقوا فصاروا أشلاء في البلاد ، فصار حكمُهم حكمَ من درج ، وحكمُ أبيهم كحكم من لم يُعقِب ؛ وإن هم حالفوا القرباء فذلك حيث لا يرفعون رءوسهم من الذلّ والغرم .

(الحلف عند العرب)

وَالحِلْفُ [٢] ضربان : فأحدهما كانضمام عبس وضبّة ، وأسد وغطفان فإنّ هؤلاء أقوياء لم يُنهكوا كما نُهِكت باهلة وغنيّ ، لحاجةِ القوم إليهم ،

١٧٨ ولخشونة مسِّهم إن تذكّروا [٣] على حال : فقد لقيت ضبّةُ من سعدٍ ، وعبسٌ من عامر ، وأسدٌ من عيينة بن حصن ما [٤] لقُوا .

وقد رأيت مشقّةَ ذلك على النابغة ، وكيف كرِه خروج أسد من بني ذبيان .

وعيينةُ بن حصن وإن كان أسود من النابغة وأشرف ، فإنّ النابغةَ كان أحزم وأعقل .

---

(١) لعلها « عال غيلان » بمعنى جار وجاوز الحد . فإن غيلان هنا هو ابن سلمة الثقفي كان من حكماء العرب في الجاهلية وحكامهم . قالوا : وانفرد في الجاهلية بأن قسم أعماله على الأيام ، فكان له يوم يحكم فيه بين الناس ، ويوم ينشد فيه شعره ، ويوم ينظر فيه إلى جماله . ولما وفد على كسرى قال له ذات يوم : أي ولدك أحب إليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر ، والمريض حتى يبرأ ، والغائب حتى يقدم ، انظر الاصابة ٦٩١٨ ، والأغاني ١٢ : ٤٣ — ٤٧ .

(٢) ط : « الحلف » وصوابه في س .

(٣) كذا .

(٤) في الأصل « مما » .

وقد سلمت ثور وابتُليت عُكل وتيم، ولولا الربيع بن خَيثم وسُفيان الثَّورى، لما علمت العامَّةُ أنَّ فى العرب قبيلةً يقال لها ثور. ولَشَريفٌ واحدٌ ممَّن قَبَلت[1] تيم أكثرُ من ثور وما ولد.

وكذلك بَلْعَنبر، قد ابتُليت وظلمت وبُخست، مع ما فيها من الفُرسان والشُّعراء، ومن الزُّهاد، ومن الفقهاء، ومن القضاة والوُلاة، ومن نوادر الرِّجال إسلاميِّين وجاهليِّين.

وقد سلمت كعب بن عمرو؛ فإنه لم ينلها من الهجاء إلَّا الخمس والنتف[2].

وربَّ قومٍ قد رضُوا بخُمولهم مع السلامة على العامَّة، فلا يشعرون حتَّى يصبَّ الله تعالى على قِمَمِ رءوسهم حجارةَ القذف، بأبياتٍ يسيِّرها شاعر، وسوطَ عذاب، يسير به الراكبُ والمثل، كما قال الشاعر:

إنَّ مَنَاقًا فَقْحَةٌ لدارِمِ[3] كما الظليمُ فَقْحَةُ البراجِمِ

وقال الشاعر[4]:

وجَدْنَا الحُمْرَ مِنْ شَرِّ المَطَايَا كما الحَبِطاتُ شرُّ بنى تميم

فما الميسم فى جِلد البعير، بأعلقَ من بعض الشعر.

---

(١) فى الأصل «قتلت»، وجعلتها «قبلت» من قبلت القابلة الولد: أخرجته.

(٢) لعلها الخمش والنتش» والأولى بمعنى الخدش، والثانية بمعنى العيب سراً.

(٣) فى الأصل «إن منا فقحة لدارم».

(٤) البيت من أبيات ثلاثة لزياد الأعجم أوردها العينى، ونقلها عنه البغدادى فى خزانة الأدب ٤ : ٢٨٠، وهى — ويلاحظ أن فى البيت الأخير إقواء:

وأعلم أننى وأبا حميد كما النشوان والرجل الحليم
أريد حباءه ويريد قتلى وأعلم أنه الرجل اللئيم
فإن الحمر من شر المطايا كما الحبطات شر بنى تميم

(أثر الشعر فى نباهة القبيلة)

وإذا كان بيت واحد يربطه الشاعر فى قوم لهم النباهة والعدد والفَعال، مثل نُمير، يصير أهلَه إلى ما صارت إليه نُمير وغير نمير، فما ظنُّك بالظُّلَيم وبعِناف وبالحَبِطات، وقد بلغ مضرّةُ جريرٍ عليهم حيثُ قال:

فغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِن نُمَيرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

إلى أن قال شاعر آخر وهو يهجو قوْمًا آخَرين:

وسَوفَ يزيدُكم ضَعَةً هِجائى كما وضعَ الهِجاءُ بَنِى نُمَيْرِ

وحتّى قال أبو الرُّدَيْنِىّ:

أتُوعِدُنِى لِتَقْتُلَنِى نُمَيْرٌ متى قَتلَتْ نُمَيرٌ مَنْ هَجَاهَا

(بكاء العرب من الهجاء وذكر بعض من بكى منهم لذلك)

ولأمرٍ مّا بكت العربُ بالدموع الغِزار من وقعِ الهجاء، وهذا من أوّل كرمها، كما بكى مخارقُ بن شِهاب [1]، وكما بكى عَلقمة بن عُلاثة،
١٧٩ وكما بكى عبد الله بن جُدعان من بيتٍ لخداش [2] بن زهير. وما زال يهجوه من غير أن يكون [رآه ولو] [3] كان رآه ورأى جماله وبهاءه ونبله [و] [4] الذى يقع فى النفوس من تفضيله ومحبته [و] [4] من إجلاله والرقة عليه — أمسك. ألا

---

(١) الذى أبكاه هو محمد بن المكعبر العنبرى، وانظر الحديث فى البيان ٢٣٥ : ٣ .

(٢) فى الأصل « لجراش » .

(٣) زيادة يتطلبها الكلام وليست بالأصل .

(٤) ليس بالأصل .

ترى أن النَّبيت وغسَّان بن مالك بن عمرو بن تميم، ليس يعرفهم بالعجز والقلّة إلاّ دَغفل بن حنظلة (١) وإلاّ النخّار العُذرىّ وإلاّ الكيِّس النمرىّ (٢) وإلاّ صُحار العبدى وإلاّ ابن شرية وابن النطاح (٣) وأشباههم ومن شابه طريقهم والاقتباس من مواريثهم، وقد سلموا على العامة وحصلوا نسب العرب فالرجل منهم عربى تميمى، فهو يعطى حقّ القوم فى الجملة ولا يقتضى ماعليه وعلى رهطه فى الخاصّة. والحرمان أسوأ حالا فى العامة من هذه القبائل الخاملة وهم أعدّ وأجلد.

(ماتبتلى به القبائل فيصيبها بالخمول)

وبليَّة أخرى : أنْ يكون القبيلُ متقادمِ الميلاد، قليل الذلة قليل السيادة، وتهيّأ أن يصير فى ولدِ إخوتهم الشرف الكامل والعدد التامّ، فيستبين لمكانهم منهم من قلتهم وضعفهم لكلٍّ من رآهم أو سمع بهم، أضعافُ الذى هم عليه لو لم يكونوا ابتُلوا بشرف إخوتهم.

ومِنْ شؤم الإخوة أنَّ شرفهم ضعةُ إخوتهم، ومن يُمن الأولاد أنّ شرفهم شرفُ من قَبْلهم من آبائهم ومن بعدهم من أولادهم: كعبد الله بن دارم. وجرير بن دارم: فلو أنَّ الفُقيم لم يناسب عبد الله بن دارم وكان جارًا، كان خيرًا له.

---

(١) فى الأصل « من حنظلة » وقد جمع ابن النديم تراجم النسابين فى فهرسه ١٣١ مصر، ٨٩ ليبسك.

(٢) فى الأصل « النميرى » وتصحيحه من المعارف لابن قتيبة ٢٣٣ والفهرس ١٣٢ مصر، ٩٠ ليبسك.

(٣) فى الأصل « ابن أبى السطاح » وانظر الفهرس ١٥٦ مصر، ١٠٧ ليبسك.

ولقد ضعضعتْ قُرَيش ـ لما جاءتْ به من الخصال الشريفة التامّة ، مِنْ أركان كنانة ـ سَنامَ الأرض وجبلها [1] وعينَها التى تبصر بها ، وأنفَها التى بها تعطس ، فما ظنُّكَ بمن أبصر بنى زيد بن عبد الله بن دارم ، وبنى نهشل بن دارم ، وبنى مجاشع بن دارم ، ثمّ رأى بنى فُقَيم بن جرير ابن دارم ؟!

وكذلك كلُّ أخوَين إذا برّع أحدُهما وسبق وعلا الرِّجال ؛ فى الجود والإفضال ، أو فى الفُرُوسة [2] أو فى البيان ، فإن كان الآخر وسَطاً من الرجال ، قصدُوا بحسن مآثره فى الطبقة السفلى لتَبين البراعةُ فى أخيه ، فصارت قرابتُه التى كانت مفخرةً هي التى بلغت به أسفَلَ السافلين . وكذلك عَنَزَة بن أسد فى ربيعة . ولو كان سودد ربيعة مرّةً فى عَنَزَة ومرّة فى ضُبَيْعة أضْجَمَ ، لكان خيرًا لهم اليوم ، ولودّ كثير من هؤلاء القبائل التى سلمت على الشعراء أو على العوامّ أن يكون فيهم شِطْرُ ما للعَنَزِيِّين من الشرف ، ولو أنَّ الناس وازنوا بين خصال [هذه][4] القبائل خيرها وشرِّها لكانوا سَوَاء [3] .

١٨٠ وقال صاحب الكلب : ذكرتَ عيوبَ الكلب فقلتَ : الكلب إذا كان فى الدار مَحَقَ أجُورَ أهل الدّار حتى يأتِىَ على أقصاها ، لأنَّ الأجور إذا أُخِذ منها كلَّ يوم وزنُ قيراط ، والقيراط مثل أحد ، لم يلبث على ذلك أن يأتِىَ على آخرها . وقلتَ : فى الكلب أشدُّ الأذى على الجار والضيف

(١) كذا .

(٢) الفروسة والفروسية : الحذق بركوب الخيل .

(٣) فى الأصل « سعداء » وليس بشىء .

(٤) الزيادة شخصية .

والدخيل ، يمنعه النَّومَ ليلاً والقائلةَ نهارًا ، وأن يسمَعَ الحديث . ثمّ الذى على سامع النُّباح من المؤنة من الصوت الشديد . ولو لم يكن فى الكلب مايؤذى بشدّة صوته إلاّ بإدامة مجاوبة الكلاب لكانَ فى ذلك ممَّا ينغّص العيش ، ويمنع من الكلام والحديث .

(شعر فى النباح والاستنباح)

وقال أرطاةُ بن سُهَيّة فى بعض افتخاره :

وَإنّى لَقَوّام إلى الضّيف موهنا ... إذا أغدف السّترَ البخيلُ المواكلُ (١)
دعَا فأجابَتْهُ كلاب كثِيرَةٌ ... على ثقةٍ منّى بما أنا فاعلُ
وما دونَ ضيفى ، من تلادٍ تحوزُه ... يدُ الضيف ، إلاّ أنْ تُصانَ الحلائلُ

وقال ابن هرْمة :

ومستنبحٍ نبَّهت كلبى لصوتِه ... وقلتُ له قُمْ فى اليفَاع فجَاوِبِ
فجاءَ خَفِىّ الصوتِ قد مسّهُ الضَّوى ... بضرْبةٍ مسنونِ الغرارين قاضِبِ
فرحّبت واستبشرت حتّى بسطته (٢) ... وتلك التى ألقَى بها كلّ آئبِ

وقال آخر :

هجمنا عليه وهو يَكْعمُ كلبَهُ
دعِ الكلب يَنْبحْ إنّما الكلبُ نابحُ (٣)

---

(١) ط : « إلى الضعيف » ، « إذا أغدق » وتصحيح البيت من س . وعيون الأخبار (٣ : ٢٣٩) .

(٢) ط : « بسطه » وصوابه فى س .

(٣) قال المرتضى فى أماليه . ٢ : ١١٤ « يكم كلبه : يشد فاه خوفا من أن ينبح ، فيدل عليه » . والبيت للراعى كما فى العمدة ٢ : ١٥١ يهجو به الحطيئة ، وانظر ما سيأتى فى نهاية هذا الجزء من الحيوان .

وقال مزرِّد بن ضرار :

نشأتُ غلاما أتّقي الذمّ بالقِرى إذا ضاف ضيفٌ من فَزارةَ راغبُ
فإن آبَ سارٍ أسمعَ الكلبَ صوتَه أتى دون نَبْحِ الكلبِ ، والكلب دائبُ

وقال بشّار بنُ برْد :

سقى الله القِباب بتلّ عبدى وبالشرقين أثار القِبابِ
وأيامًا لنا قَصُرَتْ وطالتْ على فرعان نائمةَ الكلابِ

181 وقال رجل من بنى عبد الله بن غَطفان :

إذا أنتَ لم تستَبْقِ وُدَّ صحابةٍ على دَخَنٍ أكثرت بثّ المعاتبِ (1)
وإنّى لأستبقى أمرأ السوءِ عُدّةً لعدْوَة عِرِّيضٍ من الناس جانبِ (2)
أخاف كلابَ الأبعدين ونبحها إذا لم تجاوبْها كلابُ الأقارِب

وقال أُحيحة بن الجُلاح (3) :

ماأحْسَنَ الجِيدَ من مُليكةٍ واللَّبَّاتِ إذ زانها ترائبُها
ياليتنى ليـلة إذا هجع النّا سُ ونامَ الكلابُ صاحبُها

وقلتَ : وفى الكلب قذارةٌ (4) فى نفسه ، وإقذاره أهله لكثرة سُلاحه وبوله ، على أنّه لايرضى بالسُّلاح على السطوح ، حتّى يحفر بيراثنه وينقُب بأظافره ، وفى ذلك التخريب .

---

(1) الدخن : الحقد وسوء الخلق ، ومعناه قريب من الدخل .
(2) العريض كسكيت : الذى يتعرض للناس بالشر .
(3) انظر الشعر فى الخزانة ٣ : ٣٢١٠ .
(4) فى الأصل « قذرة » .

ولولم يكن إلاّ أنّهُ يكون سبب الوكف ، وفى الوكف من منع النّوم ومن إفساد حُرّ المتاع ، مالا يخفى مكانه ، مع مافيه من عضّ الصبيان وتفزيع الوِلدان ، وشقّ الثياب والتعرُّض للزوّار ؛ ومع ما فى خلقه أيضاً من الطبع المستدعى للصبيان إلى ضربه ورجْمه وتهييجه بالعبث ، ويكون سبباً لعقْرهم والوثوبِ عليهم (١) .

وقلت : وبئس الشىء هو فى الدار ، وفيها الحُرَم والأزواج ، والسَّرارىُّ والحَظِيّات المعشوقات ؛ وذلك أن ذَكَره أيَرُّ ظاهر الحجم ، وهو إما مُقْبَع وإمّا قائم ، وليس معه مايواريه ، وربما انتشط وأنعَظ بحضرتهنّ ، ولعلّهنّ يكنّ مغيّباتٍ (٢) أو محتاجاتٍ إلى مايحتاج إليه النساء عند غيبة فحلهنّ ، وإذا عجزَ عن أن يَعُمَّهن .

(وفد قرحان)

وقد رمى ضابئ بن الحْرث البُرجُمىُّ أمّ أناسٍ من العرب ، أنّ الكلب الذى كان يسمّى قُرْحان (٣) ، كان يأتى أمّهم ، حتّى استعدَوا عليه ، وحبسه فى ذلك عثمان بنُ عفّان رضى الله تعالى عنه . ولولا أنّ المعنى الذى

---

(١) جواب لو محذوف ؛ وذلك من دأب الجاحظ .

(٢) مغيبات : غاب عنهن أزواجهن .

(٣) انظر قصة « قرحان » فى الخزانة ٤ : ٨٠ بولاق والثمالى ٢١٩ ليدن ومعاهد التنصيص ١ : ٦٦ والشعراء ٧٥ .

رماهم به كان مما يكون ويجوز ويُخافُ مثلُه ، لما بلغ منه عثمانُ مابلغ ، حتّى مات فى حبسه (١) . وفى ذلك يقول ضابئ بن الحارث :

تجشّم نحوى وَفْدُ قُرحانَ شُقّةً ... تَظَلُّ بها الوَجناء وهى حَسيرُ

١٨٢ فزوّدتُهم كلباً فراحوا كأنما ... حَباهم بتاجِ الهرمزان أميرُ (٢)

فأمُّكُمُ لاتتركوها وكلبَكم ... فإنَّ عقوقَ الوالداتِ كبيرُ

إذا عَثَنَتْ من آخر الليل دُخْنة ... يبيت له فوقَ السريرِ هَريرُ (٣)

(قصص تتعلق بالكلاب)

وزعم اليقطرىُّ أنّهُ أبصرَ رجلاً يكُومُ كلبةً من كِلاب الرعاء ، ومرّ بذلك الزُّبِّ العظيمِ فى ثفرها ــ والثَّفْرُ منها ومن السبع ، كالحِرِ من المرأة والظَّبْية من الأتان والحِجر ، والحياء من الناقة والشاة ــ فزعم أنّها لم تعقِد عليه ، ولا ندرى أمكّنته أم اغتصبها نفسَها .

وأما النّاس ففى ملح أحاديثهم : أنّ رجلاً أشرفَ على رجل وقد ناك كلبةً فعقَدت عليه ، فبقى أسيرا مستخزِيا (٤) يدور معها حيث دارت . قال : فصاح به الرجل : اضربْ جَنبَيها . فأطلقته ، فرفعَ رأسه إليه ، فقال : أخزاه الله أىُّ نيَّالِ كلْباتٍ هو ! .

---

(١) كتب مصحح الطبعة الأولى من الحيوان : « اتفق أهل الأخبار أن ضابئاً كسر ضلع عثمان يوم الدار وأن الحجاج قتل ضابئاً لما ولى العراق » .

(٢) فى الخزانة والنقائض « بتاج الهرمزان » ، وفى الأصل « بتاج المرزبان » والتاج لايكون إلا للملك وما المرزبان إلا رئيس من الرؤساء .

(٣) عثنت : دخنت ، وفى الأصل « عاينت » وصوابه فى الخزانة والنقائض .

(٤) ط : « مستحنيا » وصوابه فى س .

وخبّرني من لا أردُّ خبره ، أنّهُ أشرفَ من سطحٍ له قصير الحائط ، فإذا هو بسَوادٍ في ظِلِّ القمر في أصل حائط ، وإذا أنينُ كلبة ، فرأى رأسَ إنسان يدخل في القمر ، ثمَّ يرجع إلى موضعه من ظِلِّ[1] القمر ، فتأمّل في ذلك[2] فإذا هو بحارس ينيك كلبة . قال : فزجرته وأعلمته أنّي قد رأيتُه ، فصبَّحني من الغد يقرَع الباب عليّ ، فقلت له : ماحاجتك ؟ وما جاء بك ؟ فلقد ظننتُ أنّك ستركب البحر أو تمضي على وجهك إلى البراري . قال : جُعِلتُ فِداك ، أسألُك أن تستُر عليّ ، ستَرَ الله عليك ، وأنا أتوب على يديك ! قال : قلت ويلك ، فما اشتهيتَ مِن كلبة ؟! قال: جُعلت فداك ، كلُّ رجلٍ حارسٍ ليس له زوجةٌ ولا نجل[3] ، فهو ينيك إناثَ الـكلاب[4] إذْ كنَّ عِظامَ الأجسام . قال : فقلت : فما يخاف أن تعضَّه ؟ قال : لو رَامَ ذلك منها غيرُ الحارس التي هي له وقد باتتْ معه فأدخلها في كِسائه في ليالي البرد والمطر ، لما تركته ، وعلى أنّه إن أراد [أن][5] يوعبه كلَّه لم تستقرّ له . قال : ونسيتُ أنْ أسألَه : فهل تعقِد على أيور النّاسِ كما تعقِد على أيور الـكلاب ؟ فلقيته بعدَ ثلاثين سنة ، فقال : لاأدري لعلّها لاتعقد عليه ، لأنّهُ لايُدْخِلُهُ فيها إلى أصله ، ولعلّ ذلك أيضاً إنّما هو شيء يحدث بين الـكلب والـكلبة ، فإذا اختلفا لم يقع الالتحام . قال : فقلتُ : فَطَيِّبٌ هو ؟ قال : قد نِـكْتُ عامَّةَ إناثِ الحيوانات فوجدتُهُنَّ كلهُنَّ أطيَبَ من النساء . قلتُ : وكيف ذلك ؟ قال :

---

(١) في الأصل . « ظلمة » والوجه ماأثبت .
(٢) في الأصل « فتأمل إنسان في ذلك » .
(٣) وكذا .
(٤) ط : « إناثا الـكلاب » .
(٥) الزيادة من س .

ماذاك إلاّ لشدّة الحرارة . قال : فطال الحديث حتى أنِس فقلتُ له : فإذا
١٨٣ دار الماء فى صُلْبك وقَرُبَ الفراغ ؟ قال : فربّما التزمتُ الكلبةَ
وأهوَيتُ إلى تقبيلها . ثم قال : أمَا إنَّ الكلابَ أطيبُ شيء أفواهاً ،
وأعذَبُ شيء رِيقا ؛ ولكن لايمكن أنْ أنيكها من قُدّامٍ ، ولو ذهبتُ
أن أنيكها من خلف وثَنيت رأسَها إلى أنْ أقبِّلها ، لم آمَنْ أنْ تظنَّ بى أنى
أريدُ غيرَ ذلك فتُكدِّم فمى ووجهى . قال : فقلت : فإنِّى أسألك بالذى
يستُرُ عليك ، هل نَزَعت عن هذا العمل مُنْذُ أعطيتَنى صفقةَ يدِك بالتَّوبة ؟
قال : ربّما حنَنتُ إلى ذلك فأَحتبسُ[1] بعهدك . قال : وقلتُ : وإنّك
لتحنُّ إليها ؟ قال : والله إنى لأحِنُّ إليها ، ولقد تزَوّجتُ بعدَك امرأتين ،
ولى منهما رجالٌ ونساء ، ومن تعوّد شيئاً لم يكَدْ يصبِرُ عنه ! قال :
فقلت له : هل تَعرف اليومَ فى الحُرّاس مَن ينيك الكلبات ؟ قال : نعم
خذ محموَيه الأحمر ، وخذ يشجب الحارس ، وخذ قفا الشاة ، وخذ فارسا
الحَمّامىّ فإنَّ فارساً كان حارسًا وكان قيِّم حَمّام ، وكان حلَقيًّا ، فزعم أنّه
ناكَ الكلابَ خمسين سنة ، وشاخ وهُزِلَ وقبُح وتشنَّج ، حتّى كان
لاينُيكه أحد . قال : فلم يزَلْ يحتالُ لكلبٍ عندَه حتى نا كه . قال :
وكان معه بخيرٍ حتّى قتله اللصوص ، ثمّ أشرفَ على فارِسٍ[2] ، هذا المحتسِبُ
الأحدبُ ، وهو ينيك كلبةً فرماه بحجر فدمَغَه[3] .

قال : فالكلاب كما ترى تُتّهم بالنساء ، وينيكها الرجال ، وتنيك
الرجال ، وليس شيء أحقَّ بالنفى والإغراب والإطراد وبالقتل منها . ونحن

---

(١) لعلها : « فأخنس » .
(٢) فى الأصل « فاس » وصوابه ما أثبت .
(٣) دمغه : أصاب دماغه .

من السباع العادِيَة الوحشيَّة ، فى راحة ، إلاّ فى القَرْط [١] فإنّ لها عُرامًا على بعض الماشية ، وجنايةً على شرار العامّة [٢] وكذلك البهائم . وما عسى أن يبلغ من وطْءِ بعير ونطح كبش ، أو خمش سِنّورٍ أو رَمْح حمار ، ولعلّ ذلك يكونُ فى الدهر المرّةَ والمرّتين ، ولعلّ ذلك أيضًا لاينال إلاّ عبدًا أو خادمًا أو سائسا ، وذلك محتَمل . فالكلاب مع هذه الآفات شركاء الناس فى دورهم وأهاليهم !!

قال صاحب الكلب : إنْ كنتم إلى الأذى بالسُّلاح تذهبون ، وإلى قَشرِطِين السطوح بالبرائن تميلون ، وإلى نتن السُّلاح وقذَر المأكول والمشروب تقصدون ، فالسِّنَّورُ أكثر فى ذلك . وقد رويتم عن النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك أنّه قال : «هُنّ مِنَ الطَّوّافاتِ عليكم» فإذا كان ذلك فى السنانير مغتفرًا ، لانتفاعهم بها فى أكل الفأر ، فمنافع الكلاب أكثرُ ، وهي بالاعتقاد أحقّ . وفى إطلاق ذلك فى السنّور دليلٌ على أنّه فى الكلاب أجْوَز .

وأمّا ماذكرتم من إنعاظه ، فلعمرى إنّه ماينبغى للغَيور أن يُقيم الفرسَ
١٨٤ ولا البِرذونَ والبغلَ والحمارَ والتَّيس فى المواضع التى تراها النساء . والكلبُ فى ذلك أحسنُ حالا . وقد كرِه ناسٌ إدخال منازلهم الحمامَ والدِّيكةَ والدجاج والبطّ خاصة لأنّ له عند السفاد قضيبا يظهر ، وكذلك التيس من الظباء ، فضلا عن تُيوس الصفايا . فهذا المعنى الذى ذكرتمْ يجرى فى وجوهٍ كثيرة

---

(١) القرط : الندرة . وفى ط « القرق » .

(٢) كذا .

وعلى أنّ للحمام [١] خاصّةً من الاستشارة [٢] ، والـكَسْح بالذنب ، والتقبيل الذى ليس للناس [٣] مثلُه ، ثمّ التقبيل والتغزّل والنَّقْش [٤] ، والابتهاج بمـا يكون منه بعدَ الفراغ ، وركوب الأنثى للذكر و[عدم] [٥] إمكانها لغيرِ ذكرها ، مايكونُ أهيجَ للنساء ممَّا ذكرتم [٦] . فلِمَ أفردتم الكلب بالذِّكر دونَ هذه الأمورِ ، التى إذا عاينت المرأة غُرمُولَ وَاحدٍ منها ، حقَرت بعلَها أو سيِّدَها ، ولم يزل ظلُّ ذلك الغرمول يعارضها فى النوم ، وينبِّهها ساعةَ الغفلة ، ويُحدِث لهـا التمنِّىَ لمـا لاتقدر عليه ، والاحتقارَ لمـا تقدر عليه ، وتركتم ذكر ماهو أجلُّ وأعظمُ إلى ماهو أخسُّ وأصغر .

فإنْ كنتم تذهبون فى التشنيع عليه إلى مايعقر من الصبيان [٧] عند العَبث والتعرُّض ، والتَّحَكك والتهييج [٨] والتحريش ، فلو أنَّ الذى يأتى صبيانُكم إلى الـكلب ، من الإلحاح بأصناف العَبَث ـ والصِّبيانُ أقسى الخلْقِ وأقلهم رحمةً ـ أنزَلُوهُ بالأحنف بن قيس ، وقيس بن عاصم ، بل بحاجب بن زُرارة وحِصن بن حُذَيفة ، لَخرَجُوا [٩] إلى أقبحَ ممَّا يخرج إليه الـكلب . ومَن ترك منهم الأخذَ فوق يدِ ابنه ، فهو أحقُّ باللائمة .

---

(١) ط : « الحمام » وصوابه فى س .

(٢) الاستشارة : إظهار الحسن . من استشارت الإبل : سمنت وحسنت .

(٣) فى الأصل « الناس » .

(٤) فى الأصل « والتنفس » وإنمـا هى « النقش » ، وانظر معنى النقش فى القاموس .

(٥) زيادة يقتضيها الـكلام وليست فى الأصل .

(٦) ط : « ماذكرتم » وصوابه فى س .

(٧) س : « يعقره الصبيان » ط : « يعقرن الصبيان » والوجه ماأثبت .

(٨) فى الأصل « والتهيج » والوجه : « التهييج » .

(٩) ط : « يخرجوا » وصوابه فى س .

وبعدُ فما وجدْنا كلباً وثبَ على صبيٍّ فعقَره مِنْ تلقاء نفسه ، وإنَّه ليتردَّد عليه وهو فى المهد ، وهو لحمٌ على وضَم ، فلا يشمُّه ولا يدنو منه . وهو أكثرُ خلقِ الله تعالى تشمُّماً واسترواحا ؛ وما فى الأرضِ كلبٌ يلقى كلباً غريبا إلاَّ شمّ كلٌّ واحدٍ منهما استَ صاحبِه ، ولا فى الأرضِ مجوسىٌّ يموت فيُحْزَن على موتِه ويحمل إلى الناوُوس إلاَّ بعد أن يُدنى منه كلبٌ يشمَّه ، فإنَّه لايخفى عليه فى شمِّه عندَهم ، أحىٌّ هوأم ميِّتٌ ؛ للطافَة حِسِّه ، وأنَّه لا يأكل الأحياء (١) . فأمَّا اليهود فإنَّهم يتعرَّفون ذلك من الميِّت ، بأن يدهُنوا استَه ولذلك قال الشاعر (٢) وهو يرمى ناسًا بدين اليهودية :

إذا مات منهم ميِّتٌ مَسَحُوا اُسْتَهُ بدُهنٍ وَحَفُّوا حَوْلَه بقِرَامِ

(جنايات الديك)

وقالوا : فإذا ذكرتم جناياتِ الكلاب ، فواحدٌ من جنايات الدِّيَكة
١٨٥ أعظمُ من جنايات الكلاب ؛ لأنَّ عبد الله بن عثمان بن عفَّان ، ابنَ بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنَّما مات من نقرِ ديكٍ فى دار عثمان ، نقر عينه فكان سببَ موته . فقتْلُ الديك لعِتْرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعظمُ من كثيرٍ ممَّا تستعظمونَه من جنايات الكلاب .

وقد نقر ديكٌ عينَ ابنَ حَسَكَة بن عبَّاد ، أو عين ابن أخته .

---

(١) ط : « الاحيا » .

(٢) هو سالم بن دارة يهجو طريف بن عمرو كما فى اللسان (حم) . وقبل البيت :

إنى وإن خوفت بالسجن ذاكر لشتم بنى الطماح أهل حمام

وقد نقر ديك عين ابن الريان بن أبى المسيح وهو فى المهد فاعورّ ، ثمّ ضربته الحُمرة فمات .

ووثب ديك فطعن بصِيصَته عين[1] بنتٍ لثمامة بن أشرس ، قال ثمامة : فأتانى الصّريخ ، فواللهِ ماوصلتُ إليها حتى كَدَ وجهُها كلُّه واسودَّ الأنفُ والوَجْنتان وغارت العينان . وكان شأنُ هذا الديك — فيما زعم ثمامة — عجباً من العجب : ذكر أنّ رجلا ذكر أنّ ديكاً عند بقّالٍ لهم ، يقاتل به الكلاب ، قال : فأتيت البقّال الذى عنده فسألتُه عن الديك ، فزعم أنّه قد وجّه به إلى قتال الكلاب ، وقد تراهنوا فى ذلك . فلم أبرحْ حتّى اشتريْتُهُ ؛ وكنتُ أصونُه وجعلته فى مَكَنَة ، فخرجت يومًا لبعض مصلحةٍ وأقبلت بنتى هذه لتنظر إليه ، فكان هذا جزائى منه !

قال : وديكٌ آخر أقبل إلى رأس زيد بن عمر : حتّى وطئَ فى ذؤابته ثمّ أقبلَ ينقُرُ دماغه وعينيه . فقال رجل من قريش ، لمن حضر ذلك من الخدم :

اطردوا الديك عن ذؤابة زيد   طالما كان تَطَاهُ الدّجاجُ[2]

(نفع الكلب)

والكلب إن كان كما يقول ، فإنّ له يدًا تشجّ[3] وأخرى تأسُو ، بل مايدفعَ الله بحراسته ويُجلب من المنافع بصيده[4] أكثرُ وأغمر ، وهو

---

(١) فى الأصل : « فى عين » .

(٢) جاء هذا البيت فى الأصل كلاما منثورا . وانظره فى الكامل ٧١٠ ليبسك . وفى الاصل أيضاً « لانطؤها » وتصحيحه من الكامل ،

(٣) فى ط : « تسبح » وهو تحريف مافى س .

(٤) ط : « بعبده » وتصحيحه من س وم .

الغامر لا المغمور ، والفاضل لا المفضول . والديك يفقأ العيونَ و ينقُر الأدمغة ويقتل الأنفس ، ويشُجُّ ولا يأسو ؛ فشرُّه صِرف وخيره ممزوج . إلاَّ أنْ يزعموا أنّه يحرس من الشيطان ، فيكون هذا من القول الذى يحتاج إلى البرهان . و[من][1] عارض منافعَ الكلاب وحراستَها أموالَ الناس من اللصوص ، ومنعَ السِّباع من الماشية ، وموضعَ نفع الكلب فى المزارع — وذلك عيان ونفعه عامٌّ وخطبه عظيم — بما يُدَّعَى من حراسة الدِّيكة للشيطان ؛ لم يكايل ولم يُوازِن ولم يَعرف المقايسة ، ولا وقَف قطُّ على معنَى المقابلة[2] ودَلَّ بذلك على أنَّ مبلغَ رأيِه لا يجوز رأىَ النساء .

(العواء وما قيل من الشعر فيه)

ويكون العُواء للكلب والذئبِ والفصيل . وقال النابغة[3] :

ألم أكُ جارَكم فتركتمونى لِكلبى فى ديارِكمُ عُواء ١٨٦

وقال الشاعر :

وإنّى امروٌ لا تقشَعِرُّ ذؤابتى من الذئب يَعوِى والغرابِ المحجَّلِ

وقال الشاعر[4] :

ومستَنْبِحٍ تَستَكشِطُ الريحُ ثَوْبَه ليَسقُط عنهُ وهو بالثوب مُعْصِمُ

---

(١) ليست بالأصل .

(٢) فى الأصل « المقاتلة » وليس له وجه .

(٣) كذا . والبيت للحطيئة مثبت فى ديوانه بشرح السكرى من قصيدة مطلعها :

ألا أبلغ بنى عوف بن كعب وهل قوم على خلق سواء

(٤) الأبيات فى الحماسة ٢ : ٢٦٠ .

عَوَى فى سوادِ الليل بعدَ اعتسافهِ ... لينبحَ كلبٌ أو ليفزَعَ نُوَّمُ

فجاوبَهُ مستسمِعُ الصوتِ للقرَى ... له مع إتيان المُهبِّينَ مَطْعَمُ

يكادُ إذا ماأبصر الضيفَ مُقْبِلاً ... يكلِّمُهُ من حبِّهِ وَهوَ أعجَمُ

وقال ذو الرُّمَّة :

به الذئبُ محزوناً كأنَّ عواءَه ... عواء فصيلٍ آخرَ الليلِ مُحْثَلِ

وقال آخر :

ومنهلٍ طامسةٍ أعلامُـــه ... يَعوِى به الذئبُ وتَزقُو هامُه

وقال عَقيل بن عُلَّفة يهجو زبَّان بن منظور .

لابارَكَ اللهُ فى قومٍ يسودهمُ ... ذئبٌ عَوَى وهو مشدود على كُورِ

لم يبقَ من مازنٍ إلاَّ شرارُهمُ ... فوقَ الحصا حولَ زبّانَ بنِ منظورِ

وقال غيلان بن سلمة [(١)] :

ومعرَّس حين العشاء به ... الجبس فالأنواء فالعقل[(٢)]

قد بتُّه وهـــــناً وأرّقنى ... ذئب الفلاةِ كأنه جـــــذلُ

فتركته يعوِى بقفرته ... ولـــكلِّ صاحِب قفرةٍ شكلُ

بتَنُوفةٍ جــــــرداء يجزعها ... لِحَب يلوحُ كأنَّه سَحْلُ[(٣)]

وقال مغلّس بن لقيط [(٤)] :

عوى منهمُ ذئبٌ فطرَّب عادياً ... على فضليات مُسْتَنَارٍ سخيمها[(٥)]

---

(١) سبقت ترجمته ص ٣٦٢

(٢) كذا فى الأصول .

(٣) يجزعها : يقطعها ، وفى ط : « لجب » وصوابه بالحاء كما . فى س وم .

(٤) مغلس بن لقيط شاعر من شعراء الجاهلية ، له ترجمة فى الخزانة ٢ : ٤١٩ بولاق

(٥) ط : « مستشار » .

إذا هُنَّ لم يلحَسْنَ من ذى قرابةٍ دمًا هَلُستْ أجسادُها ولحومُها

وقال الأُحيمر السعدىّ (١) : ١٨٧

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عوى
وصوّتَ إنسانٌ فكِدتُ أطيرُ

وقال آخر (٢) :

وعاوٍ عوَى واللّيْلُ مستحلس الندى
وقد زَحَفَتْ للغور تالية النجم (٣)

وذلك أنَّ الرجلَ إذا كانَ باغيًا أو زائرا ، أو ممَّن يلتمِس القرَى ، ولم ير بالليل نارًا ، عوى ونبح ، لتجيبَه الكلاب ، فيهتدى بذلك إلى موضع الناس . وقال الشاعر :

ومُستَنبِحٍ أهلَ الثَّرى يَلمَس القِرى
إلينا ومَساه من الأرض نازح

وقال عمرو بن الاهتم :

ومستنبحٍ بعدَ الهُدُوِّ دعوتُه وقدحانَ من سارِى الشتّاء طُروق

فهذا من عواء الفصيل والذئب والكلب .

---

(١) ط : « الأحمر » وصوابه فى س ، وهو شاعر من لصوص العرب .

(٢) البيت لحميد الأرقط كما فى البخلاء ٢٠٠ .

(٣) ط : « للفور » وصوابه فى س . وفى الأصل « مستجلس الندى » وصوابه فى البخلاء ٢٠٠ . استحلس الندى : تراكم .

(ماقالوا فى أنس الكلب و إلفه)

وقال صاحب الكلب : ومِمَّا قالوا فى أَنَس الكلب و إلفه ، وحبِّه لأهله ولمن أحسَنَ إليه قول ابن الطَّثْرِيّة (١) :

يا أُمَّ عمرٍو أنجِزِى الموعودا وارعَىْ بذاكِ أمانةً وعهُودا
ولقدطرقْتُ كلابَ أهلِكِ بالضُّحَى حتَّى تركتُ عَقُورَهُنَّ رُقُودا
يضرِبْنَ بالأذنابِ مِن فرحٍ بنا متوسِّداتٍ أذرُعاً وخدودا

وقال الآخر (٢) :

لو كُنْتُ أحمِلُ خمرًا يومَ زرتُكم لم يُنكِرِ الكلبُ أنِّى صاحبُ الدَّارِ
لكنْ أتيتُ وريحُ المِسْكِ يفعمنى والعنبرُ الوَرْدُ أُذكيه على النار (٣)
فأنكر الكلب ريحى حين أبصرنى وكان يعرف ريح الزِّقِّ والقار

وقال أبو الطَّمَحان القينىّ فى الإلف ، وهو يمدح مالك بن حمار الشَّمَخى (٤) :

سأمدَحُ مالكاً فى كلِّ رَكبٍ لقيتُهمُ وأتركُ كلَّ رَذْلِ

---

(١) فى الأصل « وقال ابن الطثرية » والوجه ماأثبت . والشعر فى البخلاء ٣٠٢ .

(٢) الشعر فى البيان ٣ : ١٧٧ منسوب إلى بعض الحجازيين ، وانظر البخلاء ٢٠٢ وهو فى الحماسة ٢ : ٢٣٣ منسوب إلى مالك بن أسماء الفزارى ، وهوشاعر إسلامى غزل ، وأخته هند بنت أسماء زوج الحجاج ، وهوممن عرف بالجمال فى العرب ترجم له أبو الفرج فى أغانيه ١٦ : ٤٠ — ٤٦ .

(٣) فعمه الطيب وفغمه ملأ خياشيمه . وفى الأصل « ينعمنى » وصوابه فى البخلاء ٢٠٢ وفى الحماسة ٢ : ٢٣٣ : « يفغمنى » بالغين ، وفيها « وعنبر الهند أذكيه » .

(٤) هو قاتل خفاف بن ندبة ، وله أخبار فى الأغانى .

فما أنا والبكارةُ من مخاضٍ عِظامٍ جِلَّةٍ سُدْسٍ وبُزْلِ
وقد عرفتْ كلابُهم ثيابى كأنى منهمُ ونسيتُ أهلى
نَمتْ بك من بنى شَمْخٍ زِياد لها ماشئتَ مِن فرعٍ وأصلِ

وقال الشاعر فى أُنس الكلابِ وإلفها ، يذكر رجلا : ١٨٨

عنيف بتَسْواقِ العِشارِ ورَعْيها ولكنْ بتَلْقامِ الثَّريدِ رفيقُ
سَنِيد يظلُّ الكلب يمضَغ ثوبَه له فى ديارِ الغانيات طَريق

وقال الآخر :

بات الحويرثُ والكلاب تَشَمُّه وسَرت بأبيضَ كالهلال على الطَّوَى

وقال ذو الرمة :

رأتنى كلابُ الحى حتَّى ألِفنَنى ومُدَّتْ نُسوجُ العنكبوت على رحلى (١)

وقال حسَّان بن ثابت :

أولاد جَفْنةَ حولَ قبرِ أبيهم قبرِ ابنِ ماريةَ الكريمِ المُفْضِلِ
بِيض الوجوهِ نقيَّةٌ حُجزاتُهمْ شمُّ الأنوفِ من الطِّرازِ الأوَّلِ (٢)
يُغشَوْنَ حتَّى ما تَهِرُّ كلابهم لايَسألونَ عن السَّوادِ المقبلِ

وفى هذا المعنى قال الشاعر :

وبوات(٣) بيتك فى مَعلمٍ رَحيبِ المَباءةِ والمَسْرَحِ
كفيتَ العُفاةَ كلابَ الضرام وَقُبْحَ الكلاب لمستَنْبِحِ

---

(١) فى الأصل « رأيت » والوجه « رأتنى » كما فى البخلاء ٢٠٢ . وفى ط « على وحل » وصوابه فى س .

(٢) الحجزة : معقد الإزار . وفى الأصل : حجرآتهم » وليس بشىء .

(٣) كذا . وصوابها « وبوأت » وأصله من بوأته فى المنزل : أنزلته به .

تَرَى دَعْس آثارِ تلك المطيِّ أخاديدَ كالَّلقم الأفيَحِ
ولو كُنْتَ فى نفق زائغٍ لـكُنْتَ على الشرك الأوضَحِ [(١)]

وفى مثل ذلك ، وليس فى ذكر إلف الـكلاب ، ولـكِنَّه ممـا ينبغى أن يكون مجموعاً إلى هذه الأشعار ، وبك إلى ذلك حاجة شديدة ، قال أُميَّةُ بنُ أبى الصَّلْت :

لا الغيَايَاتُ مُنتواكَ ولـكنْ فى ذُرَى مُشْرِفِ القُصورِ ذرَاكا

وقال البزّار الحلِّىّ ، فى المعنى الأول :

أَلِفَ الناسَ فمـا ينبَحُهُمْ مِنْ أسيف يبتغى الخيرَ وحُرّْ [(٢)]

وقال عمران بن عصام :

١٨٩ لِعَبْدِ العزيزِ على قَوْمه وغَيرِهمُ مِنَنٌ غامرَهْ [(٣)]
فبابك أَلينُ أبوابِهم ودارُك آهِـــلَةٌ عامرهْ
وكلبُك آنَس بالمعتفِين من الأُمِّ بابنتها الزّائرهْ
وكفك حين ترى السائلـ ين أندَى من اللَّيلةِ الماطرهْ
فِمنك العطاء ومنَّا الثَّناء بكلِّ محـــبَّرةٍ سائرهْ

وقال هلال بن خثعم [(٤)] :

إنِّى لَعَفٌّ عن زيارة جارَتى وإنِّى لَمَشْنُوءٌ إلىَّ اغتيابُها

---

(١) ط : « ولو كنت فى نفع » والوجه مافى س وم
(٢) فى الأصل « فيا » ولا يستقيم بذلك معنى الوزن ووزنه .
(٣) الشعر فى الأغانى ١ : ١٢٩ منسوب إلى نصيب . وعبد العزيز هذا هو ابن مروان
(٤) كذا نسب الشعر فى البخلاء ٢٠٢ . ويروى لقيس بن الخطيم وقد رواه ابن قتيبة فى عيون الأخبار (٣ : ١٨٣) لبشار بن بشر وهو فى حماسة البحترى طبع أوربا لزياد بن منقذ التميمى .

إذا غابَ عنها بعلها لم أكنْ لها زَءوراً ولم تأنسْ إلىَّ كلابُها
وما أنَا بالدَّارِي أحاديثَ سِرِّها ولا عالِمٍ مِنْ أيِّ حوكٍ ثِيابُها(١)
وإنَّ قِرابَ البطنِ يكفيكَ ملؤهُ ويكفيكَ سوءاتِ الأمورِ اجتنابُها

وقال حاتم الطائى ، وهو حاتم بن عبد الله ، ويكنى أبا سَفَّانة ، وكان أسره ثوب بن شَحمة العنبرى مجير الطير(٢) :

إذا مابخيلُ النَّاسِ هرّتْ كلابُه وَشَقّ على الضَّيفِ الغريبِ عَقُورُها
فإنِّى جبانُ الكلب بيتى موطَّأٌ جَواد إذا ما النَّفسُ شحّ ضميرُها
ولكن كلابى قدأُقِرّت وعُوِّدت قليل على مَن يعتريها هَرِيرُها

(هجو الناس بهجو كلابهم)

وقال صاحب الكلب : إنَّ كثيرًا من هجاءِ الكلب ، ليس يراد به الكلب ، وإنَّما يراد به هِجاءُ رجلٍ ، فيجعل الكلب وُصلةً فى الكلام ليبلغ مايريدُ من شتمه . وهذا أيضًا مما يرتفق الناسُ به من أسباب الكلاب . ولذلك قال الشاعر(٣) :

مِن دونِ سَيْبِك لونُ ليلٍ مظلمٍ وحَفيفُ نافجةٍ وكلب مُوسِدُ(٤)
وأخوكَ محتمل عليك ضغينة ومُسِيفُ قومِك لائم لايَحْمَدُ

---

(١) فى الاصل « حول » وأثبت مافى عيون الاخبار وحماسة البحترى .

(٢) فى الأصل « ثور » وانظر التنبيه رقم (٣) ص ٢٦٩ .

(٣) هو حسيل بن عرفطة ، شاعر جاهلى . النوادر لأبى زيد ٧٥ وانظر الحيوان (٤ : ٨٢) وديوان المعانى (٢ . ٦ - ١) .

(٤) النافجة : الريح تجىء بقوة . وفى الأصل « نافخة » وإنما الحفيف للريح . وتصحيحها من النوادر لأبى زيد ويقال أوسد كلبه : أغراه بالصيد ، فهو موسد .

والضَّيفُ عِنْدَكَ مثلُ أسودَ سالخ   لابلْ أحبُّهما إليك الأَسودُ

فهذا قول الشاعر . وقال الآخر :

وما يكُ فىَّ مِن عيبٍ فإنِّى   جَبَانُ الـكلبِ مَهْزولُ الفصيلِ

١٩٠ فهو لم يردْ مدحَ الـكلب بالجبن ، وإِنَّما أراد نفسه حين قال :

* وخفيف نابحة وكلب موسد [١] *

فإِن كان الـكلبُ أنما أسرَه أهلُه ، فإنما اللوْم على من أسرَه . و إنما هذا الضَّرب كقوله [٢] :

قوم إذا استنبَحَ الأَضيافُ كلبهمُ   قالوا لأُمِّهمُ بُولى على النَّارِ

ومعلوم أنّ هذا لا يكون ، ولـكن حقر أمرهم وصغرهم . وقال ابن هَرْمة :

وإذا تنوَّرَ طارِق مستنبِح   نبحَتْ فَدَلَّتْهُ علىَّ كلابى [٣]

وقال ابن مهية :

جلبنَا الخيلَ من شُعَبَى تَشَـكَّى   حوافِرَها الدوابرَ والنُّسورا

فلما أنْ طَلَعن بعين جعدى   وأهل الجوف ان قتلوا غرورا

ولم يكُ كلبُهم ليفيق حتّى   يُهارِشَ كلبُهم كلبا عَقورا

ومعلوم أنَّ هذا لا يكون ، إنما هو مثل . وقال أعرابىّ :

---

(١) فى الأصل « نابحة » وانظر التنبيه السابق .

(٢) البيت للأخطل يهجو به جريرا . وفيه قالت بنو تميم : « ماهجينا بشعر هو أشد علينا من هذا البيت ! » . ديوان المعانى (١ : ١٧٥) .

(٣) فى الأصل « كلاب » .

أخو ثقةٍ قد يحسبُ المجدَ فُرصةً ‏ إلى أهـــله أو ذِمَّةً لا تُخَفَّرُ
حبيبٌ إلى كلبِ الـكريمِ نباحُه ‏ كريهٌ إلى الـكوماء والكلبُ أبصَرُ

وقال ابن هرمة :

وفرحة من كلابِ الحىِّ يتبعُها ‏ شَحمٌ يزفُّ به الداعِى وترعِيبُ

فهذا قول هؤلاء . وقال الآخر :

هَجَمْنَا عليـــه وهو يَـكعَمُ كلبَه
دَعِ الـكلبَ يَنْبَحْ إنَّمـا الـكلبُ نابحُ(١)

وقال الآخر :

وتُطعِمُ كلبَ الحىِّ مِن خَشيةِ القِرى
ونارُكَ كالعَذْراءِ مِنْ دُونِها سِـتْرُ

وقال أعشى بنى تغلب :

إذا احتلَّت معاوية بن عمرو ‏ على الأطواء خَنَّقَتِ الـكلابا

فالـكلب مرّةً مطعَم(٢) ، ومرّة مخنوق ، ومرّة مُوسَد ومحرّش ، ومرةً يجعله جبانا ، ومرّةً وثّابا ، كما قال الراعى فى الحطيئة :

لا قبَّحَ اللهُ الحطيئةَ إنّه ‏ على كلِّ ضيفٍ ضافَه فهو سالحُ
وقعنا إليه وهو يخنُقُ كلبَه ‏ دَعِ الـكلبَ يَنبحْ إنَّما الـكلبُ نابحُ

وقال أعشى بنى تغلب :

(١) ط ، س : « يطعم » وصوابه فى م . وانظر التنبيه رقم ٣ ص ٣٦٧
(٢) فى الأصل « مطعوم » وإنما هى من أطعمه .

بكَيْتَ على زادٍ خبيثٍ قُرِيتَه ألا كلُّ عَبْسِيٍّ على الزادِ نابحُ[1]

وقال الفرزدق :

ولا تنزع الأضياف إلاَّ إلى فتًى إذا ماأبى أن ينبَحَ الكلبُ أوقدا

(وقال الآخر :

* دَعِ الكلبَ ينبَحْ إنَّما الكلبُ نابحُ *

وقال الآخر :

* ألا كلُّ كلبٍ لا أبا لكَ نابحُ *

وقال الفرزدق :

* إذا ماأبى أن ينبَحَ الكلبُ أوقدا[2]) *

ومتى صار الكلب يأبى النباح ؟! فهذَا يدُلُّ على أنّهم يتشفّونَ بذكر الكلب ، ويرتَفِقُونَ به ، لاعلى أنّ هذا الأمرَ الذى ذكروه قد كانَ على الحقيقة :

وقال الآخر ، وهو جرير[3] :

ولو كنت فى نَجْرَانَ أو بعَمَايةٍ إذن لأَتانى من رَبيعةَ راكبُ[4]

---

(١) البيت ، فى العمدة ٢ : ١٥١ منسوب إلى الراعى . وقد رواه تاليا للبيت السابق ، برواية :

* ألا كل عبسى على الزاد نائم *

وانظر البخلاء ٢٠٣ .

(٢) ماوضع بين قوسين هو تكرار لأعجاز أبيات سابقة ولست أدرى لم أعيدت .

(٣) « وهو جرير » ، الأرجح أن تكون مثل هذه الزيادة من أقلام الناسخين أو القارئين . والأبيات فى ديوان جرير ص ٤٢ طبع ١٣٤٥ .

(٤) نجران : مخلاف باليمن . وعماية : جبل بالبحرين . ورواية الديوان : «ولو كنت فى غمدان » .

يُثيرُ الكلابَ آخرَ الليلِ وَطوُه كضَبِّ العرَادِ خَطْوُه متقارِبُ[(١)]

فباتَ يُمَنِّينا الربيعَ وصَوْبَه وَيَنْظُرُ من لُقَّاعةٍ وهو كاذب[(٢)]

فذكر تقارُبَ خطوه ، وإخفاء حركته ، وأنَّه مع ذلك قد أثار[(٣)] الكلاب من آخر الليل ، وذلك وقت نومها وراحتها . وهذا يدلُّ على تيقُّظها ودِقَّة حسِّها .

وفيما ذكروا مِن حالة الكلب لسبب القرى من البرد ، والذى يلقى ، وكيف الشأن فى ذلك ، قال أعشى باهلة :

وأَجْحَرَ الكلبَ مُبْيَضُّ الصَّقيعِ بهِ

وأَلجأَ الحىَّ من تنفاحه الحُجَرُ[(٤)]

---

(١) العراد : شجر صلب العود منتشر الأغصان . والعرب تقول : قيل للضب وردا وردا ، فقال :

أصبح قلبي صردا لايشتهى أن يردا

إلا عرادا عردا وصليانا بردا

وعنكثا ملتبدا

وفى الأصل : « كضب العرار » وهو تحريف ، جاء على الصواب الذى أثبت فى الديوان .

(٢) اللقاعة : الكثير الكلام . ورواية الديوان : « يسطر من لقاعة » وفى تاج العروس : « وتنظر من لقاعة » .

(٣) ط : « آثر » وصوابه فى س .

(٤) يقول إنه لاينقطع عن إطعام الطعام فى شدة البرد ، حينما يضطر الكلب مايتلبد على شعره من الجليد الأبيض إلى الدخول فى الجحر ، وحينما تكون الحجر ملجأ للحى يتقون بها تنفاح الصقيع أى ضربه . . وقصيدة الأعشى هذه مشروحة فى الخزانة ٢ : ١٧٨ — ١٨٦ ، وشرحها كذلك الشيخ حمزة فتح الله فى المواهب .

وقال الحطيئة :

إذا أُجْحِر الـكلبَ الصَّقيعُ اتّقَيْنَه

بأثباجِ لاخُورٍ ولا قَفِرات [١]

وقال ابن هرْمة :

وسل الجار وَالمعصَّب والأضـ ياف وهناً إذا تحيَّوْا لديّا [٢]

كَيف يَلْقوْنَنى إذا نبحَ الـكا بُ وراء الـكُسُورِ نَبْحًا خَفِيّا

ومَشَى الحالبُ المُبِسُّ إلى النَّا بِ فلم يَقر أصفر الحىِّ ريّا

لم تَـكُنْ خارجيَّةً من تراثٍ حادثٍ ، بل وَرِثتُ ذاكَ عليّا

وقال الأعشى :

وتَبُرد بَرْدَ رِداءِ العرو

سِ فى الصَّيْفِ رَقرقتَ فيه العبيرا [٣]

وتسخن ُ ليلةَ لايستَطيـ ـعُ نُباحًا بها الكلب إلاّ هريرا

وقال الهذلى :

وليلةٍ يَصطَلى بالفَرثِ جازِرُها يختصُّ بالنَّقَرى المُثْرِينَ داعيها

لاينبَحُ الـكلبُ فيها غيرَ واحدةٍ من الشِّتاء ولا تَسرِي أفاعيها

(١) أجحره وجحره : أدخله فى الجحر . وفى ط « أحجر » وصوابه فى س ، والبيت من قصيدة فى ديوان الحطيئة ٥٦ .

(٢) فى ط : « أصل الجار » وصوابه فى س و م ، والحيوان ٢ : ٢٤ .

المعصب : الذى يعصب بالخرق جوعا، والرجل الفقير . وفى الأصل « الجار المعصب» وتصحيحه من الحيوان (٢ : ٢٤) . وفى الأصل « تحبوا » بباء موحدة وهى على الصواب فى الجزء الثانى

(٣) ط : « فيها البعيرا » وصوابه فى س و م .

وقال الفرزدق [١] :

إذا احمرَّ آفاقُ السَّماء وَهتَّكَتْ
كُسُورَ بُيوتِ الحيِّ نَكْباء حرْجَفُ

وجاء قريعُ الشَّولِ قبلَ إفالها يَزِفُّ وجاءتْ خلفه وهي زُحَّفُ [٢]

وهتَّكَتِ الأطنابَ كلُّ ذِفرَّةٍ لها تامكٌ من عاتق النَّيِّ أعرَفُ [٣]

وباشرَ راعيها الصَّلَى بلبانه وكَفَّيْهِ حرَّ النار مايتحرَّفُ

وقاتلَ كلبُ الحيِّ عن نارِ أهله ليربِضَ فيها ، والصَّلا متكنَّفُ [٤]

وأصبحَ مبيَضُّ الصَّقيعِ كأنّه على سرَواتِ النِّيبِ قُطْنٌ مُندَّفُ [٥]

تمَّ الجزء الأول

ويليه الجزء الثانى [٦]

وأوله : باب احتجاج صاحب الكلب بالأشعار المعروفة

---

(١) من قصيدته الفائية المشهورة ، التي مطلعها :

عزفت بأعشاش وما كدت تعزف وأنكرت من حدراء ما كنت تعرف

(٢) فى الأصول « قبله » وتصحيحه من الديوان ٥٥٩ وفى ديوان جرير (والقصيدة فيه) : « بعده » .

(٣) الذفرة : الناقة النجيبة . والتامك : السنام العظيم والأعرف : المرتفع .

(٤) يقول : صار كلب الحى لشدة البرد يدافع أهله عن النار ، ليقع فى موضع يدفئه ، وقد أحاط القوم بالنار وتكنفوها ليظفروا بالدفء . فى الأصل :

« ليربض منها والصلا متكشف » وليس بشىء ، وتصحيحه من الديوان .

(٥) يقول : قد وقع الثلج على أسنمة هذه الإبل المسانّ فأضحى كأنه القطن قد ندف . ويروى « موضوع الصقيع » كما فى الديوان .

(٦) فى نهاية س : « تم المصحف الأول ويتلوه المصحف الثانى من كتاب الحيوان » .

فهـــــارس

الجزء الأول من كتاب الحيوان

١ — أبواب الكتاب

٢ — ما يتعلق من الأبحاث بالحيوان

أ

ب

ث

ج

ح

خ

د

ذ

ز

س

ش

ض

ط

ظ

ف

ق

ك

ن

هـ

٣ - ما يتعلق من الأبحاث بالأعلام

٤ — ما يتعلق من الأبحاث بالمعارف

أ

ث

ج

ح

خ

س

ش

ص

ع

غ

ف

٥ — ما ترجم من الأعلام فى الشرح

٦ — مراجع التقديم والشرح والتحقيق

الكتاب	المؤلف	المطبعة	التاريخ	البلد
أخبار الحكماء	القفطى	السعادة	١٣٢٦	مصر
أخبار أبى نواس	ابن منظور	الاعتماد	١٣٤٣	»
أدب الدنيا والدين	الماوردى	الأميرية	١٣٤٣	»
أدب الكاتب	ابن قتيبة	السلفية	١٣٤٦	»
أدب الكتاب	الصولى	السلفية	١٣٤١	»
الإرشاد الشافى	الدمنهورى	الحلبى	١٣٤٤	»
الاشتقاق	ابن دريد	ـــ	١٨٥٣م	جوتنجن
الإصابة	ابن حجر	السعادة	١٣٢٣	مصر
الأضداد	ابن الأنبارى	الحسينية	١٣٢٥	»
الأغانى	الأصبهانى	التقدم	١٣٢٣	»
الاقتضاب	البطليوسى	الأدبية	١٩٠١م	بيروت
آكام المرجان	الشبلى	السعادة	١٣٢٥	مصر
الأمالى	الزجاجى	»	١٣٢٤	»
»	القالى	دار الكتب	١٣٤٤	»
»	المرتضى	السعادة	١٣٢٥	»
البخلاء	الجاحظ	الجمهور	١٣٢٣	»
بغية الوعاة	السيوطى	السعادة	١٣٢٦	»
بلوغ الأرب	الآلوسي	الرحمانية	١٣٤٢	»
البيان والتبيين	الجاحظ	»	١٣٤٥	»
التاج	»	الأميرية	١٣٣٢	»
تاج العروس	الزبيدى	الخيرية	١٣٠٦	»

الكتاب	المؤلف	المطبعة	التاريخ	البلد
تاريخ الأمم الإسلامية	الخضرى	التجارية	الطبعة الثالثة	مصر
تاريخ بغداد	الخطيب البغدادى	السعادة	١٣٤٩	»
تأويل مختلف الحديث	ابن قتيبة	كردستان	١٣٢٦	»
تذكرة أولى الألباب	داود الأنطاكى	—	—	»
تقريب التهذيب	ابن حجر	—	١٣٢٠	الهند
التنبيه	البكرى	دار الكتب	١٣٤٤	مصر
ثمار القلوب	الثعالبى	الظاهر	١٣٢٦	»
جمع الجواهر	الحصرى	الرحمانية	١٣٥٣	»
جواهر الألفاظ	قدامة	السعادة	١٣٥١	»
الحماسة	البحترى	الرحمانية	١٩٢٩م	»
»	أبو تمام	السعادة	١٣٣١	»
»	ابن الشجرى	مجلس المعارف	١٣٤٥	حيدر أباد
حياة الحيوان	الدميرى	صبيح	—	مصر
الحيوان	الجاحظ	الحميدية والتقدم	١٣٢٣	»
خزانة الأدب	البغدادى	بولاق	١٢٩٩	»
» »	»	السلفية	١٣٤٧	»
خمسة دواوين العرب	—	الوهبية	١٢٩٣	»
درة الغواص	الحريرى	الجوائب	١٢٩٩	تركيا
ديوان امرئ القيس	—	هندية	١٣٢٤	مصر
» جران العود	—	دار الكتب	١٣٥٠	»
» جرير	—	العلمية	١٣١٣	»
» »	—	الصاوى	١٣٤٥	»
» حسان	—	الرحمانية	١٣٤٧	»
» الحطيئة	—	التقدم	—	»

الكتاب	المؤلف	المطبعة	التاريخ	البلد
ديوان زهير	الجزيري	(النصبانى)	١٣٤٧	مصر
« الشماخ	—	السعادة	—	«
« طرفة	—	—	١٩٠٩م	قازان
« الفرزدق	—	الصاوى	١٣٥٤	مصر
« لبيد	—	—	١٨٨١م	فينا
« المعانى	أبو هلال العسكرى	—	١٣٥٢	مصر
« أبى نواس	—	العمومية	١٨٩٨م	«
رسائل الجاحظ	—	(الساسى)	١٣٢٤	«
زهر الآداب	الحصرى	الرحمانية	١٩٢٥م	«
سر الفصاحة	ابن سنان الحلبى	«	١٣٥٠	«
السيرة	ابن هشام	—	١٨٥٩م	جوتنجن
شذرات الذهب	ابن العماد الحنبلى	الصدق	١٣٥٠	مصر
شرح الحماسة	التبريزى	بولاق	١٢٩٦	«
شرح شواهد المغنى	السيوطى	البهية	١٣٢٢	«
شعر قيس بن الخطيم	—	—	١٩١٤م	ليبسك
الشعر والشعراء	ابن قتيبة	(الخانجى)	١٣٢٢	مصر
شفاء الغليل	الخفاجى	السعادة	١٣٢٥	«
الصحاح	الجوهرى	بولاق	١٢٨٢	«
الصناعتين	أبو هلال العسكرى	صبيح	—	«
الضرائر	الآلوسى	السلفية	١٣٤١	«
طبقات الشعراء	ابن سلام	السعادة	—	«
« «	« «	—	١٩١٦م	ليدن
العقد	ابن عبد ربه	الجمالية	١٣٣١	مصر
العمدة	ابن رشيق	هندية	١٣٤٤	«

الكتاب	المؤلف	المطبعة	التاريخ	البلد
عيون الأخبار	ابن قتيبة	دار الكتب	١٣٤٣	مصر
« الأنباء	ابن أبي أصيبعة	الوهبية	١٢٩٩	«
الفراسة	أفليمون	العلمية	١٣٤٧	حلب
الفصل	ابن حزم	الأدبية	١٣٢٠	مصر
فقه اللغة	الثعالبي	المعارس الملكية	—	«
الفهرست	ابن النديم	الرحمانية	الطبعة الأولى	«
«	« «	—	١٨٧١م	ليبسك
فوات الوفيات	الصلاح الكتبي	بولاق	١٢٨٣	مصر
قاموس الأعلام	الزركلي	العربية	١٣٤٥	«
القاموس المحيط	الفيروزابادي	الحسينية	١٣٣٠	«
الكامل	ابن الأثير	(محمد منير)	١٣٤٨	«
«	المبرد	—	١٨٦٤م	ليبسك
«	«	التقدم	١٣٢٣	مصر
الكتاب	سيبويه	بولاق	١٣١٦	«
كشف الظنون	كاتب چلبي	العالم	١٣١٠	تركيا
لسان العرب	ابن منظور	بولاق	١٣٠٠	مصر
لسان الميزان	ابن حجر	مجلس المعارف	١٣٣٠	حيدر أباد
مبادئ اللغة	الخطيب الإسكافي	السعادة	١٣٢٥	مصر
مجمع الأمثال	الميداني	البهية	١٣٤٢	«
المحاسن والأضداد	الجاحظ	الجمالية	١٣٣٠	«
محاضرات الأدباء	الراغب الأصفهاني	الشرفية	١٣٢٦	«
مختارات شعراء العرب	ابن الشجري	العامرة	١٣٠٦	«
المخصص	ابن سيده	بولاق	١٣١٨	«
المزهر	السيوطي	السعادة	١٣٢٥	«

الكتاب	المؤلف	المطبعة	التاريخ	البلد
المشتبه	الذهبي	—	١٨٨١م	ليدن
المعارف	ابن قتيبة	الإسلامية	١٣٥٣	مصر
معانى الشعر	الأشنانداني	الرقى	١٣٤٠	دمشق
معاهد التنصيص	العباسى	البهية	١٣١٦	مصر
معجم الأدباء	ياقوت	(دارالمأمون)	١٣٥٥	»
معجم البلدان	»	السعادة	١٣٢٣	»
معجم الحيوان	الفريق أمين المعلوف	المقتطف	١٣٣٢	»
معجم المطبوعات العربية	يوسف سركيس	سركيس	١٣٤٦	»
المعلقات	شرح التبريزى	السلفية	١٣٤٣	»
»	» الزوزنى	السعادة	١٣٤٠	»
المعمرين	السجستانى	»	١٣٢٣	»
مفاتيح العلوم	الخوارزمى	(محمد منير)	١٣٤٢	»
المفضليات	المفضل الضبى	الرحمانية	١٣٤٥	»
المقابسات	التوحيدى	»	١٣٤٧	»
المقصور والممدود	ابن ولاد	السعادة	١٣٢٦	»
الموازنة	الآمدى	الإقبال	١٣٣٢	بيروت
الموشح	المرزبانى	السلفية	١٣٤٣	مصر
نزهة الألباء	أبو البركات الأنبارى	—	١٢٩٤	»
النقائض	أبو عبيدة	—	١٩٠٥م	ليدن
النهاية	ابن الأثير	العثمانية	١٣١١	مصر
نهاية الأرب	النويرى	دار الكتب	١٣٤٢	»
النوادر	أبو زيد الأنصارى	الكاثوليكية	١٨٩٤م	بيروت
الوساطة	الجرجانى	العرفان	١٣٣١	صيدا
وفيات الأعيان	ابن خلكان	الميمنية	١٣١٠	مصر

تذييل واستدراك

صفحة	سطر	
٦	٥ش	الآية المقصودة بالكلام هي قوله تعالى : « قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك » .
١٥	٥ش	جملة: «زيادة يقتضيها السياق» الخ ، هي تنبيه خاص لكلمة «إلى» الموضوعة بين معقفين س ٦ من الصلب . وفيها كلمة « سن » صوابها « سر » .
١٩	١	« الفقمى » كذا في ط ، س . وصوابه « الفهمى » كما في ل
١٩	٨، ٩	« إن عافت الماء » يصح أيضاً أن تقرأ بفتح همزة « إن »
٢٠	١٢	« قتلته هيف الريح » كذا في الأصل .والصواب « قتلته الريح » كما في أمثال الميداني (٢ : ٥٩)
٢٠	٩ش	ما في ل هو الصواب ، كما هو واضح في أمثال الميداني (٢ : ٥٩) .
٢١	٤	« بهيف الريح » كذا بالأصل . والصواب « بفيف الريح » كما في أمثال الميداني . وفيف الريح : يوم من أيامهم . انظر خبره في الأغاني (١٥ : ٧٠) وأمثال الميداني (٢ : ٣٥٨) والعقد (٢ : ٣٥٩) وكامل ابن الأثير (١ : ٣٨٧) والعمدة (٢ : ١٦٧) ومعجم البلدان .
٢٨	٧	تجعل « لا » الموضوعة بين معقفين : « ولا يكون » بزيادة واو قبلها وكلمة « يكون » بعدها وذلك طبقاً لما في ل
٢٩	٨	« والثعلب » كذا في ط ، س . والوجه : « والثعلب أيضاً كذلك » كما في ل . وجاء في (٥ : ١٣٣) من الحيوان : « وإنما الحبارى في سلاحها ، كالظربان في فسائها ، وكالثعلب في بوله » .
٣٩	٧	روى هذه الأبيات ابن منظور في أخبار أبي نواس ص ١٤ ثم

صفحة	سطر	
		قال : « هذا شيء أخذه أبو نواس من مذاهب حكماء الهند ؛ فإنهم يقولون : إن الشيء إذا أفرط فى البرودة انقلب حارًّا . وقالوا : إن الصندل يحك منه اليسيرفيبرد فإذا أكثرمنه سخن» .
٤١	٥ش	«والعجاج بن رؤبة » كذا فى بغية الوعاة للسيوطى ٢٧٠ . وجاء فى الخزانة (١ : ١١٤) نقلا عن السيوطى : « وروى عن الحسن البصرى ، والعجاج ورؤبة » . ومما يجدر بالقارئ معرفته ، أن والد العجاج يدعى « رؤبة » كما يدعى ولده « رؤبة » فرؤبة هو ابن العجاج بن رؤبة . ورواية عيسى عن كل من العجاج وولده محتملة .
٦٠	٧ش	« فذمرنا عليهم» صوابه «فدمرنا عليهم » بالدال . جاء فى اللسان (دمر) : « وقد دمر عليهم يدمر دمراً ودموراً : دخل بغير إذن ، وقيل : هجم . وهو نحو ذلك . ومنه قوله فى الحديث : من نظر من صير باب فقد دمر » وانظر فقه اللغة ١٥٥ .
٧١	١٠	« والمسند المنمنم كذا » هذا ما فى ط ، س . وفى ل موضع هذا كله : «والسمون » . وكلمة كذا فى العبارة الأولى ، يبدو أنها من النساخ .
٧١	١٣	« استيفاء » كذا فى ط ، والوجه « استبقاء » كما فى ل .
٧٤	١١	فى العبارة شيء من الغموض لوجازة لفظها . فلتوضيحها يقال : إن امرأ القيس وهو من أقدم شعراء العرب قد ذكر فى شعره « عدساً » و « عدس » هو والد « زرارة » وزرارة كان قريب العهد من مولد الرسول ، إذ أنه مات فى يوم أوارة الثانى ، وكان ذلك فى أيام عمرو بن هند اللخمى ، الذى ولد الرسول فى أيامه . فنخلص مما تقدم إلى أن أقدم شعر عربى لا يبعد عهده عن الإسلام كثيراً . انظر مجمع الأمثال (٢ : ٣٥٨) وكامل ابن الأثير (١ : ٣٥٥) والعمدة (٢ : ١٦٨) ومعجم البلدان (أوارة) ومعجم الزركلى (عمرو بن هند) .

صفحة سطر

٧٤ ٨ كذا ورد الشعر ، والوجه أن يثبت بين البيتين الثانى والثالث ، هذا البيت الآتى ؛ ليستقيم الشعر ويتضح ، وهو كما فى الديوان ١٥٩

لم يفعلوا فِعْلَ آلِ حَنْظَلَةٍ إِنَّهُمُ جَيْرِ بِئْسَ ما ائتمروا

٩٣ ٤ش مافى ط موافق لما فى ل . وهو الصواب . وقد حذف الجاحظ جواب « لولا » التى فى أول الفقرة . وذلك من دأبه .

١١٢ ١٧ فاتنا أن نثبت كلمة « أصيد » أى أكثر صيداً ، بين كلمتى « الصائدة » و « كالإناث » ، وهذه الكلمة من ل .

١١٣ ١ « أحرص » كذا فى ط ، س ، والوجه « وأحرص » كما فى ل .

١١٧ ١٤ « ووقارة » كذا فى ط و س . والصواب «ووفارة» بالفاء كما فى ل .

١٢٠ ١٥ «عبدة» هى بفتح الباء لابسكونها . وجاء فى الخزانة (٣ : ٢٥٦) فى ترجمة علقمة الفحل : « وعبدة بفتح العين والباء . وأما عبدة ابن الطبيب فهو بسكون الباء . كذا فى الصحاح » .

١٣١ ٥ يثبت بين هذا السطر والذى بعده ، العنوان الإضافى الآتى : (خصاء البهائم والديكة) .

١٣٢ ١٤ « وكانوا هراباً » كذا فى ط ، والوجه « أوكانوا » كما فى ل .

١٤٦ ٤ الرواية المشهورة : « فأشهد أن رحمك من زياد » انظر الأغانى (١٧ : ٥٧ ، ٦٠) والمراجع المذكورة فى التنبيه أسفل الصفحة .

١٧٧ ٤ يصح أن يقرأ البيت : « لو كانَ منذرٌ أذ » ، والمغمود أراد به السيف .

١٧٧ ١٢ يحذف قوسا العنوان ، لأنه من العنوانات الأصيلة .

١٧٨ ١ش فى ل « عن عاصم بن عبيد الله بن عاصم » .

١٩٨ ٥ البيتان لأسماء بن خارجة كما فى اللسان (أبل) .

٢٠٠ ١٤ وكذلك ص ٢١٨ س ٤ «والتجويز» كذا فى الأصل بالزاى ، وهو تصحيف صوابه : «والتجوير» من الجور بمعنى الظلم ، جاء

صفحة سطر

فى الفصل لابن حزم (٣ : ٩٧) : « الكلام فى التعديل والتجوير . قال أبو محمد رحمه الله : هذا الباب هو أصل ضلال المعتزلة نعوذ بالله من ذلك ، ثم قال : « وذلك أن جمهورهم قالوا : وجدنا من فعل الجور فى الشاهد كان جائراً ، ومن فعل الظلم كان ظالماً . . . الخ » .

٢٢٩ ٩ « النمكسود » : جاء فى تذكرة داود : « نمكسود : هو اللحم إذا جفف نيئاً ، ولا خير فيه » .

٢٣٠ ٦ سها القلم فى ضبط البيت ، والوجه : «أعثمانُ بنُ حيّانَ» والكلام استفهامىّ .

٢٤٥ ٢ « والخثاء يابساً » كذا فى الأصل ، والوجه فى الكلمة الأولى « الأخثاء » وهو الجمع الذى نطقت به المعجمات لكلمة « خثى » بالكسر . ومهما يكن من أمر الكلمة فهى مقحمة على الجملة ، والصواب حذفها ، كما يتضح من مقارنة هذه الجملة بما بعدها .

٢٤٩ ٤ش « كذا » أى فى ط ، س . وقد وجدت العبارة فى ل هكذا : « يسمى الحانى صاحب الأصم الظربان » وبذا تكون الجملة كاملة . أما الحانى والأصم ، فلم أهتد بعد إلى تعيينهما .

٢٥٤ ١٦ يصحّ أن يقرأ الرجز بالكسر أيضاً .

٢٥٦ ١٢ « الضحاك بن سعد » ، الشعر رواه أبو هلال العسكرى فى ديوان المعانى (١ : ١٩٦) منسوبًا إلى سعيد بن العاص ، وروى البيت الثانى هكذا :

أنَّى الفرارُ وتركُ الحَرْبِ إذ كَشَفَتْ
عنك الهُوَيْنَى فلا دِينٌ ولاَ أدبُ

٢٥٧ ٣ فى الأغانى (١٩ : ١٣٠) نسبة البيتين إلى لقيط بن زرارة ،

صفحة سطر

يعيّر بنى مالك بن حنظلة فى أخذ عمرو بن هنـــد لهم ، وقتله كثيراً منهم .

٢٧٣ ٢ صواب كتابة البيت ما يأتى ، محافظة على الوزن :

عريض الخــدّ والجبهـــــة والصّهوة والجنب

٣٠١ ٦ش يكتب التنبيه هكذا : «فى ط ، س : «وإن» ، وتصحيحه من ل ومن هذا الجزء ص١٩ » .

٣٠٥ ١٢ الوجه : « خالصاً من العلل » .

٣١٣ ١١ش لم يعين موضع التنبيه فى الخزانة ، وهو الجزء الأول ص ٩٢ طبع السلفية .

٣٣٧ ٤ش الشعر الذى رثى به المنصور ، عمرو بن عبيد ، هو (كما فى المعارف ٢١٢ ، وتاريخ بغداد ١٦٥٢ ، ومعجم البلدان برسم مران) :

صَلَّى الإلهُ عليكَ من متوسِّدٍ قـــبراً مررتُ به على مَرّانِ

قـــبراً تضمَّنَ مؤمِناً متحقِّقاً صَدَقَ الإلهَ ودانَ بالفُرقانِ

فلو أنَّ هذا الدهرَ أبقى صالحاً أبقى لنا حقّـــــاً أبا عثمانِ

ومَرّان : موضع على أربع مراحل من مكة إلى البصرة . وفيه قبر عمرو بن عبيد ، كما فى معجم البلدان .

٣٤٤ ١٠ كلمة « واصَلَ » صحيحة غير محرفة . يقال واصل هذا بهذا ، كما يقال وصل هذا بهذا . انظر اللسان .

٣٥١ ٦ « بنى مقيدة الحمار » : مقيدة الحمار الحَرّة ، أى الأرض ذات الحجارة السود النخرات ، التى كأنها أحرقت . سميت بذلك لأن الحمار الوحشىّ يعتقل فيها فكأنه مقيّد . و بنو مقيّدة الحمار : العقارب ، لأن أكثر ما تكون فى الحرة . اللسان (رمح) ، (حمر) .

صفحة	سطر	
٣٥٤	١٥	لم أعثر على هذا الشعر فيما لدىَّ من المراجع . ووجدت الشطر الأول فى س هكذا : « قد كان فى حُبى غزالة » .
٣٦٣	١	ورد « الربيع بن خيثم » فى الاشتقاق (١١٢ ، ١١٣) برسم : « الربيع بن خُثَيم » قال ابن دريد : « وخثيم تصغير أخثم — يريد تصغير ترخيم — والأخثم : العريض الأنف . ومنه اشتقاق خيثمة » . وقد ضبطه كذلك ابن حجر فى تقريب التهذيب .
٣٦٨	١٣	وجه كتابة البيت :

ما أحسنَ الجيدَ مِنْ مُليكةَ والـــلَّبّاتِ إذ زانَهـــا ترائبُها

كتبه

عبد السلام محمد هارون

صواب أخطاء الطبع

صفحة	سطر	الصواب	صفحة	سطر	الصواب
١٢	٢	وألاَّ كُنَّا	٢٢٢	١٠	وأنَّها مِنَ الحِنِّ(١)
١٦	١٠	يَفْزَعْ	٢٤٢	١٠	أو أذلُّ
٤٠	١٠	عَبْدة	٢٤٥	٢	والأحْشاء إذا
٥١	١٧	منعُه	٢٤٥	٧	لمسبِّح
٦٣	٥ش	برسم «جلس»	٢٥٥	١	المستفتح
٦٦	١٣ش	ورد «جماعة» بالخاء	٢٥٥	٣ش	وفى ط «أبوخدانة»
١٠١	٤	عِرقُ مَنْ نَجّله	٢٥٦	١١ش	ابن عبد الله
١١٢	٥	والرَّمَكَة	٢٧٦	٦ش	يطرد الزج
١٢١	١٥	فقرأها : أُخْصِ	٢٩٤	٥ش	ويونس عن
١٢٩	٨ش	فى دمشق	٣١١	٣ش	صوابه فى ط
١٣٣	٧ش	وبراذين كابيات	٣١٧	١٦	دويبَّة
١٦٦	١٢	ومساويه	٣٢٧	٢	بأسماء الله
١٧٠	١٥	ملهًى	٣٤١	١٨	لِلّه
١٧٩	١	أبى ذئب	٣٧١	٣	ظِلٌّ
٢١٣	٨	داهيةٌ	٣٧٦	١٤	كان لا تطاه
٢١٨	٨	وضعُ . . . والولايةُ	٣٨٥	١٥	ألا قبِّح
٢١٨	٩	والعداوةُ	٣٨٧	٥ش	وعنكثا

